تاريخ الفلسفة

من أقدم عصورها الى الآن

تأليف

حنا أسعد فهمي

الحائز دبلوم الليسانس في الحقوق

من جامعة باريس










طبع بالمطبعة اليوسفية بجوار بوستة باب الخلق بمصر

الطبعة الاولى

١٩٢١

عني بنشرها

يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب

ويطلب منه

مآخذ الكتاب :

١ — الموجز في تاريخ الفلسفة تأليف بنجون عضو المجمع العلمي ومدرس الفلسفة بكلية الآداب بمدينة ليل (بفرنسا)

٢ — تاريخ الفلسفة تأليف جستون سورتيس مدرس الفلسفة بكليات باريس

٣ — نبذة مختصرة في تاريخ الفلسفة تأليف أميل بوارالك رئيس اكاديمية ديجون ومدرس الفلسفة بكلية كوندرسيه (بفرنسا)

٤ — قاموس دائرة المعارف الكبرى الفرنساوية ٣٢ جزأً

٥ — تاريخ الفلسفة تأليف فوييه

استسمحنا صديقنا الاستاذ مؤلف هذا الكتاب في طبع رسمه اظهاراً لنبوغه فأجاب طلبنا بعد الحاح شديد ولذلك تقدم هذا الرسم لقراء العربية ومريدي الفلسفة



كلمة للمؤلف

عند ما بدأنا بطبع هذا الكتاب اطلع عليه بعض العلماء فطلبنا اليهم نقده نقداً صريحاً خالياً من كل مجاملة فوردت الخ مقدمة طلية من حضرة صاحب العزة محمد بك فريد وجدى صاحب التآليف الفلسفية والعلمية الكثيرة فاثبتنامقدمته في بدء الكتاب . ووردت لنا أيضاً رسالة من الاستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري أثبتناها لحضرته في آخر الكتاب مع الشكر

مقدمة وجدي بك

الانسان بما غرز في طبيعته من قوى النظر والاستقراء والاستنتاج كلف منذ وجوده على هذه الارض بفهم سر الوجود الذي يعيش فيه . وادراك حقيقة ذاته المفكرة ومصيرها . فهو الكائن الارضي الوحيد الذي شغلت باله هذه المسائل الضخمة . واستهوته حلولها المختلفة فاتخذها اديانا خضع لها آماداً طويلة أو مذاهب وقف للتأمل فيها معظم قواه العقلية

فتاريخ الفلسفة في الواقع هو تاريخ العقل الانساني في أشرف محاولاته . واكرم اندفاعاته . ولا غرو ان عدت دراسه" هذا التاريخ اجل ما يصرف الانسان فيه وقتاً من اوقات فراغه

لا تنحصر فائدة دراسه" تاريخ الفلسفه" في كونها لذةعقليه" كفائدة دراسة الادب او فن من الفنون الجميلة الاخرى . ولكنها تتعدى هذه الدائرة فتبلغ حد الحاجة الفكرية ، فان كل انسان مهما كان شأنه وعمله في الهيئة الاجتماعية لا يخلو من ان تكون له ساعات تسأم فيها نفسه ضوضاء الهموم المادية ، فيرجع الى صميم ذاته فينظر الى الوجود نظر المنقب عن حقيقته ، والى نفسه نظر المتوله بمعرفة ماهيتها ومن أين أتت والى أي حال تؤول . وفي هذه الحالة لابد له من الرجوع الي ما حصله أئمة المفكرين من

نبغاء الامم في جميع أدوار الرقي البشري لينتفع بما مهدته العقول الكبيرة من طرق التفكير . وما نصبته من أعلام الهدى في متاهات النظر والاستقراء . وما وفقت الى حله من عويصات المجاهيل . والا بقي محصوراً في دائرة جهوده الذاتية فلا ينال حظاً مما يتوق اليه . أو يتأدى الى مدركات أولية جازها المفكرون منذ قرون عديدة الى باحات لا يتخيلها تخيلا

فدراسة تاريخ الفلسفة والحال على ما ترى هو من الضروريات العقلية التي يجب ان يكون لها مكان جدير بها من برامج التعليم في المعاهد العلمية كما هو حالها في البلاد الغربية . فان دراسة الفلسفة وتاريخها هنالك من مقررات المواد الدراسية في المدارس الثانوية

اما وقد دللنا على ضرورة الاطلاع على تاريخ الفلسفة فقد وجب علينا ان نأتي مزاولها بكلمة في الاسلوبين المتبعين في تأليفها تفيد في تقدير قدر الكتب الموضوعة لها

أول ذينك الاسلوبين عدم التعرض من الفلسفة الا الى المذاهب التي أوجدتها وثانيهما مواجهة الفكر الانساني باعتبار انه قوة غير متجزئة وسلسلة معنوية ذات حلقات متصلة ووحدة كلية موزعة في المذاهب يمكن ادراك شخصيتها من خلال اختلاف الاشكال المذهبية وتنوع صورها

من هذين الاسلوبين نشأ مذهبان في تألف تاريخ الفلسفة : أولهما يأتيك بتاريخ كل مذهب منها على حدته . وثانيهما يعطيك صورة من ترقي الفكر الانساني غير متجزئة دالة على تسلسل ثمرات العقل وتولدها بعضها من بعض وعلى حركة نموها في خلال ادوار التاريخ

هذا الاسلوب الاخير اكمل الاسلوبين ولكن للثاني عليه ميزة لا يستهان بها وهي انه لتصديه لكل مذهب على حدته يبلغ الغاية في بيانه واظهار خفاياه وان كان لا يحسن ربطه بما تقدم عليه او تأخر عنه

على هذا الاسلوب الاخير جرى فلاسفة الفرنسيين والانجليز الى عهد غير بعيد . ولكن فلاسفة الالمان اختاروا الاسلوب الاول منذ نحو قرن من الزمان فسار عليه (بروكر) و (تيبيدمن) و (تينمن) وقد بذهم جميعاً (هنريخ ريتر) فقد استعان في وضع تاريخه الفلسفي بجميع وسائل الاطلاع الواسع . وكل ثمرات التحليلات البعيدة الغور وغاية ما يصل اليه العلم القويم من الادراك . فجاء عمله اثراً خالداً من آثار الفكر الانساني يبقى مدى الدهر علماً يهتدى به من كان بسبيل هذا الموضوع الخطير

***

هذه كلمة رأيت ان اقدمها ما بين يدى ما انا بصدده الساعة من كتابة مقدمة لمؤلف ممتع في تاريخ الفلسفة وضعه صديقي الاصولى النابغة حنا افندي أسعد فهمي واراه قد جمع بين الاسلوبين المتقدمين فجاء كتابه خلاصة عينة لتاريخ المذاهب الفلسفية على نفس أسلوب المصادر القيمة التي بين في فاتحته اعتماده عليها. وقد اجاد كل الاجادة في سلوك سبيل السهولة في سرد الاصول المختلفة وبيان الفروق بينها. وهو مطلب صعب المرام على من يترجم امثال هذه الموضوعات ولكن مؤلفنا الفاضل قد استطاع أن يخرج من هذه المضايق التعبيرية على اكمل الوجوه واحسنها حتى يخيل لمن يقرأ كتابه انه بصدد قصة شيقة لا ازاء موضوع من أعضل الموضوعات وادعاها لاعمال الروية وكد الذهن في التفهم

واني باطلاعي على ما طبعه حضرة المؤلف الي صفحة (١٧٢) لم أجد رغماً على تشديده علي في نقد الكتاب ما يصح ان اتخذه مسوغاً للملاحظة الجدية فان ما قرأته حسن في جملته. جميل فى مجموعه أعجز عن توفية صاحبه الثناء الذى يستحقه عليه. الا اني رأيت فيما نقله في باب فلاسفة العرب عن دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية عبارة لا يصح لمثلي ان يخليها من النقد وهي

قول تلك الدائرة : « ان من يعرف الاسلام حق المعرفة يستبعد وجود الفلسفة بجانب الدين الاسلامي لان العلماء الذين اعتنقوا الفلسفة كانوا مضطهدين من رجال الدين والفقهاء وعامة المسلمين لذلك يمكننا القول ان الفلسفة لم تظهر في حيات العرب الا كحادث عرضي سريع الزوال» انتهى

ونحن نقول ان من يعرف الاسلام حق المعرفة لا يستبعد ان تقوم الفلسفة بجانبه بل يراها من ملازماته لانه يدعو الى النظر في الوجود والتأمل في موجوداته والاعتماد على حكم العقل حتى في الاصول الاعتقادية . ويطالب كل آخذ به بمعرفة الدليل على صحة ما هو عليه . فلا يعتد بالايمان التقليدي المبني على التسليم المحض . فدين هذه اصوله الاولية يناسب الفلسفة وخصوصاً الطبيعية منها كل المناسبة . لذلك لم يكن المسلمون الاولون يعرفون وجودها حتى اكبوا على ترجمتها الى لغتهم وفي مقدمتهم خلفاؤهم بذلوا في ذلك جهداً جهيداً . ومالا جما . والاسلام لا يزال في فجره . افلا يدل هذا الحدث وحده على تناسب الاسلام والفلسفة . وهل سمع مثله في تاريخ دين من الاديان المعروفة ؟

نعم ان بعض الفقهاء تصدى لدحض الفلسفة واشار بمنع تعلمها واضطهاد اهلها . وهذا امر طبيعي حيال كل جديد . وحدث دور

عرضي من ادوار القسوة ولكنه زال بزوال الافراد الذين قاموا به ، وعاشت التعاليم الفلسفية في كنف الاسلام ووجدت من أهله صدوراً رحبة ، وكان يستحيل ذلك اذا لم يتسع لها صدر الدين ، وللمسلمين أئمة نافذو الكلمة في كل بلد كانوا يستطيعون خنقها وليدة ، كما فعل غيرهم ، فلم يفعلوا ، وما زالوا محتفظين بالعلم والفلسفة بجانب الدين حتى اعتبروا اورثتها بعد اليونانيين واعترف الغربيون بان لولا حفظهم لها لما بقي أثر يذكر ، وشهدوا بان المسلمين هم الذين لقنوهم اسرارها ، وحلوا لهم طلاسمها ، فهل يصح ان يقال عن مثل هذا الحادث الجلل الذي قامت عليه مدنية من اكبر المدنيات لا تزال آثارها باقية في القارات الثلاث انه كان حادثاً عرضياً سريع الزوال ؟

لا ننكر انه كان بين الاسلام والفلسفة اليونانية جهات خلاف ، ولكنه لم يكن خلافاً سلبياً كما يكون بين العلم والجهل ولكنه كان خلافاً أصولياً كما يكون بين المذاهب المختلفة فان للاسلام نفسه فلسفة خاصة به عمادها النظر في الوجود والموجودات (قل انظروا ما في السموات والارض) وتسخير قواه لمصلحة الانسان (سخر لكم مافي السموات وما في الارض) وهي بعينها وجهة الفلسفة الطبيعية العصرية التي لا تأبه بالظنون والخيالات

ولا تعتد الا بالمحسوسات ، ودليلنا على ذلك ان المسلمين الاولين تهافتوا على الاخذ بكل ثمرات المدنيات التي احتكوا بها بهمه لم تمهد لامه من أمم قبلهم ، ومهروا في العلوم الطبيعيه المحسوسه مهارة فاقو بها جميع من تقدمهم حتى عد لهم مؤرخو الغربيين عشرة آلاف عالم طبيعي (راجع دائرة معارف لاروس في مادة عرب) وهـذا عدا من حفظت سجلات العلوم اسماءهم ، فاذا كان عـدد من لم يصلوا الى درجه خلود الذكر من تلاميذهم واشياعهم

فتنكر المسلمون الاولين للفلسفه القديمه يشبه تنكر المذهب العلمي العصرى لهـا ، اليس يعدها في درجه لا تليق بجلاله ؟ افيقال لهذا السبب ان العلم العصري عدو للفلسفة على الاطلاق ؟

هذا بحث بعيد الغور ربما اودعناه رسالة خاصة وانما أشرنا اليه هنا لنقابل به غمز دائرة المعارف

ولا يسعنا في هذا المقام أيضاً اغفال الشكر لصديقنا مؤلف هذا الكتاب على ما اتاحه لنا من الفرصة لابداء هذه الكلمة في الفلسفة الاسلامية

واننا نقدم عمله الجليل هذا الى القراء كثمرة يانعة من ثمرات جهود متماثلة في موضوع تحتاج اليه الشبيبة المصرية في هذه النهضة العلمية ، كافأه الله عليها بما يكافيء به المخلصين في عملهم والعاملين في اخلاصهم ؟

محمد فريد وجدي

تمهيد

١ تاريخ الفلسفة

هو تاريخ أولئك المفكرين الذين نبغوا في العالم وأحسنوا الى الانسانية بابحاثهم الفلسفية ، وبيان العقائد والنظم التي قرروها .

وليس الفيلسوف رئيساً دينياً يرعى شعباً ، ولا عالماً يكرس وقته لنوع خاص من العلوم البشرية كالمحامي والطبيب والمهندس الخ ، بل هو انسان يفكر بحرية في القضايا والمسائل العامة التي تقع تحت حسه وإدراكه

وليست الفلسفة محصورة في شاب دون غيره أو فئة من الناس دون أخرى ، بل كل انسان فيلسوف في وقته اذ تلفت نظره في بعض الاحيان تغيرات هذا الكون وظواهره المختلفة المتعددة فيتولاه «الدهش» الذي كان أول باعث لافلاطون وأرسطو على التفلسف فيتساءل ما حقيقة الاشياء وما مصدرها وكيف وجدت وما هو مصيرها ؟ وأخص ما يشغل فكره ماهيته هو وغايته من الحياة !

يشعر في أعماق قلبه ان هذه المسائل الغامضة لابد وأن تحل حلاً صحيحا فيعمل فيها فكره

٢ فوائده

لهـذا التاريخ (فوائد عظيمة) فهو الذي يطلعنا على تاريخ حياة اعاظم الرجال الذين كشفوا لنا معميات هـذا الوجود بقوة التأمل الفكري، وطرق اسـتدلالهم، ومع ان اراءهم اختلفت في المسائل التي تناولوها بابحاثهم تبعا لارآئهم الخاصة والظروف التي كانت تحوط البيئة التي وجدوا فيها،كانوا مع ذلك مدفوعين بعامل واحد هو معرفة الحقيقة ومع انهم لم يستكشفوها بتمامها فانهم مهدوا السبيل لمن يأتي بعدهم ليجمع بعض تلك الحقائق المتفرقة ويوفق بينها وينظم منها حقيقة واحدة تامة كاملة .

فلأولئك المفكرين ذوي الشخصية الفضل الاكبر فيما وصلنا اليه من الرقي المنطقي والخلقي وستبقى أسماؤهم مخلدة على كر الاجيال والعصور .

ثم يلخص لنا هذا التاريخ معارف المتقدمين ومذاهبهم وكيف ترقت والادوار التي تعاقبت عليها والاساليب التي اتبعوها والقضايا التي صار حلها ومالم يصر .

٣ المدارس الفلسفية

يراد بها مجموع أشخاص ينتمون لمعلم واحد يعتنقون مذهبه، ولو اختلف نظر كل منهم في نتائج تفكيره .

٤ المذهب الفلسفي

ويعرف (المذهب الفلسفي) بأنه مجموع عقائد وارآء خاصة بمبدأ او ببعض مبادىء تفسر ظواهر الوجود

٥ أقسام المذاهب الفلسفية

المذاهب الفلسفية متعددة بعضها يتعلق بعلم النفس وبعضها يرتبط بعلم الاخلاق وغيرها خاص بالمنطق أو بما وراء المادة .

بيد انها كلها ترجع الى بضعة مذاهب كبرى رتبها فكتور كوزين ، باعتبار ان المعرفة اساس الاشياء ، كما يأتي

١ — المذهب التجريبي أو الحسي وهو القائل بأن الحواس مصدر المعرفة

٢ — المذهب التصوري أو المثالي ويزعم ان الاشياء لاحقيقة لها في الظاهر انما هي من عمل الفكر .

٣ — مذهب اللاأدرية الذي يشك في كل شيء ولا يسلم بأي حقيقة وشعاره «لا ادري»

٤ — المذهب الصوفي ويعتمد علي الالهام او الوحي لمعرفة حقيقة الاشياء .

غير ان هذا التقسيم ناقص من جهة : لانه لم يتضمن مذهب

الحلول ، ومتبسط من جهة أخرى : اذ جعل التصوف مذهباقائماً بذاته مع انه ميل عقلي يقول به بعض الفلاسفة المثاليين كلبرانش ، والحلوليين كسبينوزا واللاأدريين كبسكال .

كما انه من الخطأ القول بان جميع الفلاسفة اعتبروا المعرفة اساس الأشياء . فيجدر بنا اذن تقسيم المذاهب الفلسفية الى خمسة مؤسسة على نظرية مصدر الاشياء وطبائعها . وهي :

١ — المذهب الارتيابي — فيشك في امكان الوصول الى الحقيقة وقدرة الانسان على معرفتها ، ويمسك عن ابداء رأيه فلا يسلم بهذا ولا بذاك

٢ — المذهب المادي — ويزعم ان المادة اساس كل شيء وينكر وجود روح قائمة بذاتها قد تتصل بالمادة وقد تنفصل عنها

٣ — مذهب الحلول — وهو يرى ان هذا الكون والله شيء واحد فالله في كل شيء وكل شيء في الله .

٤ — مذهب المثال — وينكر حقيقة العالم الخارجي

٥ — المذهب الروحاني — فيعترف بوجود الله والنفس الروحانية والمادة المكونة للجسم

ويخيل الينا ان هذا التقسيم يشتمل على جميع المذاهب الفلسفية بيد ان المفكرين ينقسمون الى حزبين (احدهما) يشمل الفلاسفة التجريبيين القائلين بأن التجربة اساس المعرفة فيكفي ملاحظة

ظواهر الوجود حسبما ترشدنا اليه الحواس والغريزة .

(وثانيهما) يشمل العقليين فيزعمون ان الحوادث بمفردها لا تكفي لتفهم النظام الذي تسير بمقتضاه بل يجب التسليم بوجود بعض قواعد او قوانين تهيمن عليها وتسبق كل اختيار ويرشدنا اليها العقل وحده .

٦ طريقة واقسام تاريخ الفلسفة

لتقسيم هذا التاريخ طريقتان (الاولى) يصير تتبع الحوادث بحسب ترتيب وقوعها مع ذكر اسماء الفلاسفة ومجهوداتهم الفكرية سنة فسنة

ولكن هذه الطريقة ليست بمستحسنة لانها تلاشي الوحدة المذهبية فلا تمكن الانسان من الاطلاع الاجمالي على كل مذهب وكيفية نشأته ورقيه ونتائجه

فاذن يجدر بنا اتباع (الطريقة الثانية) المنطقية وهي تقسيم هذا التاريخ الى ثلاثة عصور او اقسام كبرى :

١ — العصر القديم

٢ — العصور الوسطى

٣ — العصر الحديث

وتقسيم كل عصر الى مدد تضم كل مدة المدارس التي ظهرت فيها والفلاسفة المنتمين الى كل مدرسة والمذاهب التي ابتكروها

ودافعوا عنها

اما الاول فيبتديء من اواخر الجيل السابع قبل المسيح، وينتهي سنة ٥٢٩ ميلادية حيث اغلقت مدارس اتينا بأمر الامبراطور يوستنيانوس الروماني

ويشمل العصر الثاني القرون الوسطى من الجيل الثامن على عهد الامبراطور شرلمان لغاية سقوط الامبراطورية الشرقية وفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ميلادية

اما العصر الحديث فيبتديء مع النهضة العلميه في الجيل السادس عشر حتى الآن

وفي كل زمن من هذه الازمنة اشتهر عظماء دونوا لهم مذاهب وخلدوا ذكرا حميدا

فسقراط وافلاطون وارسطو وابيقور وزينون الرواقي ملأ ذكرهم العصور القديمة

وآباء الكنيسة والقديس توماس كانوا نوابغ العصور الوسطى، ثم جاء بعدهم ديكارت وليبنتز « وكانت » وريد . واوجست كونت وستوارت ميل . وهربرت سبنسر . فحوَّل كل منهم افكار العالم الى مجرى خاص

ان جميع هذه الآراء المتناثرة والمذاهب المتفرقة هو غرضنا من وضع هذا التاريخ ليستفيد منه من رام الاستفادة

القسم الاول

فلسفة العصور القديمة

للفلسفة في العصور القديمة مركزان :

أولهما وهو الاقدم وجد في اسيا ودعيت حركته بالفلسفة الشرقية وسنوجز الكلام عنها .

والثاني اتخذ حركته في المستعمرات اليونانية في اسيا الصغرى وايطاليا في نحو عام ٦٠٠ قبل المسيح ثم استمرت في اثينا حتى بدء الميلاد المسيحي ثم في الاسكندرية لغاية سقوط الامبراطورية الغربية سنة ٤٧٦ ودعيت هذه الحركة بالفلسفة اليونانية

الفلسفة الشرقية

قبل ان تظهر فلسفة الاغريق في الوجود وترسل اشعتها على الكون . شاهدت اسيا تكوين كثير من المبادىء الفلسفية ونموها واتخذت مرسحا لها في ارض الفراعنة وبلاد فارس والهند والصين.

٧ الفلسفة المصرية

لم نقف على فلسفة مصرية بالمعنى الصحيح في ايام الفراعنة لان الكهنة كانوا يتكتمون عقيدتهم وغاية ما امكننا معرفته ان هرمس مؤسس العقيدة المقدسة وأن في البدء وجد الكائن الذي لا يدرك كنهه وانبثق منه قنيف خالق العالم وهو الذي أوجد جميع الكائنات من عنصرين احدهما مضيء ويرمز اليه بالشمس أو اوزريس والآخر مظلم يدعي ازيس ويرمز اليه بالقمر /

والنفس خالدة وخاصيتها التقمص في الاجسام المختلفة والتجول في العالم باشكال متعددة وهي عرضة المجازاة في العالم الثاني حسب ما قدمته من الافعال

٨ الفلسفة الهندية

ترجع الفلسفة الهندية المتشعبة الى اصلين اساسيين وهما : البرهمي ، والبوذي

الفلسفة البرهمية — يعتقد البراهمة بتعدد الآلهة ولكن الآلهة كانت كلها خاضعة لثلاثة منها عظمى وهذه الثلاثة يهيمن عليها الروح العام

كان « الموجود » قبل الوجود في سباته الالهي واذ استيقظ وجد نفسه وحيداً لا ثاني له . ولم يكن بعد شيء مما هو كائن

لا عالم ولا هواء ولا ماء ولا طير ولا وحش ولا انسان . لم يكن خلود ولا فناء . ولا شمس ولا ضياء . كانت الظلمة تكتنف الظلمة وكان «الكائن قبل الوجود» في فضاء لا نهائي فصاح بشوق ورغبة لو كنت كثيراً. فبقوة ارادته وشوقه خلق العالم وحفظ لنفسه اسم برهمة الخالق . ثم وجد الاله «سيوه» المخرب فبه تجف الاوراق . وتحل الشيخوخة محل الشباب ويبتلع البحر مياه النهر . وتفنى ايام السنة وتنقضي فلو ترك هـذا الاله يعمل باداة التخريب لكان انقضى اجل العالم ، غير ان قوة مجددة تظل حافظة لكيان العالم فهذه القوة هى الاله المخلص المدعو « فشنو »

فبراهم وسيوه وفشنو هم الثالوث الهنـدي المقدس ولكن لا يوجد فرق بينهم بل هم اله واحد ذو ثلاثة اقانيم وثلاث قوى:— خالقة ومخربة ومجددة

كذلك يعتقد الهنود بتنقل النفوس . فلكل ذات في الوجود شكلاً وحيزاً تتخذهما بحسب درجة اخلاقيتها وبفضائلها واثامها كل عمل يعمله الفكر أو القول او الجسد يثمر ثمراً من جنسه خيرا كان او شرا

وهكذا تتفاوت درجات الناس بتفاوت افعالهم وجميع الاضرار البشرية التي تحيق بالانسانية ماهي الا النتيجة الضرورية للضرر الادبي الذي ارتكب في حياة ماضية . والفضل والنقص المعنوي هما سنة هذا الوجود الوحيدة

أما الاخلاق العملية البرهمية ففي ممارثة جميع الفضائل الدينية التي يقصد بها اندماج الانسان في الله كالعبادة بالصلاة والصوم والتواضع والصبر على الآلام والتجاوز عن الاهانة . وكمحبة الضعفاء واحترامهم . ومحبة المرأة واحترامها . وقد جاء في شريعة مانو ما يأتي

« في احترام المرأة رضى الالهة .

ليس في حراسة الرجل للمرأة صيانة لها. انما هي التي تصون نفسها بنفسها اذا ارادت . لا يجب ضرب المرأة حتى ولا بزهرة .

زواج الشاب بالشابة بايجاب وقبول منهما كزواج الملائكة لا يشوبه كدر .

احترام الوالد اجل من احترام مائة معلم . واحترام الوالدة اعظم من احترام الف والد فمن أهمل احترامها ذهبت جميع اعماله الصالحة سدى فاحترام الوالدين اول الواجبات »

وغاية النفس الوصول الى الاتحاد ببرهمة بتجردها من الهيولى فالنفوس الطاهرة تنال هذا القصد . اما الشريرة فتسقط في « ناراكا » لتعذب مائة سنة من سني برهمة . مع ملاحظة ان اليوم البرهمي يوازي ثمانية مليارات وستماية وخمسين مليون سنة شمسية ! !

والنفوس التي كانت وسطا بين الخير والشر فيصير تطهيرها بتقمصها في جسم حيوان او انسان .

ويعاب على اخلاقية البراهمة انهم لا يساوون بين بني جنسهم

بل جعلوهم عشائر وطوائف متفاوتة الدرجات فالكهنة في المرتبة الاولى لانهم خلقوا من فم برهمة . ثم خلق قطريس رأس المحاربين من ذراعه الايمن . وخلق من فخذه بابيس اب المزارعين . ومن قدمه خرج سودير أب العبيد .

وقد نشأ من هذا الترتيب استبداد الكهنة وتوليهم الشؤون الدينية والسياسية .

فرفع بعض نفر عن كاهلهم هذا التشيع واعلنوا استقلالهم المذهبي

فنادى « كيلا » بالمذهب الحسي . رامياً الى انكار وجود الله .

واهتم جوتاما بالمنطق وتجديد القوانين الفكرية .

واسس « بتنجالى » مذهبه الصوفي الذي فصله قصائد « مهابهراتا »

(البوذية ــ) ــ ولد سقياموني الملقب ببوذا اي العالم . في نحو عام ٦٠٠ قبل الميلاد المسيحي . وكان ابن احد ملوك الهند الوسطى فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره هجر بلاد ابيه وتنسك وبشر « بالحقائق الاربعة السامية » وهي :

(١) الوجود الحسي ضلال وغرور

(٢) الرغبة الناشئة من هذا الوجود . تنتج الالم

(٣) غرور والم الوجود المادي يمكن ملاشاتهما « بنرفانا » اي

بانعدام الوجود المتحرك في قلب الوجود الثابت

(٤) للوصول الى «النرفانا» أي الى هذا الانعدام الحسي. يجب انكار الذات وملاشاة كل رغبة. وعن هذه الحقائق الاربعة بنيت اخلاقية بوذا وتنحصر في المساواة بين جميع البشر وتبعية الآداب بالكهنوت واولوية الواجبات الدينية على الواجبات الادبية — الاخاء العام وواجبات المحبة والرأفة والتسامح والتواضع والمسالمة. الخ.

٩ الفلسفة الفارسية

كان الفرس يعبدون مبدأ النور والحرارة. مصدر الفكر والحياة. الشمس صورته. والنار رمزاً له

أخذ زورا ستر هذه العقيدة وجعلها مذهباً فلسفياً

اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده وربما عاش بين الجيل السابع والجيل الثامن قبل المسيح وبعضهم يزعم انه مات في بلخ والبعض الآخر يقول بوفاته على جبل الترج. وينسبون اليه كتب زند — افستا المقدسة.

اما فلسفته فتدور حول اثنينية الوجود

ما هو هذا الوجود؟

هو مزيج من عنصرين: الخير والشر — الفكر والمادة — الصواب والخطأ — النور والظلام.

هـذان المبدآن المتناقضان موجودان منذ الازل احـدهما صالح ويدعى ارموزد . والآخر طالح ويدعى اهريمان

في البدء كان ارموزد مع المعرفة السامية والطهارة . كان مشرقا بنوره ومن كلمته الالهية خلق العالم بما فيه

«والطاهر القدوس ، الابن الكلمه ، كان موجوداً قبل السما قبل اليابسة والهواء . قبل القطعان والاشجار . وقبل النور والنار»

يتقاسم القوة والقدرة كل من ارموزد واهريمان غـير ان الاول يعلم كل ماسيحصل قبل وقوعه فيعلم بنتائج ما سيفعل . اما الثاني فلا يعلم بنتائج عمله الا وقت حصوله — وهـذا وجه افضلية ارموزد على اهريمان وتغلب الخـير على الشر ولو بعد الاف السنين

فالحياة اذن اشبه بمعركة وغايتها انتصار الخـير على الشر . ولذلك كان اساس الاخـلاق عند الفرس ان يكون الانسان طاهراً كارموزد

وطهارة الفـكر تجعل النفس نيرة مضيئة واداتها صدق القول والامتناع عن الـكذب

والنفس بعد الموت تحاكم وتنال جزاء ماقدمت في الحياة فاما ثواب واما عقاب

١٠ الفلسفة الصينية

تمتاز الشعوب الصينية عن الشعوب الهندية الاوروبية بروح عملية اكثر مما هي نظرية

فالاخلاق والسياسة عندهم خالية من كل صبغة دينية . بل هي تعاليم بشرية معقولة فلسفية بدون مزيج بالنظريات اللاهوتيه

واعظم فيلسوف ظهر في الصين هو بلا جدال كونفسيوش او كنج فوتسو

ولد في سنة ٥٥١ قبل المسيح ومات في سنة ٤٧٩ كان ابن أحد حكام الاقاليم . تزوج في التاسعة والعشرين من عمره وتعين مراقباً عاماً على الحقول والزراعة ولما توفيت والدته اعتزل العالم حداداً عليها ثلاث سنوات وفي اثناء عزلته كان يفكر بالقوانين الادبية ويدرس شرائع الحكماء . ثم طاف في انحاء الامبراطورية الصينية وتتلمذ له في ظرف عشر سنوات ثلاثة الاف تلميذا معظمهم من الحكام والمتعلمين والضباط . فنشروا مذهبه على الملأ الصيني

واذ تولى منصب القاضي العام بدأ عمله بالقضاء على شخص لم تكن تناله يد العقاب لمركزه وغناه .

وتغلب عليه خصومه فعزل من منصبه ونفي فكان يجوب البلاد واذ بلغ الثامنة والستين من عمره عاد الى موطنه ونشر مؤلفه «شوكنج» وهو يبحث في الاخلاق والسياسة وبيّن فيه

علاقة الحاكم بمتبوعيه والوالد باولاده والزوج بزوجته ثم الف كتب «تاهيو» اوالمعرفة الكبرى . وتشنج — ينج او الوسط الغيرمتغير .

اما فلسفته فتتلخص فيما يأتي :

«المعرفة الحقيقية هي انيعرف الانسان انه يعلم مايعلمه وانه يجهل ما يجهله . وان اهم شيء يجب معرفته هو الواجب لان الشريعة الانسانية الواجب العمل بها كمحيط بغير شاطيء هي المنتجة للكائنات ومبقية عليها . تلامس السماء بارتفاعها . هذه الشريعة هي شريعة العقل فيجب تطبيق عملنا على مبادئها لانها ملزمة لنا وغيرمتغيرة ولا يمكننا ان نحيد عنها قيد شعرة • هي مطلقة ومقدسة

وغاية الشريعة الادبية كمال الذات البشرية . فالكمال هو القوة المنتجة للسماء والارض . وهو مبدأ وغاية كل موجود . وبغير الكمال ما كان للكائنات وجود .

اما اهم الفضائل الخاصة التي يوصي بها الفيلسوف فهي قوة النفس . والاعتدال . والعدالة والانسانية

وقد سئل الفيلسوف مرة في معنى فضيلة الانسانية فاجاب بانها محبة الناس بكل ما في الوسع . واعتبار كل الناس اخوة

وحذا « منسيوس » حذو ذلك الفيلسوف بعد مئتي سنة وكانت فلسفته السياسية تنحصر في ان الحكام الظالمين كقطاع الطرق ويجب معاملتهم كما تعامل اللصوص . ومن حكمه قوله: من

يسرق من الانسانية شيئاً يدعى لصاً ومن يسرق من العدالة شيئاً يدعى ظالماً ، الشعب اشرف شيء في العالم . كل الناس اخوة فبعضهم يشتغل بفكره والبعض يشتغل بذراعه فالذين يشتغلون بعقولهم يحكمون الناس . والذين يشتغلون باذرعهم محكومون بالناس والذين هم محكومون بالناس هم الذين يطعمون الناس الخ . —

ويوجد في الصين مدرستان آخرتان احداهما حلولية مادية وتدعى مدرسة النابهين وتتبع عقيدة بوذا — والاخرى لامادية وتدعى مدرسة لاوتسو وتقول بالثالوث العددي : ومنه تكونت جميع الاشياء .

١١ الفلسفة اليونانية

الفلسفة بمعناها الحقيقي — البحث الحر — تبتديء من اواخر القرن السابع أو بدء الجيل السادس قبل الميلاد • وليس القصد من ذلك انه لم يسبق هذا التاريخ اراء دينية وادبية للشعوب التي تتألف منها البشرية ، بل كانت تلك الآراء اجماعية ليست من عمل فرد خاص كما هي الحال في الافكار الفلسفية

ولقد رأينا فيما تقدم اثار تلك الاراء في الوثنيات القديمة المصرية والفارسية والهندية والصينية والتي لم تزل بعض طقوسها ظاهرة الى اليوم وقد كان لها تأثير أيضاً في أفكار الفلاسفة بما اشتملت

عليه من الرموز والاسرار . بيد ان ذلك التأثير كان سلمياً مما دعى هيرودوت المؤرخ ان يقول « لقد وجد الناس منذ زمن ما هو جميل ومنه ينبغي ان يتعلموا »

حكماء اليونان : وأول من دوّن الآراء والافكار الادبية

مطبوعة بطابع شخصي هم بضعة أشخاص ذوو عقول مدركة وبصائر نيرة ادهشوا مواطنيهم بمهارتهم في تلخيص مظاهر الحياة بجمل قصيرة شعرية أو نثرية دعيت « حكمة أو مثلا » ولقبوا انفسهم حكماء

ولما كان الابتكار الاغريقي يزخرف كل شيء كان هؤلاء الحكماء موضوع قصص وروايات مختلفة اهمها الرواية التي ذكرت على لسان ديوجينس الكلبي وهي

اجتمع نفر من شبان مدينة « مليطة » على شاطيء البحر وطلبوا من أحد الصيادين ان يلقي شبكته في البحر فيشترون منه أول صيده مهما كان . ففعل ولما اخرج الشبكة وجد بها أثفية «موقدة ذات ثلاث قوائم» فتنازع الشبان عليها فيما بينهم واستقر رأيهم على استشارة وحي الاله دلفيس فاجابهم الوحي بان هذه تعطى لاكثرهم حكمة من الباقين

فاعطوها لطاليس المليطي ، وهذا تواضعاً منه اعطاها لآخر فناولها لغيره وهكذا حتى وصلت « الى صولون الحكيم » فارسلها الى هيكل دلفس قائلا ان الآلهة أعظم الكل حكمة ! »

وظل لقب الحكيم يطلق على كل نابغة حتى جاء فيثاغورس وقال ما حكيم الا الله وحده وما أنا الا فيلسوف أي محب الحكمة ومؤثرها .

واختلف الرواة في أسماء أولئك الحكماء الاقدمين مع اجماعهم على ان عددهم سبعة . وهذه هي أسماؤهم بحسب ما ذكرها افلاطون في كتابه « پروتغوراس »

طاليس المليطي

پتاكوس من مدينة مثلينا بجزيرة لسبوس

بياس من مدينة پريينا بين افسس ومليطه

صولون من مدينه اثينا

كليوبول من مدينة لنده بجزيرة رودس

ميسون من الشين بلاكونيا

شيلون من لكاديمونا وهو أول من قال الجملة المشهورة «اعرف نفسك بنفسك» هذه منسوبة لسقراط

ومما لا شك فيه ان طاليس أول فيلسوف جدير بهذا الاسم وهو مؤسس المدرسة الايونيه

١٣ اقسام العصر الاول

تشتمل الفلسفة اليونانية على قسمين (الاول) يتضمن الفلسفة اليونانية ويحتوي على اربعة مدد :

المدة الاولى (قبل سقراط) وتبتديء من طاليس المليطي في الجيل السابع الى سنة ٤٧٠ قبل الميلاد . وكان عالم الطبيعة وظواهره مدار الابحاث الفلسفية .

المدة الثانية (العصر السقراطي) من سنة ٤٠٠ الى ٣٢٢ق م بحثت الفلسفة فيها في المنطق وفيما بعد الطبيعة .

المدة الثالثة (بعد ارسطو) وتبتديء من تاريخ وفاة هذا الفيلسوف سنة ٣٢٢ق م وتنتهي بالمدرسة الافلاطونية الحديثة في الجيل الثالث للميلاد ومباحث الفلسفة علم الاخلاق والخير الاعظم

المدة الرابعة (الافلاطونية الحديثة) من الجيل الثالث الى سنة ٥٢٩ ميلادية حيث أغلقت المدارس الفلسفية بأمر الامبراطور يوستنيانوس . وكانت صبغة الفلسفة دينية وتصوفية .

(والقسم الثاني) يتضمن فلسفة اباء الكنيسة المسيحية وسنذكر مميزات كل مدة في بدء كلامنا عنها

المدة الاولى

١٣ — قبل سقراط

بدأ الفكر الفلسفي ينبثق في بلاد الاغريق حيث نافس الفن والشعر الى ان بلغ شأواً بعيداً ،

فجميع النظريات التي أوحت بها ظواهر هذا الكون الى افهام متعطشة لمعرفتها ، تتابعت وتزاحمت على عقول المفكرين القدماء فأخذ كل واحد يفسر معنى الوجود حسبما يرشده اليه عقله ، متأثراً بالمعتقدات الدينية أو بآراء السلف أو مجرداً ذاته من كل تأثير .

ولقد توصل اليونان الى وضع جميع الفروض الممكن طرحها فأوجدوا بذلك سبيلا لمن أتي ويأتي بعدهم ليصحح خطأً وقعوا فيه أو ليؤيد مذهباً ابتكروه فيصل الانسان منه الى معرفة حقيقة الوجود طفرة واحدة .

ونشأت في هذه المدة التي استغرقت نحو قرنين من الزمان خمس مدارس فلسفية وهي :

١ — المدرسة الايونية

٢ — المدرسة الايليائية

٣ — المدرسة الفيثاغورسية

٤ — مدرسة الذرات أو الجواهر الفردية
٥ — مدرسة السفسطائيين

فهذه المدارس ما عدا الاخيرة ، كانت تنظر الى العالم كما يظهر لنا ، أي كمجموع موجودات قد تكون من عمل الفكر ليس لها حقيقة واقعية •

الا ان جميع الفلاسفة القدماء كانوا يشعرون ان هذه الاشياء المتعددة الدائمة التغير ليست هي هي كما تقع تحت حسنا وادراكنا، ولا وجود لها بذاتها وينبغي البحث في عللها•

فذهبت المدرسة الايونيه الى ان مصدر تلك الاشياء شيء آخر يخالف ما نألفه والتجربة دليلنا لاستكشاف ذلك المصدر

والفيثاغورسيون استرعت بصائرهم النسبة الموجودة فقالوا ان الاعداد التي توضح تلك النسبات هي الحقيقة الواقعية دون غيرها •

اما الايليائيون فذهبوا الى ابعد من ذلك : قالوا ان كل متغير لا وجود له الا في الظاهر ، وان الواحد الذي لا يتعدد ولا يتغير هو الموجود فعلا دون سائر الموجودات

وارباب الجوهر الفرد زعموا ان الذرات مصدر الوجود ، وان كانت ابصارنا لا تتناولها • فافهامنا تدركها .

والجميع بدون استثناء كانوا يرون رأياً واحداً وان اختلفت تعابيرهم وتباينت الفاظهم ففلسفتهم طبيعية وغرضهم اكتشاف

العنصر الذي تصدر عنه كل الاشياء • وما كانوا يفرقون بين موضوع الفاسفة وموضوع العلوم الاخرى التي لم تتميز عنها الا في العصور الحديثة

اما السفسطائيون فلما رأوا تضارب تلك المدارس في مذاهبها وتناقضها لبعضها البعض • ارتابوا في امكان معرفـة الحقيقة • بيد ان شكهم ادى بهم الى التأمل في ماهية المعرفة وشروطها وكان ذلك سبباً لتطور عظيم في تاريخ الفلسفة كما سيجيء .

١٤ المدرسة الايونية

نشأت هذه المدرسة في أيونيا Ionia وهي الجزء الاوسط من شواطيء أسيا الصغرى الغربية وتم تكوينها في مدينة مليطة Milet أسسها طاليس ، وتولى رئاستها هرقليطس في افسس وانكسفوراس في أثينا ، وأمبيدوكلس (امبذقليس) في اجريجنتا .

وقد اثرت في هـذه المدرسة على عهد أولئك الزعماء تعاليم المدرسة الفيثاغورسية والمدرسة الايليائية اللتان كانتا معاصرتين لها

وكان مدار بحثها حل معميات الاشياء المحسوسة وارجاعها الى عنصر واحـد أو بضعة عناصر زعم الفلاسفة استكشافها الان تعدد الاشكال في نظر أولئك الطبيعيين • واختلاف الاشياء

التي لا حصر لها ودلنا عليها الاختبار . نشأت عن صورة واحدة أو عن عما اختلطت فيه كل الاشياء بدون تمييز •

طاليس المليطي Thalès de Milet

هو مؤسس المدرسة الايونية . ولد بين سنة ٦٣٩ وسنة ٦٣٦ ق م أي في الاولمبيا الخامسة أو السادسة والثلاثين وتوفي سنة ٥٤٦ ق م فعاش نحو قرن من الزمان ويقال انه فنيقي الاصل

اقام ردحاً من الزمن في القطر المصري على عهد أمازيس ثم رحل الى آسيا وعاد أخيرا الى مليطه . كان ميالاً الى التجارة مع وفرة غناه . بيد انه صرف أمواله في نفع بلاده

تنبأ بكسوف الشمس الذي وقع في ٢٨ مايو سنة ٥٨٥ ويروى انه سقط في بئر بينما كان يرصد الكواكب .

لم يكتف طاليس بما تعلمه من علم الفلك كما كانت عادة ابناء الاغنياء في ذلك العصر • بل زعم انه اكتشف المادة التي تبقى بالرغم مما ينتابها من التغيرات فقال ان «الماء» مصدر الاشياء كلها منه تكونت الموجودات واليه تعود •

والاسباب التي دعته الى هذا الزعم دينية وطبيعية ذلك ان قدماء اليونان كانوا يعتقدون ان الالهة تيثيس (Théthys) آلهة البحر هي مغذية الكائنات ومانحة الحياة • وان الآلهة كانت تقسم بنهر الستكس (Styx) كما لو كان أجل الاشياء واكثرها احتراماً

أما من الوجهة الطبيعية فقال ان ماء البحر لو تبخر ارتفع بخاره نحو الشمس والكواكب فتتغذى به . ثم يتخلف بعد البخار راسب يكون اليابسة . كذلك جميع النباتات تحوي في ذاتها على الماء . وهو يتخذ جميع الاشكال ويستحيل الي كل شيء فلو تكاثف صار ارضاً يابسة واذا تمدد تحول الى نار أو هواء

ولم تقتصر فلسفة طاليس على القول بأن الماء هو العنصر الوحيد الذي تصدر عنه جميع الاشياء بل زعم أيضاً ان التغير الذي يحصل لهذه المادة يحدث بتأثيرجواهرروحانية مماثلة لروح المغنطيس الذي من خواصه قوة الجذب .

فكان بذلك يؤله تلك الارواح ويجعلها مالئة الوجود وحالة فيه .

هذه الآراء وان كانت فيعصرنا الحاضر تعد صبيانية الا انها تدلنا على ان طاليس كان في زمنه عالماً سعى في تعميم الاشياء ، وفيلسوفاً متشبعاً بالخرافات الوثنية وهو أول من حاول تفسير الظواهر الطبيعية تفسيراً عملياًوارجاعها الى عنصر واحد ولو انه أخطأ في حدسه .

انكسيمندر (٦١١ ـ ٥٣٦ ق م) Anaximandre

صديق طاليس وأصغر منه سناً أول من ألف الكتب ورسم الخرائط الجغرافية . استحضر من بابل الى اليونان «الغنومون»

أي المزولة او الساعة الشمسية ولقد حاول مقاس النجوم فكان القمر على زعمه اكبر من الارض تسعةعشر مرة ، والشمس اكبر منه سبعة وعشرين مرة . والارض اسطوانية الشكل كالعامود وهو واضع المبدأ الشهير أن لايمكن خلق شيء من لاشيء »

خالف رأي طاليس في عنصر الاشياء فزعم ان المادة التي تكونت منها الموجودات هي العما (chaos) أعني شيء غامض غير محدود ولا معين تختلط فيه جميع الاشياء فلا هو هذا ولا ذاك : عنه تصدر واليه تعود بمقتضى حركة أبدية تدفعها يد القدرة فالسموات والعالم نشأت من هذا الشيء اللامحدود تبعاً لبعض قوانين ثابتة

ولما كانت الكواكب آلهة سماوية (على زعمه) فيظن بانه جعلها أيضاً خاضعة لتلك القوانين .

والذي يدهشنا كثيراً ان هذا الفيلسوف قال بنظريةالتطور (مذهب النشؤ والارتقاء) حيث ذهب الى ان الحيوانات كانت كلها مائية فلما تركت فيما بعد في الجفاف تطبعت بحالتها الجديدة ثم أخذت في التطور حتى تشكلت نهائياً باشكالها الحالية . والانسان على رأيه تسلسل من سمكة !

فمن هذه النظريات يمكن القول ان ما من رأي جديد في العالم الا ان من يرى مثلا ضفدعة تعوم على سطح الماء فيفترض لها

افتراضات تخمينية شيء ، وتأسيس نظريات جديرة بأن تعد مذهباً صحيحاً (كما فعل دارون) شيء آخر

ومع ذلك فانكسيمندر كان ذا فكر ممتاز وعقل راجح : استعار انكسغوراس وأمبيدوكلس بعض ارائه . ويخيل الينا أيضاً ان التمييز الذي جعله ارسطو بين القوة والفعل . أو الممكن والواقع ما هو الا تكرار هذا الشيء اللانهائي الذي انبعثت منه جميع الاشياء .

انكسيمين (٥٤٨ ـ ٤٨٠) ق م Anaximene

ولد في مليطه وتتلمذ لانكسيمندر فدرس علم الفلك على مثال من تقدمه . وهو أول من رأى ان حرارة الشمس ناشئة عن سرعة الحركة مما يدل على انه كان ملماً بعلم الميكانيكة

اما فيما يختص بالاساس الذي تكونت منه الاشياء فليس الماء كما ادعى طاليس ولا العماً كما زعم انكسيمندر بل هو (الهواء) لانه ضروري للحياة

وحذا أيضاً حذو أنكسيمندر فقال بحركة ازلية يحصل بها تحول تلك المادة الى الموجودات المختلفة . واذا صدقنا ما يروى عنه — لان كتبه لم تتصل الينا — فزعم ان الهواء هو الله اذ به اتخذت الاشياء وجودها واشكالها بالتكاثف تارة وبالتمدد طوراً

فتنتج منه الماء فالارض فالنار ثم تكونت جميع الاشياء من هذه العناصر الاربعة

وذهب ديوجنس الابولوني (Diogene d'Apollonie) تلميذه مذهبه في ان الهواء مادة الاشياء كلها فهو روحها • ومادتها وهو الامتداد والفكر وبذلك كان واضع مبدأ المتناقضات وتوحيدها ذلك المبدأ الذي سيأخذ به هيجل في أوائل الجيل التاسع عشر

هرقليطس Héraclite

ولد في افسس (Ephese) ولم يعرف تاريخ ميلاده والمحقق انه اشتهر في الجيل الخامس ق م وقيل انه أول متشائم يسيء الظن بالحوادث فلم يكن يرى الا باكياً !

كانت فلسفته غامضة حتى ان سقراط قال انه لم يفهم منها الا نصفها •

اما العنصر الذي تكونت منه الاشياء فهو على زعمه (النار) اذ انها رمز للحركة الدائمة • وجوهر الاشياء لا يثبت على حالة واحدة : الكل يمر وينقضي ولا يبقى شيء • والانسان لا يستحم مرتين في النهر ذاته لان أمواجه تتعاقب بغير انقطاع

فالتعدد أو التغير الذي قال هيجل انه « المصير » بغير غاية أو تهادن هو جوهر موجودات هذا العالم فتجتمع وتتفرق تارة

علي وفاق وطوراً على شقاق كأنها في حرب وفي سلم وهــذا هو سبب التحول الدائم .

وكان يسـلم بوجود حكمة الهية لا تناسب بينها وبين حكمة أعقل انسان في العالم • وهي تظهر في الـكون بما تدبره من حياتنا الفردية والاجتماعية • وان أعظم خير في هذه الحياة هو صدق العزيمة وحسن الخلق

اننا لو أمكننا الحـكم — مع بعد الزمن — على هرقليطس • لقلنا انه أقرب من غيره في التفكير المستقيم ولذلك لا يدهشنا ان افلاطون الذي كان تلميذا لقراتيل أحـد تلامذة هرقليطس استعار منه بعض الآراء

وقال سقراط عنه « جيد كل ما امكنني فهمه من نظرياته ويجب ان يكون أيضاً حسن مالم استطع فهمه »

أنكسغوراس (٥٠٠ ـ ٥٢٨ ق م) Anaxagore

ولد في كلازومينا من بلاد أيونيا . ترك موطنه في نحو الخامسة والعشرين من عمره وقصد أثينا مركز التمدن في ذلك الوقت وحيث تلقى العلوم الفلسفية ثم صار معلما فيها . وقيل ان تيمستوكلس واوريبيدس وبركليس الشهير تتلمذوا له والاخير صار له صديقا حمياً وهو الذي أواه وسهل له الالتجاء الى مدينة لمبساك عندما حُكم عليه لطعنه في آلهـة المدينة ومات بالغا من العمر اثنين

وسبعين عاما

درس الفلك واكتشف ان القمر مظلم بذاته ويستمد نوره من الشمس وشرح كيفية الخسوف ومتى يحصل ، الا انه أخطأ - كما كانت الحال في ذلك الزمن - في مقاس الكواكب وطبائعها

اما نظرياته الفلسفية فهي كثيرة الشبه بفلسفة انكسيمندر اذ يقول بان كل شيء كان في البدء مختلطا ببعضه في حالة التشويش ثم تفرقت الاشياء وانضمت الاجزاء التي من جنس واحد الى بعضها فتألفت منها الانواع التي نراها الآن في العالم وأمكن تعيين كل جنس على حدة .

ولكن كيف أمكن اتحاد هذه الاجزاء المتجانسة ،

يسلم انكسغوراس بأصلين أحدهما . المادة مؤلفة من ذرات غير محدودة بسيطة ولا تقبل التجزئة. فدعاها Homeomories وثانيهما عنصر آخر يخالف جوهره الطبيعة دعاه العقل (نوس) فهو الدافع لذلك الاتحاد للاشياء التي كانت في حالة الاختلاط والامتزاج .

واكتفى الفيلسوف المذكور بان جعل ذلك العقل يتدخل مرة واحدة في التكوين المشار اليه ثم ترك فيها بعد للقوانين الطبيعية أمر ترتيب وتنظيم الاشياء طبقا للسنة التي شرعها لها .

وأثرت نظرية انكسغوراس هذه تأثيراً كبيراً في الفلاسفة الذين اتوا بعده ونقلها ارخلاوس تلميذه الى سقراط .

ونظراً لوجاهة عائلته وغناها كرس وقته للدرس فحاز شهرة عظيمة ثم قصد مع تلميذه زينون الاليائي (خلاف زينون الرواقي) مدينة اثينا سنة٤٥٤ أثناء الاعياد البناثينية (Panathenees) التي كان الاثينيون يحتفلون بها اكراماً للآلهة منرفا ابنة جوبتير.

وكان ذا مهابة ووقار اثرا في نفس سقراط الشاب. وقال افلاطون عنه «انه كان وقوراً ورهيباً في آن واحـد» ولقبه أيضاً بالعظيم.

اوضح برمنيدس مذهبه في مؤلف له يدعى «الطبيعة» ينقسم الي جزأين يتضمن الاول ماهية الحقيقة المجردة. والثاني يحتوي على ارائه في ظواهر الوجود.

ومن أقواله: الموجود — موجود هو، واللاموجود ليس له وجود. والكائن ازلي اذ لا يمكن ان يوجد من العدم وهو واحد بذاته لا يقبل التغير بل ثابت وواجب الوجود فليس له مصير. هو واحد في الكل. والكل في الواحد»

اما فيما يختص بالعالم المحسوس الذي ليس له وجود بذاته فبرمنيدس يرى فيه تناقضا فسره بما يأتي:

نتج العالم من مبدائين متعارضين وهمـا الظلام أو البرودة والنور أو الحرارة وما العالم المحسوس بموجود فعلاً انما يظهر لنا كحركات دائرية تتجمع في نقطة مركزية

وكانت نظرياته على نقيض نظريات الفلسفة الايونية التي سافر

الى اثينا خصيصا لدحضها وهو متقدم في السن

زينون الايلياني (٤٨٧ — ؟) Zenon d'Elee

اذا كان برمنيدس شاعر الفلسفة الايليائية فزينون رسوله او جنديه قاوم تعاليم الايونيين مقاومة شـديدة بعارضة قوية وحسن بيان .

ولـكي يثبت وحدة « الـكائن » اوضح ان المـادة والزمن والحركة ما هي الا ظواهر

اذا كانت المادة موجودة فاما ان تنحال الى ذرات ممتدة او لا تنحل فان ردت الى ذرات غير ممتدة فالجزيئات تكوّن امتداداً وان لم ترد الى ذرات غير ممتدة فيستحيل وجود ذرات لان الذرة الممتدة قابلة للقسمة والتجزؤ دائمـا — هـذا فيما يختص بالفضاء والمادة .

اما ما يختص بالزمن : فالتغير ليس ما كان ولا ما سيكون لاننا لو قلنا ان هذا الشيء الحاضر هو كما كان فلا معنى للتغير وان قلنا انه نفس ما سيكون فيستحيل وجود التغير .

اما فيما يتعلق بالحركة . فمثل اخيل والسلحفاة اعجز الايونيين قال زينون ان اخيل السريع الركض اذا تعقب السلحفاة البطيئة الحركة فلا يلحقها اذا كان المكان ينقسم الى ما لا حد له . وينبغي

لتفهم الحركة اي الانتقال من نقطة لاخرى التسليم بادراك اللانهائي وهذا مستحيل .

كذلك تقسيم الزمان الى اقسام لا حد لها يناقض الحركة . ويثبت ذلك السهم المنطلق من كنانته :

فالجسم يكون ساكنا في وقت ما وفي حيز معلوم . ولما كان السهم المنطلق يحتل في كل آونة حيزاً معلوما فهو يكون ساكنا ومتحركا في آن واحد وهذا محال اذ كيف يكون في المحل الذي انطلق منه وفي المكان المنطلق اليه .

كل هذه الادلة لم يكن في استطاعة الايونيين نقضها طالما كانوا يعتقدون بوجود الاجسام في مكان وفي زمان ما ولم يدركوا ان هذه الاجسام ليس لها وجود ذاتي بل هي بنات ادراكنا الحسي وما المكان الا تصورا والزمان مجرد اصطلاح .

بيد ان زينون كان زكيا تبعا لمصره وشجاعا حتى مماته فقد روى ديوجنس اللايرثي ان زينون لكي يحرر بلده ايلياء ، تآمر ضد حاكمها نيارك Nearque فقبض عليه هذا وعذبه عذابا شديدا ليدل على شركائه المتآمرين معه فلم يكن من زينون الا ان ذكر اسماء اصدقاء ذلك الطاغية واسم هذا الاخير أيضا ثم قطع لسانه باسنانه ورماه في وجه معذبه .

وقيل ان زينون مات مدقوقا في جرن بأمر ذلك الحاكم .

١٦ – المدرسة الفيثاغورسية

كانت هذه المدرسه والمدرسة الايليائية معاصرتين للمدرسة الايونية التي تأثرت بفلسفتهما دون ان تؤثر عليهما .

ومؤسسها فيثاغورس (Pythagore)

قيل انه ولد في الجيل السادس قبل المسيح ولم يعرف بالتدقيق سنة ولادته التي كانت في جزيرة ساموس بالقرب من شاطيء افسس على بحر ايجي

رحل في صباه الى مصر وفنيقيا والكلدان ولما عاد الى وطنه وجده تحت حكم الطاغية بوليقراطس فهاجر الى كروتونا بايطاليا حيث شرع في تنفيذ ارائه الدينية والفلسفية والاجتماعية فأسس جمعية سياسية دينية فلسفية تعهد أعضاؤها باعتناق مذهبه وكانت تضم عدداً كبيراً من النساء بينهن زوجته ثيانو وبناته الثلاث. ومن شروطهم الصمت المطلق نحو الخمس سنوات . وكانت الاموال والمقتنيات مشاعة بين الجميع ورابطة الود مستحكمة .

الا ان الروح الديموقراطية تنبهت فحصل من جرأ ذلك اضطرابات شديدة قضت قضاءاً مبرماً على الجمهوريات الفيثاغورسية

ويقال ان فيثاغورس نفسه وكثيراً من تلاميذه هلكوا في ثورة في متاپونت غير ان التعليم الفيثاغوري ظل زاهراً في اليونان الكبرى على عهد افلاطون ثم ادخله فيها بعد الشاعر أنيوس في روما .

لم يكتب فيثاغورس شيئاً ولم نستدل على فلسفته الا من فيلولاوس الذي تلقى العلم في كروتونا وطنه على اريزاس تلميذ فيثاغورس . وأيضاً كتب ارسطو عن المذهب الفيثاغوري واليك خلاصته مأخوذة من هذين المصدرين وعلى الخصوص من كتاب الباخوسيين (Les Bacchantes) لمؤلفه فيلولاوس المذكور :

كان الفيثاغورسيون علماء في الرياضة وفي فن الموسيقي وكانوا يوفقون بين العلم والفن المذكورين فقالوا ان العدد مبدأ الموجودات ومادتها والاعداد اما فردية واما زوجية . فالزوجي غير محدود والفردي محدود اما لانه يضع حداً للقسمة على اثنين وإما لانه اذا اضيف على الواحد مجموع الاعداد الفردية نحصل على مربع تام . وجميع الاعداد التي تزيد عن عشرة ماهي الا تكرار للعشرة الاول التي هي مصدر الكل ويدعوها فيلولاوس اصل وملكة الحياة الالهية والسمائية والبشرية

فالواحد هو الجوهر الاول الذي يتضمن في ذاته العددين الزوجي والفردي . والاثنين أول الاعداد الزوجية كما ان الثلاثة أول الاعداد الفردية. واربعة أول المربعات كما ان العشرة مؤلفة

من الاربعة أعداد الاولى

وبما ان العدد يؤلف كل شيء كذلك كل شيء يتضمن في ذاته اركان العدد أي الفردي والزوجي أو المحدود والغير المحدود. فالفردي والمحدود أحسن الاشياء واكملها والزوجي والغير محدود بعكس ذلك

ولذلك تتجزأ الاشياء الى مجموعتين متعارضتين:

الاولى تتضمن الخير والمحدود. والثانية الشر والغير محدود وهذا بيان العشرتين المتقابلتين

١ً — محدود وغير محدود. ٢ً فرد وزوج. ٣ً وحدة وكثرة. ٤ً يمين ويسار. ٥ً ذكر وانثى. ٦ً سكون وحركة. ٧ً معتدل ومنحن. ٨ً مربع ومستطيل. ٩ً نور وظلام. ١٠ً حسن ورديء

وقال فيلولاوس ان في البدء كانت توجد نار في وسط الكون وبقوة الجذب تجمعت أجزاء الغير محدود القريبة من مركز تلك النار وتكون منها المحدود أي العالم.

والعالم كروي الشكل. وتتحرك حول النار المركزية عشرة كواكب سماوية وهذا ترتيبها بحسب بعدها عن المركز

١ً سماء الكواكب الثابتة

٢ً خمسة سيارات مرتكزة على دوائر شفافه

٣ً الشمس

٤ً القمر

٥ً الارض

٦ً عكس الارض وبذلك تكمل العشرة أعداد .

والارض توجه دائماً الى عكس الارض والنار المركزية ، الجهة المقابلة للتي نسكنها ولذلك لا تصل الينا أشعة هذه النار مباشرة بل بواسطة الشمس . ويكون الوقت نهاراً اذا وجدت الارض مع الشمس في نفس الجهة المركزية . والشمس والقمر والارض كلها كروية الشكل الا ان الاولين شفافتان كالزجاج بحيث انهما تعكسان النور والحرارة

والنفوس أجزاء من الشمس . وتوجد شياطين بين الآلهة والناس وهي التي تسبب لهؤلاء الاحلام وغيرها من الهواجس .

والارواح لا تفنى غير انها تسير في أثير الجو الى ان تصادف جسماً أياً كان فتدخل فيه . واذا خرجت من جسد انسان يتفق ان تدخل في جسم حيوان آخر ولذلك كان فيثاغورس يحرم ذبح الحيوانات واكلها . وان المادة تبقى ولا يعتريها الفناء بل التغير فقط في الشكل

والغرض من الحياة التشبه بالآلهة واطاعة ارادتها — والحياة تجربة فليس للانسان حق في التخلص منها بالانتحار كما ان الجندي لا يحق له التخلي عن مركزه

وقد أوصى بالعبادة واحترام الوالدين والوفاء بعهد الصداقة

والرفق والاحسان للضعفاء والاعتدال في طلب الغنى . وفحص الضمير يومياً مع المواظبة على الصلاة وتجنب الموبقات والامتناع عن أكل الرجاسات وخضوع الشبان للشيوخ واحترام القوانين والسلطة . والتفاني في خدمة الوطن .

وأشهر تلاميذ فيثاغورس اثنان

فيلولاوس (٥٠٠ — ٤٢٠ ق م) ولد في كروتونا بايطاليا وهو الذي شرح مذهب استاذه في كتابه الباخوسيين نسبة الى الاله باخوس

وأرخيتاس . ولد في ترانتا ومات غرقاً في جهة ابوليا وكان فلكياً ورياضياً ومن ضمن اختراعاته البرغي والبكرة .

١٧ — أمبيدوكل او امبذقليس Empedocole

افردنا فصلاً خاصاً لهذا الفيلسوف لان فلسفته مزيج من مذاهب انكسيمندر وهرقليطس وفيثاغورس والاليائيين

ولد في اجريجنتا بجزيرة صقيليا سنة ٤٥٠ ق م وكان كاهناً للآلهة وشاعراً وفيلسوفاً وساحراً فافتخر بانه يأمر الرياح فتطيعه

والعواصف فتسكن لصوته ويخاطب الارواح ويشفي جميع الامراض. وكان مع وفرة غناه يبذل ماله في الاعمال النافعة الشريفة

ذهب الى بلاد اليونان في اواخر حياته وعلم في اثينا ولم يتمكن من العودة الى بلاده لان خصوم الديموقراطية استولوا على زمام الاحكام فيها فمات في احدى مدن پليپونيز

قال ان كل شيء كان في البدء مختلطا وممتزجا بالوحدة .

ماهي هذه الوحدة ؟ أكانت « الموجود » الذى لا نهاية له ولا تغيير أي الاحدية المطلقة التي ذكرها كزينوفان وپرمنيدس وزينون .

نظن انها كانت الواحد والمتعدد كما زعم فيثاغورس . بيدان الوحدة والتعدد لم تكونا في نظر امبيدوكل هذا العالم المجرد بل هيولى الكون الازلية الكروية الشكل المساوية لذاتها . ثابتة فسيحة فدعاها (سفيروس) وجميع العناصر مثبتة في هذا السفيروس بقوة سائدة هي الحب

وتخلي الحب بقوة اضطرارية عن سيادته الى الشقاق الذي أوجد الحركة والانقسام في السفيروس (الكرة)

فالعناصر التي كانت مختلطة ببعضها البعض تفرقت وكان أولها الهواء ، ولما ضغط الهواء تولدت عنه النار . أما الماء واليابسة فقد انفصلا عن ذلك الاختلاط بحركة ذاتية

فكأن امبيدوكل بهذه النظرية ينتمي الى مذهب ديموقريطس

أو الى المذهب المادي الطبيعي الذي علمت به المدرسة الايونية

وأنشأ امبيدوكل من تلك العناصر الاربعة ديانته فقال ان النار هي الالهة زفس ، والهواء هيرا ، والارض اركوس ، والماء نستيس ، وعندما يبكي هـذا الاله تتساقط دموعه على الارض وهذه الدموع هي الندى

وقال ان الكائنات تتكون وتتبدل باختلاط العناصر ببعضها أو بانفصالها بدون ان ينعدم منها شيء لان المادة لا تفني ولا تنعدم

ويعتقد بوجود آلهة كثيرة ، وملائكة أصدقاء للناس ، وشياطين أعداء لهم تحرضهم على فعل الشر ويعتقد أيضا بخلود النفس وتناسخ الارواح Metempsycose في اجسام الحيوانات والنباتات وتعيش فيها على التعاقب الى ان تعود أخيراً الى الآلهة فتعيش معها عيشة رغيدة سعيدة .

والمبدأ الثابت في ذهن هذا الفيلسوف ان الحب — مبدأ وغاية كل موجود — هو الذات الالهية وان الفهم المدبر لجميع الموجودات هو العقل

١٨ مدرسة الذرات

تختلف هذه المدرسة عن المدرسة الاليائية تمام الاختلاف ويشبه مذهبها من بعض الوجوه مذهب المدرسة الايونية

اما زعيماها فهما لوسيبس وديموقريطس وكلاهما ولد في ابدير بتراقيا . فاتفق الاثنان مولداومذهباً وسيقتصر كلامنا على الثاني منهما لاننا نجهل تاريخ حياة الاول

اشتهر ديموقريطس (٦٢٠—٤٤٠) Democrite بالطروب لانه ماكان يرى الا ضاحكاً على نقيض هرقليطس المتشائم الباكي

وكان غنياً ميالاً الى السفر . جوّاباً للاقطار . اذ قال عن نفسه في كتاب حفظ لنا بعض شذرات منه القديس اكليمنضس الاسكندري ما يأتي :

« زرت اكثر البلاد وطفت الافاق البعيدة وشاهدت أغلب »
« الشعوب وتخاطبت مع معظم حكماء عصري ولم يفقني أحد في »
« بيان الخطوط (الهندسة) حتى ولا المصريون

والمحقق انه كانت له علاقة بالفلاسفة برمنيدس وزينون وانكسغوراس وبروتغراس وغيرهم . وقد اكسبته حميته وشوقه للعلوم معارف اكثر مما عرفه المتقدمون والمعاصرون والف كتباً عديدة ذكرها ديوجنس اللايرثي

ويظهر ان مذهب الذرات موجه على الاخص ضد المذهب الايليائي الذي انكر وجود الفضاء وبالتالى وجود الذرات اذ لا يمكن وجود ذرات بدون فاصل أي فضاء بينها . وخاصة الفضاء هي وجود امتداد غير متناه تحصل فيه حركة الكائنات وتعددها

اما لوسيب وديمقريطس فأثبتا بالعكس وجود الفضاء بادلة بعضها يستعمله الآن علماؤنا

قالا : لا يمكن وجود حركة بدون فضاء وبدون جواهر فردة والدليل على هذا الوجود ضغط الاجسام وامكان صب ماء في اناء مملوء بالرماد بنفس المقدار الذي يمكن صبه تقريباً لو كان الاناء فارغاً . ووجود الفضاء ضروري في اجسام الحيوانات اذ لولاه لما امكن ادخال الاغذية فيها . اما الذرات فهي العناصر الممتدة الغير قابلة للتجزئة ومنها تتشكل المادةوهي غير متناهية العدد ولها ثلاث خواص جوهرية الصلابة والشكل والحركة

ثم قالا ، قسموا الجسم الى اجزاء مهما بلغ مقدارها فاما ان يبقى شيء أو لا يبقى . فان لم يبق شيء فكأن الجسم يأتي من العدم وهذا مستحيل ، وان بقي شيء فاما ان يكون له امتداد أو لا يكون . فاذا كان له امتداد ثبت وجود الجزيئات (الجواهر الفردية) وان لم يكن له امتداد رجعنا الى القول بعدم بقاء شيء من الجسم وهذا محال

فالاجسام اذن مؤلفة من ذرات (جواهر فردية) تتحرك بذاتها فتتجمع أو تتفرق وبذلك تشكلت الاجسام باشكال مختلفة وهذه الذرات لا تحصى وازلية الوجود

والنفوس مكونة من ذرات روحية سريعة الحركة كالتي تشاهد في شعاع الشمس المنبثق من كوة الى داخل غرفة مظلمة

اما المعرفة فمصدرها الحواس لان الاجسام يصدر عنها أثير يتغلغل في اعضائنا فيسبب احساساتنا ويتسلط على المخ فيكوّن صور الاشياء وهذه الصور لا تدل على جواهر تلك الاشياء الظاهرة بل على التأثيرات المختلفة الناشئة عنها .

والآلهة كالناس تتركب من تلك الذرات الا انها منظمة باحسن ترتيب ولهذا السبب تعمر طويلاً اكثر مما يعيش الانسان

ويهيمن فوق الكل ضرورة تحكم السماء والارض. والسعادة في طاعتها طاعة عمياء

اما مترودور من (كيو) وتلميذ ديمقريطس فقد ادت به نظرية صور المعاني الى الوقوع في مذهب اللاادرية المطلق فكان يقول « لا اعرف شيئاً حتى ولا ادري اني لا ادري »

وقد تتلمذ له انكسارك الذي صار استاذاً لبيرون

١٩ - السفسطائيون (المغالطون)

حكى شيشرون في كتابه «بروتوس» انه بعد سقوط طغاة صقيليا. رفع الاهالي الدعاوي أمام المحاكم ليستردوا ممتلكاتهم التي اغتصبها أولئك الطغاة. فانتشر حينذاك المحامون وتباروا في الفصاحة والخطابة لاقامة الحجة والدليل على صحة دعاويهم. وأعظم من اشتهر منهم كوراكس وتسياس اللذين كانا أول من فكرا بتدوين الخطب في القرطاس. وحذاحذوهما پروتغوراس وجورجياس فاعدا محلات عمومية يعلمان فيها الخطابة نظير أجر معلوم واتخذا لقب «سوفوس» مع نعتها «سوفست» أي الانسان الحكيم الماهر في كل علم اذ ان من شروط المحامي ان يكون ملماً بالمعارف المتعددة

بيد ان لقب سوفست (أي السفسطة) تحول من معناه الحقيقي واصبح علماً على كل مغالط أو مكابر في الحق. لان المهنة التي اتخذها أولئك السفسطائيون كان من امرها ان تدافع عن كل دعوى سواء كانت صحيحة أو باطلة. والمحامي في استطاعته ان يأتي بالبراهين ليقنع خصمه بصحة أمر ما. ثم يمكنه ان يدافع ضد ذالك الامر ببراهين أخرى. وقد نشأ عن ذلك ان تخلل الشك والارتياب افئدتهم فلم يعترفوا بحقيقة ما، ولما كانوا اقوياء الحجة

قام في وجوههم خصوم اكفاء لهم كسقراط وافلاطون وارسطو
ولقد شبه المؤرخون الجيل الخامس قبل الميلاد بالجيل الثامن عشر المسيحي ، والسفسطائيين بالانسكلوبديين

بروتغوراس (٤٨٥ — ٤١١ قم) Protagoras

ولد في مدينة ابدير بتراقيا وبعد ان تمرن على الخطابة في وطنه على أستاذه ديمقريطس قصد أثينا حيث أخذ بالتعليم فيها فاشتهر ومن ثم أثرى من الاجر الذى كان يتناوله من المتعلمين ثم رحل الى صقيليا وايطاليا وعلّم فيهما وبعد ذلك عادالى اثينا ثانية الا انه نفي منها نظرا لماذكره في كتابه (بيري ثيون) اي الخاص بالله فاحرقت كتبه في الميادين العمومية لاتهامه بالكفر والالحاد اذ انكر وجود الله حيث قال « لا أستطيع ان أعرف هل توجد آلهة أم لا »

أما مذهبه فدوّنه افلاطون في محاورتي « بروتغوراس وثيتيتس » وحكاه ارسطو في مؤلفه «ما بعدالطبيعة» ويتلخص هذا المذهب فيما يأتي : « الانسان مقياس جميع الاشياء »
وهو على رأي هرقليطس فيمايتعلق بالعالم المادي . من ان الحواس دليل كل شيء وأصل المعارف البشرية . كما ان الاحساس لاحد لتغيره . وكل انسان يحكم بما يعرفه وحكمه حق
ولما كانت أحكام الناس تختلف في الشيء الواحد . فما يراه هذا

صواباً يراه الآخر خطأ ويشك آخر في صحته وفي خطائه . فكل واحد مخطيء ومصيب في آن واحد لان الحقيقة تابعة للشعور الوقتي الذي نحس به وما صدق الشيء وكذبه الا حسبما يستحضره الانسان صدقاً أو كذباً

أما الخير الخلقي فهو كل ما يسر . ولا يوجد ركن خاص لتعريف العدل والظلم او القداسة والنجاسة

جورجياس (٤٨٥ — ٣٨٠) ق م Gorgias

ولد في ليونتيني بصقيليا وتتلمذ لزينون الإلياثي وبعد ان زار بلاد اليونان أقام زمناً في تساليا . وفي سنة ٤٢٧ ق م انتدبه مواطنوه سفيراً في أثينا ليستميلها الى المساعدة ضد سيراقوسه .

وفتح مدرسة تعلم فيها البلاغة فأثرى واشتهر من مهنته ويقال انه مات معمراً نحو المائة عام في مدينة لاريسه بتساليا

وأهم مؤلفاته كتاب اللاوجود أو الطبيعة فشرح افلاطون هذا المذهب وانتقده في كتابه « جورجياس وهپياس »

كان جورجياس إلياثياً ومن قوله « لا يوجد شيء ، وان وجد فلا تمكن معرفته . وان وجد شيء وأمكن معرفته فلا يمكننا تعريفه للآخرين »

أما برهانه على ذلك فكما يأتي

اذا كان للموجود وجود فيكون ابدياً وبالتالي لا نهائيا ، واللانهائي لا يمكنه ان يحتوي على شيء . فلا المحتوي هو ذات المحتوى عليه . ولا هو متضمن في شيء آخر لانه لانهائي . فليس هو شيء ما فاذن لا وجود له

وان أمكن معرفة شيء فهو والعقل واحد والعقل لا يصير ابيض لمجرد معرفته البياض

حواسنا لا تدرك الا ما يتعلق بها : البصر يدرك الالوان والسمع يدرك الاصوات وهلم جراً

واننا عند ما نتكلم لتعليم غيرنا ما نعتقد معرفته فآذان السامعين تدرك الاصوات وليس التصورات التي يفكر بها المتكلم والا لكانت التصورات والكلام شيئاً واحداً اذن لا يمكننا تعريف الآخرين ما نظن ان نعرفه

هذه الادلة مغالطات قام بنقضها سقراط وافلاطون وارسطو منذ زمن

ويؤخذ مما تقدم ان بروتغوراس وجورجياس كانا ينكران حقيقة المعرفة

ونجم عن السفسطة تأسيس علم المنطق ووضع قواعد ثابتة له .

أما باقي السفسطائيين فكانوا أقل شهرة من الاثنين اللذين ذكرناهما ونكتفي بذكر أسمائهم دون تعليق وهم :

بولوس الاجريجنتي • وتراسياك الخليكدوني تلميذي جورجياس ثم كريتياس أحد الطغاة الثلاثين • وهيياس وأوثديمس ومترودور • وپروديكوس •

وهذا الاخير كان يعلم بثلاثين وبخمسين فضة وكان يصرف على ملذاته كل ما يكتسبه وقد حكم عليه بان يتجرع شراب الشوكران المسموم لانه قال ان الآلهة من مخترعات افكارنا • وكان يري ان الفضيلة في العمل بحسب ظروف الاحوال

المدة الثانية

العصر السقراطي (٤٠٠ — ٣٢٢ ق م)

جعل سقراط للفلسفة موضوعاً هو الانسان ، وغرضاً : تنظيم الحياة الخلقية والاجتماعية

ويبحث هـذا العصر في تاريخ حياة كبار الفلاسفة الثلاثة سقراط وافلاطون وارسطو ٠ ثم في المدارس الصغرى المتخلفة عنهـم ٠



٣٠ — سقراط (٤٧٠ — ٤٠٠ ق م)

Socrate

حياته : ولد في مدينة أثينا وكان أبوه سفرونسك نقاشاً وامه فيناريت مولدة (داية) ٠

اتخذ في بدء أمره مهنة أبيه ولكنه اتبع فيما بعد رأي صديقه المثري كريتون الذي ابتاع له مؤلفات انكسفوراس فاعتنق الفلسفة وقيل انه تتلمذ لبريكوس ٠ والمهندس تيودورالقوريناني ولارخلاوس الطبيعي ٠ ثم صار معلماً فشرع في تدريس الفلسفة

في محلات أثينا العمومية وبساتينها وكان الشبان يلتفون حوله منجذبين اليه بطيبة سريرته وفصاحة بيانه .

ولم تشغله الفلسفة عن تأدية واجباته الوطنية والعسكرية فحارب في بليبونيز وخلص حياة « السبياد » في موقعة بوتيديه ، وحياة « كزينوفان » في موقعة دليوم .

أنتخب بالاقتراع عضواً في مجلس الشيوخ وانفرد بالدفاع عن القواد العشرة الاثينيين الذين حاربوا في ارجنيوز . وجاء على وحي لسان الالهة دلفس « انه أعظم الرجال حكمة وعقلاً » وهو نفسه كان يعتقد ان صوتاً خفياً يرشده في جميع ظروف الحياة الخطيرة

وظن ارستوفان ان سقراط من السفسطائيين مع انه الد خصومهم . فهزأ به في كتابه « السحب »

اما اراؤه الاجتماعية والسياسية فلم يرض عنها الحزبان اللذان تنازعا الحكم في المدينة ولذلك كان مبغوضاً لديهما .

ولما دالت دولة الثلاثين طاغياً ، اتهم سقراط امام الاريوباغس بأنه لا يكرم آلهة المدينة ويطلب آلهة غيرها ويفسد أخلاق الشبيبة فاتخذ مليتوص وليكون وانيتوس (Melitos, Lycon, Anytos) على عاتقهم رفع الدعوى غير ان المجلس اعتبر التهمة دينية واحال القضية على محكمة الهلياست (Heliastes) وكانت مشكلة من قضاة منتخبين من عامة الشعب بطريق الاقتراع . فبدلاً من ان يدافع سقراط عن نفسه ويدرأ عنه التهمة الموجهة ضده ،

أخذ يتهم هو خصومه ويقيم الحجة على سوء قصدهم بلهجة تهكمية اثارت عليه غضب القضاة فحكموا عليه ان يتجرع شراب الشوكران المسموم سنة ٤٠٠

وقد ذكر افلاطون في محاورة «فيدون» كيف قضى سقراط ايامه الاخيرة في سجنه دون ان تفارقه شجاعته محدثاً تلاميذه عن خلود النفس .

ولم يكتب سقراط شيئاً بيد ان تعاليمه تستخلص مما كتبه تلميذاه زينوفون وافلاطون، فالاول ذكر تاريخ حياته ودحض مطاعن خصومه . والثاني شرح المذهب ولكنه صبغه بافكاره الشخصية ، ويقال ان سقراطا لما اطلع على ما كتبه عنه افلاطون في محاوة « ليست » صاح ما اكثر الاكاذيب التي ينسبها الي هذا الفتى »

طريقته : — لسقراط طريقتان، احداهما جدلية خاصة بالتعليم والثانية نظرية تتعلق بالعلم ذاته

(والاولى) على نوعين : استفهامي وتوليدي (مايوتيكي)

كان يستعمل النوع الاول مع خصومه السفسطائيين ومع تلاميذه الذين لم تكن لهم دالة عليه ويرغب في ان يقتادهم الى أول درجات العلم وهي تجريد ذاته من كل معرفة لان مبدأه « كل ما اعرفه اني لا اعرف شيئاً »

فكان يطرح علي مخاطبه قضية من القضايا ومتى اجابه عليها

يناقشه في معنى تلك الاجابة فيلقي السؤال تلو السؤال مأخوذاً من ذات الجواب حتى يؤدي به الى الاعتراف بخطأ الجواب الاول او بتناقض النتائج

(اما النوع الثاني) اي توليد الافكار فقد دعاه كذلك تذكاراً لصناعة امه . فكان يستعمله مع مستمعيه الحسني النية ومع الشبان الذين لهم عليه دالة ويجب ان يساررهم

وينحصر هذا النوع في ان يذكر سقراط لتلامذته رأياً ما ثم يأخذ في تفسيره وشرحه مبتدئاً من البسيط فالمركب حتى يجعل هذا الرأي واضحا لا غموض فيه ولا ابهام واضعا نصب عينيه « ان العقل اساس كل شيء وان التعليم هو معرفة كنه الشيء اي ان التوليد حقيقته ».

والاستفهام والتوليد لم يكونا الا صيغ ظاهره لطريقة سقراط اما الجوهر ففي الاستقراء والتحديد وهما نوعا الطريقة الثانية الخاصة بالعلم ذاته • لان سقراط ادرك ان العلم ليس غرضه افراد الاشياء واعراضها بل عموميانها وجواهرها.

مذهبه النفسي : — ميز سقراط بين النفس والجسد وللنفس خاصتان يسترشد بهما للوصول الى المعرفة وهما الحواس والعقل • فالحواس تعرف افراد الاشياء وبالعقل تدرك معانيها العامة

ولسقراط الفضل الاعظم في رد الفلسفة من ابحاث الايونيين النظرية في العالم الطبيعي الى الحقائق الذاتية الانسانية وكانت

آيته التي يتغنى بها على الدوام هي تلك الحكمة المنقوشة على واجهة هيكل دلفس «اعرف نفسك بنفسك» ولذلك قيل انه استنزل الفلسفة من السماء الى الارض

وهو ايضا لم يشك في صدق الحواس ولا في قيمة المبادىء العقلية . اما فيما يختص بالارادة فجعلها خاضعة للقدر فالانسان مسير لا مخير وليس واحد شريراً بالطبع فلا يخطيء الا جهلا منه

مذهبه الخلقي : — يعد سقراط مؤسس علم الاخلاق ومن قوله ان السعادة غاية اعمالنا وميولنا . بيد انه خلط الشيء النافع والخير المطلق. وليست الفضيلة في نظره الا المعرفة فيكفي للانسان معرفته الخير ليؤديه بالطبع . واولى الفضائل التي تحتوي على جميعها هي الحكمة اى تمييز الخير . وهذه الحكمة تبعا لاغراضها ، تدعى شجاعة او اعتدالا اوعدلا او تدينا. ويوصي سقراط باحترام المراة والرفق بالعبد، وبر الابناء بالاباء، وتفضيل الخير العام على الخير الخاص

وميز أيضاً بين السنن الطبيعية الغير المكتوبة لانها من عمل الآلهة وبين الشرائع الوضعية المكتوبة فهذه مشتقة من تلك

وهو نفسه حاز جميع تلك الفضائل فاحتمل توبيخات زوجته «كسانتيب Xantippe » بدون ان يظهر تذمراً وهذب ابنه لمبروكلس أحسن تهذيب. وأظهر امتثالا تاماً لحكم « الهلياست» بدون شكوى أو تعذير . وكان كارهاً لثورات الشعوب والحكم،

الجمهوري وطالما تهكم على الاثينيين الذين كانوا ينتخبون حكامهم بالاقتراع بالفول — ويرى سقراط ان الجمال جزء من الاخلاق لانه يوجد عند الفنان نسباً يظهره وعند الانسان الكامل في مظاهر الاعتدال والاجلال

مذهبه في مابعد الطبيعة : كان يعتقد بوجود اله واحد ازلي مالىء الكون وهو في العالم كوجود النفس البشرية في الجسم • ووجود الله ثابت بدليل ان لكل معلول علة فلكل فعل فاعل ولكل فاعل غاية .

والسبب الذي خلق الانسان هو سبب عاقل . وكل شيء في العالم خلق على أحسن تقويم فهو من عمل قوة مدركة تام الادراك وكاملة العقل .

وتوجد عناية تنظم الكون طبقاً لشرع العقل أي باخضاع الخاص للعام وبتعاون الاجزاء في العمل لصالح المجموع . والنفس هي جزء من ذلك العقل الكامل كما ان الجسم جزء من المادة . وتلك النفس خالدة .

أما ما دعي انه « شيطان سقراط » أي ذلك الصوت الداخلي الذي كان يوحي اليه بكل ما ينبغي عمله أو تجنبه . فهو الهام تلك العناية الالهية أو بالحري صوت وجدانه الذي كان يملي عليه سلوكه .

وبالاجمال ففضل سقراط عظيم لانه وضع حداً لشذوذ الفلاسفة

الطبيعيين والمغالطين . . وجعل للفلسفة غرضاً سامياً وغاية عظمى وهي اصلاح السلوك للافراد والجماعة —

٢١ — افلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق م) Platon

حياته : ولد في شهر مايو سنة ٤٢٧ ق م واختلف الرواة في مسقط رأسه فقيل في أثينا وقيل في اجينا وهو من عائلة وجيهة ابوه ارستون من نسل قدروس آخر ملوك اثينا القدماء وامه پريكسون من نسل صولون الحكيم

دعاه والده ارستوكلس Aristocles ولكن معلمه الالعاب الرياضية سماه افلاطون أي العريض نظراً لعرض كتفيه او جبينه

تلقى في اثينا العلوم النحوية والرياضية وفن الموسيقي وحفظ كثيراً من اشعار هوميروس وامتاز في الالعاب الرياضية ونال فيها عدة جوائز ، ولم يهمل دراسة الفلسفة فتعلمها على كراتيلس ثم تتلمذ وهو في العشرين من عمره اسقراط وظل ملازماً له نحو العشر سنوات . وعند ماأتهم معلمه سعى كثيراً ليخلصه وتطوع للدفاع بنفسه عنه امام القضاة فلم يرض هؤلاء به .

ولما مات سقراط ظلما وعدوانا سنة ٣٩٩ ق م انتقل افلاطون مع اقليدس الى مدينة مغاري شرقي برزخ قورنثيه ثم رحل منها الى القطر المصري فالقيروان حيث تعرف بتيودور الرياضي ، وقصد بعد ذلك ايطاليا فدرس فيها الفلسفة الفيثاغورسية . ثم توجه الى

جزيرة صقليا حيث تعرف بديون (Dion) صهر دنيسيوس الاكبر طاغية سيراقوسه .

وحاول افلاطون وديون التأثير على ذاك الطاغية ليمنح سيراقوسه حريتها ويجعلها جمهورية يحكمها الفلاسفة على مثال جمهوريات فيثاغورس ، فلم يرق ذلك في عيني دنيسيوس فالقى القبض على صاحب الترجمة وباعه عبداً فافتداه بعض الاصدقاء واعادوه الى اثينا سنة ٣٨٨ ق م .

وفي هذا العام اسس « الاكاديمية » وهي مرجة للالعاب الرياضية بجانب بستان البطل « اكاديموس » تبعد عن اثينا ١١٠٠ متراً

فاخذ يلقي في الاكاديمية على الطلبة تعاليمه ثم يكتبها في محاورات واستمر في ذلك عشرين عاما الى ان استدعاه صديقه ديون الى صقيليا للمرة الثانية لان دنيسيوس الاكبر كان مات وخلفه ابنه دنيسيوس الاصغر . فقصد افلاطون سيراقوسه حيث قوبل بالترحاب والحفاوة وفرح به الاهالي ورجال البلاط فرحاً عظيما بالرغم مما كانوا عليه من الخلاعة والفساد .

ولم يطل الحال على دنسيوس فعاد الى متملقيه نابذاً نصائح افلاطون ومقربا اليه الوشاة . فنفى ديون وصرف الفيلسوف الى بلاده حيث عاد الى القاء الدروس في اكاديميته

وبعد عشر سنوات استدعاه ثالثة دنسيوس فلباه على ان يصلح

بينه وبين ديون وفيماهو سائر اليه علم ان ديون أعد جيشا واستولى على العرش بعد ان طرد دنسيوس ولكن هذا عاد أخيرا بعد مقتل ديون في فتنة . وبقي زمنا قصيرا متوليا زمام الاحكام الى ان قامت عليه ثورة فتنازل عن العرش والتجأ الى قورنثيه يدرس فيها علم النحو

اما افلاطون فظل يعلم في مدرسته حتى توفي بالغا من العمر ٨١ عاما فدفن في البستان تحت ظلال شجر الزيتون

وقال عنه شيشرون الخطيب الروماني: ان عينيه لم تترك القلم وفكره لم ينفك عن التأليف حتى آخر نسمة من حياته .

مؤلفاته : تنسب كتب كثيرة الى افلاطون بيد ان اكثرها ليست له .

وكتب مؤلفاته على شبه محاورات على لسان شخص معلوم . وبعض تلك المحاورات يتضمن تعاليم سقراط والبعض يتضمن مذهبه الخاص .

ونحن موردون هنا أسماء الكتب المجمع على انها من تأليفه مرتبة حسب المواضيع التي تناولها بحثه :

١ المحاورات الجدلية : ـ تبحث فيما بعد الطبيعة وهي : ثيتيتس (في العلم) وقراطيلس (في اللغة) والسفسطة (في الوجود) وبرمنيدس (في المثل او التصورات) وتيماس (في الطبيعة) وفيدون (في خلود النفس) وأوثيديمس (في السفسطة)

٢ الكتب الاخلاقية والسياسية : فيليب (في اللذة) ومينون

(في الفضيلة) وپروتغوراس (في السفسطائيين) وكتاب تقريظ سقراط . وكتب الجمهورية ، وكتب القوانين . ومحاورة كريتون (في طاعة القانون) واتفرون (في علاقة الدين بالاخلاق) وشرميد (في الاعتدال) وليسس (في الصداقة) ولاخيس (في الشجاعة) والبوليطيقي (في الحكومه الملكية)

٣ً — المحاورات الخاصة بعلم الجمال : المائدة (في الحب) وفيدر (في الجمال) وجورجياس (في علوم البلاغة) وهيپاس (في الجيل) ويون (في القريض)

الصفة العامة للفلسفة الافلاطونية تمتاز هـذه الفلسفة بأنها مجهود شديد للتوفيق بين آراءالفلاسفة المتقدمين وعلى الخصوص الايونيين والإلياثيين والفيثاغورسيين لجعل منها مذهباً مؤسساً على طريقة سقراط المنطقية ومذهبه الخلقي . وظن انه توفق الى هذا التركيب في نظرية المثل أو الصور

وهـذه النظرية هي المحور الذي تدور عليه رحى الفلسفة الافلاطونية فيجدر بنا دراستها أولاً قبل البحث في النتائج الصادرةعنها فيالعلوم «الالهيةوالنفسيةوالاخلاقية والسياسية»

نظرية المثل : أورد افلاطون هذه النظرية في الجزء السابع من كتابه «الجمهورية » حيث قال « تصور ياعزيزي جلوكون حالة الطبيعة البشرية بالنسبة للمعرفة والجهل كما سأرمزه لك بكهف عميق يدخل النور اليه من فتحة مستطيلة بطول ذاك الكهف -

وتمثل اناساً مقيدين فيه منذ الطفولية بكيفية لا يستطيعون معها التحرك أو الالتفات الى الوراء بل يبصرون فقط ما يكون امامهم، ووراءهم نار متقدة. فالاشياء التي تمر وراء أولئك الاسرى تقع ظلالها امامهم فيظنونها حقائق وهي ليست كذلك. فاذا حل قيد أحد الاسرى واجبر على الالتفات خلفه الا يخطف بصره تلك النار فلا يميز في بدء أمره الاشياء التي لم ير الاظلالها. فماذا يكون جوابه في تلك البرهة لمن يقول له ان ما رآه سابقا ليس الا ظلاً للشيء الحقيقي الذي يراه الآن. واذا اقتيد خارج الكهف الى الفضاء حيث يسطع نور الشمس وحيث تمر أمامه حقائق الاشياء وليس أشباحها

الا يقتضي له زمن طويل ليميز بين الحقيقة والخيال ويدرك كنه الشيء ويعلم ان النور يعكس الظلال. هكذا حال الانسان من يوم ولادته يتدرج في الرقى العقلي وكذلك المثال ليس مجرد ادراك عقلي بل هو حقيقة واقعية مطلقة ومستقلة عن الاشياء المتمثلة لنا وهو الصورة التي تحتذي الاشياء اشكالها منها ويتصورها العقل كذلك.

فالدائرة مثلا توجد بذاتها قبل ان ترسم في الحيز وقبل ان يضع المهندس لها تعريفاً أو حداً كذلك حال كل الطبائع الحسية والكائنات الحية والصفات والعلاقات الادبية فلكل منها مثال مشخص في العالم العقلي سابق لما هو مشخص في العالم المادى .

وعلى رأي افلاطون ان المُثُل مبدأ المعرفة والوجود ولها صفتان جوهريتان : (الاولى) انها شاملة لكل الموجودات التي من جنس واحد . (الثانية) جوهرية أي موجودة بذاتها وهي أتم واكمل من الموجودات المتشاكلة على شاكلتها

بيد ان تلك المُثُل ليست أجنبية عن بعضها البعض انما هي منظمة بحسب درجة كمالها وفي أولها مثال الخير .

لاهوت افلاطون : والله هو مثال الخير بيد ان هذا المثال حي حقيقي مدرك وله مظاهر ثلاثة :

أولاً — هو الخير او الواحد مصدر الصلاح والحقيقة وغاية كل شيء .

ثانياً — هو العقل الاسمى (لوجوس) مركز المُثُل حيث تبقى فيه الى الابد فهو العالم المثالي . وما العالم الحسي الا صورة غير كاملة له .

ثالثاً — الله روح هذا العالم ، هو الفاعل صانع المادة ومحركها طبقاً لنمازج المُثُل .

وقد اثبت وجوده بدليل المحرك الاول والعلل الغائية .

اما المادة فهي أيضاً ازلية الوجود . كان كل شيء فيها منذ البدء مختلطاً مضطرباً . وقد اراد صلاح الله ان كل شيء يكون على شبهه بقدر الامكان فكوّن العالم طبقا للمثل التي اختلطت على نوع ما بالمادة العديمة الشكل ولكن لما كانت هذه المادة غير

كاملة فقد بقيت فيها آثار نقص العالم المادي واميال الخلائق الحرة الشريرة .

« فالله اذن هو الخير والعقل والروح . خلق العالم بصلاحه لأن من كان صالحاً لا يعمل الا صلاحا . ثم نظمه بعنايته بحسب القوانين العامة للوجود

ولكن توجـد نقطة غامضة في فلسفة افلاطون اللاهوتية وهي : كيف خلق الله العالم . فاذا كانت المُثل هي دون غيرها الواقع . فما حقيقة الاشياء المحسوسة ،

قال في كتابه تيماس « Timée » يوجد عنصر ازلي ملازم لله وهذا العنصر هو المادة . والكون نشأ من مشاركة المادة للمُثل بنوع الانكسار كما تتولد الالوان من انكسار الضوء

مذهبه في علم النفس . قال ان النفس البشرية قوة تتحرك بذاتها قـد اتحدت بالله قبل ان تظهر في العالم الحسي ثم تسفلت بحلولها في المادة وصارت على شكل جسم ناسية وجودها السابق لكي تكفر عن آثام ارتكبتها في حياة ماضية — وهي واحدة ابدية لا تتغير

وللنفس ثلاث قوى :— النفس العاقلة ومقرها الرأس ، والنفس الغضبية أو السبعية ومركزها القلب ، والنفس الشهوانية او البهيمية ومقرها البطن

فالقوة الاخيرة تنشأ في النفس من اتحادها بالجسم . وهي اساس

الرأي أي المعرفة التبعية للاشياء الحسية وأساس المحبة الارضية التي تربط النفس بالمتاع الدنيوي الظاهري . اما العقل فهو مبدأ المعرفة والمحبة الحقيقية . ويكون مستكنا في النفس ثم يستيقظ ويتنبه تدريجياً حتى يتمالك ذاته . والنظر الى ما تتضمنه الاشياء المحسوسة من الحقيقة والكمال تبعث فيه الشوق الى تذكر المثل التي شاهدها سابقا. فالمعرفة تذكر الماضي Reminiscense اما الشجاعة فتوجد بين العقل والاحساس وتتأثر بافعالهما غير ان العقل يغلب الاحساس ، ويستميل القوة المذكورة اليه . ويمكن تشبيه الشجاعة بالقوة الارادية لو كانت حرة . بيد ان افلاطون يذهب كسقراط مذهب « الجبر العقلي » فالانسان يعمل بالضرورة كما يفكر .

وكل غلط خطأ ولا يخطيء الانسان الا لجهله فليس هو شريراً بطبعه .

والنفس لا تموت فهي خالدة كالمُثُل ذاتها

مذهبه الخلقي : اتفق افلاطون مع سقراط في مزج الفضيلة بالمعرفة وتوحيدها . بيد ان الفضيلة تكون في معرفة الخير أي في التشبه بالله . ولما كان الله هو الوحدة المنظمة والمرتبة لجواهر الاشياء . فالتشبه به هو تنظيم قوي النفس المختلفة وترقيتها الى ذروة الكمال

ويقابل كل جزء من أجزاء النفس فضيلة :

فالاعتدال فضيلة النفس الشهوية ، والشجاعة فضيلة النفس

الغضبية والحكمة فضيلة النفس العاقلة

ثم يحدث عن هذه الفضائل الثلاثة باعتدالها ونسبة بعضها الى بعض فضيلة أخرى تكمل وتتم بها تلك الفضائل وهى «العدالة» ويجب ان تخضع كل قوة من هذه القوى الى التي اعلى منها، وعلى ذلك ينبغي خضوع القوة الشهوية الى السبعية وهذه الى القوة الملكية الناطقة

والسعادة والفضيلة لا تنفصلان فالذي يبتعد عن النظام ينبغي ان يعود اليه

والافضل تحمل الظلم ولا ارتكابه ولا يجب مقابلة الظلم بمثله ويجب على المجرم ان يسعى في التكفير عن ذنبه ولا يهرب منه والرجل الفاضل يحب الخير بجميع مظاهره

مذهبهم في السياسة: السياسة في نظره تطبيق عملي للاخلاق، يعني ان الغرض منها الوصول بالناس الى الفضيلة والسعادة

وتنحصر مهمة الحكومة في تقرير الفضيلة فالفرد لا يوجد الا للدولة كوجود العضو في الجسم. والدولة اشبه بالانسان لها ثلاث قوى تنطبق على طبقات الناس المكونة للامة:

فتنتمي للقوة الشهوية طبقة الفلاحين والعمال وكل ذي حرفة مادية، وتنتمي للقوة الغضبية طبقة المحاربين الذين يدافعون عن الوطن. اما القوة المدركة العاقلة فينتمي اليها الحكام وهى صفة

هؤلاء الحكماء كما ان الشجاعة صفة الطبقة الثانية ، والاعتدال تتصف به الفئة الاولى

وينبغي للفريق الادنى الخضوع للفريق الاعلى منه فتسود العدالة وتستقيم أمور الامة

ويجب الغاء حق التمليك الفردي والعائلة فتكون النساء والمقتنيات مشاعة بين الجميع وتتولى الحكومة توزيع الاموال بين الافراد وتربية الاولاد لانهم ليسوا ابناء زيد أو بكر بل أبناء الدولة وتتبع في التربية الميل الغريزي . واذكياؤهم يتعلمون الحكم ليكونوا فيما بعد حكامها

ويظهر ان افلاطون ادرك خطأه الذي ذكره في كتابه الجمهورية فعدله في كتاب «القوانين»

مذهبه المنطقي : المنطق كسلم مدرجة توصلنا الى العلم . فتكون السلم صاعدة اذا بدأت من الرأي الى العلم ونازلة اذا بدأت من العلم الى الرأي . واول ما يعرف الانسان الاشياء المحسوسة بصورها وبظلالها المنعكسة على الاجسام المصقولة الخ فتدعى هذه المعرفة ظناً او وهماً ثم يتدرج الى معرفة ذوات الاشياء وحقائقها الطبيعية وتدعى المعرفة اعتقاداً . بيد ان هتين الطريقتين لا تؤديان الا الى المعرفة العادية أو الرأي اذ يمكن لحواسنا ان تخطىء فيها

اما المعرفة العقلية فلها درجتان : معرفة مروية فتكون من عمل العقل المفكر ، ومعرفة اللقانة «تدرك بذاتها » وعن هتين الدرجتين ينشأ العلم بيد ان الرويه تكتفي بالفروض التخمينية اما اللقانة فتصيب مباشرة المثل ذاتها

ويوجد أيضا شعور عقلي. فللمحبة درجتان احداهما خاصة بالعالم المنظور والاخرى بالعالم المعقول

تتعلق المحبة أولاً بالجمال الحسي ثم يلاحظ العقل ان الاشياء المحسوسة هي مظاهر النفس فتميل المحبة الى الجمال الخلقي ذالك الجمال الذي تنم عليه الافعال الحسنة والعواطف الكريمة والافكار السامية ثم يرتقي العقل من الجمال الخلقي الذي رؤي في النفس الى الجمال التام الذي يتحد بالخير المطلق اي بالله فهو الحد الذي تقف عنده جميع ميولنا وتشتاق اليه نفوسنا . ولا يمكن للفكر الوصول الى ذالك الخير الاعظم بغير المحبة فيجب على الانسان ان يقصد الحق والخير بكل نفسه

رأيه في الجمال — هو أول من وضع اساس علم الجمال .

وعلى رأيه ان النفوس الجميله يجب ان ترتبط بمعنى الخير . ولا يسلم بان الشعر والفصاحة لايقتصران على انبساط الناس بل يجب ان تكون اغراضهما ادبية وتميل الي الجمال المثالي ويجب ملاشتهما من الجمهورية اذا كانت اغراضهما الحض على التهييج والثورة



٢٢ - ارسطوطاليس ٣٨٤-٣٢٢ ق م

Aristote

حياته: ولد ارسطو في استاغيرا «stagire» من بلاد مقدونيا على خليج ستريمون بالقرب من جبل اتوس . وكان ابوه نقوماخس طبيبا لامينطس ملك مقدونيا والد فيليب وجد الاسكندر الاكبر وبعد وفاة والده كفله وصيه «پروكسين» ثم ارسله وهو في الثامنة عشر من عمره الى اثينا مدينة الحكمة فمكث فيها عشرين عاماً متتلمذا لافلاطون وامتاز على اقرانه فلقبوه « بالقاريء » ودعاه افلاطون « عقل المدرسة »

ولما مات افلاطون سنة ٣٤٧ ق م ترك ارسطو اثينا وقصد مدينة « اترنه » حيث نزل ضيفا على هرمياس حاكمها (وقد كان تعرف به أيام كان تلميذا معه لافلاطون) فازوجه هذا من « پثياس » ابنة اخيه وبعد ثلاث سنوات غادر ارسطو اترنه على أثر مقتل هرمياس بيد أحد مأجوري الفرس . فالتجأ الى مدينة متلين قصبة جزيرة لسبوس ومكث فيها سنتين ومن هنالك استدعاه فيلبس الملك الى مكدونيا ليكون معلما لابنه الاسكندر الذي لم يكن تجاوز الثالثة عشر من عمره . وبعد اربع سنوات أي في

سنة ٣٣٥ استعد الاسكندر الى غزو اسيا فعاد ارسطو الى أثينا بعد ان غاب عنها نحو الاثنى عشر عاما اكتسب في خلالها معارف كثيرة

وكانت ادارة مدرسة افلاطون آلت بعد وفاته الى ابن اخيه سوسيبس ثم توفي هذا وخلفه كزينوقراطس

فأنشأ ارسطو حينذاك مدرسته على ارض تابعة لهيكل ابولون اللقيني أو قاتل الذئاب ولذلك دعيت المدرسة الارسطوطاليسية باسم ليقيه او ليسيه « Lycee » ولما كان ارسطو يلقي دروسه على تلاميذه وهو ماش اطلق على هؤلاء لقب « المشائين » Peripateticiens

وكان اسكندر المقدوني يرسل اليه من اسيا اموالاً طائلة ونماذج الحيوانات النادرة . والنظم السياسيه للبلاد المحتله .

ومات اسكندر الاكبر سنه ٣٢٣ ق م فنفضت اليونان عنها النير المقدوني فاضطر ارسطو لمغادرة اثينا وانسحب الى خلسيس حيث توفى في السنة التالية (سنة ٣٢٢) موتا طبيعيا بعكس ما أشيع • وترك ادارة مدرسته الى تيوفراست

مؤلفاته : تعتبر مؤلفات ارسطو كدائرة معارف تتناول جميع العلوم البشرية التي كانت معروفة في الجيل الرابع قبل الميلاد فوضع لكل علم كتابا خاصاً ما عدا العلوم الرياضية

وتنقسم هذه المؤلفات الى ثلاثة أقسام:

١ — العلوم النظرية أو العلمية ومؤلفاته فيها : كتاب السماء والاجرام السماوية . . والطبيعة . والنباتات . وتاريخ الحيوانات وكتاب النفس ويلحق به نبذ في الاجناس والذاكرة والنوم . والشباب والهرم . والحياة والموت . ثم كتاب الفلسفة الاولى أو ما وراء المادة .

٢ — العلوم العملية او الادبية : وله فيها كتب «الاخلاق لينيقوماخ» والتدبير المنزلي (وبعضه ينسب الى تيوفراست) والسياسة المدنية .

٣ — العلوم العقلية والشعرية ومؤلفاته فيها : الشعر والخطابة وكتب المنطق (ارجانون) وهي تتضمن : قاطيغوراس (اي المقولات) وباريمنياس (او العبارة) وانالطيقي الاولى (اي القياس او بنأ السلوجسم) وانالطيقي الثانيـة (او البرهان وتوبيقي (او المواضيع الجدلية) وادلة السفسطائيين (اوالحكم المموهة) والخطابة وقوانينها — ثم له أيضاً كتاب القريض أو نظم الشعر .

مذهبه في علم النفس : — الانسان ككل الموجودات مركب من مادة ومن صورة : فالجسم هو المادة . والنفس هي الصورة التي يتشكل بها الجسم ويحيا ولذلك لا تنفصل عن

الجسم لانها قوته الفعالة

والنفوس ثلاثة: نفس نباتية وهي مادة الحياة، ونفس احساسية وما يتعلق بها من ادراك وتذكر وتخيل وشهوات واميال غريزية الخ وتكون مشتركة بين الحيوان والانسان . ونفس مفكرة عاقلة وهي خاصة بالانسان ومصدر الافعال العقلية .

ومما لا ريب فيه ان النفوس العالية تحتوي أيضاً على الادنى منها

فالنفس الاحساسية الحيوانية لها القوة النباتية الحيوية والنفس الناطقة العاقلة تحتوي على القوى الثلاث النباتية الحيوية والاحساسية الحيوانية والعاقله المفكرة وبذلك تتم وحدة المركب الانساني بينما يقول افلاطون ان اتحاد النفس بالجسم عرضي.

والنفس المتحدة بالجسد لا تدرك الاشياء الا بالحواس ويقول ارسطو ان الاحساسات وصور الاشياء تكوّن المادة التي يستخلص العقل منها الشيء العام المكوّن فيها وبذلك يكون العقل على نوعين أحدهما منفعل او ممكن ويمكنه ان يصير كل شيء . والآخر فاعل يعطى للمادة صورتها وشكلها فالعقل الفاعل يفعل في الاشياء المتأتية من الحواس ويكوّن منها الاشياء المعقولة وحينئذ يستقبل العقل المنفعل هذه الاشكال التي تحوله من القوة الى الفعل اي تجعله ان يتعرف جواهر الاشياء العامة وعلاقاتها الضرورية

ويدعو ارسطو الارادة « شهوة عقلية » اي رغبته في الحصول على غاية . وبيان السبيل لادراكها .

والارادة حرة ليست مسيرة كما ذهب سقراط وافلاطون لانه اذا كانت السعادة غاية الانسان فهو حر في اختيار أي الطرق الموصلة الى سعادته بتفضيل خير على آخر .

اما رأيه في خلود النفس فغامض . كل ما في النفس وكان متعلقاً بالجسم كالاحساس والتصور والتذكر فهو مائت كالجسم ولا يبقى الا العقل الفعال لانه منفصل عن الجسم . الا ان هذا العقل ليس خالداً بذاته بل بالنسبة لارتباطه بالعقل الازلي اي بالله

مذهبه المنطقي : — يعد ارسطو مؤسس علم المنطق وواضع قواعده وقوانينه مما لم يدع مجالاً لمن اتى بعده لنقضها او لاضافة شيء عليها ولنذكر هنا نظريته في المعرفة والتعليل

نظرية المعرفة : — لا يسلم ارسطو بنظرية المثل الافلاطونية من انها منفصلة عن ذوات الاشياء . ولكنه يميز بين التجربة والمعرفة فهو لا يريد ان يكون حاسياً بل وسطا بين المذهبين

للنفس قوة احساسية غير ان هذه الخاصة اذا تجردت عن ذات الشيء فلا توجد الا في حيز القوة ولا تصير بالفعل الا اذا لازمها شيء خارجي وهذا هو معنى تمثل الشيء الخاص ، وصورته تثبت في الذهن بالتذكر ، وبتكرار التذكر تنشأ التجربة .

والتجربة اساس المعرفة ولكنها ليست بذات المعرفة لان خاصية هذه المعرفة ان تدرك الشيء العام

والصور التي تمر بهذه الخاصة التي يدعوها ارسطو « العقل المنفعل »(intellet passif)هى مادة المعاني أو المثل ولكن ليست هذه المثل موجودة الا بالقوة فتصير بالفعل عند ما ينير العقل الفاعل (intellect Actif) ويجرد العام من الخاص

والعقل الفاعل يدبره العقل الالهي

نظرية التعليل — : أما الاداة التي بواسطتها تحصل المعرفة فهي التعليل وهذا على نوعين

(استنتاجي) اذا بديء بذكر الامور العامة واستخلص منها النتائج الخاصة

(واستقرائي) اذا جمعت قضايا خاصة وكوّن منها قاعدة عامة

وقد اهتم ارسطو بالنوع الاول وتكلم عن الحدود والقضايا والبرهان والقياس

فالحدود على قسمين . المقولات (catégories) والكليات (catégoremes) والمقولات عشرة وهي: الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال ، ومتى والاين والوضع والملك

والكليات خمسة وهي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام

أما تعاليم ارسطو فيما يختص بالقضايا والقياس والبرهان فهي

معروفة في علم المنطق الحديث ولا حاجة بنا لذكرها هنا

مذهبه الخلقي : — علم الاخلاق متضمن في ثلاثة كتب : (الاثيكي) او علم السلوك في الحياة الفردية . (والاقتصاد) في التدبير المنزلي . (والسياسة) في قواعد الحياة الاجتماعية

فالسعادة هي الخير الاعظم ويريدبالسعادة « تمتع قوى النفس بنظام واهلية . فهي السعادة العقلية ••• والفكر اشرف قوة في الانسان — وغاية الحياة السلوك حسب مقتضى العقل

اما الفضيلة فهي المران على عمل الخير • وتكون في اختيار اواسط الامور ، واما الشهوات والميول فحسنة في ذاتها والقانون الخلقي يأمر بتدريبها وليس باهمالها

والعائلة لازمة للجنس البشري وضرورية لكيان المجتمع فهو بهذا الرأي يخالف افلاطون الذي يفكك اواصرها لمصلحة الاجتماع ويجب معاملة المرأة كذات حرة • بيد انه يرى ضرورة وجود الرقيق مع معاملته بالرفق

مذهبه السياسي : الانسان حيوان اجتماعي فهو مدني بالطبع والغرض من السياسة خير الدولة التي تتأسس على مبدأ المساواة والحرية

اما الحكومة فوظيفتها تقرير الفضيلة بان تقيم العدل بين الناس فيتساوون في الحقوق والواجبات ولا يمتاز الواحد عن الآخر

إلا بالكفاءة • واحسن شكل للحكومة ان تكون جمهورية لانها تضمن النظام والامن والحرية .

مذهبه فيما بعد الطبيعة : — غرض الفلسفة الاولى « العلم بالموجودات كما هي موجودة » . والموجود الذي تدلنا عليه التجربة ، قابل للتغير • اي التحول من القوة الى الفعل الذى تصير فيه الحركة . والحركه تستلزم محركا ولذلك تكون الاصول التي بتفسر معنى تحول الموجودات(مادة) اي الاساس الغيرالمحدود الذي تصنع فيه الموجودات . ثم (الصورة) التي تتشكل بها الموجودات وبها تتباين وتتميز عن بعضها . (والعلة الفاعلة) التي تحول المادة من القوة الى الفعل . ثم (العلة الغائيه) التي يقصدها الفاعل عند تشكيله المادة بالصورة التي شكلها بها

مثال ذلك : تمثال من نحاس . فمادته النحاس : وصورته الشخص المتمثل . وصانعه هو العلةالفاعلة . والشهرة اوالمكسب غايته من عمله

والعالم الحسي يتركب من مادة وصورة والعلاقة بينهما علاقة قوة بفعل

وهذان الاساسان يسبقان كل تغير فهما ازليان ولا يمكن لواحد منهما ان يوجدبغير الآخر بل يتلازمان ويتجاذبان ويتممان بعضهما البعض ، وباتحادهما يصير الموجود هو ما هومتميزاً عن

غـيره . وليست المادة عدماً بل هي الوجود في حالة القوة ويتميز بالصورة

فكتلة النحاس تمثال بالقوة. والتمثال : كتلة النحاس تشكلت بالفعل تمثالاً . فاذن تحول القوة الى الفعل هو التغير او الحركة

والحركة نقطة الاتصال بين المادة والصورة . ومذهب المشائيين يرجع الى ثلاثة اصول : القوة أو القـدرة والحركة والفعل

اما الموجود الاعظم فهو غير خاضع لهذا القانون التركيبي فهو صورة مجردة بدون مادة لان المادة ليست كاملة بذاتها . بينما ان الموجود الاعظم صورة مجردة وفعل مجرد اى غـير مختلط بالانفعال ولا بالتحديد

ولقد اصاب ارسطو القول من ان الفعل يسبق القوة ويسبب وجودها . والشيء المقدر لا يمكن تحوله من القوة الى الفعل الا بواسطة واجب الوجود فالناقص لا يمكنه ان يكون موجداً للتام بل هذا مصدر ذاك

اما الحركة الطبيعية فهي ابدية ويشترط لـكل متحرك محرك يتحرك بمحرك آخر حتى ينتهي الى محرك لا يتحرك بآخر فهو جوهر وفعل معاً

فهذا المحرك الثابت هو الله مصدر الحركة الابدية التي تتحرك بعلة غائية أي بطريق الجـذب نحو العقل الاعظم والشوق اليه

كما يستميلنا الخير ويستهوينا الشيء الجميل بدون دخل لهما في ذلك.
وعلى هذا المثال ينجذب عالمي الارواح والاجسام نحو الله بدافع ذاتي

فارسطو لا يعترف بالعناية الالهية كافلاطون الا انه اثنيني مثله فكلاهما يقول بالله والمادة منذ الازل والله على رأيهما لم يخلق المادة بل نظمها فقط

والله جوهر روحاني يتجلى فيه الفعل والحياة بأتم مظاهرها ومتمتع ابداً بالسعادة الكاملة ولانهماكه بمشاهدة ذاته لا يلتفت الى العالم

نظرية الجمال : — الجميل هو الشيء العظيم . والمنظم وغاية الفنون الجميلة ان ينقاد الانسان بواسطة الجميل الى الخير

٢٣ — المقارنة بين افلاطون وارسطو

أخذ المؤرخون يقابلون بين فلسفة افلاطون وفلسفة ارسطو فالبعض يوفق بينهما وفريق آخر يفرقهما كأنهما على طرفي نقيض يبالغون في نظرية افلاطون المثالية وفي نظرية ارسطو الواقعية. ونحن ذاكرون هنا ما اتفق عليه الفيلسوفان وما اختلفا فيه

أولاً — اختلف الاثنان في طريقتيهما فافلاطون شاعر يقدر ما هو فيلسوف يحب المجاز والرموز ويكتب بشكل اختراعي وعلى نمط محاورة لا يظهر فيها رأيه الا بعد اخذ ورد وطريقته استقرائية

اما ارسطو فكتابته منظمة واراؤه متعادلة وطريقته الملاحظة والبرهان الدقيق ولغته موجزة مع اختصار في التعبير

ثانياً — اتبع الاثنان مبدأ أستاذهما سقراط من ان غرض المعرفة « العموم » وليس « الخصوص » المتغير. وجوهر الوجود على رأي أولهما « المثال » وعلى رأي الثاني « الصوره الظاهرة »

فالمُثل الافلاطونية والصور المشائية لها مصدر واحد . بيد ان افلاطون يفصل الخاص عن العام ويرى في هذا الاخير الحقيقة الواقعية . اما ارسطو فبضده يصل العام بالخاص والفرد المكون منهما هو الواقع.

وينبني على ذلك ان الحواس وبالتالي الامتحان والتجربة لا دخل لها في المعرفة — على رأي افلاطون — بعكس ما ذهب اليه ارسطو

والاثنان مصيبان في مذهبيهما لان الشيء العام لا وجود له بصفته هذه بدون الاشخاص التي يتحقق بها . ولانه يجب البحث عن « العموم » بصرف النظر عن الافراد التي لا تتشكل باشكال متماثلة الا بدليل خارج عن تلك الاشخاص ومخالف لجوهرها

ثالثاً — قال الفيلسوفان ان الكمال غاية الوجود . والكامل

هو الاول بذاته اي الفعل السابق للقوة . او المثالي الموجود قبل الواقعي . غير انهما اختلفا في الطريقة الموصلة من الناقص الى التام او من التابع الى المتبوع المطلق

فافلاطون لاحظ التشابه الكائن بين الموجودات فبحث عن النماذج متي تشكلت على مثالها الانواع المختلفة وتدرج في الارتقاء من نموذج لآخر حتى انتهى الى المثال الاعظم انموذج الكمال والجمال

اما ارسطو فلاحظ حركة الموجودات وافعالها فتدرج من محرك لآخر الى ان وصل الى المحرك الذي لا يتحرك اي الى الفعل المجرد مبدأ النظم جميعها والعلة الغائية للطبيعة

وكل من الاثنين قال بالواحد الاحد . الا ان الله في نظر افلاطون منظم العالم بعقل وبصلاح • اما ارسطو فهو يقلل من قيمة الالوهية اذ جعلها مشغولة عن العالم بالتمتع بكمال جوهرها وسعادتها العظمى

رابعاً — يتفضل ارسطو على افلاطون بارائه الاخلاقية والمنطقية والسياسية : فجدليات افلاطون ركيكة . اما الاستاغيري (ارسطو) فقد وضع اساس المنطق واستوفى البرهان

لم ينكر افلاطون الحرية الشخصية صراحة ولكنه يشك فيها بتمثيل الفضيلة بالمعرفة . والرذيلة بالخطأ

اما ارسطو فقد ميز بين العالمين : العقلي والاخلاقي ودحض مذهب «الجبر النفسي» مؤكداً ان الانسان مخير وحر التصرف

لا هسير .

وخلاصة القول ان فلسفة هذين العظيمين أثرت أكبر تأثير في الاحقاب التي تلتهما فلقب افلاطون بالالهي ودعى اوجست كونت «ارسطو الذي لا شبيه له»

السقراطيون الاصاغر

دعي افلاطون وارسطو « السقراطيين الكبيرين لانهما ظلا امينين على جوهر تعاليم سقراط مع اصطباغها بارائهما الشخصية

غير انه وجد بجانبهما بعض الفلاسفة الذين تتلمذوا لسقراط أيضاً وخالفوا مذهبه وحوروه تحويراً كلياً أو جزئياً . فدعاهم المؤرخون « السقراطيين الاصاغر »

فظهرت ثلاث مدارس لاولئك الفلاسفة وهي « المدرسة الميغارية او الجدلية لمؤسسها اقليدس المغاري ، والمدرسة القورينائية وعلى رأسها ارسطبس ، والمدرسة الكلبية لمنشئها انتستينس .

وسنفرد لكل منها مبحثاً خاصاً

٣٥ ـ المدرسة الميغارية

ولد اقليدس في مدينة مغارى سنة ٤٤٠ ق م فدرس الفلسفة على برمنيدس الإِليائي . ثم ذهب خفية الى أثينا ليتلقى العلم على سقراط اذ كانت الاقامة في أثينا محرمة على الميغاريين والموت كان قصاصاً للمخالف

فلما توفي سقراط سنة ٣٩٩ ق م عاد اقليدس مع بعض التلاميذ الى وطنه وفتح مدرسته

وله رأيان متناقضان : (الاول) أخذه عن المدرسة الإِليائية من ان الخير هو الواحد الثابت الذي لا يتغير اعني الموجود المطلق . (الثاني) ان الواحد المذكور متعدد الصور فهو حكمة وعقل ومعرفة وفضيلة

وظن اقليدس انه وفق بذلك بين مذهبي برمنيدس وسقراط اما تلاميذه الذين أخلفوه على مدرسته زهاء الجيل وهم اختياس وباسيكل وتراسياك وغيرهم فقد حافظوا على هذين الرأيين الغامضين ودافعوا عنهما بكل الطرق الجدلية ولذلك اطلق عليهم لقب « الجدليين »

ولكي يبينوا عدم امكان اثبات فكرتين ببرهان واحد .

قالوا : الكذاب الذي يتهم نفسه بالكذب هل هو كاذب . فان كان كذلك فهو ليس بكاذب ، وان لم يكن كذلك فهو كاذب

ولكي يثبتوا انه لا ينبغي التسليم بصحة الاشياء المحسوسة ضربوا مثلين : «سفسطة كومةالقمح • وسفسطة أصلع الرأس»

كم حبة حنطة تؤلف كومة القمح • وكم شعرة منزوعة من الرأس تجعله أصلع ؟

بالطبع لا الحبة الواحدة • ولا الشعرة الواحدة تكفيان فاذن حبة واحدة • أو شعرة واحدة لو عدت تلو أخرى فأخرى حتى الالف لا ينشأ عنها كومة القمح أو تسبب صلعاً

وهذا مما يثبت ان الاشياء تبقى في تحول أبدي وهي ليست ثابتة

---

٣٦ — المدرسة القورينائية

اللذة (Hedonisme) مذهب ارسطيبس المولود في قورينا (cyrene المستعمرة اليونانية في افريقيا) سنة ٤٠٠ ق م • وكان سفسطائياً أخذ عن بروتغوراس : ان المعارف تابعة للانسان حسبما يستحضرها هو إما حقيقة واما كاذبة

قال ان اللذة الحسية غاية الحياة، والعاقل من يسعى قبل كل

شيء لاقتناص اللذة الوقتية لانها تزول قريباً أما اللذة المستقبلة فغير محقق حصولها (ولك الساعة التي أنت فيها) وينبغي على الانسان ان يسود نفسه بكيفية تجعله ان يقول اني سيد ولست عبداً

وبعد ان مكث في بلاد اليونان وفي صقيليا زمناً عاد الى قورينا وانشأ مدرسته ولما مات أخلفته عليها ابنته أريتا Arété لانها كانت ذكية ثم أعقبها ابنها ارسطيبس الشاب فتيودور الجاحد • فافهمير الذي قال ان الآلهة أبطال بشرية تألهت • ثم هيجزياس الذي وجد ان آلام الحياة اكثر من لذاتها فحبذ الانتحار • وحقق قوله بالفعل فمات منتحراً • ثم خلفه أنيسيرس Annicéris الذي مهد طريق الفلسفة الابيقورية

---

٣٧ — المدرسة الكابية (cynique)

انتستينوس (Antisthenes) ولد في أثينا سنة ٤٢٢ ق م وتعلم المنطق في مدرسة جورجياس ولكنه سمع تعاليم سقراط فاستميل اليه خصوصاً لما رأى من هذا الفيلسوف احتقاره للثروة وصبره على احتمال آلام الحياة وامتلاكه لنفسه فصمم حينذاك على الاقتداء بهذه الفضائل . غير انه شوهها بالافراط . وكان

فلا طون يتهكم عليه قائلا « ارى كبرياء انتستينوس من خلال خروق ردائه »

وأسس مدرسته في أحد الملاعب الرياضية باثينا في موضع يقال له « سينوزارج «cynosarge » بالقرب من هيكل هيرقل حيث وقف كلب أبيض اختطف من الهيكل ضحية مقدمة لهذا الاله

ولهذه الذكرى ونظراً لطرق معيشة تلاميذ ذلك الفيلسوف وخلعهم العذار ومخالفتهم المألوف لقبوا بالكلبيين

ومن تعاليمه ان اللذة ألم، والفضيلة أعظم خير وغاية للانسان ولذلك ينبغى التحرز من اللذات الحسية والعقلية . وما الغنى والشرف والعلم والزينة والصحة والفقر والهوان الا أشياء عرضية لا قيمة لها فالعاقل من اكتفى بما هو ضروري ولا يؤبه بالألم أو بالموت ويقلل من الرغبات والحاجات ويقصد الفضيلة لذاتها .

واشتهر فلاسفة هذه المدرسة ديوجينس وكراتيس Diogene & Crates . أما الاول فولد في سينوب سنة ٤١٣ ق م . نفي من وطنه فجاء الى أثينا ومكث فيها طويلا ثم مات في قورنثيه بالغاً من العمر تسعين عاماً

كان هذا الفيلسوف يعيش في أبسط الحالات يحمل على ظهره

وميلاً ينام فيه . وملعقة كان يشرب بها ثم رماها واستعاض عنها بيديه .

وكان يطوف بالنهار وبيده مصباح يفتش به عن الرجل ودخل يوماً برجليه الملطختين بالوحول مدرسة افلاطون المفروشة بفاخر الاثاث وقال اني ادوس كبرياء افلاطون . فاجابه هذا اجل ولكنك تطأها بكبرياء عظمى .

اما كراتيس فكان من مدينة ثيبه . ذاع صيته في الجيل الخامس قم واخلف ديوجنس على مدرسة ارسطيبس وباع كل ما يملك وفرق ثمنه على أهل وطنه واكتفى بالقليل

المدة الثالثة

بعد ارسطوطاليس

بعد ان جاد الزمان بسقراط وافلاطون وارسطو . اخذت الطبيعة هدنة ردحاً من الوقت لان خلفاء هؤلاء العظماء لم تكن فيهم روح الابتكار فظلوا متبعين مذاهب معلميهم حتى انهم أيضاً لم يحافظوا عليها كما تسلموها بل ادخلوا عليها ارآ غريبة

سبوسيب اخلف افلاطون على الاكاديمية فأدخل عليها نظرية العدد بدلاً من نظرية المُثُل وارتأى أيضاً ان الخير ليس مبدأً للاشياء بل نتيجة لها . وبعد وفاة سبوسيب تولى بعده كزينوقراطس ادارة المدرسة ثم اعقبه پوليمون فكراتيس فكرانتور الذي قام بطبع مؤلفات افلاطون

اما ارسطو فخلفه على مدرسته تيوفراست وجاء بعده اوديم واستراتون . وكما حدث في مذهب افلاطون حدث أيضاً في المذهب المشائي فلم يحافظ تلامذته على تعاليمه وحوروا في مذهبه فيما وراء الطبيعة وجعلوه واحديا بعد ان كان أثنينيا . وانصرفوا الى العالم الطبيعي فأدى بهم الامر الى المذهب المادي

وكانت نظرية السعادة أو الخير المطلق شغل الفلاسفة الشاغل فاصبح علم الاخلاق أهم ابحاثهم فتباروا في الاجابة على هذا العلم

واشتهر في هذه المدة ثلاث مدارس جديرة بالذكر وهي المدرسة الارتيابية (Ecole Sceptique) والمدرسة الابيقورية Ecole Epicurienne والمدرسة الرواقية (Ecole Stoicienne)

٣٨ — المدرسة الارتيابية

مهدت المدرسة الجدلية سبيلا الى المذهب الارتيابي فكان بروتغوراس ممهداً لبيرون. وقام المذهب الارتيابي يناضل ضد اليقيني المشائي

بيرون (Pyrrhon) ولد في نحو سنة ٣٧٠ ق م في أليس Elis احدى مدن بليبونيز وكان اسكندر الاكبر يشرفه بصداقته فاستصحبه معه في غزواته للهند وبعد عودته الى وطنه فتح مدرسة فلسفية وعمَّر ما يقارب التسعين عاما ومات سنة ٢٧٠ ق م

لم ينتشر مذهبه الا بفضل تلميذه «تيمون» وكان طبيبا قدم أثينا ومات فيها معمرا مما يدل على قيمة مذهبهما العملي فكانا يقولان ان الخلو من الالم مصدر السعادة ولكن لا يمكن الوصول الى ذلك بواسطة نظريات لا طبيعية اذ لا تصلح هذه الا لاضطراب البال والقلق والتحير ولا يمكن ادراك طبيعة الاشياء. فالعاقل الذي يسعى الى هدو البال وراحة الضمير ليكون سعيداً ينبغي عليه ان يوقف حكمه ما امكن ويبقى بين بين فلا

هو بتابع رأي « اليقينيين » الذين يعتقدون امكان الوصول الى حقيقة الاشياء ، ولا هو بميال الى عقيدة السفسطائيين الذين يدعون استحالة معرفة تلك الحقيقة : فلا تأكيد قطعي ولا نفي قطعي وهذا هو سر الحصول على الراحة أو السعادة

الاكادمية الجديدة : لقد تطرق مذهب الشك الى الاكاديمية القديمة بعد زعمائها الثلاثة افلاطون وسبوسيب وكزينوقراط ولذلك دعيت بالاكاديمية الجديدة . وبعض المؤرخون ينعتونها بالاكاديمية الوسطى على عهد ارسيزيلاس والاكاديمية الثالثة على عهد كرنياد وكليتوماك

أرسيزيلاس (٣١٥ — ٢٤٠ق م) Arcesilas

ولد في بتانيا بيوليا احدى ولايات اسيا الصغري . تولى ادارة الاكاديمية الافلاطونية بعد كرانتور . وهو أول من سار بالمدرسة في طريق الارتياب معارضا تصديق الرواقيين سواء كان في المنطق أو في العلم الطبيعي وكان على الخصوص ينازع في وجود أي معرفة تتضمن في ذاتها برهان حقيقتها فلم يسلم بما يزعمه الرواقيون من امكان الوصول الى الحقيقة لا بقوة الانفعال (التأثير) ولا بقوة المصادقة فينبغي اذن التوقف عن الحكم

وقيل ان هذا الشك كان يساعده على الدفاع عن تعليم

افلاطون وعلى الخصوص عن الاخلاق الافلاطونية لانا بحسب رأيه لسنا محتاجين لعلم ثابت للعمل طبقاً للعقل بل الاحتمال يكفي

اما كرنياد القوريناني (٢١٥ — ١٣٠ ق م)(Carneade) كان اكثر جدلاً وأشد احتداماً من ارسيزيلاس ناضل كريسيب في علمي الاخلاق وما بعد الطبيعة

انتدبه الاثينيون الى روما ليسوي مسألة الضرائب ويقول شيشرون في كتابه « الخطيب » ان كرنياد خطب في العدالة خطبة بليغة حتى أعجب به الرومانيون وخشي كاتون بأسه ونفاه من روما . أما رأيه فينحصر في عدم معرفة الاشياء وينبغي الاكتفاء بما هو محتمل التصديق سواء كان في الامور العلمية أو العملية

يكلتوماك القرطجني (Clitomaque) ذكر في عدة مؤلفات له وعلى الخصوص في كتاب (توقيف الحكم) مذاهب كرنياد

وادى الحال بالاكاديمية الجديدة الى ان اصطبغت بالمذهب الانتخابي على عهد فيلون اللاريسي وانطيوخس واندرونيكوس وشيشرون وغيرهم حيث امتزجت ببعضها المذاهب الافلاطونية والمشائية والرواقية والاحتمالية (وسنفرد لذلك فصلاً خاصاً)

وفي بدء الجيل المسيحي استرد المذهب الشكي نفوذه . واغلب زعمائه أصبحوا اطباء فبدلا من المجادلة من الوجهة النظرية كما

فعل ارسيزيلاس وكرنياد كانوا يقيمون الحجة على تناقض الطرق المنطقية بواسطة الشواهد الاختبارية الحسية . وأشهر أولئك الشكاك في هذا الجيل ثلاثة :

١ — أنا سيديم Ænésidème ولد في غنوس بجزيرة اقريطش في أوائل الجيل المسيحي الاول وافتتح مدرسة في الاسكندرية ، ومؤلفاته لم تتصل الينا غير ان فوتيوس بطريرك القسطنطينية حفظ لنا بعض شذرات من مؤلفه الشهير على مذهب بيرون وذكرها سكستوس امبريكوس

فبعد ان شرح العشرة اسباب التي ارتكن عليها مؤسس المذهب لانكار عدم معرفة الحقيقة وهى : الاختلافات في تراكيب الكائنات الحساسة . واختلاف التركيب في الناس وتباين الشعور في الشخص الواحد . واختلاف التأثيرات بحسب الظروف والاحوال الذاتية ــ وتغيرات الموضوعات عند اختلاف وضعها ــ وتباين العلاقات والارتباطات التى تكون بين العناصر — واختلاف صفات العناصر بحسب مقاديرها . وجهلنا لجواهر الاشياء وعدم معرفتنا منها الا ظواهرها . واختلاف الشرائع الوضعية وتأثير العوائد القومية

ويعد اناسيديم ممهداً للفيلسوف « كانت » ومفسحاً الطريق للفيلسوف الاسكتلندي « هيوم »

اما أغريبا Agrippa فكان عائشاً في القرن الثاني للميلاد انقص العشرة أسباب المذكورة الى خمسة وعاش في القرن الثالث الميلادي الطبيب سكستوس امبريكوس Sextus Empiricus في مدينة الاسكندرية وهو آخر الارتيابيين اليونان . لم يتصل لنا من مؤلفاته سوى اثنين

ومن رأيه ان العلوم جميعها، بما فيها الحساب والهندسة غير مؤكدة .

والغرض من هـذا المذهب سعادة الجنس البشري، والسبيل للوصول الى تلك السعادة التوقف قطعياً عن كل حكم وعلى ذلك يكون العقل الذي لا يميل الى جهة النفي ولا الى جهة التأكيد في غبطة وهذا منتهى السعادة

٣٩ — المدرسة الابيقورية

أخذت المدرسة الابيقورية بمذهب الذرات في ما بعد الطبيعة وبنظرية « الخلو من الألم » للحصول على الخير الاتم في علم الاخلاق اعني ان ابيقور اتبع رأيي ديمقريس وارسطبس القوريناني وعدل فيهما .

حياة ابيقور (٣٤٢ — ٢٧١) ولد ابيقور (Epicure) في جرجنسوس احدى ضواحي أثينا ثم رحل مع والديه الى ساموس

اليونانية . وكان أبوه معلماً وأمه منصرة ومنجمة فكان يساعدها في خزعبلاتها السحرية

ويقال انه تعلق بالفلسفة عند ما سمع للمرة الاولى أحد النحاة يشرح لتلامذته هذا الشعر اليوناني القديم «في البدء ولد العماء»

فأخذ يفكر في العالم . وقرأ مؤلفات ديمقريطس . ولما بلغ السادسة والثلاثين من عمره جاء الي أثينا وافتتح مدرسته وأخذ يعلم مذهبه

وكان له تأثير كبير ونفوذ عظيم على تلاميذه وألف نحو الثلثمائة كتاباً لم يبق منها سوى شذرات حفظها لنا ديوجين اللايرسي وشيشرون ولوكريس

أما فلسفته فتنقسم الى ثلاثة أقسام : منطقية وطبيعية واخلاقية

مذهبه المنطقي ، الاحساس مصدر المعرفة وما هو الا تأثير عضوي . ويحفظ الاحساس ويستمر في الذاكرة «فالصورة العامة ما هي الا تذكر جملة احساسات متشابهة » وهذا التذكر اذا ثبت في القوة المفكرة باللغة هو (المساعد للانسان على معرفة الاحساسات المستقبلة قياسا على الاحساسات السابقة فينشأ عن ذلك تعميم التجربة الحسية التي تساعد على استدراك المستقبل وهذا ما يدعوه « ابيقور السوابق ». ولما كان التذكر والتصور يستمدان قيمتهما من الاحساس فمنطق ابيقور حسي مجرد . وقد وضع له قواعد عملية منها ان الحواس لا تخطيء أما الرأي فعرضة

للخطأ . ويكون الرأي صحيحاً اذا أيدته الحواس . وخطأ اذا نفته . وهلم جراً . كل مسابقة تصدر عن الحواس وسابقة الشيء الواضح ينبغي ان تستعمل في تبيين مالم يكن واضحا الخ

مذهب الطبيعي : المادة مصدر كل الاشياء والنفس ذاتها مادية والعالم وكل ما احتوى عليه نشأ عن تركيب الذرات المتعددة الغير مخلوقة والتي لا تفني فهي تتحرك على الدوام بنفسها في الفضاء .

ولم يكتف ابيقور بنظرية ديمقريطس في تفسير تقابل الذرات وتحركها عاموديا بل قال ان لها قدرة على الانحراف عن العامود وبهذه الكيفيه يمكنها ان تؤلف مجموعات مختلفة

والنفوس مركبة من ذرات أكثر لياقة وتحركاً من الجزيئات التي تؤلف الاجسام ويقول أيضاً بان الاتفاق أو الصدفة تعمل في تركيب الاجسام وتأليفها . أي انه يقول بوجود معلول بدون علة

كما ان جميع الشعوب متفقة على الاعتراف بوجود آلهة تعيش في سعادة تامة في حيز الفضاء أي بين العوالم . والانسان لا يجب عليه ان يخشاها أو يحترمها اذ لا علاقة لها بالعالم ولا ارتباط بينها وبين الناس . كذلك لا يخشى الناس عقاباً ولا يأملون ثواباً في عالم آخر لان النفس مادية تفنى بانحلال الجسم وما الخلود الا وهم باطل

وعلى ذلك يكون الموت لا معنى له فلا هو شر لمن يعيش ولا لمن انتهت حياته . وبذلك تتم السعادة البشرية اذا انتفى كل خوف من حياة أخرى .

مذهبه الخلقي : أراد ابيقور ان يبين أين يوجد الخير الاعظم وما هو السبيل للوصول اليه . وبما ان الاحساس مصدر المعرفة فيجب الاستفهام منه . فما هو جوابه ؟

يجيبنا ان الخير في اللذة « فنشعر بها ولا يمكننا التعبير عنها كشعورنا بأن النار حارة والثلج أبيض والعسل حلو » بيد انه يجب التمييز بين نوعين من اللذة (أحدهما) حاد ومتقلب يذهب سريعاً وتكثر عنه الالام وهذا النوع هو لذة جسمية فاذا جعلها الانسان غرضه من الحياة حكم على نفسه بعذاب تنتال (تنتال ملك ليديا أولم للآلهة وليمة واطعمها جسد ابنه فحكم عليه الاله بجوبتير بالعذاب الجهنمي : يعطش ولا يجد ماء ويجوع ولا يجد قوتاً فظل الى الأبد ظمآن جائعا !)

(أما النوع الثاني) فهو اللذة الابدية فهي ساكنة ومستديمة ومجردة من كل قلق وهذه هي اللذة العقلية التي لا اضطراب فيها ولا ألم ولا نصب فيبلغ الانسان منتهى السعادة وغاية الحياة أو الخير الاعظم

ولا يصل الانسان الى هذه اللذة الا اذا ميز بين الرغائب التي

يمكن نوالها ، وعددها قليل وضرورية للوجود .

« فبكسرة خبز وقدح ماء يسد جوعه ويروي ظمأه »

والرغائب الطبيعية التي ليست ضرورية يجب التقليل منها بقدر الامكان لانها مجلبة لانشغال البال واضطراب الفكر. كالزواج مثلا والاهتمام بشؤون العائلة

أما الرغائب الكمالية التي ليست بضرورية ولا بطبيعية فيجب نبذها واستئصالها كمحبة الغنى والشرف والرياسة فهذه الرغبات لا نهاية لها

والفضيلة أجمل ما يتبع ولكن كواسطة وليست كغاية . فكما ان الانسان يدرس الطب لا حبا في ذات العلم بل ليشفي به الامراض لنوال الصحة . كذلك الفضيلة يمارسها العاقل لا لذاتها بل نظراً للذة التي تنشأ عنها .

والحكمة تجعلنا نميز بين اللذات الصحيحة واللذات الكاذبة والاعتدال يمنعنا من الاسترسال في الشهوات المضطربة . كما ان الشجاعة تقصي عنا الخوف من الموت ومن عذاب الجحيم . أما العدالة فتحفظنا من اعتداء الغير ، والصداقة تعزينا على احتمال التجارب والصبر عليها .

وكتب ابيقور قبل وفاته سنة ٢٧١ الى ايدومنيه أحد تلامذته يقول له « اكتب لك هذه الرسالة في آخر يوم من حياتي وهو أسعد الايام اذ يضع حداً لآلامي فقد بلغت أقصى حدها (وكان

مصابا بالحصوة) غير ان السرور الذي أشعر به عند تذكري محادثاتنا الفلسفية تخفف عني شدة تلك الآلام . اعتن باولاد مترودور الذى أظهر علي غيرة حقيقية واخلاصا شديداً وتعلقا بمذهبي »

أما مترودور هذا فكان تلميذه المفضل ومات قبله واخلف ابيقور هرمركوس على مدرسته التي كانت أشبه بجمعية اصدقاء منها بمدرسة وتعاقب عليها بولسترات فدنيس فباسليدس . فبروترك . فدمتريوس فأبولودور وكان بهذا ختام الجيل الثاني الميلادي . »

وفي هذه الاثناء انتشر المذهب الابيقوري في روما بفضل فيدر استاذ شيشرون الخطيب . وسيرون استاذ فرجيل الشاعر . ولوكريسيوس كاروس الذي كان يؤله ابيقور

غير ان المذهب تدهور وتسفل لان الذين اعتنقوه بعد ان تحرروا من كل اعتقاد ديني لم ترضهم اللذة السلبية فانغمسوا في الملذات والشهوات الايجابية الحادة فوصموا مؤسس مذهبهم بوصمة خزي لا يستحقها

٣٠ المدرسة الرواقية

كان المذهب الرواقي والمذهب الابيقوري على طرفي نقيض. فبينما يضع ابيقور اللذة في الخمول النفسي والجسدي كان زينون مؤسس المذهب الرواقي يقول بوجودها في الاجهاد والنشاط.

والاشياء تكونت — على رأي ابيقور — بطريق الصدفة. أما الرواقي فذهب الى ان العقل الالهي هو المنظم لجميع الموجودات ومسيرها،

الاول يقول ان الآلهة موجودة بين عالمين. والثاني يتمسك بالحلول المادي

بيد ان غرض المذهبين واحد وهو سعادة الانسان في الحياة الدنيا

مشاهير الرواقيين،



زينون (٣٤٠ — ٢٦٣)

Zenon

مؤسس هذا المذهب ولد في سيتيوم (cittium) بجزيرة قبرص من عائلة فينيقية اشتهرت بالتجارة وكان هو نفسه تاجراً فذهبت ثروته على أثر غرق متاجره بالقرب من بيره. فانصرف

ميله الى الفلسفة وكان عمره وقتئذ ٢١ سنة فتلقى العلم على كراتيس الكلبي ولكنه لما رأى معايب شيعته نبذها واتبع تعاليم ستلبون وديودور المغاريين ثم كزينوقراطس و بوليمون الاكاديميين

وفي نحو العام الثلاثمئة ق م فتح مدرسته في رواق بوسيل (Portique du Pacile) الذي كانت تحفظ فيه التحف الفنية باثينا ولذلك اطلق على هذا الفيلسوف وعلى تابعيه «الرواقيون» (stoicien) واستمر في القاء دروسه زهاء الثلاثين عاما ولما قارب الشيخوخة انتحر سنة ٢٦٣ ق م . محبذاً الانتحار وموصيا به للتخلص من العناء

٢ً — كلبانتس (٣٣١ — ٢٣٢ ق م)

Cleanthe

اصله من من اسوس بتراوده (assos) كان في بدء أمره مصارعا فترك موطنه أثر ثورة وجاء الى أثينا خالي الوفاض فاشتغل حمالاً فسقاء في الحدائق ثم أجيراً يدوّر الطواحين أثناء النهار . وينكب على الدرس والمذاكرة ليلاً بهمة لا يعتريها الكلال

أخذ الفلسفة أولاً على كراتيس الكلبي ثم على زينون الرواقي . وخلف هذا على ادارة مدرسته ومع ذلك لم يكن يغير طرق معيشته .

واتبع وصية استاذه فانتحر لما شعر بالهرم

٣ً كريسبب « ٢٨٠ — ٢١٠ ق م »

Chrysippe

ولد بطرسوس بكايكيا وهو يعتبر المؤسس الثاني للمدرسة الرواقية لانه عــدّل وهذب بعض اراء الفلاسفة اسلافه وعلى الخصوص لانه صد غارات محدثي الافلاطونيين المذهبية .

٤ً ديوجين البابلوني

ارسل سفيراً الى روما مع كرنياد وكريتولاوس نحو سـنة ١٥٥ ق م وكان تعليمه الرواقي معتدلا

٥ً بناتيوس « ١٨٥ — ١١٠ ق م »

Panatius

أصله من جزيرة رودس جاء الى روما وافتتح فيها مدرسة وعلم المذهب الرواقي غير انه ادخل اليه بعض الآراء الافلاطونية والارسطوطاليسية فهو بذلك يعد ضمن المدرسـة الانتخابية (eclectique)

ومن مؤلفاته الكثيرة : كتاب الواجب الذي ترجم شيشرون الروماني معظمه في كتابه (DeOfficius) وكتاب العناية الالهية وآخر في راحة النفس

بوسيدونيوس « ١٣٥ — ٥٠ ق م » Possidonius

هو انبغ تلامذة بناتيوس . ولد في اباميه (Apamee) بسوريا وعمر نحو ٨٥ عاما . أعجب كأستاذه بفلسفة افلاطون فاستمد منها اكثر الآراء في علم النفس وظل محافظا على نظرية الرواقيين الخاصة بالمعرفة اليقينية واعتقد أيضابالنبوات وحقيقة التنبؤ من بعض الاستدلالات

وفي أواخر أيامه أصيب بمرض النقرس . ورغب بومبيوس الشهير في سماع فصاحته وبلاغته اللتين ضرب بهما المثل في روما فجاء الى رودس ليسمعه

فلم يقعد المرض بوسيدونيوس عن الخطابة امام بومبيوس فطفق يلقي من فمه درراً غوالٍ وكلما اشتد عليه الالم كان يصيح قائلاً « أيها الالم لا سلطان لك على نفسي ومهما بلغت شدتك فلن أعترف أبداً انك ألم »

الفلسفة الرواقية

بنى الرواقيون مذهبهم الطبيعي عن الايونيين وعلى الخصوص عن هرقليطس . ونظريتهم الخلقية عن انتستينوس وحكمتهم فيها « ان يعيش الانسان طبقا للطبيعة » والخير المطلق يكون في الفضيلة ولا تنال الفضيلة الا بالنصب والاجهاد . اما

رأيهم اللامادي فاخذوه عن ارسطو فنقلوا آراءه في المادة والصورة والحركة والغاية العامة .

ويمكن لنا القول ان اله الرواقيين هو « الطبيعة الارسطوطاليسية » بيد ان طبيعتهم تقوم بذاتها بدون دخل للفعل المجرد .

وبالرغم من اجهاد الرواقيين اليونان في التوفيق بين تلك الاركان المتناثرة وصياغتها في قالب مذهبي موحد فانهم لم يخلوا من الوقوع في التناقض ونشأ عن ذلك اختلاف بين علم الاخلاق وعلم ما بعد الطبيعة ولم يتمكن الرواقيون المتأخرون من تذليل تلك الصعوبة الاختلافية الا بجعل العلم الثاني تابعاً للاول .

المذهب الطبيعي : قسم زينون فلسفته الى ثلاثة أقسام : طبيعية ومنطقية واخلاقية : فهو اذن ادخل ما بعد الطبيعة في العلم الطبيعي .

يقول : ان الوجود مادي .

والشيء الواقع يتألف من عنصرين غير مفترقين أحدهما منفعل وهو المادة . والآخر فاعل وهو القوة التي تحل في المادة وتتغلغل في جميع أجزائها فتشكلها وتحركها فلا مادة بغير قوة ولا قوة بدون مادة .

فمثال افلاطون ، والفعل المجرد الذي قال به ارسطو هما

ذاتان مجردتان

اما موجب الاشياء وموحدها فهو موجود فيها وليس خارجاً عنها .

فالقوة التى تحيي بها المادة هي الله حالاً في العالم كحلول النفس في الجسد . والله ليس فقط القوة المحركة بل هو أيضاً الاحساس والعقل والارادة فجعل للكون وجوداً حياحقيقيا جميع اجزائه متآلفة ومتجانسة . وبتأثير فعله تتحرك جميع الموجودات بنظام مستمر طبقا لقوانين ثابتة ولغايات عقلية

وما الانشقاق والصدفة الا ظواهر كاذبة

فكل شيء مقدر لابد من حصوله . وارتباط الوسائط بالغايات كارتباط الاسباب بالنتائج فالقدرة والقدر هما مظهران لاله واحد .

ويذهب الرواقيون الى ان القوة هي مثال نار هرقليطس أي نسمة مفكرة ملتهبة . والى ان المادة هي القوة المنكمشة الهامدة أي النار المنطفئة أو التي على وشك الانطفاء . فالله اذن الجوهر الوحيد الشامل . وهذه النار الالهية بانقباضها وتعددها تبدع الاشياء كلها وتهلكها على التعاقب . فيعود الكون الى الله ثم يصدر عنه من جديد وهكذا الى الابد

المذهب النفسي : جميع الموجودات الخاصة مركبة كالجوهر

من عنصر منفعل عديم الحركة ومن أصل فعال حي. فهذا الاصل يجمع الجزيئات الجمادية بيعضها ويجعلها متماسكة ، وهو في النبات المادة النطفية التي تنمي البذار وتخرجه عضويا حيا مطابقالنوعه، وهو في الحيوان النفس الحساسة الراغبة . وفي الانسان يصير ذلك الاصل عقلا عالماً بذاته ومتضمنا أيضا تلك الخواص الموجودة في الجماد والنبات والحيوان ويدعى حينئذ الآنية ويكون العقل عارفا وفاعلاً .

ومادة المعرفة الاحساس حيث تتأثر النفس بالاشياء الخارجية فتنقش فيها صورها واشكالها . فيتمثلها العقل ويستحضرها في المخيلة . غير ان بعض تلك الصور تنطبع معها حقيقة ذواتها وتدعى الاشكال المفهومة . وتقاس حقيقتها بقوتهاوعمومها . والعقل يستخلص من جملة أشكال مفهومة رأيا عاما يستبصر به المستقبل ثم تنشأ المعرفة من ترتيب الآراء العامة .

وقد شبه زينون الاحساس الاولي بيد مفتوحة والانفعال بيد نصف مفتوحة، وتفهم الاشياء بيد مقفولة ومضغوط عليها باليد الاخرى ، والعقل ذاته هو الذي يتدرج في الحالات الاربعة المذكورة

كذلك يزعم الرواقيون ان الغريزة والارادة والشهوة حالات ثلاثه لمبدأ واحد. وهذا المبدأ هو العقل الفعال وليس العارف .

ففي الغريزة تتنبه القوة المسيرة وتظهر انها تبحث عن ذاتها وفي الارادة تمالك ذاتها وتحكم نفسها . وفي الشهوة تنطلق من عقالها وتضعف

فبينما يقول ارسطو بثلاثة قوى : احساسية وفكرية وارادية . يذهب الرواقيون الى القول بأصل واحد في الانسان وهو العقل مصدر الفعل والادراك والحياة ، ومع ان مظاهره متعددة ومختلفة فهو يجتهد دائما في ارجاع تلك الظواهر الى طبيعة واحدة .

المذهب الخلقي : تنحصر اخلاقيات الرواقيين في ان الفضيلة دون غيرها هي الخير الاعظم

وينبني على هذه النظرية النتائج الآتية :

لا تتعلق الفضيلة بغاية اسمى منها ومخالفة لها . فبينما تقول سائر المذاهب ان الفضيلة تتعلق بغرض ما . سواء كان هذا الغرض هو الله على رأي افلاطون أو السعادة على زعم ارسطو أو اللذة كما ارتأى ابيقور . نرى الرواقيين يزعمون ان الفضيلة تتضمن غرضها في ذاتها .

فالرجل الفاضل كالطبيعة العامة يجدان خيرهما في ذات عملهما وليس في غاية خارجة عن الفعل . وعلى ذلك تكون القيمة الاخلاقية للاعمال تبعا لصورتها وليس لماهيتها . وتبعا للنية وليس للنتيجة

حتى غزوة البربر . وكانت المذاهب الفلسفية تجاهد في معترك الوجود ثائر بعضها على بعض ونشأ عن هذا النضال مذهب انتخابي اختار زعماؤه ما وافقهم من الاراء المختلفة ونظموه سمطاً واحداً وأشهر أولئك الانتخابيون شيشرون .

وكان أول عهد الرومانيين بالفلسفة . تعاليم ديوجين الرواقي وكريستولاوس المشائي وكرنياد الاكاديمي فالتفت الشبيبة حولهم وارتشفت من منهل فلسفتهم فخشي كاتون تأثير أولئك الفلاسفة فأعاد السفراء الثلاثة المذكورين الى اليونان بلدهم . غير ان المذهب الابيقوري ظل متمثلا في شخص لوكريسيوس ولم يمض زمن على هذا المذهب حتى أخذ في التفكك والانحطاط وصارت تعاليمه منحصرة في هذه الجملة «لنأكل ونشرب لاننا غداً سنفني»

أما المذهب الرواقي لقد تغلغل في أخلاق الامة الرومانية وفي سياستها ودينها وكان تأثيره أيضاً عظيما في التشريع حتى تشبعت به اراء جايوس وبول والبيان وپابنياس وبينما يذكر أبكتيتوس في كتابه كيف يكون الناس أحراراً حتى في وسط العبودية . نرى مرقس اوريلوس يظهر بمظهر الامبراطور الفيلسوف يكرس افكاره وحياته لسعادة البشرية

لوكريسيوس

Lucrece (٩٥ — ٥٢ ق م)

كان معاصراً لكاتون ولشيشرون . نظم المذهب الابيقوري شعراً بليغاً وديوانه مؤلف من ستة أجزاء وموضوعه خلاص الناس من الخوف من الآلهة ومن الموت . وشرح في الجزء الخامس كيفية انشاء العالم وتكوينه متمثلا بنظرية التطور

شيشرون (١٠٦ — ٤٣ ق م) Ciceron

هو مرقس توليوس شيشرون خطيب روما الشهير . اشتغل بالمحاماة في بدء أمره . ثم حكم وقتاً ما الجمهورية الرومانية بعد ان انقذها من ظلم كاتلينا واستبداده وقد كان له ضلع في جميع المسائل السياسية الكبرى والانشقاقات الحزبية ثم سقط قتيلا بيد جنود انطونيوس

كان يعتقد بوجود اله . وبأزلية الطبيعة وبالحرية وخلود النفس . ولكنه لم يكن في المسائل الفلسفية على رأي ما بل كان يذكر أدلة كل مذهب وردود بعضها على بعض غير انه كان رواقي الاخلاق بعد ان عدله بآراء افلاطون وارسطو

ومؤلفاته كثيرة اشهرها كتاب القوانين وكتاب الجمهورية

De Legibus & de Republica حذا فيهما حذو افلاطون وكان يقول ان المبادىء الاخلاقية والتشريعية الاساسية هي ضرورية لبقاء المجتمع مثل الاعتراف بوجود آلهة. وقوانين طبيعية عامه" وكرامة البشرية وخلود النفس.

سنيكا (٢ — ٦٦ م) Seneque

ولد في قرطبة باسبانية في السنة الثانية الميلادية وكان استاذا وصديقاً لنيرون ومات ضحيته أيضاً سنة ٦٥ ميلادية بان فصد عروقه في حمام فتصفى دمه .

تلقي العلم على سوتيون الرواقي الاسكندري الذي كان متشبعاً بفلسفة افلاطون وفيثاغورس ومعتقداً بخلود النفس وتناسخ الارواح .

كتب سنيكا مؤلفات كثيرة أشهرها رسائله الى لوسيلوس وتتضمن مباحث أخلاقية تهذيبية وآراء شاذة غريبة كالتساؤل مثلا عما اذا كانت الفضيلة جسماً أم لا : وكان يعتقد بالمادة وحلول الله فيها . والميعاد . وطهارة الاخلاق والمحبة البشرية

ابكتيتوس Epictete

ولد في هيروبوليس بفريجيا من أعمال مصر في الجيل الاول

الميلاد وجاء الى روما كعبد في أيام نيرون ولم يعرف أحد اسمه وانما لقبوه ابكتيتوس (أي الاسير أو الرقيق) وقد تحرر بعد وفاة سيده إپا فروديت أحد حراس نيرون الاخصاء

تلقى الفلسفة على موسونيوس الرواقي . وعندما صدر أمر دومتيانس سنة ٩٤ بطرد جميع الفلاسفة من روما ، التجأ الى نقوبوليس بأبيره (Nicopolis d'Epirce)

ومدار فلسفته التمسك بالفضيلة ونبذ الرذيلة . ولكي يكون الانسان سعيداً يكفيه ان يميز بين الاشياء التي لها ارتباط بنا والتي ليست كذلك

أما الذي لا يتعلق بنا ولا يمكننا تجنبه فيجب ان نعتبره ارادة الهية وينبغي علينا ان نتقبله بدون تذمر .

وهو الذي قال هذه الجملة الشهيرة « احتمل وامتنع »

والحكيم في نظره من احتقر متاع الدنيا حتى الضروري منه للحياة . ويجب ان يكون رسولاً لله وخادمه على الارض ممتلئاً بالمحبة لعموم بني البشر

ومن أقواله « ان علماً بلا عمل لا فائدة منه » انك لا تُسأل عما اذا كنت قرأت كريسيب أو غيره من الفلاسفة بل تطالب بان تكون عادلاً — لا تقل عن شيء ما انك اضعته بل رددته — اذا أردت ان تتحقق رغائبك لا ترغب الا ما يمكنك ان تناله بنفسك ـ لو كنتُ بلبلا لغردت ولكني انسان عاقل فاترنم لله »

مرقس اوريليوس (١٢١ — ١٨٠ ق م)

اشترك في ادارة الامبراطورية الرومانية سنة ١٣٨ ثم انتخب امبراطوراً سنة ١٦١ . كان روستكوس تلميذ ابكتيتوس استاذا لهذا الفيلسوف المتوّج.

عدل فلسفة ابكتيتوس فبدلاً من « الامتناع والتحمل » أوصى « بالاصلاح والتحمل » ومن فلسفته ان القدرة الالهية تتداخل في تدبير العالم فكأنه يقول بالحلول

أما النفس فليست باكملها مادية بل مستقلة عن الجسد ومتمتعة بالخلود لانها مدركة لله

ومع اشتهاره بالعطف والمحبة فقد كان شديد الاضطهاد المسيحيين واضعاً نصب عينيه تأييد الدين الوطني مهما كان ومقاوماً ما خالفه

وأشهر مؤلفات هذا الامبراطور كتاب «خطرات افكاره» ضمن أهم القواعد الادبية للفلسفة الرواقية

المدة الرابعة

٣٣ – الافلاطونية الحديثة

ان مدرسة الاسكندرية هي آخر مدرسة للفلسفة اليونانية بدأت في الظهور في أواخر القرن الثاني الميلادي . بيد انها قبل هذا التاريخ بزمن مهدت بالنظم الفلسفية القديمة

أخذت المدارس الرواقية والليقية والاكاديمية في التزاحم حتى تكوّن منها مزيجاً غيرمستقر الحال ودعي بالمذهب الانتخابي وظل المذهب الابيقوري وحده حافظا تقاليده وتعاليمه .

ومن جهة أخرى ظهر في الاسكندرية فيلسوفان يهوديان هما ارستوبول وفيلون وحاولا التوفيق بين تعاليم موسى وافلاطون ومن رأي فيلون ان الله وحده هو الموجود المجرد . والكلمة (لوجوس) الصادرة من الله هي الوسيط بينه وبين العالم . كما ان الروح (بنقما) المنبثق من الكلمة هو روح العالم

ونشأت الثورة الفكرية ممازجة الدين بالفلسفة فظلت زهاء القرنين الاولين للميلاد

غير ان هذا التثليث لا يتشابه بالثالوث المسيحي الا في اللفظين الاخيرين فقط أى في الكلمة والروح

اما شقة الخلف بين الديانات الوثنية فقد كانت متسعة فيعارض اله اليهود والمسيحيين . اله كزينوفان وافلاطون وارسطو . وقد

حاولوا ان يدمجوا العقيدة الاممية لتعدد الآلهة باله واحد في الحلول الفلسفي أي بالقول بوجود اله مجرد الذات يتنوع الى جملة آلهة ثانوية دعاها الغنوتسيون (الادريون) يون (eons)

كذلك المذهب الفيثاغوري نشط من عقاله وقام ابولوتيوس يدعو اليه مستعيناً على ذلك بأعمال غير مألوفة

وحوّر المصريون الوثنيون بعض اعتقاداتهم على مثال تحوير اليهود فادخلوا اليها آراءاً افلاطونية

فهذه الثورة الفكرية ظهرت بشكل افلاطونية حديثة وانتقلت بذلك الحركة الفلسفية من أثينا والعالم الغربي الى الاسكندرية مهد الشرق حيث كانت العلوم فيها زاهرة بفضل مكتبتها الشهيرة التي أسسها البطالسه

لما اعتنق المصريون الديانة المسيحية على يد القديس مرقس الانجيلي سنة ٥٥ ميلادية وأسس لهم المدرسة اللاهوتية دبت الغيرة في قلوب الوثنيين فأنشأ شيخهم آمونيوس السقاص المدرسة الفلسفية الوثنية التي فتحت لها خزائن مكتبة الاسكندرية فعلا شأن تلك المدرسة لاسيما في حكم القيصر يوليانوس الصابي (٣٦١ — ٣٦٣) ثم أخذت في الانحطاط حتى اندثرت في حكم القيصر يوستنيانوس سنة ٥٢٩

وقد تولى الزعامة على تلك المدرسة آمونيوس المذكور . فافلوطين (بلوتينوس) ففرفوريوس (بورفيروس) فجامليك

فبروكلوس وهذه نبذة في ترجمة كل منهم :

آمنيوس السقاص Ammonios Saccas

تربى في أحضان المسيحية ثم جحدها . ومات سنة ٢٤١ م وكلمة السقاص مشتقة من كلمة ساكي اليونانية وتعريبها (كيس) اشارة الى العتالة صناعته القديمة

درس الفلسفة الافلاطونية وتعمق فيها ومن رأيه ان النفس منتشرة في كل جزء من أجزاء البدن

ومن تلاميذه اريجانس الوثني (وهو خلاف المسيحي) ولونجين الانتقادي وهرينيوس . وأشهرهم افلوطين

افلوطين (پلوتينوس Plotin) (٢٠٥—٢٧٠ م)

ولد في ليكوبوليس بالوجه القبلي بمصر في بدء الجيل الثالث ومات في روما سنة ٢٧٠ ميلادية وسافر بصحبة الامبراطور غرديان في تجريدة حربية ضد بلاد فارس

كان عمره ستة وعشرين عاماً عندما بدأ يتلقى العلم على امونيوس واذ رأى تعاليمه صاح « هذا هو الرجل الذي ابحث عنه » ثم بعد أحد عشر عاماً سافر الى بلاد فارس والهند ليقف على المذاهب الشرقية ثم رحل في الاربعين من عمره الى روما حيث أسس مدرسة وعلم فيها زهاء الخمسة وعشرين سنة

أما مؤلفاته فطبعها تلميذه بورفيروس (فرفريوس) في ستة مجلدات كل مجلد يحتوي على تسعة كتب دعاها التاسوع (أنيده Enneades)

فرفريوس « بورفيرس Porphyre »

ولد في مدينة صور سنة ٢٣٣ ومات بروما سنة ٣٠٥ ق م اخلف استاذه افلوطين في ادارة المدرسة الافلاطونية الحديثة وقد جمع اكثر من معلمه بين مذهبي المشائين (الارسطوطاليسيين) والافلاطونيين (الاكاديميين) وقد سببت مطاعنه ضد المسيحيين اضطهادات دموية

أما أشهر مؤلفاته فهي «شجرة برفيريوس . ثم الاساغوجي أي مقدمة كتاب قاطيغوراس في المنطق لارسطو وقد ذكر في هذا الكتاب الكليات التي قام الجدال بشأنها في العصور الوسطى بين « الاسميين » « والواقعيين »

جمبليك « Jamblique »

ولد في كلسيس في النصف الثاني من الجيل الثالث الميلادي ومات سنة ٣٣٣ مسيحية كان اشهر فلاسفة محدثي الافلاطونية التي أصبحت مجموع نظريات لاهوتية خرافية وكان يدعو نفسه

كاهن الاسرار العظيم . ويفتخر بانه يصنع العجايب . ومن خلفائه يوليان الصابي (٣٣١ — ٣٦٣)

بروكلوس Proclos (٤١٢ — ٤٨٥)

ولد في بيزانس سنة ٤١٢ ومات في أثينا سنة ٤٨٥ درس أولاً فلسفة ارسطو في الاسكندرية على اولمبيودور ثم رحل الى بلاد اليونان ليتلقى فلسفة بلوتارك الاثيني مؤسس المدرسة الافلاطونية الحديثة في تلك المدينة ثم أخذ عن سريانوس تعليمه وأخلفه على مدرسته

وكانت فلسفته وسطاً بين فلسفة افلوطين الرومانية وفلسفة جبليك السورية . وكان يشار اليه بالبنان بعد افلوطين باعتبار انه أحد مشاهير فلاسفة مدرسة الاسكندرية الوثنية

وفي سنة ٥٢٩ صدر أمر الامبراطور يوستنيانوس بغلق المدارس الفلسفية الوثنية فالتجأ المذهب الافلوطني الحديث الى بلاد فارس . وكان هذا الزمن آخر العهد بتاريخ الفلسفة في العصور القديمة

لما كان افلوطين هو المعتمد عليه في بيان العقيدة الافلوطونية الحديثة . رأينا من المناسب ان نلخص مذهبه في ما بعد الطبيعة وفي علم الاخلاق

هذه هي الاقانيم الثلاثة الاسكندرية وهي متحدة ببعضها وفي الوقت نفسه متميزة عن بعضها. فالروح هي كلمة العقل والعقل كلمة الواحد والثلاثة يحبون بعضهم البعض

والنفس تحتوي على العالم الحسي بالقوة ومنها تصدر الموجودات ذوات الاجسام . فهذا هو الانتقال من اللانهائي الى النهائي . فالله والجسم على طرفي درجات الكمال : أي ان الله واحد . والجسم متعدد بيد ان الجسم عليه الطابع الالهي لانه متشكل باشكال الله المنعكسة عليه . والكائنات ذوات الاجسام متركبة من مادة ومن صورة . فالصورة تتضمن حقيقة الموجودات والمادة هي الشيء الذي تكونت منه الاجسام

العودة الى الله : تقابل حركة التسلسل ، حركة أخرى رجعية ففي كل شيء صدر من «الواحد» هو ميل قد يكون مبهما أو مدركاً بذاته انه يعود الى ذاك الواحد . وهذا الرجوع الى المصدر الالهي يحصل عن معرفة اذ ان لكل موجود كمال . وبهتين الحركتين « الصدور والنكوص » أو الانبثاق والعودة يتجدد العالم الحسي على التوالي فبحركتي الطرد والعكس تصدر الاشياء من النقص الى الكمال فهي من الله والى الله تعود

أما الاقانيم الثلاثة الالهية فهوذا شأنها : النفس المنبثقة من

العقل تتجه دائماً نحوه . والعقل الصادر من الله الواحد يتحول نظره اليه . وقد قال افلوطين في الانيده « التاسوع » الرابع ما يأتي : « تصور نقطة مركزية تحيطها دائرة مضيئة ويطوق هذه الدائرة دائرة أخرى مضيئة ولكن نورها مشتق من النور الاول . ثم يوجد خارجاً عن هتين الدائرتين دائرة أخرى تبعد عنهما ولكنها ليست مضيئة بذاتها بل تستنير بضوء آخر ليس منها .

ويستنتج من نظرية افلوطين ان الكمال أصل الوجود وكل موجود يميل الى الكمال فالعالم وجد للخير . أما الشر الذي نلاحظه في الكون فمصيره الى الزوال شيئاً فشيئاً طبقاً لسنة الترقي من الناقص الى التام

ولما كانت النفوس في مركز متوسط بين « العقل » وبين الاجسام فهي اما ان تحول نظرها نحو « المُثُل » فتعيش عيشة روحية . أو تظل حائرة مترددة تتجاذبها الروح والمادة . أو ان تتحول شطر المادة فتحل في الاجسام . ولذلك تكون النفوس على ثلاثة انواع . النوع الاول يتألف من النفوس السمائية وهي التي تعيش « للعقل ولله » فتظل على الدوام متمتعة بالسعادة الابدية بمشاهدة المُثُل والله الواحد ، والنوع الثاني يتألف من النفوس المكونة للملائكة والشياطين أي المنجذبة الى الخير .

والتى انجذبت الي الشر . أما النوع الثالث فهو يؤلف النفوس البشرية التي كانت في المبدأ سمائية ثم سقطت في الاجسام عقاباً لها على كبريائها . بيد ان هذا التجسد عقاب وقتي فاذا نهضت النفس من كبوتها واتجهت بافهالها شطر « الخير » أمكنها ان تحظى بالمشاهدة الالهية . فغاية الحياة اذن السعي للعودة الى هذا التمتع بواسطة تطهير النفس الساقطة ولذلك يجب ان تجرد ذاتها من الشهوات البدنية والاميال الحسية بممارسة الفضائل الاربعة : الاعتدال (العفة) والعدالة والشجاعة والحكمة . « اغمض عيني جسمك وافتح عيني روحك تشاهد الجمال الازلي وتحظ بالخير المطلق وبواسطة الانخطاف الروحي تتحد النفس بالله الواحد

٣٣ — فلسفة آباء الكنيسة

لم يؤسس المسيح مدرسة فلسفية بل ديناً يفوق الطبيعة البشرية . جاء الي العالم بحقائق لم تكن معروفة وفوق متناول العقل الانساني فثبّت وطهّر الحقائق الكبرى اللامادية التي يستطيع الذهن ادراكها بنوره لو تأمل فيها .غير ان المفكرين القدماء كانوا مترددين فيها.

تلك الحقائق هي أحدية الله وتساميه ، والخليقة ، ونهاية العالم والتمييز بين النفس والجسد ، والخلود وما يتبعه من الثواب والعقاب . فنشأ عن ذلك بداهة فلسفة جديدة هي فلسفة آباء ودكاترة الكنيسة المسيحية

بيد ان هذه الفلسفة الروحانية كانت سلاحاً أعد للنضال عن الحقائق الموحي بها فاستعان الآباء به بحسب الظروف والحاجة ليصفّوا العقيدة المسيحية من كل مزيج أو اختلاط بالهرطقات اليهودية والوثنية والبدع الدخيلة

ولهذا السبب لم ينتظر من أقوال ومؤلفات أولئك المسيحيين المفكرين عملاً واحداً منظماً كما كان الحال في العصر المدرسي بل كانت القضايا الفلسفية الصرفة تذكر عرضاً ضمن مؤلفاتهم الدينية

وفي مواضيع متناثرة

وقد استعانوا باقوال الفلاسفة الوثنيين وعلى الخصوص بمؤلفات ارسطو وافلاطون . والافلاطونيين المحدثين .
والآباء طائفتان بعضهم كتب باللغة اليونانية والآخرون باللاتينية

الاباء اليونان ، بحث هؤلاء الاباء في القضايا العلمية وأولهم

يوستينوس الشهيد « ١٠٠ — ١٦٨ ق م » ولد في نابلس بفلسطين وتبحر في المذاهب الفلسفية القديمة واعتنق زمنا ما المذهب الافلاطوني ولكنه لم يجد لنفسه راحتها الا في المسيحية فاستنصر سنة ١٣٣ م . بيد انه عاش كفيلسوف أي متنقلا من بلد لآخر بردائه القصير واستقلال الرأي وقداستعان بلقب محب للحكمة ليناضل عن الدين المسيحي ولينشره تارة بخطبه العمومية وطوراً بكتاباته

وانا لنذكر من بين مؤلفاته كتاب مملكة الله فبيّن فيه أحدية الله مستشهداً عليها بالكتاب المقدس وبمؤلفات اليونان الاقدمين وكتاب تقريظ المسيحية الذي أرسله الى الامبراطور انطونيو الورع فدحض فيه المطاعن التي وجهت الى المسيحيين وفسّر دينهم القويم . ثم المحاورة التي دارت بينه وبين تريفون اليهودي امام الجم الغفير في أفسس

ومن ضمن أقواله التي وردت في كتاب التقريظ المذكور

ان المعتقد المسيحي يعلمنا ان المسيح بكر الله فهو الكلمة أو العقل الذي اشترك فيه الجنس البشري فكل من حاز هذه الكلمة وهذا العقل كان مسيحياً ولو عدّه معاصروه جاحداً أو وثنياً كهراقليطس وسقراط

تتيانس Tatein

تلميذ القديس يوستينوس كتب رسالة الى اليونان انحى فيها بالتقريع عليهم مخالفاً في ذلك معلمه وقد تناول لومه حكماء اليونان القدماء . غير أنه انفصل عن الكنيسة بسقوطه في البدعة الغنوثسية

أثناغورس Athénagore

أثيني المولد هجر الفلسفة الوثنية واعتنق الدين المسيحي والف كتاب مديح النصرانية وارسله الى الامبراطور مرقس اوريلوس وكومودیوس .

٣٤ ـ الغنوثسية Gnosticisime

الغنوثسية أو الادرية هي هرطقة الاجيال الاولى المسيحية وغرضها مزج الفلسفة الشرقية واليونانية بالنصرانية واخراج

فلسفة مركبة من هذا المزيج والبحث الذي جعلوه مدارهم هو منشأ العالم . وسبب الشرور التي تظهر فيه . فقال ارباب هذا المذهب ان الانسان يمكنه التوصل الى المعرفة التامة وبها يحل كل القضايا فكلمة (غنوثس gnose) معناها . اعرف أو ادري

واليك خلاصة هذا المذهب :

ان الله أبدي أزلي أي لا ابتداء له ولا انتهاء . وكماله فوق الادراك فلا يحصره وصف . وهو الاب مصدر الخير أما المادة مصدر الشر فهي أيضاً أبدية ووجدت بذاتها والله لا يعمل في المادة مباشرة بل بواسطه قوات عديدة وسيطة بينه وبينها وأعظم تلك القوات واكبرها : الابن الكلمة

والقوات قد تكون متصلة بالله أو منفصلة عنه وهي المعبر عنها في التوراة بالملائكة . وقال افلاطون انها «المُثُل» ودعاها الرواقيون « العلل الفعالة»

وكثير من هذه القوات تدثرت أجساماً بشرية . اما تعارض الواجب والارادة فينشأ من عدم الاتفاق بين الطبيعة الحسية والدثار الجسماني . والفضيلة تكون في قهر التأثيرات الرديئة التي يؤثرها الجسم على الروح

أما الزهد فهو اكبر واسطة للتقوى اذا استعان بالمعرفة .

اذا فارقت الروح الجسد فتلحق بالله في الحياة الاخرى . اما في هذه الحياة فلا يمكنها ان تتمتع بمشاهدة الله الا باتحادوقتي

بواسطة الانخطاف الروحي

هذا هو ملخص المذهب الغنوئسي الذي انتمت اليه شيع كثيرة متباينة . وجوهر عقيدتها ان المسيح الكلمة جاء ليفتدي الملائكة الذين سقطوا بخطاياهم في الاجسام البشرية وفي هذا الفداء ينالون القربى من الله

وذهب البعض الى انه قام نزاع بين الله المتعالى وبين خالق الكون الذي مانع في عمل الفداء

وانصار هذا المذهب هم فلانتين (Valentin) وباسيليد (Basilide). وكربوكراط (Carpocrate) . فقام لمناوأتهم انداد اشداء في شخص القديس ايريناوس وفلاسفة مدرسة الاسكندرية المسيحية

أما القديس ايريناوس (St. Irénée) اسقف ليون فانه استشهد سنة ٢٠٢ ميلادية . الف سنة ١٨٥ كتابا دحض به المعرفة الكاذبة . وعلى الخصوص مزاعم الشيعة الفلانتينية

---

٣٤ – مدرسة اسكندرية المسيحية

صارت الاسكندرية في عهد الملوك المقدونيين مركزاً للعلوم اليونانية . بفضل مكتبتها ومتحفها الشهيرين

كانت المدارس الفلسفية الوثنية محافظة على تعاليم فيلون وافتتح باسيلدس وكربوقراطس مدارس لتعليم المذهب الغنوئسي

فاضطرت الكنيسة للوقوف بازاء تلك المذاهب مناضلة عن التعليم المسيحي كي تحفظ المتنصرين من عدوى الهرطقات التي تفشت . فقام فلاسفة المدرسه اللاهوتية المسيحية واظهروا من البراعة ما افحم خصومهم

ويرجع عهد تأسيس هذه المدرسة الى مرقس الرسول واول مديروها بسطس فاومانيوس فركيانوس وبنتينوس واكليمنضس واوريجانوس وغيرهم الى ان اندرست معالم تلك المدرسة في اواسط القرن الخامس واليك اسماء مشاهير فلاسفتها :

بنتينوس Pantene

أصله من صقيليا كان رواقياً فتنصر ومات سنة ٢٠٠ م وتتلمذ له الاب اكليمنضس

تيطس فلافيوس اكليمنضس T. Flavius Clement

ولد في الاسكندرية سنة ١٥٠ م من ابوين وثنيين ارضعاه لبان الفلسفة الافلاطونية في اثينا غير انه لما لم يجد فيها الحقيقة التي كان يصبو اليها طاف في طلبها بلاد اليونان وايطاليا وآسيا الصغرى وفلسطين ومصر حيث التقى بالعلامة بنتينوس فتتلمذ له بارشاده واعتنق الديانة المسيحية. وحوالي سنة ١٩٠ سامه الاسقف

ديمتريوس الكرام ، قساً وسلمه ادارة المدرسة اللاهوتية فظل يعلم فيها حتى مات سنة ٢١٥

ولهذا الفيلسوف مؤلفات عديدة اهمها كتاب المربّي وكتاب من هو الغني الذي يخلص . وكتاب المتفرقات

ولم يكن التعليم الديني عند الآباء الاسكندريين قاصراً على استظهاره على الوثنية والهرطقة بل كان أخص أغراضه تهذيب الاخلاق والسير بها في طريق الكمال وكانوا بذلك اكثر علماً ومعرفة وقداسة من غيرهم

أوريجانس (١٨٥ — ٢٥٥ م) Origene

ولد بالاسكندرية من والدين مسيحيين فتلقى مبادىء علومه على ابيه ليونيداس ثم استقرى دقائق الفلسفة ونبغ فيها بعد ان تلقنها عن الفيلسوفين القبطيين تيطس اكليمنضس وآمونيوس السقاص .

القى اليه الاسقف ديمتريوس بابا الاسكندرية الثاني عشر مقاليد المدرسة اللاهوتية فأخذ يدأب في اعلاء شأنها فادخل الرياضة والطبيعة والفلك والموسيقي . ونظراً لشقاق حصل بينه وبين اسقفه في سنة ٢١٥ اضطر الفيلسوف الى هجر وطنه قاصداً قيصرية فلسطين فاستقبله اسقفها بكل اكرام . واسس في فلسطين مدرسة لاهوتية امها الكثيرون من طلاب العلم وتنصر على يديه

خلق كثير بينهم القديس غريغوريوس صانع العجائب

وكان يقضي كل أيامه بالتعليم والارشاد حتى رقد رقاده الاخير سنة ٢٥٥ في مدينة صور بفلسطين تاركا مؤلفات عديدة جزيلة المباحث أهمها كتاب المباديء ودحض مزاعم كلسوس

وكان عالماً تقياً يتبع أقواله باعماله فيصوم معظم الايام ولا يأكل الا ليدرأ عنه ألم الجوع وينام على العراء بغير غطاء ولا وسادة ويسير حافياً ويقطع نهاره في الوعظ والارشاد. وليله في الدرس والعبادة. واذ تسلط عليه الخوف من فقد عفته خصى نفسه فراراً من التجربة

وفي مؤلفاته الفلسفية شرح بجلاء معنى التجلي الالهي وكيفية الخليقة مفنداً آراء افلاطون وارسطو والرواقيين والمحدثين • كذلك فسر روحانية النفس وحرية الارادة

اما باقي الآباء فكانت تغلب عليهم الروح اللاهوتية اكثر من الفلسفية ولذلك نكتفي بذكر بعضهم وهم

القديس اثناسيوس (٢٩٦ — ٣٧٣)

اسقف الاسكندرية

القديس باسيليوس الكبير (٣٢٩ — ٣٧٩)

اسقف قيصرية قبادوكيه

والقديس غريغوريوس النزينزي (٣٢٨ ٤٨٩)

كان اسقفاً لنزينزه فطراناً للقسطنطينية . والقديس غريغوريوس (٣٣٠ — ٣٩٦) اسقف نيصص بكباودكيا وهو أخو القديس باسليوس

جميع هؤلاء كانو خصوم الاريوسيين

ثم القديس يوحنا فم الذهب (٣٤٧ - ٤٠٧)

اسقف القسطنطينية صاحب المواعظ الفلسفية الشهيرة

والقديس كيرلس بطريرك الاسكندرية (٣٧٦—٤٤٤)

الذي شجب البدعة النستورية

ودنيسيوس الاريوباغي الف جملة كتب أخصها كتاب في الاسماء الالهية وكتاب في اللاهوت التصوفي ويستمد فلسفته من الافلاطونية الحديثة وعلى الخصوص من فلسفة بروكلوس ومع انه يؤكد في كثير من الاقوال ان الله مبدع الخلائق فاننا نراه في كثير من الجمل المتفرقة يقول بالحلول المادي

٣٥ – الاباء اللاتين

أشهر هؤلاء الاباء : ترتليانوس ولد في قرطاجنه سنة ١٥٥ كان ملما بالفلسفة والتشريع والخطابة اعتنق الدين المسيحي على أثر مشاهدته صبر الشهداء واحتمالهم العذاب والقديس كبريانوس ولد أيضاً بقطرجنه سنة ٢٠٠ واستشهد سنة ٢٥٨ على عهد الامبراطور فلاريانوس وكان اعتنق النصرانية سنة ٢٤٦ ميلادية ثم لكتنس (٢٥٠ — ٣٢٥) كتب ضد تعدد الآلهة وضد الفلسفة الوثنية — وهيلاريوس اسقف بواتيه بفرنسا (٣٠٠ — ٣٦٦) وامبروسيوس (٣٤٠ — ٣٩٧) أسقف ميلانو بايطاليا

وأشهر هؤلاء الاباء في هذا العصر هو القديس اغسطينوس (٣٥٤ — ٤٣٠) ولد في تاجست بنوميديا (بلاد الجزائر) من أب وثني وأم مسيحية تدعى مونيك

تعلم في قرطاجنه فنبغ غير انه ما لبس ان انغمس في المفاسد ثم ذهب الي روما فيلانو حيث التقى بامبروسيوس فتتلمذ له بعد أن تنصر سنة ٣٨٧ . ثم عاد الى هيونا (واسمها الآن بونا في بلاد الجزائر) حيث سيم قساً على كنيستها فاسقفاً سنة ٣٧٠ واستمر فيها حتى مات

ومؤلفاته على نوعين أحدهما خاص باللاهوت والآخر بالفلسفة وأخص مؤلفاته الفلسفية ثلاثة كتب ضد المذهب الافلاطوني

وكتاب في الحياة السعيدة وكتابين في النظام وآخرفي خلود النفس أما كتاب مدينة الله . والاعترافات . وحرية التصرف . فهي مزيج من الفلسفة واللاهوت

كان القديس اغسطينوس متضلعاً في الفلسفة اليونانية وكان يفضل افلاطون على ارسطو . اما اكثر ميله فكان للافلاطونية الحديثة ولافلاطون . وقد أخذ تعليمه عن مدرسة الاسكندرية

وقد طبق المذهب الافلاطوني على العقيدة المسيحية وأحسن التطبيق وبذلك رزّل النظريات الخاصة بالحلول المصدري ، وروح العالم وأبديته ، وتقمص الارواح . وتمسك بنظريات « محبة الحكمة والتعمق فيها » وبصفة الله الغير متناهية وانه مصدر الاشياء كلها باعتبار انه نور عقلي . ومحبته للموجودات بفيض نعمته عليها

وساعدته النظريات الافلاطونية على ادراك معنى الخير والشر وان الاشياء خيرات بالطبع والشر عرضي ، وهو ضد للخير

وكان يسعى لمعرفة الحقيقة بذكاء مطبوع ورغبة حقيقية لان الحقيقة في نظره لا تقصد للاستحسان فقط بل لايثارها لذاتها والعمل بها في كل وقت

ولهذا السبب كان المفكرون يعجبون بهذا الفيلسوف ويحبذون نبوغه خصوصاً وانه لم يكن لا متصوفاً صرفاً ولا متطرفاً في ابحاثه فيما وراء المادة ، بل كان وسطاً بين هذا وذاك محكماً عقله

وشعوره باعتدال
فمحبة الله ومحبة الحقيقة شعاره

***

انتشرت الديانة المسيحية انتشاراً عظيما حتى اعتنقهاامبراطرة الرومان وأصبحت ديناً رسمياً للامبراطوريتين الشرقية والغربية وظلت الفلسفة في نزاع وجدال حتى أصدر الامبراطور يوستنيانوس سنة ٥٢٩ م أمره بغلق المدارس الفلسفية

ويعد هذا التاريخ حداً فاصلاً بين الفلسفة القديمة وفلسفة العصور الوسطى التي سنتكلم عنها في القسم التالي

فلسفة العصور الوسطى

من الجيل الثامن الى السادس عشر

٣٦ – مقدمة

اذا كانت الحرية الفكرية شرطا اساسياً للفلسفة فيمكننا ان نقول انه منذ أمر الامبراطور يوستنيانوس سنة ٥٢٩ ميلادية حتى عصر النهضة في الجيل السادس عشر ، كانت الفلسفة في هدنة لان في هذه الفترة كانت البشرية خاضعة في الغرب للمعتقد المسيحي من الوجهة النظرية ، وتابعة من الوجهة الاخلاقية للنظام الكنائسي المؤسس علي ذلك المعتقد

وكان ينبغي في تاريخ الفلسفة تخطي هـذه الاجيال والبدء بالبحث مباشرة في الاسباب التي مهدت الطريق للفلسفة الحديثة

ولكن من ذا الذي يقتنع بان الفكر الانساني ظل في وسن وهجوع طول هذة المدة ، فلم يبد منه أي يقظة أو نشاط ؟

ان من طبيعة الانسان « التفلسف » أي البحث عن الاشياء وعللها وتفحصها وتفهمها فلا تقدر أي سلطة في الوجود ، حتي الدينية منها ، ان تقيد الفكر وتمنعه عن الانطلاق من عقاله ، هـذا الى ان العقايد الدينية المحتمة على الجميع لم تتكون

ثم جاء بعده . تلميذه رابان مور (٧٧٦ — ٨٣٦) Raban Maur فسار على مثال أستاذه وبدأحياته التعليمية في دير فلد ثم عين رئيساً لهذا الدير فمطراناً لمدينة مايتس

أما مصنفه De Universo (الجامع) فكان عبارة عن دائرة معارف القرون الوسطى

أخذ عن لوكريس نظرية « الجوهر الفرد » وطبقها على الدين المسيحي وعلم بمذهب الاختيار معارضاً بذلك مذهب الراهب جتشلك Gottschalk الذي يقول ان الانسان مجبور في كل شيء وانه مسخر في الخير والشر بالقضاء والقدر

ولكن أعظم أولئك الفلاسفة واكبرهم شهرة هو بلا مراء

سكوت اريجانس J. Scot Erigene

ولد في أوائل الجيل التاسع وربما كان ذلك في أرلندا أو في احدى الجزر البريطانية

استدعاه الي فرنسا الملك شارل الثاني ليكون مديراً لمدرسة قصره وأخذه تحت رعايته ودفع عنه الخطرات التي كانت تعرضه لها اراؤه الحرة

واغلب مؤلفاته فقدت على اننا نفهم من كتابه انقسام الطبيعة Divisione Naturae الفلسفة القديمة وعلى الخصوص الافلاطونية

الحــديثة

لم يكن هذا الفيلسوف ملماً باللغة اللاتينية فقط بل وباليونانية وربمـا بالعربية أيضاً . وقــد استقى تعليمه من كتب الفلاسفة القــدماء .

فالله في نظره مبدأ وغاية كل موجود . و كل شيء يكمل تبعاً لدرجة قربه أو بعده من كمال الله التام الفائق الوصف الذي يحل في الطبيعة بمعنى انها اجزاء منه واليه ستعود

فيظن من ذلك ان مذهبه حلولي تصوفي يمـاثل مذهب مدرسة الاسكندرية

أما جربرت Gerbert

فانه ولد في اوفرنيا عام ٩٣٥ ، كان مدرساً في بلاط الملك أوتون الاول ثم في مدارس ريمس وباريس . وبعد ان ترقى الى جملة رتب كهنوتية انتخب حبراً أعظم باسم سلفستر الثـاني سنة ٩٩٩

اندهش المعاصرون له من كثرة معارفه وعلومــه فلقبوه « البابا الفيلسوف » وقد استقى فلسفته من اسبانيا عندمارافق الكونت دي برشلونه الى تلك البلاد

وكانت في ذلك الوقت جامعات الاندلس وعلى الخصوص جامعة قرطبة زاهرة والعلوم فيها مثمرة والمعارف ناضجة

واليه يرجع الفضل في الحصول على جملة مؤلفات عربية من بلاد الاندلس فترجمها الى اللاتينية وكانت سبباً في اطلاع علماء ذلك العصر على فلسفة ارسطو

ثم ترجم جربرت كتب المقولات العشرة والتأويل ، وفسرها في مدرسة ريمس . ثم له أيضاً شرح كتاب اساغوجي لبورفيروس

ولم يكن يهمل شيئاً في التعليم بل كان يحث تلاميذه على درس علوم واداب الاقدمين والتمعن فيها وتفهم معانيها : وظل دائباً على نشر المعارف الى ان انتقل الى جوار ربه عام ١٠٠٣ ميلادية

والذي عرف بعده الاب لنفرنك رئيس دير «بك» بنورمنديا فمطرانا لكنتربري ومات سنة ١٠٨٩

غير ان الذي أخلفه في هذه الرتبة الكهنوتية هو القديس

أنسلم (١٠٣٣ — ١١٠٩) Anselme

فقد اظهر نبوغاً فلسفيا حقيقيا وهو مؤلف « البرهان الكوني لاثبات وجود الله بادلة وجود الكائنات

ولد هذا الفيلسوف في أوست بايطاليا من عائلة شريفة . تلقى العلم على مواطنه لنفرنك وقد رقي مطرانا لكنتربري خلفا لاستاذه سنة ١٠٩٣ ومات سنة ١١٠٩ بعد ان قضى حياة مملوءة

بجد الاعمال والفضائل

كان من أهم اغراضه توفيق الرابطة بين العقل والايمان واقناع الجهلاء بصحة الدين ببراهين بسيطة جداً وفي أتم الوضوح

وفي كتابه تأملات في العقل بطريق الايمان Monologium sive exemplum Meditandi de ratione fidei أثبت فيها وجود الله باعتبار انه علة كل موجود وهو الكمال الذي يرشدنا اليه نقص هذا الكون

وفي الكتاب أثر من الفلسفة الافلاطونية التى نقلها عن تعليم القديس اغسطينوس . كذلك توجد فيه بعض آراء تشير الى مذهب الحلول بطريقة مبهمة وكانت سببا لاغلاط كثيرين من الفلاسفة في ذلك العصر الذين حاولوا اثبات وجود الله وخلقته للعالم من العدم ex nihilo

وانا لنجد في كتابه الثاني Prosologium برهانه الشهير الذي ظن انه عثر عليه بمثابرته في التأمل وألهمه الله به أيام الصوم الكبير

قال اننا نتصور الله انه اكبر الكائنات واعظمها وجوداً ens realissimum فان لم يكن موجوداً فاي كائن يوجد يكون الاعظم والاكبر وهذا لا يسلم به العقل فينبغى الاعتقاد بوجود الله بدليل تصورنا انه أعظم الموجودات واكبرها

وقد أخذ عنه ديكارت وليبنز في العصور الحديثة هذا

البرهان ونقحاه بعض التنقيح الى ان جاء كانت الالماني واظهر خطأ هذا البرهان من حيث صيغته

غير انه قبل ان يولد كانت بسبعة أجيال أي في نفس الزمن الذي ظهر فيه الكتاب المذكور ، قام الراهب جونيلون من دير رموتيه بالقرب من مدينة تورس ودحض ذاك البرهان في كتابه المسمى « كتاب للجاهل » Liber Per insipiente أثبت فيه ان الوجود ليس دليلاً على عظم الشيء ولا هو برهان على ان الموجود أعظم مما ليس موجودا ، اذ لا يوجد ارتباط بين الكائن والمتصور الا كما توجد علاقة بين الوجود والعدم

وكان القديس أنسلم متشيعا لمذهب الواقع في الجدال الذي قام بين أنصاره وبين الاسميين

٣٩ – الاسميون والواقعيون

ما هو هـذا الجدال الذي شغل فلاسفة الجيل الثاني عشر ومهد العصر الذهبي للفلسفة المدرسـية ودعي في التاريخ باسم جدال الاسميين والواقميين realisme te ominalisme ؛

ان مقدمة فورفوريوس على كتاب قاطيغورياس (المقولات) التي ترجمها بويس الى اللاتينية كانت الكتاب الوحيد الذي عرفت منه الفلسفة القديمة في ذلك الحين . والمطالع فيها يجد ضمن

سطورها هذه الجملة :

« لست بباحث فيما اذا كان للاجناس والانواع وجود في ذاتها »
« أو هي تصورات مجردة . وفي حالة ما اذا كان لهـا في الواقع »
» وجود ، هل هي أجسام أم لا ، او ان وجودها قائم بذاته »
« بدون توقف على المحسوسات من الاشياء أو متوقف عليها ؟ — »
« فالبحث في ذلك من اصعب الامور ويتطلب مناقشة طويلة »
ليست من أغراض هذا الكتاب ! ! »

وجد الفلاسفة المدرسيون في هذه الجملة مسألة تشوقوا لحلها . فهم — على غير علم منهم — اعادوا كرة البحث في نفس القضية التي فرقت بين افلاطون وارسطو ، وهي مظهر آخر من الجدال الادبي الذي يوجد الآن بين العقليين والتجريبيين

فالكليات Les Universaux وهي معاني الاجناس والانواع إما ان تدل عليها أسماء عامة أو خاصة وينبغي معرفة ما اذا كانت هذه الاسماء تدل على حقائق واقعية تحتذيها الاشياء الخاصة او انها مجرد معان يستنبطها الذهن؟

هل يوجد مثلاً — كما كان يزعم افلاطون والواقعيون مثال انساني في العالم العقلي تنطبق عليه معنى الانسانية والانسان بغير مراعاة الأشخاص الذين يندمجون في هذا المعنى الكلي . أو انه لا يوجد في الواقع سوى أشخاص الناس كزيد وبكر وعمرو . وبمقارنتهم يتكون في ذهننا معنى الانسان والصورة الانسانية ؟ ؟

لا مراء ان المعرفة غير ممكنة الا اذا كانت هذه المعاني الشاملة توجد من قبل وليس من موضوعها سوى الصفات العامة للموجودات التي تبحث فيها . وان هذه المعرفة لتتوه في تفصيلات لا نهائية اذا بحثت في الافراد مستقلة بذواتها

ولكن هل من الضروري : لكي تكون المعرفة ممكنة ، ان توجد نماذج (مُثُل) واقعية ؟ الا يكفي ان تتكون في ذهننا صور عامة

يدعي أصحاب مذهب الواقع ان « الكليات» حقائق واقعية وليس للاشخاص الفردية وجود فعلي الا بمشاركتها في الجوهر وبذلك تكون الكليات سابقة للاشياء في الوجود

Universalia ante rem

اما الاسميون فبالعكس يذهبون الى ان الكليات ليست سوى الفاظ مجردة فلا يوجد حيوان عام او انسان عام بل الانسانية أو الحيوانية لا تدرك الا بعد وجود افرادها

Universalia Post rem

فوقف التصوريون Conceptualistes بين بين في هذا الجدال وقالوا ليست الكليات لا قبل ولا بعد الاشياء وانما هي موجودة في ذات الاشياء

وحقيقة الامر لا يتميز التصوريون عن الاسميين لان المعاني الكلية اما ان تكون جواهر للاشياء ، وما الافراد الا اعراضا

لها ، واما ان تكون للاشياء صفات متشاركة والفكر يفرق بين افرادها ليكون منها المعنى العام الكلي

هـذه هي قضية الموجود التي شغلت الفلاسفة الاقدمين وازدادت صعوبة في العصور الوسطى نظراً لوجود الاديان السماوية فاذا انتمى الفلاسفة الى مذهب الواقع مع كل ما يترتب عنه بداهة ، ادى الحال بهم الى التسليم بالحلول أي بذلك المذهب الذي يمزج الله بالعالم ويؤله الكون معتبرين المخلوقات أعراضاً وصفاتاً للجوهر الالهي . والكنيسة تمد ذلك تجديفاً وتشجب القائلين به .

وأول مؤسس لمذهب الاسميين هو راهب من كومبيان يدعى

روسلين Roscelin

ولد في اواسط الجيل الحادي عشر ومات سنة ١١٢١ ويقال انه علّم مذهبه في باريس على جبل القديسة جنفياف أو في حظيرة كنيسة نوتردام . ولكننا لا نعلم شيئاً عن تاريخ حياته ولم يبق من كتبه سوى خطاب ارسله الى ابيلاردس

كان يزعم ان الالفاظ « الكلية » لا معنى لها وقد اراد تطبيق نظريته على سر الثالوث فتصدى له القديس انسلم وغليوم دي شمبو وسفها رأيه . وحكم عليه مجمع سواسون الاكليركي بالشجب

سنة ١٠٩٣

اما غليوم دي شمبو G. de Champeaux

فولد بالقرب من ملون سنة ١٠٧٠ وتلقى العلم أولا على القديس انسلم في لاون ثم على روسلين في كمبيان • وصار استاذا لكاتدرائية نوتردام سنة ١١٠٣ وأخيراً سيم اسقفاً لمدينة شالون وتوفي بها سنة ١١٢٠

الف جملة كتب منطقية لم يتصل الينا ولا واحد منها ولم نقف على مذهبه الا من مؤلفات تلميذه ابيلاردس وخصوصاً من كتاب « الاجناس والانواع » De Generibus & de Specibus واليك خلاصة رأيه ملخصة عن ذلك الكتاب

قال : ان لكل جنس جوهراً واحداً متماثلا في جميع الافراد وما الافراد الا تعديلات عرضية للنوع والنوع تعديل عرضي للجوهر الجنسي . — فمثلاً لا يوجد حقيقة الا حيوان واحد عام .

فقام ابيلاردس ودحض هذه النظرية المؤدية الى الحلول . وقال باستحالتها كما يأتي :

« اذا كان كل انسان هو كل النوع الانساني . فهذا النوع بأكله يوجد في سقراط الذي في روما ويوجد في افلاطون الكائن بأثينا . فاذن سقراط المحتوي على كل الجوهر البشري يكون

موجودا اينما وجد ذلك الجوهر أي يكون في وقت واحد في روما وفي أثينا وهذا محل

وقد اضطر دي شمبو سنة ١١٠٨ الى التخلي عن وظيفة التدريس في نوتردام . وبعد ان كان يقول بان الواقع يوجد في كل شخص بدون فرق انتمى أخيراً لمذهب مناظره ابيلاردس من ان الجواهر متعددة ولو انها متشابهة في الاشخاص

وبطرس أبيلاردس P. Abelard (١١٤٢ — ١٠٧٩)

ولد في ضواحي ننت وتلقى العلم على روسلين رئيس حزب الاسميين ثم على غليوم دي شمبو زعيم الواقعيين المتطرفين وما كاد يبلغ الثالثة والعشرين من عمره حتى فتح مدرسة في ميلون سنة ١١٠٢ ثم انتقل الى كوبيل وأخيراً رحل الى باريس ليناظر استاذه دي شمبو المقيم في دير سان فكتور وافحمه بحجته حتى عدل عن مذهبه الواقعي

وانشأ مدرسة سنة جنفياف ولكنه تركها بعد قليل من الزمن ويمم شطر «لاون» ليجادل القديس انسلم. بيد ان جرأته هذه لم تجده نفعاً فطرد من لاون فعاد ثانية الى باريس سنة ١١١٣ وكان عمره اذ ذاك ٣٤ عاما فتنظر على مدرسة نوتردام وكانت شهرته ذائعة فالتف حوله عدد عظيم من التلاميذ من كل الجهات الاوروبية حتى ان الفنادق لم تكف لايوائهم . وقد سيم من تلاميذه

أكثر من خمسين اسقفا وتسعة عشر كردينالا وانتخب احدهم حبراً اعظم باسم سلستين الثاني

ولما رأى ابيلاردس ان صيته اشتهر عقد صلة غرامية مع هيلويز ابنة أخي الراهب فلبرت الا ان هذه الحال لم تستمر طويلا اذ حجر على الفتاة في دير ارجنتيل وترهب ابيلاردس في صومعة سان دنيس ثم عاد الى التدريس مخالفاً بعض التعليم المسيحي فحكم عليه مجلس سواسون سنة ١١٢١ وصار يتنقل من دير الى آخر الى ان عاد سنة ١١٣٦ مدرساً في مدرسة القديسة جنفيان كما كان قبلا . ولكن الكنيسة لم ترضَ عن تعليمه فالتأم مجمع اكليركي في سنس عام ١١٤٠ وخطأه في ١٩ مسئلة فاستأنف حكم المجمع امام الحبر الاعظم بروما وبينما هو قاصد اليها ليؤيد دعواه بلغه في الطريق تصديق البابا على الحكم فنكص على اعقابه فاضافه احد الرهبان واستكتبه اقرارا بنبذ التعاليم المضادة للكثلكة وقضى الاشهر الباقية من حياته في عزلة نادماً على خطاياه مستغفراً ربه حتى مات في شهر ابريل سنة ١١٤٢ بالغا من العمر ٦٣ عاما

ومؤلفاته على قسمين : (١) لاهوتية وهي كتاب اللاهوت وكتاب في وحدة الله وآخر في الثالوث ورابع في الايجاب والسلب (Sic & Non)

(٢) فلسفير — منها كتب محاورة بين مجتهد ويهودي ومسيحي وآخر في المنطق . وتعليقات على ارسطو وفرفريوس ثم كتاب في الاجناس والانواع قال فيه : ان المثال العام لا يوجد الا في الذهن كصورة . اما الجوهر ففي الاشياء ذاتها . والخواص المشتركة في جميع اشخاص النوع الواحد هي أصل المثال العام . والفكر لا يبتكر هذه الخواص المتشابهة وانما يجدها في ذات الاشخاص فيستخلصها بتجريدها من صفاتها الذاتية وما يتبقى بعد ذلك يكون المثال العام

وكان في فلسفته يمزج اللاهوت ويحاول اقامة البراهين العقلية على صحة الاسرار المقدسة

وهو الذي رقى الطريقة المدرسية الجدلية وحبب الى الناس دراسة الفلسفة لذاتها . وكان في كل قضية اختلافية يذكر البراهين التي تدحضها والحجج التي تؤيدها بدون ان يستخلص نتيجة تاركاً الحكم لفكر الانسان

ويكفينا ان نختم هذا الفصل باسمي جلبرت دلاً

بوريه (١٠٧٦ — ١١٥٤) Gilbert de la Porrée

وبطرس لمبارد Pierre Lombard

فالاول ولد في بواتيه وسيم على هذه المدينه اسقفاً وهو أحد تلاميذ أنسلم وكان حائزا لشهرة جديرة بعالم مثله . كان مذهبه واقعياً وقد اراد تفسير العقائد المسيحيه تفسيراً فلسفياً فسقط في الخطأ واضطر لتعديل رأيه عملا باشارة القديس برناردس . أما الثاني فكان تلميذاً لابيلاردس ويظهر انه اراد تنقيح كتاب الايجاب والسلب فعدل الجزء الخاص بالايجاب . وقد جمع في كتابه « المواعظ » أهم الحكم التي الفها علماء الكنيسه تقريظا للدين المسيحي وكان هذا الكتاب سبباً في منح لمبارد المذكور لقب استاذ المواعظ . ومصدراً لشهرته حتى انه تعين مدرساً للاهوت في باريس وانتخب اسقفا لهذه المدينه وفيها توفي سنه ١١٦٠ ميلادية

فلاسفة العرب

من الجيل الثامن الى الثاني عشر

— ٤٠ —

خصصنا هـذا الفصل لفلاسفه العرب ولم نقل للفلسفه الاسلاميه لانها ليست سوى استعارة عن اليونان وكل فضل العرب في هذاالصدد انهم كتبوا وترجموا الفلسفه الاغريقيه الى لغه الضاد (يراجع كتاب تاريخ اللغات الساميه للمسيو رينان)

وجاء في دائرة المعارف الفرنساوية الكبرى : ان من يعرف الاسلام حق المعرفه يستبعد وجودالفلسفه بجانب الدين الاسلامي الحنيف لان العلماء الذين اعتنقوا الفلسفه كانوا مضطهدين من رجال الدين والفقهاء وعامه المسلمين . ولذلك يمكننا القول ان الفلسفه لم تظهر في حياة العرب الا كحادث عرضي سريع الزوال

اتهم الفلاسفه بالكفر والزندقه فاضطروا الى التستر وتأليف الجمعيات السرية كجمعيه اخوان الصفاء الذين كان غرضهم منها تطهير الشريعه الاسلاميه مما تدنست به من الجهالات واختلطت بالضلالات ولأن الفلسفه حاوية للحكمه الاعتقادية والمصلحه الاجتهادية وانه متى انتظمت الفلسفه اليونانيه والشريعة العربية فقد حصل الكمال ! (رسائل اخوان الصفا)

ومع ذلك ففي العصر العباسي وعلى الخصوص في ايام المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) والمتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م) أخذ السريان في ترجمه علوم اليونان على اختلاف انواعها وعلى الخصوص كتب الفلسفه فظهرت ترجمات لمؤلفات ارسطو وشروحات لفلسفه الاسكندرية وايساغوجي فرفوريوس ورسائل اسكندر الافروديسي

وكان الخليفه المأمون انشأ سنه ٨٣٢ م مكتبا للترجمه برئاسه حنين ابن اسحق Johannitius.

وأول مدرسه عقليه كانت للمعتزلة ظهرت وقتا قصيرا كما ان أقدم فلاسفه العرب هو يعقوب الكندي ثم اشتهر الفارابي وابن سينا والغزالى وابن باجه وابن طفيل وابن رشد واليك نبذة عن كل واحد منهم

يعقوب الكندى :

ولد في اواخر الجيل الثامن ويتصل نسبه بملوك كنده وقد دعي فيلسوف العرب لانه عربي صميم وكان معاصرا للمأمون والمعتصم والمتوكل وله عندهم منزلة ساميه

برع في الطب والفلسفه والمنطق والالحان والهندسه

وطبائع الاعداد وعلم النجوم
نبغ وليس في المسلمين فيلسوف غيره ، حذا في تآليفه حذو ارسطو وله ترجمات عديدة ذكرها كتاب (تاريخ التمدن الاسلامي)

الفارابي (٢٦٠ هـ — ٣٣٩ هـ) Al Farabi

هو ابو نصر محمد بن طرخان ابن اوزلغ ولد بالفاراب من أعمال خراسان حوالى سنه ٢٦٠ هـ (٩٤٩ م) وتوفي بدمشق الشام سنه ٣٣٩ هـ كان في أول امره ناطوراً في بستان بدمشق وكان يشتغل بالحكمه في الليل على ضوء قنديل حارس البستان ثم تلقى على يوحنا ابن جيلان في أيام المقتدر فاخذ عنه المنطق فبرع فيه واستمر كذلك مدة حتى عظم شأنه وظهر فضله فقربه الامير سيف الدولة التغلبي واكرمه كثيراً فعظمت منزلته عنده. وكان له مؤثرا

مؤلفاته — كانت اكثر تصانيفه في رقاع ولم يصنف في الكراريس الا القليل . شرح كتاب المجسطى لبطليموس واكثر كتب ارسطو وله كتاب السياسه المدنيه والسيرة الفاضلة وكتاب الموسيقى والمباديء الانسانيه

(**فلسفته**) كانت حلوليه على مثال محدثي الافلاطونيين .
وهو أول من قال بنظرية العقل الفعال وانه جوهر منفصل عن

المادة — وتجـد آراءه الفلسفية في كتاب المدينة الفاضلة وعيون المسائل

-٤١-



ابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٦ م)

ويدعوه الافرنج Avicenne

هو ابو علي الحسين ابن عبد الله بن سينا البخاري المشهور بالشيخ الرئيس ولد في قرية خرميثن سنة ٢٧٠ هـ كان من صغره سريع الذكاء نادرة عصره .

انتقل به ابوه الى بخارى وهي يومئذ حافلة بالعلماء في زمن نوح ابن منصور من ملوك الدولة السامانية .

حفظ القرآن وأخذ يقرأ الفقه قبل ان يتجاوز العاشرة من عمره ولم يدرك السادسة عشر حتى تعلم المنطق والهندسة والطبيعة والفلسفة والطب ثم تفرغ للتوسع بهذه العلوم وكان يحي الليل في الدرس والبحث .

واتفق ان نوحاً المذكور مرض فذكر له ابن سينا فاستقدمه اليه فبريء على يديه فقربه اليه . وكان عند نوح مكتبة نادرة

المثال فاستأذنه في دخولها فاذن له فدرسها ووعى زبدتها . وأخذ في التأليف وهو في الحادية والعشرين من عمره وارتفعت منزلته وتولى بعض مناصب الدولة وتنقل في بلاد خراسان وهو موضع الاعجاب ومصدر الاستفادة

ومرت به طوارىء مختلفة وقاسى ما يقاسيه طالب العلى من العذاب، والملوك مناظروه او مريدوه . وكان قوي القوى كلها جسداً وعقلاً لكن شهواته البدنية كانت غالبة عليه فاثرت في مزاجه حتى اماتته بهمذان سنة ٤٢٨ ﻫ وهو في الثامنة والخمسين من عمره .

(مؤلفاته) تربوا عن المائة مصنف اهمها كتابه الطبي القانون وفي الفلسفة كتاب الشفاء ومختصره كتاب النجاة وتوجد مجموعة من كتبه في مكتبتي اكسفورد . وليد .

فلسفته ١ — في المنطق شرح كتاب ارسطو وكان جل اهتمامه بالتحديد والحكم وقد سار الفلاسفة المدرسيون في الجيل الثالث عشر على طريقته في تقسيم العلوم الفلسفية

٢ — في علم النفس : قال ان في الانسان خمسة عقول وهي القوة الفكرية المادية التي توصل الانسان للمعرفة المطلقة ، والعقل الممكن المتضمن الحقائق البديهية الاولى ، والعقل المنفعل المستفاد أي الفاعل ، والعقل السليم وهو الخاص بفئة من الناس

يؤدي بهم الي التصوف الديني (يراجع فصل القوة النظرية ومراتبها من كتاب النجاة)

وقد استنكر ابن سينا نظرية التناسخ ولم يسلم بان النفوس لها وجود قبل ان تحل في الاجسام ويسلم بخلود النفس وروحانيتها .

٣ — فيما بعد الطبيعة : كان جل اهتمامه مسألة منشأ الموجودات فقال بصدورها من الله أي من العقل الكامل (عقل العقول) والخير المطلق وعلة العلل .

والعلة الاولى تعرف انها اول الوجود ويتولد عنها عقل هو الاول الذي يتلوه . ثم يتلوه عقل وعقل وتحت كل عقل فلك وصورته التي هي النفس وهكذا يصير التدرج نازلا على سلم الافلاك حتى ينتهي الى العقل الفعال الذي يدبر أنفسنا

وبعد ان اوضح ابن سينا كيفية صدور الافلاك شرح أيضاً حركتها بانها أثر للعلة الغائية التي هي الله الخير المحض . فهو يجتذب النفس العاقلة لكل فلك .

والعقل الفعال intellect Agent

هو المصدر الذي تبعث منه ، بواسطة الحركات السماوية ، النفوس البشرية وباقي الصور الجوهرية التي يجب على المادة الارضية ان تقبلها لتحل فيها

Purchena احدى مدن الاندلس في اوائل القرن الثاني عشر الميلاد ومات في مراكش سنة ١١٨٨

درس بجد الطبيعيات والعلوم الادبية وعين سكرتيراً لحاكم غرناطه وأهم مؤلفاته رواية "حي ابن يقظان" وخلاصتها ان حياً المذكور وجد في جزيرة جرداء فكان يتغذى بلبن ماعز وقد تمكن بملاحظته للظواهر الطبيعية الى اكتساب معارف عالية اتمها بالتأمل والتروي حتى توصل بهما الى اثبات وجود الله

وهذه الرواية ترجمها الى اللاتينية بوكوك باسم Philosophus autodidactus sive epistola abi Joafar Ibn Tofail de Hay ebn Yakzan وترجمها الى الانكليزية س اوكلي S. Ockley وطبعت في لوندره سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨٣١ وترجمها الى الالمانية بريلينو وطبعت في فرنكفورت سنة ١٨٢٦ . وترجمها أيضاً أخهرون Eichhorn وطبعت في برلين سنة ١٧٨٢ ثم ترجمه أيضاً الى الفارسية والعبرية



— ٤٥ —

ابن رشد « ١١٢٦ — ١١٩٨ »

Averroes

هو ابو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد ولد في قرطبة من أسرة شهيرة بالاندلس كان جده فوالده قاضي القضاة

درس الفقه والشريعة على الاعشرية ومذهب الامام مالك — حاز شهرة عظيمة في الطب والرياضة والفلسفة وتقلب في عدة وظائف وأسس جملة مدارس وعين قاضي قضاة قرطبة . وقد بلغ أوج مجده على عهد يعقوب المنصور بالله . ولكن حساد شهرته وشوا به بانه يعتنق الفلسفة المخالفة للدين الاسلامي . فعقد المنصور مجلساً من مشاهير قرطبة وحكم عليه بالنفي في مدينة لوسانيا غير ان مدة نفيه لم تطل اذ عفى عنه المنصور ومات في ١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨ (٩ صفر سنة ٥٩٥ هـ)

وكان أشهر تلاميذه موسى بن ميمون فيلسوف اليهود

اشتهر ابن رشد في العالم اللاتيني بطبه وفلسفته الارسطوطاليسية غير ان شهرته من الوجهة الثانيه كانت الغالبة

ولقد تمشى الخطأ زمناً ما من ان ابن رشد مترجم ذلك

الفياسوف اليوناني لان ترجمات مؤلفات ارسطو كانت معروفة قبل ابن رشد باجيال ثلاثة وقد قام باغلبها العلماء السوريون والكلدانيون واخصهم الاطباء النساطرة

(مؤلفاته) كثيرة ويصعب تعدادها فن ذلك كتاب الكليات. وهو مؤلف طبي ذو سبعة أجزاء . وكتاب مختصر المجسطى . وله أيضاً كتاب ممتع في الفقه . هذا فضلا عن شروحاته لكتب ارسطو وهي على ثلاثة انواع : مطول ووسط ومختصر

وأغلب مؤلفاته مترجمة الى اللغتين العبرية واللاتينية ويندر وجود نصها العربي

(فلسفته) كان الفلاسفة العرب يبذلون عنايتهم في اثبات خلقة المادة وحدوثها من العدم . ووجود الله منفصلا عن الكون ويهيمن عليه بافعاله . وان الذات العلية علة الموجودات كلها

اما ابن رشد فقد خالفهم في حدوث العالم وقال بقدمه أي بازليته . وهذا الكون يتضمن جميع الصور بالقوة فيظهرها للوجود المحرك الاول ولذلك اصبح العالم الذي نرى كائناته الآن نتيجة تلك الحركات . والمحرك الاول يحرك الفلك الاول وهذا يوصل الحركة الى الكواكب السيارة الى ان تنتهي الى فلك القمر الذي يحركه العقل البشري . ولكل فلك عقل. أما العقل البشري

(الفعال والمنفعل) فله صورة واحدة ابدية غير قابلة للفناء ومنفصلة عن الاشخاص . وبواسطته تتصل النفوس البشرية بعقل العقول .

وقد ميز ابن رشد كارسطو بين العقل الفعال والعقل المنفعل فالاول يتجرد عن كل اتصال بالهيولي . والثاني خاص بالاشخاص وقابل للفناء كسائر القوى النفسية المتغيرة والمعرفة لا تدرك الا باشتراك العقلين فالعقل المنفعل يسعى للاتصال بالعقل الفعال كما تستلزم القوة الفعل وكما تحتاج الهيولى للصورة . ومتى تم الاتصال ادرك الانسان معرفة الاشياء وفهمها بالحالة التي هي عليها .

فنظرية الاتصال التي كانت مدار الفلسفة النفسية الشرقية جردها ابن رشد من مظهرها الصوفي الاسلامي . اذ قال ان الاتصال بالله لا يصير الا بالتعليم وبهذا يتزحزح النقاب الذي تتقنع به حقيقة الكائنات وتتجلى له الالوهية بمظهرها الباهر

وتؤدي فلسفة ابن رشد الى المذهب المادي والحلول فينكر البعث والحياة الاخرى ويقول ان الانسان بجسمه يفنى اما الانسانية المطلقة فباقية خالدة .

وهو لا يسلم بان الانسان مسير في افعاله الاخلاقية وان الخير ليس موكولا لارادة الله بل لحرية الانسان والا لما كان للظلم والعدل معنى . وهو لا يعطي للانسان الحرية الكاملة في الارادة والعمل بل جعلها وسطا بين الجبر والاختيار . اي انها من الوجهة النفسية

مطلقة ولكنها مقيدة بالظروف الخارجية والمؤثرات العرضية .

هذا هو رأي الفيلسوف القرطبي ومن الواضح ان مذهبه الديني على نقيض جميع الشرائع السماوية

— ٦ —

الفلسفة اليهودية

كان للمذاهب اليونانية تأثير عظيم على الفلسفة اليهودية وقد انتقل هذا التأثير بواسطة فلاسفة العرب

وأول فيلسوف يهودي عرف في هذا العصر هو سعديه Saadja (٨٩٢ — ٩٤٢) الذي ولد في القطر المصري وألف كتاب الايمان والمعرفة

ولكن لم يتمتع فلاسفة اليهود بحرية الفكر الا في اسبانيا ايام حكم المسلمين. واثنان من أولئك الفلاسفة يستحقان ان ننوه بذكرهما وهما ابن جبرول وموسى ميمون

فالاول يدعى سليمان بن جبرول ويذكره الافرنج باسم Avicebron (١٠٢٠ — ١٠٧٠) امافلسفته فمصبوغة بالافلاطونية الحديثة ومشروحة في مؤلفه « جوهر الحياة » وتتلخص في القول بالحلول وتعدد الصور والهيولى في الكائنات الخاصة

وموسى ابن ميمون (١١٣٥ — ١٢٠٤) ويعرفه الافرنج باسم Maimonides ولد في قرطبة في ٣٠ مارس سنة ١١٣٥ ومات في فسطاط مصر في ١٣ دسمبر سنة ١٢٠٤.

كان ابوه قاضياً مشهوراً . ولما اضطهد المسلمون اليهود والمسيحيين مخيرينهم بين اعتناق الاسلام أو المهاجرة اضطر موسى لان يعتنق الاسلام في الظاهر زهاء ستة عشر عاماً وعندما بلغ الثلاثين من عمره رحل الى افريقيا فاقام في فاس سنة ١٢٦٠ وفي فلسطين سنة ١٢٦٥ ثم جاء الى الفسطاط (مصر القديمة) واستوطنها وكان يتاجر في الاحجار الكريمة . ثم فتح مدرسة يعلم فيها اللاهوت والفلسفة والطب وكان طبيباً محبوباً لدي الفاطميين محترماً من اليهود والعرب معاً

(مؤلفاته) اكثرها طبية وقد فقدت أما أهم كتبه الفلسفية فهو كتاب « دليل الحائرين » كتبه بالعربية . وترجمه صمويل بن تيبون الي العبرية باسم «موريه نبوخيم » وطبع سنة ١٤٨٠ ثم ترجمه جاك منتينو الى اللاتينية

أما النص العربي فقد طبع للمرة الاولى مع ترجمته الفرنساوية وتعليقات عليه بمعرفة مونك باسم Guide des egares

لم يكن موسي بن ميمون مبتكراً بل فضله في حثه ابناء جلدته لدراسة فلسفة ارسطو وبواسطتهم نقلوا العلوم العربية

الى أوربا المسيحية

وكتابه دليل الحائرين ألفه لاولئك الذين لم يستطيعوا ان يوفقوا بين نصوص التوراة والحقائق العقلية وفيه يشير الى ترك تفسير الكتاب الحرفي ويعتقد ان الله خلق هيولى وصورة العالم من العدم . اما تحديد الالوهية فغير مستطاع لان الله فعل مجرد ارقى من كل الكمالات التي نصفه بها

ورأيه الخلقي . ان الانسان يريد الخيروالشر بحرية كاملة وهو انما يعمل الخير لمنفعته ولان ذلك أيضاً يرضي الله وزلفى اليه . اما مسألة البعث فموكولة للايمان الديني لان العقل لايستطيع انكاره او اثباته

ويرجع اليه الفضل في تحرير عقول اليهود من التمسك بترجمة التوراة والتلمود ترجمة حرفية

المدة الثانية

العصر المدرسي الذهبي

الجيل الثالث عشر

- ٤٧ -

كان الجيل الثالث عشر العصر الذهبي للفلسفة المدرسية اذ فيه بلغت اوجها . ويرجع ذلك الى اسباب كثيرة منها :

أولاً : الاطلاع على المؤلفات اليونانية والعربية وترجمتها الى اللاتينية . واشتهر بين المترجمين هنري دي برابنت وغليوم دي مربيك كما ان المطران رايمون افتتح في «توليدا» مدرسة للترجمة فنقلت من العربية الى اللاتينية مؤلفات ارسطو والكتب العلمية امثال مؤلفات بطليموس وجالينوس كذلك مؤلفات فلاسفة العرب السابق ذكرهم في المدة الاولى .

وقد سببت هذه المؤلفات اضطراباً في الافكار ، وعلى الخصوص بعض كتب ارسطو لانهم كانوا ينظرون اليها بعين لا تتلائم مع الدين المسيحي فقرر مجمع باريس سنة ١٢١٠ منع تدريس العلم النظري وشروحات ابن رشد وقرر هذا الحرمان القاصد الرسولي روبرت دي كورسون سنة ١٢١٥ ولكن لم يمض زمن حتى تعدلت الافكار بخصوص الفلسفة المشائية فسقطت

تلك التحريمات وقررت كلية الفنون رسميا سنة ١٢٥٥ تدريس العلم الطبيعي وعلم ما وراء المادة .

ثانياً : انشاء الجامعات فتأسست جامعةباريس فياوائل الجيل الثالث عشر وضمت تحت لوائها جميع مدارس العاصمة وتفرعت الى اربع كليات (١) اللاهوت (٢) الفلسفة والفنون (٣) الطب (٤) الحقوق . وفي أواسط ذالك الجيل ارسلت الجامعة من قبلها مدرسين لجامعة اكسفورد وسنّت لها نظامها

ثالثا : تنظيم التعليم فكان على ثلاثة درجات (١) بكالوريا (٢) ليسانس (٣) أستاذ

وكان التعليم على نوعين : محاضرات يلقيها الاستاذ ويشرح ما غمض منها . أو المناقشة على طريقة السؤال والجواب

وكان التعليم حراً وللطالب ان يختار الاستاذالذي يريدتلقي العلم والانتساب اليه

رابعا : انشأ الجمعيات الدينية فتأسست في باريس رهبنة الدومنيكانسنة ١٢١٨ ورهبنةالفرنسسكان ١٢١٩ وقد توصلت الرهبنتان الى الحصول على وظائف التدريس في الجامعة واتسع نفوذها شيئاً فشيئا حتى اصبح ثلاثة ارباع المدرسين منهم وتخرج على ايديهم اشهر دكاترة الجيل الثالث عشر

خامسا : (السوربون) . لقد أنشئت عدة مدارس أهلية على مثال الجامعات الرسمية . واشهر تلك المدارس تلك التي أنشأها

روبرت سوربون سنة ١٢٥٣ لتخريج رجال الدين والوعاظ ومفسري الكتاب المقدس . وكانت ابواب الكلية مفتوحة للجمهور .

و بين الذين اشتهروا من فلاسفة هذا الجيل

اسكندر دوهاليس Alexandre de Hales

لم نعلم شيئا عن سني حياته الاولى وهو انكليزي الاصل قدم باريس ليتلقى فيها العلم ثم انتظم في سلك الرهبان الفرنسكان سنة ١٢٢٢ وعين استاذاً للفلسفة في الجامعة سنة ١٢٣١ وكان يلقب بالمعلم الذي لا يعارض . وفي تعليمه كان يمزج الفلسفة باللاهوت والف كتابا سماه « المجموع » مقسم الى اربعة أقسام تكلم في الاول عن الله ، وفي الثاني عن المخلوقات ، وفي الثالث عن الكنيسة وفي الرابع عن الغايات الاخيرة

واغلب المؤلفين في الجيل الثالث عشر كانوا يتبعون هذا التقسيم في مؤلفاتهم .

وكانت طريقته الجدلية لا غبار عليها . فيذكر في كل قضية الادلة المؤيدة لها والتي تنفيها ثم يستخلص الحل الذي يجمع الكل عليه انه الصحيح

وكانت الفلسفة المشائية عمدته في ارائه كما انه لم يهمل الاخذ

التى وردت في المذهب المشائي . ومات سنة ١٢٦٤

٤٨

البير الكبير (١٢٠٥ — ١٢٨٠) Albert Le Grand

هو الابن البكري للكونت دي بولستاد صديق الامبراطور فريدريك الثاني

ولد في لنجين احدى مدن دوقية سواب بجرمانيا وارسله ابوه لتلقي العلم في بدوا بايطاليا ثم انتظم في سلك الرهبان الدومنيكان سنة ١٢٢٣ وقام بالتعليم الديني في عدة مدن منها كولونيا وراتسبون وستراسبورغ ثم قدم باريس مع تلميذه القديس توما ومكث فيها ثلاثة سنوات من سنة ١٢٣٥ الى سنة ١٢٤٨ وقد دعي لان يسام اسقفا لراتسبون فرفض حتى لا تشغله الرتبة الكهنوتية عن العلم ولبث في ديره ولم يتركه سوى مرة واحدة عام ١٢٧٧ حيث قصد باريس ليناضل عن تلميذه القديس توما ضد بعض منتقديه . ومات سنة ١٢٨٠ بالغا من العمر ٧٤ عاما وقد طوبته الكنيسة الكاثوليكية في ٢٧ نوفمبر سنة ١٦٢٢

كان البير الكبير واسع العلم كثير الاطلاع حتى عد ساحراً

كجربرت وكان خبيراً بجميع المعارف كالفلك وتخطيط البلدان وطبقات الارض وعلم المعادن والكيمياء والطب . ومطلعا على الكتب الفلسفية اللاتينية والعربية من متن وشرح ، وترك لنا مؤلفات كثيرة جمة وجمع معلوماته كلها في دائرة معارف مرتبة ومبوبة في ثلاثة ابواب : العلوم المنطقية والطبيعية والادبية

كان مذهبه واقعيا وفلسفته مشائية وتمكن من ادخالها في المدارس بقوة نفوذه وتأثيره .

يرى ان النفس جوهر الجسم أي القوة الفاعلة فيه وعنصره الحيوي • ولم يبد فكره فيما اذا كانت النفس اتحدت بالجسم مباشرة أو بالواسطة . وقد ميز بين القوى وقسمها الى ثلاثة أنواع (١) القوة النباتية للتغذية والنمو والتناسل (٢) القوة الاحساسية • و (٣) القوة الفكرية . ويعتقد بخلود النفس • ولكنه لم يفضل القوة الفكرية كارسطو • ولا القوة الارادية كأغسطينوس • اما في العلم النظري والطبيعي فيرى ان الهيولي الاولي لا تنفعل انفعالاً مجرداً بل تتضمن في ذاتها بذور التوليد على اشكال غير تامة تتحد بها بالتفاعل الطبيعي فتكون من ذلك الاجسام — وفي قضية الكليات يميل الى المذهب الواقعي المعتدل ويقول ان الملائكة مكونة من صورة خاصة ومن جوهر واحد يدعوه (fundamentum) وهو يميل الى الرأي القائل بان الخليقة حدثت من العدم — ويدحض نظرية « الصدور »

لابن جبرول

٤٦

القديس توما الاكويني (١٢٢٧ — ١٢٤٥)

St.Thomas d'Aquin

أما حكمنا على اشهر تلاميذ البير الكبير فيجب التحفظ فيه • ذلك لان حياته واعماله جديرة بالاعجاب العظيم • ويصعب تصور كيف امكنه في وقت وجيزان يسطر المؤلفات العديدة في شتى المواضيع التي عالجها بدقة نظر وفهم صحيح ، بيد ان عجبنا ليزول اذا نظرنا الى ما اتاه فلاسفة العرب من الشروحات المطولة والمؤلفات الكثيرة التي دبجوها والجلد العظيم الذى اظهروه في كتابة المجلدات الضخمة •

ولد توما حوالي سنة ١٢٢٧ في بلدة اكوينو لضواحي نابلي من عائلة شريفة وتلقى علومه على الرهبان البنادكتيين وفي جامعة نابولى ثم اندمج في سلك الرهبان الدومنيكان سنة ١٢٣٣ بالرغم من معارضة والده الشديدة فارسله رئيس الرهبنة للدرس في كولونيا حيث تتلمذ لالبير الكبير من سنة ١٢٤٥ الى سنة ١٢٥١

ثم قصد باريس فنال من جامعتها درجة بكالوريوس وصار يعطي دروساً عمومية .

وكانت الجامعة في ذلك الحين في جدال حاد مع المدارس الدينية المزاحمة لها ، فاخذ البير الكبير والقديس توما وبونفنتورا يناضلون ضد سنتامور رئيس الجامعة واستمر الجدال سجالا فتداخل البابا اسكندر الرابع في الامر وطوعا لرغبته منحت الجامعة في ٢٣ اكتوبر سنة ١٢٥٧ لقب استاذ لكل من القديسين بونافنتورا وتوما

وبعد ان علَّم صاحب الترجمة عدة سنين في مدارس ايطاليا عاد الى فرنسا وعلَّم فيها اللاهوت زهاء العامين وكان عضدا قوياً للحركة التي قامت ضد تعاليم ابن رشد التي ادخلها دي برابنت في المدارس الباريسية

وفي يناير سنة ١٢٥٤ دعاه البابا جريجوار العاشر ليشترك في مجمع ليون وفيما هو ذاهب اليه اعتراه مرض اقعده عن متابعة سيره ولم يأت يوم ٧ مارس من السنة المذكورة حتى وافاه القدر المحتوم بالغا من العمر ٤٨ سنة

وقد منحه البابا يوحنا الثاني والعشرين لقب قديس سنة ١٣٢٣ ولقبه البابا بيوس الخامس سنة ١٥٦٧ « المعلم الملائكي »

(فلسفة) ان فلسفة القديس توما كفلسفة البير الكبير صورة منقولة عن فلسفة ارسطوا كما فهمها من الترجمات اللاتينية للترجمة العربية وهذه الفلسفة مبينة في مؤلفاته وعلى الخصوص في مجموعتيه : (المجموعة ضد الامم) والمجموعة اللاهوتية وهذا الكتاب الاخير منقسم الى ثلاثة أجزاء تبحث في الله ، وفي الانسان والوسيط ، والمسيح عيسى

اهتم أولا بالتوفيق بين العقل والايمان فيقول ان الحقيقة التي هي غرض المعرفة اما ان تكون فوق متناول العقل البشري فلا تدرك الا بالهام لاطبيعي اي بالايمان . واما ان تكون مناسبة لكفاءة الانسان الطبيعية فيكون للعقل وحده قوة ادراكها كوجود الله وأحديته وصفاته والخليقة من العدم . وحرية النفس البشرية وروحانيتها وخلودها

وارتباط الفلسفة باللاهوت متباين لان غرض الاولى الحقائق المادية التي يدركها العقل وطريقه اليها البرهان . اما غرض الثاني فالحقائق النظرية الفائقة الطبيعة وهي الموحى بها من الله وطريقها التسليم بالوحي

كذلك يجب ان لا تخالف الفلسفة الدين في المواد المشتركة بينهما كوجود الله وأحديته وروحانية النفس الخ فهي مسائل موحى بها ويستطيع العقل حلها طبقا للوحي لان مصدرهما واحد وهو

الله موجد العقل ومانح الوحي ومن المحال الظن بخطأ الله

كذلك سائر نظريات ارسطو فهو يسلم بها كاثبات وجود الله من الحركة . ويقول ان كل موجود مؤلف من صورة وهيولي فصورة أي فردانساني تختص بالجنس البشري وتتخذمنه الصفات العامة . واذا طبقنا هذه الصورة على أي مادة معينة وقلنا عن أى جسم مؤلف خاصة بكيفية دون أخرى ان هـذا المركـب ليس هو الانسان على وجه التعميم بل هو زيد أو بكر بالتخصيص

ولـكن قد يعترض بان هذ الجسم لا يمكن تخصيصه الا اذا عيّن بصورته والا لمـا صار زيداً أو بكراً من الناس بل هيولي بكل معنى الـكلمة بدون ان تتميز الصورة وبذلك لن تحل مسألة التخصيص الشخصي individuation

فاجاب القديس توما على هذا الاعتراض بان تمييز الاشخاص هو اثر من الخلقة أي من ارادة الله الذي شكل المادة بالاشكال المتكون منها العالم . فكأن التخصيص نشأ من الصور التي تعين للمادة ان تتشكل بها

بقي معرفة ما اذا كانت المادة يمكنها قبول هذه التخصيصات أو ان التعيين المذكور موجود في ذاتها ومضطرة للتشكل به

هـذه مسألة شغلت الفلسفه ولا زالت ولن تزل شغلها

اما في علم الاخـلاق فالقديس توما يذهب الى ان الله هو الخير الاعظم . والحرية التي أوجدها الله في الانسان تسمح له ان

يعمل بتعقل للاقتراب والدنو من ذاك الخير في هذا العالم

ويظهر من ذلك ان هذا القديس جعل لنا كفائة لعمل الخير أكثر مما تصرح به النظرية الفسطينية وهو في الوقت نفسه جعل للحرية الالهية حداً ولقد قام الجدال بهذا الشأن بين انصار القديس توما وبين انصار دنس سكوت أي بين الدومنيكان والفرنسسكان .

٥٠

دنس سكوت (J. Duns Sco)

والد في البلاد الانكليزية في السنة التي توفي فيها القديس توما أي عام ١٢٧٤ ومات في كولونيا سنة ١٣٠٨ بالغا من العمر ٣٤ عاماً .كان راهبا فرنسسكانيا اشتهر بتعليمه في جامعة أكسفورد ثم شخص الى باريس لينال من جامعتها اجازة الدكتوراة في اللاهوت سنة ١٣٠٤

وبواسطته عاد مذهب الواقع الى الظهور بشدة ولكنه لم يقع في نتائجه الحلولية بفضل تمسكه بالايمان اليقيني . وبالرغم عن قصر حياته فانه كتب عدةُ مجلدات باللغة اللاتينية

وقد كانت فلسفته مخالفة في كثير من المواضع لفلسفة البير

الكبير والقديس توما وبشأنها احتدم الجدال بين رهبنتي الفرنسسكان والدومنيكان اذ كانت كل رهبنة تعضد فلسفة زعيمها وتسفه رأي خصمه . وقد كان أهم الخلاف في قيمة العقل فضيق دائرته واعطى الاسبقية للقوة الارادية على القوة الفكرية . ومن رأيه ان العقل لا يستطيع باي حال اثبات خلود النفس ولا يمكنه ان يعرف عن يقين اذا كان الله هو غاية الانسان الطبيعية ولذلك يجب ان تكون الفلسفة خاضعة للدين وان اللاهوت هو قبل كل شيء علم عملي وأخلاقي

اما فلسفته بوجه عام فهي مشائية كفلسفة القديس توما مع اختلاف بينهما في بعض المواضع ويرجع هذا الاختلاف الى الوجهة التفسيرية التي يتخذها كل واحد منهما

٥١
الصوفيون

اشتهر في الجيل الثاني عشر المذهب الصوفي الذي يزعم ان جميع القضايا التي يختص العقل بحلها . يجب تركها للوجدان .

وكان زعيما الصوفيين في ذلك العصر الراهبين هوج وريشار من دير القديس فكتور بباريس فكانا مثال التقوى والتواضع

ولد الاول سنة ١٠٩٦ في هرتنجان بمملكة ساكس تلقى دروسه في أحد الاديرة ثم اضطر لترك مسقط رأسه بسبب الحرب ودخل دير سان فكتور ولم يلبث ان تولى التعليم فيه سنة ١١٢٥

والذي يهمنا من صنفاته فلسفته التصوفية. قال ان للنفس قوى ثلاث اصلية: (١) قوة طبيعية ومركزها الكبد و (٢) قوة حيوية ومقرها القلب و (٣) قوة نفسية أو حيوانية ومركزها المخ • وتصدر عن القوة الاخيرة الحركة والاحساس والفكر. ولا يوجد في الانسان سوى عنصر واحد للحياة يسمى الروح اذا نظر اليه مستقلا عن الجسم، ويدعى نفساً باعتبار حلوله في الجسم ومسبب الحركة الحيوية — اما النفس والجسد فجوهران مختلفان لكنهما متحدان، ورابطة هذا الاتحاد التخيل والاحساس

وأما ريشار فاسكتلندى الاصل تتلمذ لهوج وقد ولد سنة ١١٣٦ ومات سنة ١١٧٣ كتب جملة مؤلفات في المذهب الصوفي وفي مصادر المعرفة (التجربة والعقل والايمان) وتكلم عن الطبيعة والصفات الالهية

غير ان أشهر الصوفيين هو بلا مراء يوحنا الملقب بالقديس بونافنتورا ولد سنة ١٢٢١ في مقاطعة توسكانا (بإيطاليا) واندمج في سلك الرهبنة وهو شاب. ثم قصد باريس سنة ١٢٤٣ ليتعلم اللاهوت على اسكندرد وهاليس وحاز سنة ١٢٤٨ اجازة الليسانس للتدريس وتألفت بينه وبين القديس توما صداقة متينة • ثم انتخب رئيساً للرهبنة سنة ١٢٦٠ ومنح لقب كردينال واسقف البانو سنة ١٢٧٣ ثم مات في السنة التالية اثناء انعقاد مجمع ليون المسكوني. وكان يلقب بالمعلم السرافيني

ألف القديس بونافنتورا مؤلفات كثيرة بعضها فلسفي وبعضها لاهوتي وفلسفي معاً ولكن اهمها كتاب طريقه لمعرفة الله Itinerarium mentis in Deum

كان متشيعاً لمذهب القديس اغسطينوس وهو يعتبر ان افلاطون كان حكيما. وارسطو عالماً. والقديس اغسطينوس جامعاً بين الحكمة والعلم

ومع تشيعه ذلك، لم يكن متعصباً لفكره بل كان يوفق بين العقيدة الاغسطينية والمذهب المشائي. تاركاً لمعارضيه الحرية الفكرية التي جعلها مبدأ له حيث قال « اني في المسائل الصعبة المشكوك فيها التي لم استطع اكتشاف صحيحها من فاسدها ووجدت الاختلاف بين العلماء بسببها قد اتخذت لي رأيا خاصا بدون ان احتقر أو أسفه رأي الآخرين »

(فلسفته الخاصة) : يرى ان العقل ولو أن متناوله محدود لا يستطيع ادراك الاسرار الدينية الا ان في مقدرته ادراك الحقائق الاولية كوجود الله

وبينما انصار المذهب الاغسطيني لا يفرقون بين النفس وقواها مخالفين في ذلك مذهب القديس توما. نرى القديس بونافنتورا يتخذ رأياً بين المذهبين، ويتبع ارسطو في انكار وجود معاني غريزية من أصل الخلقة. ولكنه يعترف بوجود عادة عقلية

يدعوها Judicatorium Naturale . وينتمي لاغسطنيوس في قوله ان القوة الارادية اشرف من القوة الفكرية . ثم يقول بتعدد الصور الجوهرية في الانسان

كما ان في العلم النظري يميز بين الهيولي والصورة في جميع المخلوقات وحتى في الملائكة أيضاً. وهذه النظرية «الايليمورفيه»(١) أخذها عن ابن جبرول اليهودي

كذلك يرى رأي اسكندردوهاليس في تعددالصورالجوهرية ليس فقط في الاجسام المختلطة (العضوية والغير عضوية) بل وأيضا في العوامل المكونة للطبيعة فلا يوجد فرق بين الجوهر النوعي والجوهر الفردي . والاصل المميز لشخص عن شخص آخر يصدر عن الهيولى والصورة معا

اما فيما يختص بالمعاني الكلية العامة فهو ينتمي لرأي ارسطو مخالفا افلاطون.

٣ — المنشقون

انشق عن الفلسفة المدرسية التي كانت متبعة في الجيل الثالث

---

(١) هذه اللفظة مشتقة من كلمتين يونانيتين ايلي أي هيولى . ومورفي أي صورة)

عشر بعض المفكرين الاحرار اذ مزجوها بعقائد متفرقة لا تجانس بينها .

وأشهر من شذ : روجيه باكون . ورايمون لول .

روجيه باكون (١٢١٠ - ١٢٩٤) **Roger Bacon**

ولد بألشستر بانجلترا وعكف منذ صغره على تعلم اللغات والعلوم في جامعتي اكسفورد وباريس وحاز من هذه الجامعة الاخيرة اجازة الدكتوراه ثم علم فيها سنة ١٣٤٥ وتعرف بعلماء عصره وبعد بضعة سنوات انتظم في الرهبنة . ونظراً لانتقاداته المرة على الفلسفة المدرسية نبه عليه رؤساؤه ان لا ينشر كتاباته في الخارج ولكن لحسن حظه ارتقى صديقه « جي دي فولك » السدة البابوية باسم اكليمنضس الرابع وبعث اليه برسالة حبرية يطالب فيها منه « ان يرسل له صورة من مؤلفه رغما عن كل تنبيه صدر أو يصدر اليه من رؤسائه .

فانتهز باكون هذه الفرصة وكتب مؤلفه « **Opus Majus** » وارسله الى البابا سنة ١٢٦٧ مع تلميذه بان دي باريس

وما كاد البابا ينتقل الى جوار ربه حتى نال المترجم سخط وغضب رؤسائه الذين لم يعبأ باوامرهم وقيل ان جيروم دسكولي رئيس الرهبان الفرنسسكان حكم عليه بالعزلة الانفرادية . ومات في ١١

يونيه سنة ١٢٩٤ في الرابعة والثمانين من عمره

أما مؤلفه Opus Majus فكان مقسما سبعة أقسام تبحث في اسباب الخطأ . وعلاقة الفلسفة بسائر العلوم وعلى الخصوص باللاهوت . وفي اللغات • والرياضيات والفلسفة الاخلاقية • والنظرية وغيرها

وكان ينظر الى ارسطو كأمير الفلاسفة على الاطلاق ولكنه كان يرى الترجمات اللاتينية لمؤلفات ذاك الفيلسوف مشوهة بالاغلاط وتمنى لو امكنه ان يحرقها كلها

(مؤلفه) كان جل اهتمام باكون بالرياضيات وعلم الابصار والفلك وتقويم البلدان والكيمياء وعلم اللغات • وكثيراً ماعاب معاصريه على اهمالهم الملاحظة والاختبار • وقد اختص بعلم الابصار فشرح العين ووصف تأثيرات الانعكاس والانكسار وعرف خواص العدسات المقعرة والمحدبة • واظهر فطنة وحذقا في اوجه القمر وسائر الظواهر الجوية وقال خرستوف كلمبوس في تبيان رسالته الى ملك اسبانيا انه انتفع باراء باكون فيما يختص بموضع الهند الغربية وقد ساعدته على اكتشاف امريكا • ومما يدل على نبوغه وابداعه انه فكر قبل ستة اجيال بالاكتشافات العظيمة وتنبأ بحصولها كالسفن البخارية والسكك الحديدية • والمناطيد الهوائية • والنظارة الراصدة (تلسكوب) والنظارة

المكبرة (مكرسكوب) والسفر الجوى والكباري المعلقة الخ كما انه أيضاً كان ملماً باللغات اليونانية والعبرية والكلدانية واللاتينية وقارن بينها . وكان شديد اللهجة في نقده فلم يسلم منه كبار الفلاسفة كاسكندر دوهاليس . والبير الكبير . وغيرهم

(فلسفته) كان يسلم بوجود مادة روحية خاصة بالانفس وبالملائكة ، وبتعدد الصور . فهو بذلك يتفق مع المذهب الاغسطيني ومع الفلسفة المدرسية القديمة . ولكنه يختلف معهما في كثير من المسائل فمنها :

١ — انه يقول ان الصورة لا تعطي الهيولى شكلا . ولا الهيولى هي التي تشكل الصورة . انما هما تختلفان اختلافاً نوعياً وذلك بعكس الاعتقاد السائد من ان الهيولي واحدة بالعدد في سائر الموجودات

٢ — بينما الفلاسفة المدرسيون يعترفون بفائدة الفلسفة وقيمتها الخاصتين بها مع خضوعها للايمان . كان باكون ينفي عنها أي فائدة ذاتية بل يجعلها خادمة (ancilla) للدين ليس الا . وخطأ باكون نشأ عن اعتقاده ان الوحي هو الطريق الضروري الذي يوصل الانسان الى المعرفة والفلسفة

٣ — يميز المدرسيون في القوة الفكرية العقل الفاعل والعقل المنفعل ولكن باكون ينفي ذلك ويقول ان العقل الفعال

ليس جزأ من النفس بل هو جوهر منفصل عنها يهبه الله لكل شخص وتتفاوت درجة استنارته في كل انسان

٤ — كذلك في درجات المعرفة الثلاثة (التقليد والتروي والتجربة) يذهب الى ان التقليد أقل درجة من التروي اذ كثيراً ما يكون مشوهاً بالاغلاط . كذلك التروي الصرف ويدعوه باكون (unda demonstratio) لا يؤدي الى المعرفة اليقينية التامة (non Plene certificat) للحقيقة المجردة اذ لم يستمن بالتجربة . والتجربة على نوعين : خارجية وباطنية . وهذه تنشأ بالهام الهي ، ولها سبع درجات

أما ريموند لول (١٢٣٥ — ١٣١٥) Raymond Lulle

فولد في بلما في جزيرة ماجوركه . ونشأ في بلاط جاك الاول ملك اراجون وقضى شبيبته في اللهو ولكنه ما كاد يبلغ الثلاثين من عمره حتى عكف على تعلم العلوم واللغات وعلى الخصوص اللغة العربية ثم اعتنق الرهبنة وسافر جملة اسفار في أوروبا وافريقيا وجعل غرضه تعليم اللغة العربية في جميع المدارس المسيحية والقضاء على مذهب بن رشد . وتبشير المسلمين بأنجيل المسيح .

وكثيراً ما جادل علماء المسلمين وقد استشهد بتعذيبهم له سنة ١٣١٥ في تونس

(اراؤه الفلسفية) كان عدواً لدوداً لمذهب ابن رشد ومعتنقيه من مسلمين ومسيحيين، وبينما هؤلاء يقولون بحقيقتين متباينتين بمعنى ان ما هو حقيقي في الفلسفة يمكن ان يكون خطأً في اللاهوت والعكس بالعكس . فان لول اراد تحكيم العقل في كل شيء حتى في الاسرار الدينية الموحى بها التي اعتبرها المدرسيون فوق متناول العقل ويجب التسليم بها بالايمان ومن رأيه ان الايمان والعقل يتمشيان معاً بدون ان يختلطا كالزيت يطفو فوق الماء ولا يختلط به

كذلك يضيف لول حس سادس على الحواس الخمسة ويدعوه affatus ويستعمل للدلالة على الاشياء . وان الانسان مركب من جسم ونفس وروح • وان السماء ذات لها نفس محركة . وانه توجد صورة أولية مطلقة وعامة تأخذ عنها الاشكال الخاصة صورها ، وهي باتحادها بالهيولى الاولى تكوّن الجوهر العام للعالم .

اما كتابة الفن الاكبر (Ars Magna) فهو عبارة عن آلة للفكر على نمط الآلة الحسابية توضح المعاني بدلاً من الاعداد والارقام . ويمكن للانسان بداهة ان يتبين جميع الصور التي يتخذها الفكر بطريقة صناعية

المدة الثالثة

٣

انحطاط الفلسفة المدرسية

الجيل الرابع عشر ونصف الخامس عشر

تسنمت الفلسفة الجدلية ذروتها في الجيل الثالث عشر ، عصر القديس لويس . ثم اذ بلغت اوجها اخذت تتدرج الى الانحطاط ويرجع ذلك الى الاسباب الآتية :

أولاً — (قلة النبوغ الشخصي) فكان الطلبة يتخرجون من الجامعات ويمنحون اجازاتها بدون عناء متبعين خطة واحدة وهي شرح المذاهب السالفة وتقييد الفكر بها

ثانياً — (الاسراف في الجدل) فكانت البراهين المنطقية تستعمل في الجدل ليس كواسطة للوصول الى الحقيقة بل كغاية، واكثر ما كان يدور الجدال في الالفاظ دون النظر الى المعنى المقصود .

ثالثاً — (الحروب المتواصلة) فقد ظلت مائة عام مع وجود الانشقاقات الداخلية وثورات الفلاحين على اصحاب القصور وتفكك اوصال الامبراطورية

ومع ذلك بينما كانت هذه الدلائل السيئة على وشك الظهور والجدال بين انصار دنس سكوت وانصار القديس توما قائما نهض لمناوأة هؤلاء واولئك الانصار : غليوم دوكام وتلميذاه دوران دي سان لورسين ، وبوريدان

غليوم دوكام (١٢٨٠ — ١٣٤٧) Guillaume d'Occam

ولد في أوكام بكونتية سوري (انكلترا) وسيم راهبا فرنسسكانيا . تلقى العلم على دنس سكوت في جامعة باريس ثم تعين فيها مدرسا من سنة ١٣١٨ الى سنة ١٣٢٣ ويظهر ان التاريخ يعيد نفسه : فكما انشق ابيلاردس على استاذه دي شمبو كذلك ناوأ اوكام استاذه سكوت . وكان أيضا معارضا للبابا بونيفاس الثامن ومتشيعا للملك فيليب الجميل

ولما كانت فلسفته مخالفة للتقاليد السياسية والدينية والفلسفية استدعي امام مجمع عقد في افنيون سنة ١٣٢٨ فلم يعبأ به والتجأ الى لويس ملك بفاريا وقال له هـذه الجملة المشهورة « دافع عني بسيفك فادافع عنك بقلمي »

وكان منتصراً للمذهب « الاسمي » فيسلم بوجود جواهر شخصية • اما المعاني الكلية فليس لها وجود ذاتي بالجوهر

وقد دحض أيضا نظرية الاحساس • التي تذهب الى انه للتوصل الى المعرفة يقتضى وساطة الانواع Especes بين النفس والجسد : فالنوع المؤثر ينطبع على العضو الحساس، والنوع المقوّم هو ذات التأثير أو بالحري الصورة المتأثرة

ويقول ان في الانسان ثلاث صور متباينة: الصورة الجسمية، والنفس أو الصورة الاحساسية وهي ذات هيولى وحيز ،والنفس الاخرى او الصورة الفكرية التي لها مادة ولا حيز لها

وله رأي غير وجيه في السلطتين المدنية والدينية ويعطي التفضيل للاولى وان لها الحق في التداخل في الامور الدينية كما ان لكل واحد الطعن في احكام الرؤساء الدينيين حتى الحبر الاعظم ويمكن تسفيه رأيه اذا وجده ليس على جادة الحق

اما دوران Durand de St. Pourçain الملقب بالمعلم حلال المشكلات نظراً الى مهارته في حل جميع المسائل فكان اسقفاً لبوي ومو . مع انمائه لآراء دوكام . كذلك بوريدان Jean Buridan الذي ولد في بيثون في أواخر الجيل الثالث عشر فتلقى العلم على دوكام في جامعة باريس ثم علم فيها نحو العشرين عاما ثم صار رئيساً لها سنة ١٣٥٨

ويعزى اليه المثل الشهير : وهو ان حماراً جائعاً وجد بين

حزمتين من العلف احـداهما على يمينه والاخرى على يساره على بعدين متساويين فلم يقدر يميز أيهما يأكل وأيهما يريد وظـل متردداً حتى مات جوعاً

ولا يتضمن الجيل الرابع عشر من الاسماء ما يستحق ان يدعي فيلسوفاً اللهم اذا استثنينا بيير ديلي **Pierre d'Ailly** (١٣٥٠ — ١٤٢٥) امين جامعة باريس ولقب بنسر فرنسا (**Aquila Franciæ**)

غير انه كان منطقياً بليغاً وانتدب مبعوثاً رسوليا إلى المانيا ثم عين اسقفاً وكردينالا وترأس الجلسة الثالثة لمجمع كستانس الاكليركي والسبب في شهرته عدم وجود انداد له

واخص تلاميذه جرسن (١٣٦٢ — ١٤٢٩) **Gerson** لعب دوراً مهما في ذلك الوقت المضطرب الا انه كان صوفياً كما كان الراهبان ايكار **Eckhart** وتولر **J. Tauler** غـير ان تصوف هذين حلولي فاعتقدا ان الله حل فيهما وفي العالم وانهما في الله وقد يصيرا الهـا وان الامل في الحياة الاخرى والتدين والقداسـة لا تؤثر على اعمال الانسان وارادته

المدة الرابعة

٥

النهضة

من نصف الجيل الخامس عشر الى السادس عشر

يبدأ هذا الزمن من اوائل النصف الاخيرمن القرن الخامس عشر بانتهاء حرب المائة عام على يد جان دارك وبسقوط المملكة الشرقية وعاصمتها بيزنطيه (القطسنطينية) في يد الاتراك سنة ١٤٥٣

وقد اصاب المؤرخون في اختيار هذا التاريخ حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والازمنة الحديثة

فقضلا عن ان ممالك أوروبا المختلفة قد تم تكوينها . فان حادثتين آخريين كان لهما تأثير كبير على الفكر الانساني وهما اختراع لة الطباعة واكتشاف خرستوف كولبوس لامريكا في ١٢ اكتوبر سنة ١٤٩٢

٥٥ — اليونان فى ايطاليا

لم تبدأ الفلسفة الحديثة بالظهور الا في اوائل الجيل السابع

عشر بواسطة بيكون الانكليزي وديكارت الفرنساوي ولكن استيلاء العثمانيين على القسطنطينية كان السبب في مهاجرة العدد العظيم من علماء اليونان الى ايطاليا فحملوا اليها مؤلفات افلاطون واطلعوا اوروبا الغربية للمرة الاولى عليها كاملة •

وحقيقة الواقع كانت توجد علاقات بين رومة وبيزنطية قبل هذا التاريخ بزمن غير قصير . فقبل ان تحل الفاجعة بالامبراطورية الشرقية بخمسة عشر سنة حاول مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩ ضم الكنيستين اليونانية واللاتينية فلم يفلح الا ان بعض اليونان الذين جاؤا الى هذا المجمع ظلوا في ايطاليا واستوطنوها وكان بينهم بساريون وبليتون المتشيعان لمذهب افلاطون كما ان ارسطو لم يعدم انصاره من أولئك النزلاء مثل جورج دي تريبيذون وتيودور غازا . ولذا قام المذهبان الافلاطوني والمشائي متناظرين في أرض ايطاليا

وكانت فلورنسا مركز النهضة الفلسفية وبعثت اكاديمية أثينا في هذه المدينة الزاهرة واشتهر منها مرسيل فيسين Ficin (١٤٣٣ — ١٤٨٩) وهو الذي ترجم مؤلفات افلاطون الى اللاتينية وشرحها بما ذهب اليه الاسكندريون ثم جان بيك ميراندول Mirandole (١٤٦٣ — ١٤٩٤) الذي كان ذا علم وافر واطلاع غزير ومعرفة باللغات الشرقية والف كثيراً من الكتب . أضف الى هؤلاء فرنسوا بتريتزي Patrizzi (١٥٢٩ — ١٥٩٧)

الذى صار من أشد انصار المذهب الافلاطوني بعد ان كان معجباً بارسطو .

أما المدرسة المشائية فكان ممثلوها اسكندر اشيليني من بولونيا واندرياسيزلبيني (١٥١٩ — ١٦٠٣) الذي شرح مذهب ارسطو على نمط ابن رشد ، وبيير پومبوناس Pomponace (١٤٦٢ — ١٥٢٥) الذي كان يفهم الفلسفة المشائية بحسب تفسير الاسكندريين وكريمونيني Cremonini (١٥٥٠ — ١٦٣١) الذي علم نحو الخمسين عاماً في فرارى وفي بدوا

كذلك المدرسة الفيثاغورية أحياها نقولا دي كوزا (Causa) الكردينال (١٤٠١ — ١٤٦٤) وحاول تفسير علم ما بعد الطبيعة بالاعداد واكد بالطرق العلمية حركة الارض حول الشمس ، اما المدرسة الحلولية فكان لها ممثل شهير وهو الراهب الدومنيكاني جوداني برونو (١٥٤٨ — ١٦٠٠) الذى هجر ديره وطاف في انحاء أوروبا عشر سنوات وقد القي القبض عليه في مدينة البندقية وحكم عليه بان يحرق حياً وتنفذ الحكم في روما سنة ١٦٠٠

وجاك بوهم (Boehm) (١٥٧٥ — ١٦٢٤) كان صانع احذية من مدينة جورلتز وقال ان النعمة الالهية حلت عليه ثلاث مرات وأوحي اليه ان يكشف للبشر سر جميع الاشياء وكان مذهبه حلولياً أورى فيه كيف تصدر جميع الاشياء عن الله واليه تعود

بنفس المعنى الذي شرحه هيجل بعد ذلك بقرنين

٥٦ – الاحرار والشكاك

كان الجيل السادس عشر زمن النهضة والاصلاح وعصر لاختمار حيث يعتبره المؤرخون تمهيداً للازمنة الحديثة وحيث تضاربت فيه الافكار المتباينة من خير وشر . ومن خطأ وصواب . .

وكان زعيما الحركة الدينية والحرية الفكرية لوتير (١٤٨٣ — ١٥٤٦ Luther وكلفين (١٥٠٩ — ١٥٦٤) Calvin فانهما قاوما السلطة الدينية التي كانت متسلطة على العقول والاذهان . ونفضا عنهما غبار الاستكانة والتقليد . غير ان تاريخهما ليس من اختصاص هذا الكتاب وانما نوهنا بذكرهما هنا لانهما ايقظا الفكر من رقدة الغفلة والخضوع الاعمى . وكان للفلسفة حظّ وافرٌ من هذا النشاط

وحذا حذوهما في حرية الفكر اراسم (١٤٦٧ — ١٥٣٦) في مؤلفه « مديح الجنون » وتومامورروس (١٤٨٠ — ١٥٣٦) في كتابه السياسي الانتقادي « الوهميات » اما راموس او بطرس الرامي (١٥١٥ — ١٥٧٢) فقد ناوأ المشائين ورشقهم بألسنة حداد حتى قام ضده اغلب الرأي العام فقضي عليه في مذبحة سنت برتلمي .

وجاء مونتاني (١٥٣٣ — ١٥٩٢ Montaigne ولخص في جملته « ماذا اعرف » الشك الروحاني في كتبه المشحونة بالحقائق وحذا حذوه صديقه وتلميذه شارون في انكاره معرفة حقائق الاشياء بالرغم عما كتبه في مؤلفه « الحكمة »

أما العلماء فقد ولوا وجوههم شطر الطبيعة ونخص بالذكر برنردينو تليسيو « ١٥٠٨ — ١٥٨٨ » Telesio من كلابريا فقد اوضح بجلاء ما هي الطريقة الحقيقية لدراسة العلوم وكمبنيلا « ١٥٦٨ — ١٦٣٩ » Campanella الذي قضى نحو السبعة وعشرين عاما في سجن نابولى فقد ألف كتاباً في « الفلسفة الحقيقية » تتشابه في التبويب والتنسيق بالمؤلفات الحديثة . وكذلك كتيبه « مدينة السماء « تضمن اراً جديرة بالاعتبار

ولكن اشهر علماء ذلك الزمن هم بلا مراء : كوبرنيك Copernic « ١٤٧٣ — ١٥٤٤ » كان عالماً فلكياً شرح النظرية الحقيقية لحركة الارض

كذلك جليلي « ١٥٦٤ — ١٦٤٢ » Galilée الشهير مخترع قوانين الثقل عضد كوبرنيك وانتصر له فكان جزاؤه الاضطهاد حتى اجبر على الرجوع عن رأيه . ووضعت له الصيغة التي بها يسفه رأيه فقالها ثم لفظ في ختامها هذه الكلمات الشهيرة « ومع ذلك فهي تتحرك » يعني الارض e pur si muove

المدرسة التجريبية

٥٨

F. Bacon (١٦٢٦ — ١٥٦٠) بيكون

ولد فرنسيس بيكون في ٢٢ يناير سنة ١٥٦٠ في لندن وكان ابوه اللورد نقولا بيكون وزيراً للعدلية مدة عشرين عاماً على عهد الملكة اليصابات

أتم علومه في السادسة عشر من عمره في كلية كمبردج ثم التحق بالسفارة الانكليزية في فرنسا . ولما مات أبوه ولم يترك له ثروة اضطر الى العودة الي لندن وانتظم في سلك المحاماة وعينته الملكة محامياً لمجلسها الخاص .

وفي سنة ١٥٩٢ أنتخب نائباً عن كونتية مدلكس في مجلس العموم . ولما ارتقى جاك الاول سرير الملك انفرجت ضائقته المالية اذ تمكن من اكتساب عطف الملك فتعين على التعاقب محامياً عن المملكة فدعياً عمومياً فعضواً في المجلس الخاص فوزيراً للحقانية وأخيراً مستشاراً خاصاً وكان ذلك سنة ١٦١٨ وقد منح لقب بارون فيرولام وفيكونت سنتلبان ، ورتبت له المرتبات واصبح ذا جاه ونفوذ ومال .

ماذا حدث حينذاك ؟

سلك سلوكاً عاد عليه وعلى الملك ونديمه بوكنجهام بالفوائد المالية التي أضرت بمصالح الامة . فثار عليه الرأي العام واتهمه امام البرلمان بالارتشاء وبيبع المصالح العمومية لبعض المقربين

فحرصاً على شرف الملك لم يشأ المدافعة عن نفسه ولذلك حكم عليه بغرامة قدرها ٤٠٠٠٠ جنيهاً انكليزياً وبالسجن في قلعة لندن سنة ١٦٢١ ولكن الملك عفى عنه متجاوزاً عن السجن وعن الغرامة .

فتخصص بيكون اذ ذاك للبحث الفلسفي وظل الخمس سنوات الباقية من حياته مشتغلا بتأليف كتابه « الاصلاح الكبير » Instauratio Magna ، وكان يقسمه الي ستة أجزاء لم يتم منها سوى اثنين يصف في الجزء الاول أنواع العلوم وترتيبها . ويشرح في الثاني طريقته الجديدة Novum Organum معارضاً به كتاب ارسطو « الاسلوب » أما باقي الاجزاء فلم يتم تأليفها وتوجد شذرات منها خاصة بالعلوم الطبيعية كتاريخ الرياح . وتاريخ الحياة والموت . والكثافة والندورة . والعقل والخفة الخ .

كان بيكون متشرعاً . وسياسياً وخطيبا وكاتبا ومؤرخا وفيلسوفا . ونحن لا نتكلم عنه الا بصفته الاخيرة

فلسفته : أشهر نظريات بيكون ثلاث وهي (١) تقسيم العلوم (٢) اسباب الخطأ ، (٣) موضوع العلوم الطبيعية وطريقتها

(تقسيم العلوم) قسم بيكون المعارف البشرية الى ثلاثة اقسام كبرى وهي التاريخ والشعر والفلسفة . تبعا للقوى الثلاث المتميزة في الانسان وهي الحفظ . والتخيل . والعقل

﴿ فالتاريخ ﴾ ينقسم الى طبيعي والى مدني ، ويتضمن المدني تاريخ الادب والتاريخ الديني .

﴿ اما الشعر ﴾ فيقسمه بيكون الى قصصي ووصفي وحماسي ورمزي .

﴿ والفلسفة ﴾ لها أغراض ثلاثة : الله والطبيعة والانسان غير انه يضع العلم الطبيعي في الصف الاول لان الطبيعة تؤثر على الفكر البشري بشعاع مستقيم . ونعرف الله بشعاع منكسر ، والانسان بشعاع منعكس

فينبغي قبل كل شيء اصلاح الفلسفة الطبيعية أو بالحرى تأسيسها من جديد .

(اسباب الخطأ) اكبر حائل دون رقي العلم الطبيعي هو الاوهام او الاشباح التي يدعوها بيكون (idola) لانها تقف عثرة بين الفكر الانساني وبين حقائق الاشياء . وهي على اربعة انواع اوهام جنسية . ونوعية . وجمهورية . ومسرحية

فالاوهام الجنسية idola tribus هي التي تصدر عن طبيعة الانسان وتكون عامة بين الاسرة أو القبيلة أو النوع الانساني جميعه وبذلك يصدر الانسان حكمه على طبيعة الاشياء بحسب طبيعته هو وليس بحسب طبائعها

والاوهام الخصوصية idola Specus تابعة لكل شخص وما يتصف به من الاخلاق والاميال والشهوات ولكل واحد شبه مغارة فلا يدخل اليها نور الطبيعة الا منكسراً مضطربا والاوهام العمومية idola fori تنشأ بواسطة الخطب والمنشورات فيظن الفكر انه يتصرف بالكلام مع انه خاضع له . فتارة تكون الالفاظ دالة على الاشياء الغير موجودة وتارة تكون المعاني التي تدل عليها تلك الالفاظ مشوشة مضطربة وقيلت صدفة

أما الاوهام المسرحية idola theatri فهي أوهام أوجدتها المذاهب والنظم الفلسفية المختلفة وقد دعاها بيكون «مسرحية» لانه يشبهها بروايات تمثيلية ابتكرها الفلاسفة ومثلها كل واحد منهم بدوره ، وهي على ثلاثة أنواع : عقلية صرفة ، واختيارية صرفة ، وتصوفية .

(موضوع العلوم الطبيعية) : متي تخلص العقل من جميع أوهامه أمكنه التخصص لدراسة الطبيعة . ولكن ما هو الغرض الذي يجعله نصب عينيه من هذا الدرس وكيف يصل اليه ؟

يتلخص رأي بيكون في ثلاث نبذات :

١ — غاية العلم التسلط على الطبيعة أكثر من تفهمها

٢ — لذلك لا يكون غرض الانسان معرفة العلة الغائية أو العلة الفاعلة ، انما مقصده ان يعرف قوانين الظواهر الطبيعية أي العلة المشكلة للاشياء

٣ — لا يمكن للعلم الوصول الى معرفة تلك القوانين الا بطريقة مغايرة تماما للاستنتاج السلوجسمي أي بطريقة استدلالية تجريبية .

يقصد بيكون بنظريته تأسيس العلم على العمل فيكون قوة وعلما . وبعد ان كانت الفلسفة القديمة غنية فقط بالالفاظ ستكون غنية أيضا بالافعال وتجعل الانسان ليس فقط معبراً عن الطبيعة بل مديراً لها أيضا .

ولكن ما الذي ينبغي معرفته لتسخير الطبيعة والتسلط عليها ؟

يكفي لذلك معرفة النواميس التي تهيمن على الطبيعة . فالمعرفة الحقيقية هي معرفة العلل vere Scire Per causas scire واصدق العلل هي الصورية المشكلة

ولا يوجد في الطبيعة سوى كائنات وظواهر فردية ؟ الا ان لهذه الكائنات صفات عامة وهذه الظواهر تحدث طبقا

لقوانين عمومية

فالمعرفة لا تبحث في الاشخاص انما موضوعها الصور الجوهرية للاشخاص . وليست هذه الصور خارجة عن الاشياء بل هي صفات عمومية ثابتة ، بوجودها أو بنفيها تتعين وجود أو عدم الظواهر المختلفة وخواصها

. ولكل مادة صورة ليست الا حداً لمادة أعم منها بمعنى انه كلما كانت المادة الموجودة اسهل واعم كانت الصور المكونة لها بسيطة وعامة ويمكن تخيل صورة واحدة تعم كل الموجودات وتكون بمثابة علة لوجودها ولمادتها العامة

بيد ان بيكون يقول باغلبية وجود عدد من الصور من الدرجة الاولى Prima Classis يقارنها بحروف الهجاء ، وباختلاف تركيبها تتألف جميع الفاظ اللغة

فمعرفة الصور هي خلاصة العلم . وهذه المعرفة دون غيرها تبتكر جميع الموجودات التي يخيل الينا انها مختلفة

ومن رأيه أيضا ان لا معنى للصدفة أو الاتفاق حيث يقول « لا يوجد في العالم الطبيعي كبير أو صغير الا وله سبب ولا يوجد شيء في الوجود أشبه بجزيرة وسط المحيط لا اتصال بينها وبين اليابسة »

والطرق التي يجب ملاحظتها للوصول الى المعرفة ثلاثة

أولاً — الملاحظة والاختبار وقيد الحوادث كما تحصل وهذه

الظواهر المستجمعة هي مايدعوها بيكون instantia naturæ

ثانيا — ترتيب تلك الظواهر في جداول ثلاثة وهي جدول الحضور وجدول الغياب وجدول الدرجات

ومن أقوال بيكون ان العمل هو المقصد الاساسي للعلم وان المعرفة هي القدرة. والحقيقة بنت البحث الزمني وليست وليدة التقليد . وان العصر الذهبي نستقبله دائما لانه امامنا ولم نخلفه وراءنا فيكون العقل في رقي وليس في تقهقر كما ان القليل من الفلسفة يؤدي الى الالحاد ولكن التبحر فيها يعيد الملحد الى التدين .

النقد

مما لا نزاع فيه ان بيكون مؤسس الطريقة الواجب اتباعها في العلوم الطبيعية ويرجع اليه فضل رقيها

غير ان تلك الطريقة لا يجب تطبيقها على العلوم النظرية وأخطأ بيكون أيضاً في عدم تطبيقه طريقته على العلوم النفسية اذ انه اهمل ملاحظة الظواهر الباطنية

ولا نظن انه انكر وجود الله كما يزعم بعض خصومه بل انه يسلم أيضاً بالوحي

اما تقسيم العلوم بالنظر الى ترتيب قوى النفس فقد طرحت في

زوايا النسيان بعد ان طارت شهرته في الجيل الماضي

ويلحق بمدرسة بيكون التجريبية هوبس وجاصندي ولوك ويمكن لنا ان نقول ان هؤلاء الرجال الثلاثة نشروا روح بيكون في جميع اقسام الفلسفة وكأنهم تقاسموا فيما بينهم نظريات مدرستهم : فهوبس رجلها الاخلاقي والسياسي ، وجاصندي علاّمتها وطبيعيّها . ولوك عالمها النظري .

٥٩

هوبس (١٥٨٨ — ١٦٧٩) Hobbes

ولد توماس هوبس في مومسبري Malmesbury بكونتية ويلث وتلقى العلم في جامعة اكسفورد وكانت له صلة بجاصندي وغليلي وديكارت ولكنه كان قبل كل شيء تلميذاً ومعواناً لبيكون في ابحاثه . وكان يستخدم التعليل الاستنتاجي

أهم مؤلفاته كتاب « الانسان المدني » De Cive مؤلف من ثلاثة اقسام تبحث في الحرية والدولة والدين ، وكتاب لفياتان Leviathan أو كتاب المدنية طبع سنة ١٨٥١

وألف أيضاً كتاب في الطبيعة البشرية وكتاب في المنطق

مذهبه : ان الحواس مصدر المعرفة . وكل شيء ، ما عدا الجسم ، وهمٌ لا يتناوله الفهم . فالفلسفة على هذا المبدأ هي علم الاجسام ، والاجسام اما طبيعية واما سياسية . فالاولى تتضمن الاجسام نفسها وما ندعوه نحن بالنفوس أيضاً ، والثانية تؤلف الجمعيات البشرية

وقال ان جميع معارفنا تصدر عن الحواس ولكن لا شيء يؤكد لنا ان الاحساسات والمشاعر تطابق اشياء حقيقية موجودة فالحقيقة اذن ليست الا الفاظا والتعليل ما هو الا حساب عمل بناء على علامات لا ثبات لها

وينشأ عن الاحساس الرغبة أو الخوف فهما المحركان الخفيان لكافة أعمال الانسان

والتردد بين الرغبة والكراهة نحو شيء واحد يسمى المداولة . وبعد هذه المداولة اذا تفاضل أحد هذين الدافعين على الآخر دعي التفاضل ارادة . وإمكان تنفيذ هذه الارادة يدعى حرية .

كذلك مصدر الخير والشر يوجد في القوة الاحساسية . فالانسان يعمل خيراً كلما سعى نحو اللذة وكلما ابتعد عن الالم . فعلى رأيه الغاية تبرر الواسطة .

ولقد بنى هوبس مذهبه السياسي على هذه الانانية . قال ان

الانسان للانسان عـدو مبين homo homini Lupus وكل واحد يرغب في كل شيء لنفسه خاصـة ويريد الحصول عليه والاستئثار به دون غيره. ولما كان الجميع يرغبون مثل بعضهم نشأت عن ذلك حالة حرب فيما بينهم Bellum omnium contra omnes فهذه الحالة التي يكون فيها الحق للقوة هي حاله الطبيعة غير انها لا تحتمل. فلكي يُوضع لها حد يجب على الناس ان يتنازلوا لبعضهم البعض عن حقوقهم ويؤسسوا سلطة قوية لتضغط على القوات الشخصية وتسيطر عليها

هـذا أساس تأليف الهيئة الاجتماعية فخضعت كل هيئة لسلطان قوي يجب اطاعته مهما عمل

اما الدين فيجب ان يكون تابعا للدولة

وقـد لخص فيكتور كوزين مذهب هوبس فيما يأتي « انه مادي في العلم النظري . احساسي وارتيابي في المنطق قـدَري واناني في الاخلاق . وحكم مطلق في السياسة .

٦٠

جاصندي (١٥٩٢ — ١٦٥٦) Gassendi

ولد بطرس جاصندي بالقرب من دني Digne ببروفنسا ويعد زعيم المدرسة التجريبية في فرنسا في الجيل السابع عشر اندمج في سلك الكهنوت وعلم الفلسفة فاللاهوت فالرياضيات ذاع صيته حتى انه عد اكثر الفلاسفة علما . واكثر العلماء فلسفة في الجيل السابع عشر

كان متفقا مع ديكارت على ضرورة استبدال الاسلوب السلوجسمي باسلوب آخر . ولكنه اتخذ فلسفة مناقضة لفلسفة ديكارت وقام بينهما جدال عنيف كان بدء العراك الطويل الذي انتشب بين المذهب الحسى والمذهب التصورى أو المثالي في العصور الحديثة

كتب مؤلفاته باللاتينية

مذهبه : اراد جاصندي تحبيذ مذهب ابيقور واعتناق مبادئه التي لا تتعارض مع الدين المسيحي ففلسفته توصف بانها ابيقورية مسيحية

وفي المنطق يذهب الى ان المعرفة تصدر عن الحواس . والقوة

الفكرية لا عمل لها الا تحصيل الظواهر التي تأتي بها الحواس . ومقارنتها ببعضها البعض لترتقي من الخاص الى العام .

وفي العلم الطبيعي : يسلم بمبدائي ابيقورو هما القضاء والذرات ويبني عليهما جميع النظريات العلمية . بيد انه يعترف ان الله خالق العالم وأول محرك له

اما في الاخلاق : فمع تسليمه بالاصول المسيحية السامية يقول أيضاً « ان الغاية من الحياة نوال المرغوب أي السعادة » فهو بهذا المبدأ يمهد الطريق لنظرية «المنفعة بمعناها الحقيقي» التي كانت عقيدة الجيلين الثامن عشر والتاسع عشر



٦١
لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) Locke

يعد مؤلف كتاب «مبحث في العقل البشري» الزعيم الحقيقي للمدرسة التجريبية التي انتشر مذهبها في الجيل الثامن عشر في انكلترا وفرنسا وكانت سببا في ظهور مذهب (كانت) الانتقادي

ولد جون لوك في التاسع والعشرين من شهر اغسطس سنة ١٦٣٢ في مدينة رنجتون Wrington بالقرب من برستول بكونتية سومرست . كان والده من شيعة المطهرين واشترك في الحرب

الاهلية التي انتشبت أيام اضطراب حكم شارل الاول اما لوك فظل منتمياً للحزب الحر

تلقى دروسه الثانوية في مدرسة وستمنستر بلندن ثم التحق بجامعة اكسفورد . ولما بلغ السابعة والعشرين من عمره قرأ للمرة الاولى مؤلفات ديكارت فاثرت فيه تأثيراً كبيراً

ومنذ ذلك الحين عدل عن اعتناق الرهبنة التي كانت مطمح انظاره وعزم على ان يكون طبيباً

رحل الى فرنسا واقام فيها من سنة ١٦٧٢ الى سنة ١٦٧٩ وزار مدينة مونبلييه . ولما عاد الى انكلترا كان موضع ريبة عائلة ستوارت الحاكمة فالتجأ الى هولنده وبقي فيها حتى ثورة عام ١٦٨٨ فعينه غليوم دورانج معتمداً للمملكة على التجارة والمستعمرات . ومات في مدينة وطس oates في ٢٨ اكتوبر سنة ١٧٠٤ بالغاً من العمر اثنين وسبعين سنة

(مؤلفاته) — ترك لوك مؤلفات تتفاوت في القيمة. منها كتاب « فحص رأي ملبرانش في الابصار بالله » ورسالة في التساهل • وكتاب في تربية الاطفال • ومبحث في الحكومة المدنية .

بيد ان مؤلفه الشهير الذي بدأه في اكسفورد وأتمه أثناء نفيه ونشره في لندن سنة ١٦٩٠ هو كتاب « اختبار العقل

البشري Essai sur L'entendement humain ويقصد فيه « ارشادنا الى الوسائل التي بها يدرك العقل معاني الاشياء وما هي حدود المعرفة اليقينية وما هي الاساسات التي تبنى عليها الآراء السائدة بين الناس »

(فلسفته) : تتلخص في نظرياته (١) النفسية والنظرية (٢) نظرياته الاخلاقية والسياسية

اما الاولى فنجدها مشروحة في كتابه « اختبار العقل البشري وهو مقسم الى اربعة كتب تبحث (١) في المعاني الغريزية (٢) في صور الاشياء (٣) في الالفاظ (٤) في المعرفة

(الكتاب الاول) في المعاني الغريزية :

خصص لوك هذا الكتاب لدحض نظرية الغريزة ، قال ان المعنى الغريزي يجب ان يكون أصلياً وعاماً شاملاً بيد ان الاختبار أظهر لنا ان الاصول الاولى سواء كانت نظرية أو عملية ، ليست أصلية منذ الخليقة بما ان الاطفال غير حاصلين عليها ولا يفهمونها وليست أيضاً عامة شاملة لانها لا توجد عند البلهاء ولا المتوحشين فهي اذن مكتسبة كالصور التي تحتذيها — وقد بين في الكتاب الثاني كيف تكتسب

(الكتاب الثاني) في الصور :

يفترض لوك ان نفسنا في بدئها كلوحة بيضاء خالية من كل

معنى ذهنى . اما الصور التي ترتسم عليها فيما بعدفهي ثمرة التجربة
ومما لا شك فيه ان تصوراتنا على نوعين تصورات بسيطة وتصورات مركبة

وتشتق التصورات البسيطة من مصدرين وهما الاحساس اذا كان موضوعها الصفات المحسوسة كاللون والسمع وغيره ، والتأمل اذا كانت تتعلق بالنفس كالتفكر والارادة.

اما التصورات المركبة فهى نتيجة مزج او تعميم التصورات البسيطة فهي بهذا الاعتبار تصدر عن الاختبار

وبهذا يفسر لوك معنى العلة والجوهر والسرمدي الخ ويرجعها الى معاني التوارث والتجميع واللامحدود الخ

(الكتاب الثالث) في الالفاظ :

قال لوك ان المعرفة تتألف من جمل فيحسن اذن قبل كل شيء التكلم عن الالفاظ التي تتكون منها الجمل

وقد تضمن هذا الكتاب مباحث شيقه لاستعمال الكلام وما يؤديه من الخدمات للفكر . غير ان لوك لم ينحرف عن مذهبه الحسي فيقول ان جميع الالفاظ « الاصلية » تدل على معان حسية وان جميع اغلاطنا على وجه التقريب ترجع الى اغلاط لفظية وان جميع الجمل العمومية مجرد اصطلاحات لا ترتبط باي حقيقة واقعية

المنفعة لان الخير في نظره كل ما يؤدي الى استحقاق مكافأة والشر ما يستوجب العقاب . فالحرية الخلقية هي لا تتخطى حرية العمل .

النقد تمد فلسفة لوك بدء المقاومة ضد مذهب ديكارت العقلي الذي كان له السيطرة على العقول في الجيل الثامن عشر . ولو ان لوك كان متأثراً اكثر من بيكون بفلسفة ديكارت .

لقد اخطأ الفيلسوف في نظريته في أصل المعرفة وقيمتها اذ جعلها تابعة للتجربة وهي تؤدي بلا شك الى فلسفة بركلي الارتيابية

من الواضح ان افكارنا الحسية لا تتفق في شيء مع المادة نفسها ولو فرضنا ان افكارنا تتشابه مع موضوعاتها فلا يمكننا ان نعرف اذا كانت تلك الافكار تمثل حقيقة الصور الواقعية

اما الحرية فلا تكفي لانتاج الحق كان تراضى الطرفين لا تتولد عنه السلطة

اما نظريته الخلقية والنفسية فقد اثرت على الخصوص على مونتسكيو في كتابه «الحكومة المدنية» وعلى روسو في رسائله في التربية

المدرسة العقلية

٦٢

ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠)



Descartes

في متحف مدينة الهاي La Haye رسم صنعه المصور الشهير رمبرانت سنة ١٦٣٢ يمثل الاستاذ «طولب» يلقى درساً في التشريح على الوف الطلبة المحيطين به المعجبين بعلمه

فهذا الرسم البديع يمثل لنا شهرة ديكارت وتأثير فلسفته على العلماء والمفكرين بالرغم عن كرهه للتظاهر ومحبته للعزلة والانفراد

ولد رينيه ديكارت في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ في مدينة الهاي وكان ابوه مستشاراً في برلمان رينس Rennes أتم دروسه في كلية اليسوعيين في فليش بمقاطعة انجو سنة ١٦١٢ ثم شخص الى باريس في السنة التالية وانكب على درس الرياضيات مع رفيقه في التلمذة الاب مرسين . ثم درس الحقوق وحاز اجازتها سنة ١٦١٦ وكان عمره حينذاك عشرين ربيعاً . وبعد ذلك انتظم

في الجندية كما هي عادة الاشراف في ذلك الوقت وقد وقع اختياره على فرقه موريس دي ناسو التي كانت معسكرة في بريدا بهولندا فظل فيها عامين ثم حضر تتويج الملك فرديننذ الثاني في مدينه فرنكفورت في ٩ سبتمبر سنه ١٦١٩ مع انه كان ممنوع دخول الاجانب الى المدينه في ايام الاحتفالات

واخيرا قضى الشتاء في نوبرج على نهر الطونه ويرجع الى خلوته في تلك المدينة اكتشافه « اسلوبه المنطقي » الذي الهمه الله اليه كما يقول . وكان سروره بذلك عظيما حتى انه نذر الحج الى كنيسة العذراء في لوريت وكان قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره

ترك ديكارت جيش موريس دى ناسو وتطوع في جيش دوق بفاريا فحضر موقعة الجبل الابيض التى استولى فيها الجيش على مدينة براغ . ثم انتقل الى جيش الكونت بوكوا ولما قتل الكونت وانهزم الجيش طلق ديكارت الجندية بعد ان خدم فيها اربع سنوات وعاد الى تحصيل العلوم وقد آل على نفسه « ان لا يطلب من المعرفة الا التي يجدها في نفسه وفي كتاب العالم » وهو لذلك سافر كثيراً وتجول في انحاء مختلفة مجتهدا ان يكون كشاهد اكثر مما يكون كممثل للروايات التى تمثل في العالم »

وبقي ديكارت حتى سنة ١٦٢٩ متردداً في اختيار مهنة له . واعتقد في ذلك الحين « ان لا شيء أحسن له من ان يقضي حياته

في تهـذيب عقله والتبحر بقـدر امكانه في معرفة الحقيقة »
فاقام في هولنده بأمل ان يجد فيها العزلة والحرية اللتين هو في
أشد الحاجة اليهما فمكث فيها زهاء العشرين عاماً يكتب مؤلفاته
ويتخابر بواسطة الاب مرسين مع جميع علماء زمنه

وفي سنة ١٦٤٩ شخص الى ستوكهلم (بالسويد) بناء على
دعوة من الملكة كرستيانة الا ان البرد كان قارصاً فمرض بذات
الرئة وتوفي بها في الحادي عشر من شهر فبراير سـنة ١٦٥٠
بالغاً من العمر اربعة وخمسين عاماً . ونقلت رفاته الى فرنسا بعد
ستة عشر عاما فدفنت في باريس في كنيسة سانت اتيان دي مونت

(مؤلفاته) كتاب الاسلوب . وشهوات النفس — كتبا
وطبعا باللغة الفرنساوية . تأملات في الفلسفة الاولى . ومباديء
الفلسفة كتبا باللاتينية وترجمها بعض اصدقاء المؤلف في حياته
كتاب العالم . والانسان والرسائل طبعت بعـد موت المؤلف .
أضف الى ذلك مصنفاته الكثيرة في الرياضيات والعلم الطبيعي

(فلسفته) تتضمن الفلسفة الديكارتية الغرض الذي قصده
والنقطة التي بدأ منها فلسفته . وأسلوبه . ورأيه في النفس .
وفي الله وفي العالم . وفي علاقة النفس بالجسد .

فغرضه تشييد بناء المعارف البشرية على أسس جديدة لان
المعرفة بالحالة التي كانت عليها في عصره لم ترو غليله فهي غير

مؤكدة باصولها وعقيمة بنتائجها

فبعد ان ابقى على حدة الحقائق الخاصة بالدين ووضع لنفسه بعض قواعد اخلاقية ليسلك موقتا بمقتضاها « طرح ظهرياً كلما يمكن ان يلحق به ادنى ريب كأنه غير صحيح» فحواسه وذاكرته وعقليته ، تخدعه احياناً وهو يريد الافتراض ان هذه القوى تخدعه دواما حتى انه افترض أيضاً وجود روح خبيث يسره ان يهيء له الشيء على غير حقيقة . فبدأوه « الشك في كل شيء » إنما ارتيابه هذا ليس الا وسيلة يرتقي منها للوصول الى الحقيقة

وهذه الحقيقة ممكن ادراكها وهي تتألف من أصول معدودة واضحة يجدها العقل في ذاته ولا تخرج عن ثلاث تصورات وهي الفكر والامتداد والكمال

اسلوبه يتلخص اسلوبه في اربعة قواعد اساسية وهي

أولاً — (الوضوح) للوصول الى الحقيقة « لا اسلم بصحة أي شيء الا اذا اتضح لي جلياً انه صحيح »

كل خطأ فهو اختياري ، فنحن نخطيء لان الارادة تصدق مالا يدركه الفهم جلياً

ثانياً — (التحليل) تقسيم كل صعوبة تعترض بحثي الى اقصى ما يمكن من الاجزاء لحلها على أحسن وجه

ثالثاً — (التركيب) ترتيب افكاري . مبتدئاً باسهلها معرفة مرتقيا الى الاصعب فالأصعب

رابعا — التجزئه تجزئي الشيء تجزيئاً تاما وفاحصا كل جزء على حدة بحيث لا يفوتني واحد منها

فهذه القواعد هي ملخص أسلوب المهندسين غيران ديكارت ظن ان في امكانه تطبيقها « على جميع الاشياء التي تتناولها معرفة الناس »

(فلسفة النفسية) بدأ ديكارت يطبق اسلوبه على الآنية أو النفس البشرية فهو اذا شك وارتاب في كل شيء يبقى أمامه شيء واحد لا يتطرق اليه شكه وهو الفكر وقد استخلص من التفكير معنى الوجود : قال انا افكر اذن انا موجود Cogito, ergo Sum

وعلى ذلك يكون الانسان في النفس ، والنفس ليست سوى الفكر لانه اذا فرض ان ما نسميه جسداً لا وجود له في الواقع فالروح مع ذلك تستمر في التفكير والعكس بالعكس اذا بطل التفكير انعدم الوجود حتى لو بقي الجسد في الواقع

فالفكر هو جوهر الوجود بمعنى ان الروح التي بها تظهر هويتي وتتميز آنيتي تخالف الجسم في الجوهر . فهذا مادة وتلك جوهر

وجميع طرق التفكير التي نلاحظها في ذواتنا ترجع الى طريقتين عامتين احداهما الادراك بالفهم . والآخر توجيه الارادة فالحالة الاولى انفعالية والتغيرات التي تطرأ على الفهم عند ادراك الاشياء تدعى « صوراً idée » وهذه التصورات على

ثلاثة انواع

(١) عرضية adventice وهى التي تتولد فى النفس من مرآى الاشياء الخارجيه كالالوان والاصوات وغيرها

(٢) صناعية أو تخيلية factices وهي التي توجدها النفس بتحليل أو بتأليف تصورات اخرى ببعضها البعض كتصورجبل من ذهب وتوهم نهر من لبن

(٣) غريزية او مطبوعة innées وهي التي تجـدها النفس مهيأة في ذاتها من أصـل الخلقة ، ومن خاصتها الفكرية كالامتداد والكمال

وتدعى تلك التغيرات أيضاً « شهوات » اذا كانت مظهراً لحركات الاعضاء الباطنية وترجع الى ستة أصلية وهي التعجب أوالدهشة ، والسرور ، والكدر ، والحب ، والبغض ، والرغبة

اما عمل الارادة فعلى نوعين وهما « الحكم » الذي بموجبه نوافق أولا نوافق على عمل ما • وذات الفعل

ويرى ديكارت ان الحكم أثر من اثار الارادة فيقول ان بالعقل وحـده لا أثبت ولا أنفى أي شيء انما ادرك به معنى الاشياء التي يتسنى لي اثباتها او نفيها

فالارادة اذن لا رابطة ولا حدلها . بما اننا نستطيع ان نريد أو لانريد . ونؤكد أو ننكر كل شيء

اما العقل فمحدود . والخطأ ينشأ من عدم وجود نسبة بين

هتين القوتين اللتين تتقاسمان طبيعتنا

فالنفس تتجاوز في حكمها الاشياء التي تراها ولذلك تخطيء فلو انها حصرت تأكيداتها في التصورات الظاهرة الجلية الوضوح لما اخطأت مطلقاً

فيكون التسرع الاختياري في الحكم هو سبب الخطأ . كما ان الارتياب او بالحري التروي الاختياري في الحكم هو التحرز من الخطأ .

والحرية معناها اننا نستطيع ان نعمل الشيء أو لا نعمله. بيد ان كمال هذه الحرية في مطابقة العمل على مدركات العقل الواضحة بمعنى ان حرية الانسان تكون في العمل كما يقتضيه الحق

وللارادة الحرة قوة التأثير على نزعات النفس فتسود عليها وتصلحها أو تعدلها . ولذلك يتبرر علم الاخلاق

وقد استعار ديكارت مذهبه الخلقي من مبادئ الرواقيين كما يفهم ذلك من رسائله الى الاميرة اليصابات فالخير المطلق هو ما تستطيع عمله وتصمم على فعله وتجد مسرة في تنفيذه وهذه المسرة تكون في ما تحكم على فعل بانه حسن وتفعله

(**فلسفته في الله**) استخلص ديكارت من نفسه وتفكيره وجود الله وآتي ببراهين ثلاثة على وجوده قال :

(١) انا موجود ولست كاملاً . فانا لم أوجد ذاتي فاذن الله

موجدي فهو موجود

(٢) ان ذاتي مدركة للكمال . فالذات الكاملة هي التي اوحت الى بوجودها فالله اذن موجود بكماله لانى لوكنت السبب في وجودي لما تصورت في نقصاً ولأعطيت ذاتي الكمال مع الوجود.

(٣) الوجود ملازم للكمال وتصور الكمال يتضمن الوجود الحاضر الذي هو في الكمال فاذن الذات الكاملة موجودة

ولكى نتبين صفات الله يكفى ان نسائل انفسنا عن كل تصور نتصوره : هل من الكمال ان نحوزه أم لا

وبذلك ينتفى من ذوية الله كل تركيب وبالتالى كل مادة فالله ليس مثلنا مركب من امتداد وفكر انما هو فكر صرف

وأهم صفات الله ثلاثة وهى القدرة او الحرية المطلقة والثبات أو عدم التغير . والصدق

(١) الله مطلق الحرية وقادر على كل شيء لا حصر لارادته وما الصدق والكذب . والخير والشر الا من خليقته • وقد تكون الرياضيات وعلم الاخلاق غير ماهى عليه لو اراد الله ان لا تكون كذلك . . والحقائق المنطقية والرياضية المحتمة علينا ليست الا عرضية بالنسبة له . كذلك كل موجود مرتبط بارادته الحرة وما العالم بباق الا لان الله حافظ له وهذا الحفظ كخلقة مستمرة

(٢) اذا كان ينافي الكمال الالهى تعلق الله بقوة خارجة عن ارادته الذاتية كذلك أيضا ينافي كماله الافتراض بانه يمكن ان يغير في اوامره فهو اذن ثابت غير متغير والحقيقة ايضا واحدة لا تتغير . وهذا الثبات الالهي يظهر في العالم بوجود النواميس المنظمة له على حالة واحدة وعلى الخصوص قوانين الحركة العامة التي لا تفارق حركة واحدة

(٣) كذلك أيضاً ينافي كماله الافتراض بانه يريد خداعنا ولذلك تظهر لنا الحقيقة كما هى بغير تبديل لأنها مؤسسة على الصدق الالهى

(العالم الطبيعى) وعلى نظرية الصدق الالهى توصل ديكارت الى اثبات وجود العالم الطبيعي :

فالعالم يتكون من الامتداد . اما جميع الصفات الاخرى كاللون والصوت والرائحة الخ لا توجد فيه بل في نفوسنا لانها في الحقيقة ليست سوى معاني حسية ونتيجة ذلك تفسير العالم بقضية هندسية وميكانيكية

فطريقة ديكارت في الطبيعة طريقة بديهية بها تتولد النتائج عن الاسباب أو المعلولات عن العلل ، فعوضاً عن ملاحظة العالم كما يتراى لنا . يخلقه من جديد بواسطة الفكر ولا يستخدم التجربة الا لتحقيق الافتراضات التفصيلية

يبعث الله الحركة في الامتداد وباستمرارها تتألف الكواكب وتتحرك وتتوازن . والنباتات والحيوانات تنتظم وتعيش وتنتج انواعها

وليس من الضروري افتراض وجود علل غائية

فالحركة الاولى بقوانينها الحافظة لها والمهيمنة عليها تكفي لتفسير كل شيء . والكون آلة لا يلتفت النظر الا الى اشكالها وحركاتها . والحياة الظاهرة آلية . وما البهائم الا آلات متحركة بذاتها لا نفوس لها لان ارواحها ليست سوى اجزاء دقيقة من الدم تحركها حرارة القلب

اما أهم المبادىء الطبيعية فهى

١ — كل شيء يثبت على الحالة التي هو عليها طالما لا يطرأ عليه شيء آخر يغيره

٢ — كل جسم يتحرك يميل بذاته الي التحرك في اتجاه مستقيم

٣ — كل جسم يصطدم بجسم اقوى منه يفقد اتجاهه وليس حركته

٤ — كل جسم يتقابل بجسم آخر أضعف منه وقادر على تحريكه يفقد من الحركة بقدر ما يعطيه منها لذلك الجسم

٥ — مقدار الحركة تظل كما هي بدون زيادة ولا نقصان

(علاقة النفس بالجسم) يرى ديكارت ان الفرق في الصفات

الجوهرية يستلزم التمييز بين الجواهر . فاذن تتميز النفس عن الجسد الا ان هذين الجوهرين متحدان بالقدرة الالهية. ومستقر النفس في الغدة الصنوبرية الكائنة في وسط المخ . ومنها تتشعع في سائر اجزاء الجسم بواسطة الاعصاب والارواح الحيوية وينطبع عليها ما يأتيها من الخارج من التأثيرات المختلفة التي تنقلها اليها تلك الاعصاب . وليس لاحد الجوهرين تأثير في فعله على الآخر .

(**نقد فلسفته**) ليس من غرض هذا التاريخ نقد جميع النظريات التي قال بها هذا الفيلسوف . ولكننا نكتفي بابداء بعض ملاحظات

(١) ليس ديكارت مرتاباً غير ان شكه الترتيبي غير معقول ومضر .

من المسلم به ان ديكارت لعزمه على ان لا يقبل الا الحقائق التي لا نزاع فيها . نبذ كل معرفة يمكن للعقل ان يرتاب بها . ولكن هل من المعقول ان يشك في صحة قوانا . وان يقول بافتراضه بوجود روح خبيثة تخدع ؟

ان مثل هذا الشك يؤدي حتماً الى السفسطة Scepticisme ومهما كان وضوح قاعدة « انا افكر اذن انا موجود » فلا استطيع التثبت منها اذا كان عقلي مخادعاً

(٢) ان لقاعدة الوضوح التي هي اساس اليقين . موانع خطيرة فالوضوح في نظر ديكارت شيء باني وبذلك لا يكون اليقين الا تبعياً . بالاضافة الى المفكر . فمن ذا الذي يؤكد لنا مطابقة ذات الشيء على الفكر الخاص به :

يقول الفيلسوف . ان الصدق الالهي هو الضامن لهذه المطابقة فكأنه لا يسلم الا بالوضوح النظري . ويميل الى جعل جميع القضايا الفلسفية مهما كانت الى مسألة علاقة يتعلق أو بالحرى الى ان يطبق الطريقة الهندسية على جميع الموضوعات ويهمل طريقة الاستقراء .

فخطر قاعدة الوضوح كما وصفها ديكارت هي انه يحمل العقل على نبذ كل سلطة فلا يسلم الا بالوضوح الذاتي الشخصي

٣ — جهل ديكارت وحدة المركب الانساني والشخصية البشرية جعلها اثنينية

فيقصر الروح على الفكر . والجسم على الامتداد . جرد هذين الجوهرين من كل عمل شخصي ومهد الطريق للمذهب الحلولي الذي يزعم ان الله دون غيره هو الموجود . وان الله وحده هو الفاعل .

كذلك نظرية الحكم والخطأ . ونظرية الافكار الغريزية • وتحرك الحيوانات الآلي . كل هذه اظهر معظم الفلاسفة خطأها غير ان مجد ديكارت في مذهبه الروحاني وفي التكهن

بالقوانين الطبيعية الحديثة كما انه هو أول من طبق الجبر على الهندسة

خلفاء ديكارت

٦٣

ارنو (١٦١٢ — ١٦٩٤) Arnauld

ونيقول (١٦٢٥ — ١٦٩٥) Nicole

هما مؤلفا منطق بورت رويال

فهذا المنطق الذي اختلطت فيه مبادىء ديكارت مع مبادىء ارسطو له شهرة يستحقها ومقسم الى اربعة اقسام تبحث في المعاني وفي الحكم وفي التعليل وفي الاسلوب

بسكال (١٦٢٣ـ١٦٦٢) B. Pascal

ولد في كليرمون وكانت له يد فعالة في النضال الذي اقامه الجانسنست ضد اليسوعيين

وقد اشتهر بسكال بذكائه وفطنته وثاقب فكره . ويجب

ان عيز زمنين في حياته الفلسفيه

ففي المدة الاولى (١٦٢٣ — ١٦٥٤) كان متشيعاً لمذهب ديكارت وكان يفرق بين الايمان وبين العقل وقد مجد العقل وقوته ورقيه

وفي المدة الثانيه (١٦٥٤ — ١٦٦٢) كان متشيعاً لجانسنيوس واوجد باباً للشك • وكان يخفض من قيمه العقل ويشنع بالطبيعه البشرية

بوسويه (١٦٢٧ — ١٧٠٤) Bossuet

هو اسقف مو • وقد استعان بنظريات ارسطو والقديس توما وديكارت لتعليم ولي عهد فرنسا واهم كتبه • كتاب حرية الاختيار وكتاب المنطق « ومعرفه الله والنفس »

وهذا الكتاب الاخير يحتوي على خمسه فصول تبحث في النفس وفي الجسم وفي اتحاد النفس بالجسد • وفي الله • والفرق العظيم بين الانسان والحيوان

ولو ان بوسويه متأثر بفلسفة ديكارت الا انه يخالف هذا الاخير في بعض مسائل منها انه يقول باتحاد النفس بالجسد اتحاداً جوهرياً ويشرح شرحاً مستفيضا العلاقات التي بينهما وفي مسألة نفوس الحيوانات فانه يمنحهم نفساً حسيه

فنيلون Fenélon

هو مطران كبراى له جملة كتب فلسفية اهمها كتاب «وجود الله وصفاته» قسمه الى قسمين

شرح في القسم الاول أدلة وجود الله من النظام الحسن الذي يسود في العالم . ودحض مذهب ابيقور

واتبع في القسم الثاني اسلوب الشك الترتيبي وابان البراهين على وجود الله من المعاني العقلية ودحض مذهب اسبينوزا الحلولي ثم ختم الكتاب بفصل بليغ في ماهية الله وصفاته

ومن رأي توماس ريد أن شرح فنيلون للاسلوب الشكى الذى ابتكره ديكارت هو أوفي وأظهر شرح

كلارك (١٦٧٥ — ١٧٢٩) Clarske

هو فيلسوف انجليزي تخرج من جامعة كمبردج وكان تلميذا لنيوتن . ومن رأيه ان المكان والزمان من صفات الله واستخلص من هذين المعنيين برهاناً جديداً لاثبات وجود الله . غير ان ليبنز ناقضه في ذلك

واما ان الله أوجدها في نفسنا وقت خلقها . بيد انه كيف يسوغ افتراض خلق مُثُل لاعداد لها بينما توجد طريقة ابسط من ذلك تليق بجلال الخالق في ايجاده من العدم تلك المثل

واما انه يوجد هذا المثال في ذات الوقت الذي نفكر فيه بشيء ما — ولكن يجب ان تكون الاشياء التي نفكر بمُثُلها موجودة. واما ان النفس تجد في ذاتها جميع الكمالات التي تراها في هذه الاجسام . وهذا يستحيل لانه لا يوجد تشابه بين كمال النفس وبين جواهر الاجسام

بقي الحل السادس وهو ان النفس متحدة بذات كاملة . تتضمن جميع مُثُل المخلوقات وهذه الذات تكشف للنفس عن تلك المثل لمناسبة التأمل فيها

فهذا الحل هو الانسب ويدعى ذلك الابصار في الله .

فحقيقة الاشياء الظاهرة ليست مؤكدة لنا الا بالوحي ..

(٣) العلل المرضية

كما ان الله دون غيره موضوع المعرفة كذلك هو أيضاً العلة الحقيقية الوحيدة .

لم يكن الامتداد في نظر ديكارت سوى الاستعداد لقبول الحركة . ولا قدرة له على التجزء الى ما لا نهاية . وينتج عن ذلك أن الجسم غير كفء لان يؤثر على جسم آخر وان المادة منفعلة

بنوع عام

كذلك الفكر لا يمكن له التأثير . وقد قال ملبرانش في كتابه « البحث عن الحقيقة » انه لا يمكن للاجسام ان تكون علة حقيقية لاي شيء كان . وكذلك الارواح مهما كانت سامية فليس لها قوة ما »

فالنفس لا تفعل بل تنفعل . وبداهة لا تؤثر نفس على نفس كما يرشدنا اليه عقلنا . غير ان الاختبار أظهر لنا عكس ذلك فكيف نفسر هذا التناقض ؟

لم ينكر ديكارت اتصال الجواهر ببعضها البعض . ولكنه صرّح بانها منفصلة عن بعضها بدون ان يرشدنا الى كيفية اتصالها

أما ملبرانش فقد ذهب الى ابعد من استاذه . فانه وضع نصب عينيه تعاريف ديكارت في النفس والجسد واستنتج منها عدم قدرة الفكر والامتداد على العمل بالذات

هنا تتداخل الذات العلية لحل مسألة اتحاد النفس بالجسد . فالله وحده مصدر الحركة وهو العلة الفاعلة لكل ما يحدث . اما الخلائق ، عديمة الحركة ، فهي أسباب عرضية حدثت اتفاقاً بفعل الله .

فلمناسبة الاحساسات والافكار والرغبات النفسية . يثير الله الحركة في الجسم . ولمناسبة حركات الجسم يبث الله في النفس الاحساسات والافكار والارادات .

فكل من ينظر الى العالم نظرة سطحية يرى ان لكل شيء سبباً . اما من يتأمل ويتمعن فلا يجد سوى الله علة كل شيء وعدة اتفاقات أو بالحري حوادث عرضية فلا ينبغي ان يتصور الانسان ان الله يعطي قدرته للخلائق ويجعلها اسباباً حقيقية تفعل في غيرها كما لو كانت آلهة

فبهذه النظرية أوجد ملبرانش هوة سحيقة تفصل النفس عن الجسد وعوضاً عن ان يفسر اتحادهما يقول ان كل اتحاد بينهما محال .

(٣) نظرية الاستحسان Optimisme

لما كان على الله — على رأي ملبرانش — ان يعمل كل شيء لمجده اضطر بالطبع ان يختار بين جميع العوالم الممكن ايجادها ، احسنها أو اكثرها استعداداً لاظهار كمالاته

غير انه في اختياره راعى المسالك التي يسلكها كما راعى ذات العمل الذي يعمله . فينبغي ان تكون تلك المسالك كما يكون العمل . تُظهر آثار حكمته أو بعبارة أخرى قد فضل أحياناً ان يعمل عملاً حسناً — ولو كان قليلاً بذاته — بالطرق الاكثر سهولة وبأعم النواميس وأكثرها انتاجاً ومن هنا نشأ أصل الشر الذي نلاقيه في الوجود

ترتبط نظريات ملبرانش الاخلاقية بنظريته في المعرفة . التي تتلخص في ان تصوراتنا هي تصورات الله ذاته فالتصورات المفهومة الموجودة في الكلمة يوجد بينها نوعان من العلاقات وهما علاقات عظمة وعلاقات كمال . وعلى هذه العلاقات الاخيرة دون غيرها يبني ملبرانش نظرية الخير الادبي

فالله بمحبته الضرورية لذاته يحب الاشياء بنسبة درجة الكمال التي تتصف بها تلك الاشياء . واننا اذا سرنا على هذا المثال فان ارادتنا تكون صالحة ان احببنا كما نحب الله

والنظام يكون في وجود علاقات الكمال بين الكائنات فاذن المحبة بحسب العلاقات هي محبة النظام . وعلى ذلك يُعرّف ملبرانش الفضيلة بأنها محبة النظام الدائم محبة متواصلة فوق كل شيء .

وتطابق نظرية الارادة ، نظرية الفهم . فكما ان الله علة عقلنا وغرضه . هو أيضاً علة حبنا وغايته . فحب الخير أو الارادة فينا ليست سوى دافع الحب الذي به يحب الله ذاته كما ان معرفة الحق ليست سوى اتصال التصورات التي بها يعرف ذاته

ان رغباتنا الخاصة هي السبب العرضي للخير الذي يتولد فينا كما ان انتباهنا هو السبب العرضي للنور الذي يضيء نفسنا . وليست الحرية التي لنا الا مقدرتنا في حصر عملنا على الخيرات الخصوصية

نقد فلسفته وصف بوسويه خلاصة آراء ملبرانش في كتاب الطبيعة والنعمة بانها «عجيبة . جديدة . مضلة » Pulchra, nova, falsa ويمكن تطبيق هـذا الحكم على مجموع نظريات ملبرانش • نعم ان لا نزاع في سمو أفكاره ورشاقة اسلوبه ولا بدع اذا لقبوه بافلاطون المسيحي • غير ان مذهبه يتضمن بدع خطيرة لا ينبغي الاخذ بها

فعلى زعمه ان وجود الاجسام لا يسند لا على العقيدة الفطرية ولا على البراهين الفلسفية • وعقلياً ربما لا توجد جواهر مادية بل حقائق تصورية خارجة عنا ويوجد فينا تصورات ذاتية تمثلها وهذا هو المذهب المثالي

ومن وجهة أخرى لا تستطيع خليقة ان تؤثر على خليقة أخرى لان الله وحده هو الفعال في الطبيعة وفي الانسان • والانسان الذي « ليس بفاعل بل مفعول فيه » هـل له وجود خاص حقيقي ؟ اليست العلة الوحيدة هي الموجود الوحيد والجوهر الفرد ؟

هذه أول خطوة لنظرية المذهب الحلولي

٦٥



سبينوزا (١٦٣٢ — ١٦٧٧)

Spinoza

ولد باروخ سبينوزا في امستردام من عائلة اسرائيلية برتغالية الاصل • ولما شجبته المشيخة اليهودية عام ١٦٣٦ نظراً لارائه الحرة اضطر لهجر وطنه والنزوح الى مدينة الهاي واستبدل اسمه باسم بنديكت فقضى حياته بقناعة وكفاف مشتغلا في الزجاج للنظارات ، رافضاً المعاش الذي رتبه له صديقه جان دي ويت ، والميراث الذي أوصى به سيمون أربيس • ولم يقبل أيضاً وظيفة التدريس في جامعة هيدلبرج حباً في الاستقلال الذي كان ينشده • ومات مصدوراً في ٢٣ فبراير سنه ١٦٧٧ غير متجاوز الرابعة والاربعين من عمره • وفي عام ١٨٧٧ أقيم له نصب في أحد ميادين الهاي يمثله جالساً متعمقاً في افكاره

(مؤلفاته) لم ينشر سبينوزا في حياته سوى كتاب مبادىء الفلسفة الديكارتية على نسق هندسي وكتاب اللاهوت السياسي ثم قام اثنان من أصدقائه في العام الذي توفى فيه بطبع كتابه

الاخلاق Ethica مؤلفاً على شكل نظريات هندسية ومقسماً الى خمسة أقسام تبحث في ذات الله • وماهية الروح ومصادره • وماهية الشهوات ومصدرها • والرق البشري أو قوة الشهوات وقدرة العقل أو الحرية الانسانية

وله أيضاً كتاب في السياسة وآخر يشتمل على رسائله الخصوصية

(فلسفته) يرفض سبينوزا المذهب التجريبي رفضاً باتاً ورأيه ان العلم الحقيقي لا يدرك الا بالعقل المجرد بداهة ويرتقي بالتعليل الهندسي

وتتلخص فلسفته في أربعة أقسام : نظري • ونفسي وخلقي وسياسي

الفلسفة النظرية : اول موضوع يتلقنه العقل بداهة هو معنى الكائن او الجوهر لان هذين المعنيين على رأي سبينوزا مترادفان •

قال ديكارت « ان الجوهر هو الكائن في ذاته والمدرك بذاته اي الذي لا يحتاج لشيء آخر لوجوده »

وكان انصاره يفسرون هذا التعريف للجوهر تفسيراً مستقيماً ويعارضونه بالحال Modalité

ولكن سبينوزا اخذه بمعنى مطلق للكائن الذي له في ذاته علة وجوده • فهو علة نفسه Causa Sui والذي « يفهم معناه

بدون احتياج لمعنى شيء آخر» واستنتج من ذلك ان هذا الكائن ازلي سرمدي

فاذا كان هـذا الكائن سرمدياً غير متناه فيجب ان يكون أيضاً واحداً لا ثان له . لان وجود اثنين حقيقين غير متناهيين غير معقول والقول بوجود جواهر متناهية، مخلوقة، محال لانه اما ان يكون للجوهر الخالق والجوهر المخلوق صفات متباينة واما ان تكون لهما صفات واحدة ففي الحالة الاولى ينتج السبب ما ليس منه وهـذا متناقض . وفي الحالة الثانية لا يمكن تمييز الجواهر بعضها عن بعض بما ان اختلاف الصفات هو الاساس الوحيد في التمييز بين الجواهر

فهذا الجوهر الوحيد السرمدي يظهر لنا بصفات تمثله لنا باكمله .

ويريد سبينوزا بالصفات « مايستخلصه العقل من الجوهر بأنه المكون لروحه أو هويته »

فهذه الصفات لا نهائية غير ان لا نهائيتها اضافية تبعية لانها تدل على الجوهر من وجهة خاصة واحدة .

وهي لا عداد لها لانها تدل على جوهر غير متناه وغير ثان والصفات ذاتها تظهر على شكل حالات متناهية ولكن باعداد غير متناهية

ويريد سبينوزا بالحالة ما يطرأ على الجوهر من التغيير أو ما

يوجد في شيء ما ولا يدرك الا بذاك الشيء »

فلو كانت الحالات لا نهائية لكانت الصفات ذاتها جواهر . ولو لم تكن أعدادها غير متناهية لما كانت تمثل اللانهائية النسبية للصفة

فالجوهر والصفات والحالات متباينة ولكنها غير منفصلة عن بعضها البعض لان الجوهر من طبيعته ان ينمو بالضرورة بصفات لا نهائية لا عد لها وتتمدل وتتغير بغير تناه

فهذه الجملة على رأي سبينوزا تفسر معنى الله

ونحن لا نعرف من صفات الله الغير محدودة سوى اثنتين وهما الفكر والامتداد ، بمعنى ان الله بالنسبة لنا هو الكائن المفكر والمنتشر بدرجة لا نهائية

فصفتي الفكر والامتداد تنتشران بالضرورة في عدد غير محدود من الحالات المتناهية وهي النفوس المفكرة . والاجسام المنتشرة .

وهاتان المجموعتان للحالتين المتقابلتين مترابطتان متلازمتان بمعنى ان كل فكر تقابله حركة وكل حركة يقابلها فكر . فهما وجهان غير منفصلين لوجود واحد ينمو بالضرورة وبدون غاية أما الاوجه الاخرى المتعددة فلا نعرفها

فالله يمتزج اذن بالطبيعة . ولكن يمكن التمييز بين الطبيعة الطابعة Natura naturans أي الجوهر أو العلة الفعالة المطلقة لكل

المظاهر . وبين الطبيعة المطبوعة natura naturata أي مجموع الحالات التي يتكيف بها الجوهر الغير متناهي، المفكر المتمد

ولا يسلم سبينوزا مطلقاً بوجود علل غائية اذ يقول «الكائن السرمدي الغير متناهي يفعل كما هو كائن بضرورة متساوية» . . « وان ما ندعوه علة غائية ليس الا الرغبة التي لنا في شيءما . » « نفترض أحيانا ان الطبيعة تعمل لغاية ونتخذ رغباتنا مقياسا للاشياء »

علم النفس يمزج سبينوزا الروح بالجسم ويعتبرهما واحداً فيرى ان النفس البشرية ليست في الواقع الا مجموعة من حالات الفكر الإلهي . وما الجسم الا مجموع من حالات الامتداد اللانهائي . وهاتان المجموعتان — المتميزتان عن بعضهما البعض بالنظر الى انهما يمثلان الكمال الالهي في مظهرين مختلفين — هما متماثلان بالنظر الا انهما يمثلان ذلك الكمال في وقت واحد من أوقات نموه الأزلي

والنفس — وهي جاهلة العلل التي تدفعها الى العمل — تظن انها حرة بيد انها « تحلم في اليقظة »

انها ليست حرة ولا هي « مملكة في مملكة » بل هي آلة روحية . وليس لها وحدة حقيقية لانها فكر مؤلف من جملة

أفكار كما ان الجسم مجموع ذرات ممتدة

وهي ليست خالدة بما انها شكل عرضي زائل للجوهر الابدي. ولا يعترف سبينوزا لتلك النفس بقوى متمايزة اذ لا شيء حقيقي خارجا عن الفكر. والتأكيد بوجوده هو الارادة فلا فكر بغير ارادة • ولا ارادة بدون فكر.

اما الاهواء والشهوات فهي ليست الاميولاً الغرض منها خير الجسد والنفس • فالهوى المدرك يدعى رغبة • واذا تحققت الرغبة صارت فرحا • اما اذا لم تتحقق دعيت غماً

واذا أضيف الى ذلك الهوى فكر خارجي سمي حباً أو كراهة

علم الاخلاق : يدعو اسبينوزا كتابه « الاخلاق » بالرغم عن مذهبه الجبري : وهذه خلاصة اخلاقياته :

يميل كل كائن الى حفظ كيانه • هذا هو المبدأ الاساسي • وللنفس درجة معينة في الوجود وفي الكمال وتميل بذاتها الى استبقاء كيانها ونموه

وكل زيادة في نمو النفس أو كمالها ويسبب لها فرحا ويكون لها نافعا يدعي خيراً • وكل نقص في ذلك النمو أو الكمال فيسبب لها حزنا او يضر بها يدعى شراً

واذ تقرر ذلك تكون النفس — التي من أهم صفاتها التفكير —

أكثر كمالا طالما كان موضوع فكرها كاملا

فمعرفة الله ، ومحبته ، والحياة فيه ، كل ذلك في نظرها كمال الحياة لان هذه الحياة تهب كيانها أكثر مما تهب حياة أخرى وتنيلها الرغبة الاساسية التي فطرت عليها ، وقال ان غاية المعرفة الوصول الى كمال الطبيعة البشرية ، كما ان الفرق بين الكامل والناقص ، او الخير والشر هو معنى اضافي لان ذلك سبب للتفكير والاستدلال بمقارنة الاشياء ببعضها البعض « فلا شيء يضر في مسكن جوبتير »

والشيء يكون خيراً أو شراً تبعا لنفعه او لضرره للانسان

وبمعنى آخر كل ما يزيد أو ينقص قدرتنا على العمل — ويساعدها او يباعدها ، يعد خيراً او شراً وبالتالي يسبب لنا فرحا او غما ،

ولما كان كمالنا بعقولنا فيجب ان نرقي العقل ونوسع الادراك فنحصل اذ ذاك على اغتباط النفس ومسرتها ، وما الغبطة في الواقع الا راحة النفس الناشئة عن عرفان ذات الله وصفاته وهذا هو سر الفضيلة والسعادة

ثم قال سبينوزا في موضع آخر من كتابه « فالاصول التي ذكرتها تدل صراحة على فضل الحكيم وعلو قدره على الجاهل الذي

تقوده شهواته العمياء . فتتلاعب به الاهواء فلا يجد لنفسه سلامها فيهملها وينسى خالقه ويجهل الاشياء المحيطة به • ويكون الوجود والعدم في نظره سواء ، بعكس الحكيم الذى لا يمس الاضطراب نفسه اذ بالضرورة يدرك ذاته ويدرك صفات الله وما يحيط به من الاشياء فيحصل على الدوام على سلام النفس.

كل كائن بصفته جزء من الله يتمتع بحق عمومي يقاس على قدرته تماماً • وبذلك نشأت حالة حرب شديدة ولو انها طبعية •

فلتجنب ذلك الف الناس الحكومة أساس كل عدل وكل ملكية

ولكى يتحرر سبينوزا من مذهب هوبس الاستبدادي. اجتهد ان يبرهن على ان السلطة لا يمكن ان تكون قوية الا اذا أحترمت، ولا يمكن ان تكون محترمة الا اذا كانت ضمن الحدود المقولة، ولا تكون كذلك الا اذا تركت الناس ناساً أي تترك لهم حرية الرأى »

ثم اضاف الى ذلك قوله « اذا كان كل شيء موكولا لارادة شخص واحد . فلا يمكن وجوده على حالة واحدة »

(نقد فلسفة سبينوزا) لهذه الفلسفة جميع أغلاط المذهب الحلولى : فطريقته يأباها العقل اذ يرفض التجربة ويبدأ بتعريفات تحكمية . ويمثل لنا الله بآراء متناقضة أي ممتد ومفكر وبسيط ومركب أما الانسان فينكر عليه الحرية والشخصية والخلود الروحي

كذلك ليس لمذهبه الاخلاقى الصفة الالزامية . وسلطة الحكومة هي بالضرورة استبدادية ومطلقة

ثالثاً — المدرسة الانتخابية

٦٦



ليبنز

Leibniz

في أواخر الجيل السابع عشر آل مذهب «بيكون» التجريبي الى مذهب « لوك » الحسي . وتحول مذهب «ديكارت» العقلي الى رأي ملبرانش التصوري

وفي وسط النضال الذي قام بين هذين المذهبين المتناظرين المتطرفين قام « ليبنز » الالماني يناضل الواحد والآخر ليسد الثلمات التي أوجدها بمذهب جديد يحاول فيه التوفيق بين افلاطون وديموقريطس ، وبين ارسطو وديكارت وبين المدرسيين والمحدثين . ويوفق العلم الالهي والاخلاق مع العقل

ولد جودفروا غليوم ليبنز في أول يوليه سنة ١٦٤٦ في مدينة ليبزج وكان أبوه متشرعاً ومدرساً للفلسفة الاخلاقية في جامعة تلك المدينة .

درس الحقوق والتاريخ والسياسة وعلم اللغة والرياضيات والفلسفة بكل سهولة ولكنه كان نابهاً في العلمين الاخيرين

وفي سنة ١٦٦٧ تعين مستشاراً لمنتخب « ماينس » وظل في وظيفته حتى سنة ١٦٧٢ ثم سافر في مهمة سياسية الى باريس وظل فيها اربعة أعوام تعرف على كبار مفكريها . وانتقل الى هولندة فتقابل مع سبينوزا ثم رحل الى انكلترا حيث كانت له فيها علاقة بجمعياتها العلمية .

وفي سنة ١٦٧٦ عينه الدوق دي برنسويك اميناً لمكتبة هنوفر فبقي متقلداً منصبه زهاء الاربعين عاماً الى ان توفى عام ١٧١٦ ٠

كان ليبنز صديقاً ومشيراً لدوقات هنوفر وله ضلع في جميع الحوادث السياسية ، واليه يرجع فضل تأسيس جامعة العلوم ببرلين وقد حاول برسائله المتعددة مع بوسويه تقريب الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية ببعضها البعض . وكثيراً ما استنار قيصر الروسيا بطرس الاكبر ، وامبراطور النمسا بمشوراته وآرائه السديدة

كان عالماً بكل العلوم ويعد دائرة معارف لا يضارعه فيها الا ارسطو ، كما ان مؤلفاته كانت كثيرة بيد ان اهمها ثلاثة وهي :

١ً — البحث الجديد في العقل البشري ظهر سنة ١٧٠٤

٢ً — مقالات لاهوتية في صلاح الله وحرية الانسان

ومصدر الشر ظهرت سنة ١٧١٠

٣ — نظرية الجواهر الروحية Mondologie طبع سنة ١٧١٤

فالكتاب الاول يعارض به كتاب « لوك » في الموضوع ذاته . ويتضمن الكتاب الثاني عقيدته في مذهبي الجبر والتفاؤل . ويشتمل الكتاب الثالث على موجز فلسفته

وله عدا ذلك مقالات ممتعة نشرت في جريدة العلماء تبحث في « المعرفة • والحقيقة • واصلاح الفلسفة الاولى • ومعنى الجوهر » أضف الى ذلك رسائله مع الفيلسوفين ارنو ، وكلارك

وقد حاول عقد تحالف بين القطر المصري وبين فرنسا بخطاب ارسله الى لويس الرابع عشر . كذلك توهم ان يوطد السلام العام بين جميع الممالك المتحالفة تحت سلطة الامبراطور الزمنية . وسلطة البابا الروحية .

وان تنشأ لغة عامة لجميع الشعوب تؤسس على قاعدة مشابهة للرموز الجبرية

(فلسفته) توصف فلسفة ليبنز بانها انتخابية مختارة من آراء الفلاسفة المتقدمين وادمجها في سلك واحد

وكانت فلسفة ديكارت الاساس الذي بنى عليه ليبنز مذهبه الجديد بعد ان عدل اساليبها واصولها حتى لا يقع في أغلاط سبينوزا

نظرية الجواهر : (١) ماهيتها

قال ديكارت ان جوهر المادة الروحية هو الفكر وجوهر المادة المادية في الامتداد

فناقض ليبنز الشطر الاخير من رأي ديكارت وقال : الادعاء بان المادة ليست سوى امتداد ، هو الحكم على الكون بالجمود والخمول . ونكران وجود القوات الطبيعية ، ونسبة جميع الظاهرات الحسية الى فعل الله . فيؤدي كل ذلك الى مذهب سبينوزا الحلولي

وقد نشأ الخطأ الاصلي لمذهب ديكارت من الخطأ في تعريف الجوهر ولذلك صححه ليبنز بقوله ان حقيقة الجوهر هي القوة كما يمثلها لنا وجداننا وكما نتمثلها في الاشياء بطريق المقارنة

القوة هي كل الوجود يتوافق فيها الواحد والكثير ، الممكن والواقع . وهي ليست خاصية تحتاج الى دافع خارجي للتحول من امكان حصول الشيء ، الى حصوله فعلاً . انما هي استعداد دائم للفعل تعمله بغير انقطاع بفضيلة خاصة بها

وهذه القوة بسيطة بطبيعتها ولها فعل ذاتي صرف وغير قابلة للتلاشي بطبيعتها وهي واحدة بالجوهر ولذلك اطلق ليبنز عليها اسم Monade أي واحدة

والوحدات Monades لا حصر لعددها أو بالحري لاعداد

لها وكلها مختلفة عن بعضها . لانه لو كان يوجد شيئآن لا يتميزان عن بعضهما البعض لما وجد الله سبباً كافياً لان يخلقهما في ازمنة وامكنة مختلفة

ولكل الوحدات الروحية المذكورة خاصتان وهما «الشوق appetition والتمثيل Perception

فالشوق ميل شديد للتغير ، اي التحول من تمثيل لآخر .

والتمثيل هو ادماج الشيء الظاهري في الباطني وتخيل المركب في البسيط والتعدد في الواحد

ولكل وحدة روحية خاصة التشكل بجميع الكائنات الممكن وجودها وبذلك تكون ممثلة للكون باجمعه . ولكنها مع ذلك لا تدرك مباشرة سوى ذلك الجزء من العالم الذي له علاقة مباشرة بالجسم (١) الذي هي له الكمال والغاية entelechie

(٢) انواع الوحدات ـ للوحدات الروحية درجات متعددة سائرة الى الكمال ، غير ان وحدات هذا العالم تنقسم

---

(١) لكل وحدة ولو كانت ملائكية — جسم ما عدا الذات الالهية

الى ثلاث طوائف وهي

أولاً — الذات البسيطة او المادية يكون التمثيل فيها مشوشاً مبهماً لا ادراك له وتتألف الاجسام من هذه الوحدات

ثانياً — الوحدات الراقية ذات ادراك وتذكر . وهي نفوس الحيوانات ، وتمثيلها يطلق عليه لفظ « احساسات » تستمر على التكرار فتظهر كسلوك صادر عن تعقل وترو

ثالثاً — الوحدات السامية التي يصحب تمثيلها فهم أي معرفة الحقائق العامة الضرورية . وهي النفوس البشرية وتمثيلها يدعى « ادراك الادراك Apperception » أي انها تدرك الاشياء وتعلم انها تدركها .

ويفعل الله بالنوعين الاولين كما يستعمل المهندس آلته ويعامل النوع الثالث حافظاً شخصيته ومرتقياً درجات الكمال

وجميع الانواع الثلاثة وجدت منذ بدء الخليقة

علاقة الوحدات الروحية ببعضها البعض

باتحاد الوحدات البسيطة ببعضها البعض تتألف الاجسام الجامدة .

والاجسام العضوية هي مجموع افراد سادت عليها واحدة منها ووحدت بينها

اما الوحدات السامية فبانضمامها الى الاجسام العضوية يتركب

الانسان . غير ان تلك الملاقات التي تؤلف بين جميع الوحدات تنشأ عنها صعوبات كثيرة

قيل ان الاجسام ممتدة . فكيف يفسر هـذا الامتداد اذا كان كل مادة مركبة من عناصر بسيطة ؟

يجيب ليبنز على ذلك ناكراً ان الامتداد خاصة حقيقيةالمادة فما هو الا الحالة التي تتمثل بهاالقوات الموجودةمعهاولنابها علاقة فهذه القوات — اذا اعتبرت في ذاتها — ليست ممتدة ولا متجزئة . وانما تنظيم هذه القوات وعلاقتها باعضائنا تظهر لنا بما ندعوه امتداداً

لم يمس ليبنز جميع مبادىء ديكارت الخاصة بتفسير الظاهرات الحسية . ولكنه لم يسلم بالتحرك الآلي الصرف لان هذاالتحرك لا يبين سبب الحركة . فقال ليبنز ان السبب يوجـد في القوة الحاصلة عليها كل الكائنات بدون استثناء

كل وحدة تنمو تبعاً لقانون خاص بها ولا يمكنها ان تؤثر باي حال على وحدات اخرى ، فكيف امكن اذن وجود تآلف وتجانس بين مجموع الوحدات المختلفة

يجيب ليبنز على ذلك بان نمو كل وحدةملازم لنمو الوحدات الاخرى وبناً على هذا المبدأ تعمل الوحدات المتحركة التي تتألف منها الاجسام طبقاً للقوة التي تحركها كما لو لم يكن بها روح مطلقاً كذلك الوحدات التي تشعر بادراكها أي النفوس ، فانها تعمل كما

لو كانت بغير أجسام

الا انه بناً على الائتلاف الذي أوجده الله من قبل فمجموعتا الافعال المذكورة — ولو انهما مستقلتان عن بعضهما تماماً — متفقتان بمعنى ان في الانسان مثلاً ، تقابل حركاته الجسمية بعض احساسات في النفس . كما انه يقابل افكار النفس بعض تعديلات في الجسم

علم النفس : النفس قوة بسيطة فاعلة ومفكرة على الدوام . غير ان افكارها على نوعين : أحدهما أفكار مبهمة عديمة الحس وهي المدركة . وثانيها أفكار متميزة وتشعر بادراكها ويدعوها لبنز «aperception ادراك الادراك»

وأهم نظرياته النفسية ترجع الى اثنتين وهما نظرية العقل ونظرية الحرية .

نظرية العقل : كان لوك يقول ان نظرية النفس أشبه بصحيفة بيضاء تنقش عليها التجربة جميع انواع الصفات .

أما ليبنز فانه يشبهها برخامة بيضاء منقوش عليها من الاصل شكل التمثال وخطوطه والتجربة هي التي تزيده وضوحاً وجلاء وتظهره تاماً كاملاً

قال لوك العقل لا يدرك الاشياء الا عن طريق الحواس

Nihil est in intellectu quod non prius fuerit in sensu

فصحح ليبنز هذا المثل بهذه الكلمات التي أضافها عليه :

nisi ipse intellectus

يوجد فينا شيء غريزى وهو العقل وقوانينه

وهذه القوانين التي نجري تطبيقها عند ماتسمح لنابها التجربة قسمان أحدهما مبدأ التناقض والآخر مبدأ السبب الكافي

فالاول يقابل الممكن . والثاني يؤدي بنا الى الوجود الفعلي وتشتق من المبدأ الثاني المباديء الاخرى الاساسية الآتية .

(١) مبدأ السببية : لكل شيء يبدأ في الوجود ، سبب

(٢) مبدأ الغاية : لكل ناتج غاية

(٣) مبدأ الاصلح : اذا كان شيء احسن من غيره ممكن حصوله . فلا معنى لبقاء الاقل صلاحية

(٤) مبدأ الاستمرار — الفراغ في الزمان أو في المكان — وفي كمية الكائنات او كمالها . ليس له سبب كاف مادام الاستمرار ممكنا

نظرية الحرية : قال ليبنز « توجد الحرية في الفهم الذي يتضمن معرفة متميزة عن ذات الشيء وعن التعليل • وتوجد في الذاتية Spontanéite التي بها نعين لنا شيئاً خاصاً — ويجعلها ايضاً في الحدوث Contingence أي في استبعاد الضرورة .

المنطقية او النظرية

فالخاصة الذاتية والحدوث تتقابل في جميع افعال الوحدات . وينشأ عن ذلك ان الفهم يكون كروح الحرية والاصل الذي تبنى عليه

وحريتنا ليست في حرية عدم الاهتمام تعمل بدون سبب انما هي مسيرة بالخير الأعظم

واذا كانت ارادة الانسان العاقل تنطبق دواما على الاسباب الدافعة لها فلا يفهم من ذلك ان تلك الارادة مقيدة ؟ كلا . لان الاسباب التي تدفعني على العمل هي اسبابي وباطاعتها اطيع نفسي فاذن ما دامت تبعيتي لذاتي فانا حر

هذا هو مذهب ليبنز الجبري Determinisme الذي يتعارض مع تعريف المسيو جانيه للحرية حيث يقول انها خاصة العمل ضد الميل الدافع

ويستخلص ليبنز من مذهبه هذا ان عمل الانسان خاضع دائما للعقل وانه اذا ارتكب الشر فللظن انه خير . فالانسان لا يفعل الشر الا عن خطأ

يرى من ذلك ان لبنز اعتنق رأي سقراط وافلاطون في الفضيلة

العلم الالهي : الله هو السبب الكافي لوجود جميع الكائنات التي نراها . وهو السبب الكافى للائتلاف السائد بينها

ويضيف لبنز الى هذين الدليلين . برهان القديس انسلمس الذي اخذ به ديكارت — ثم حاول ان يرد عنه كل نقد

ان كمالات الله هي كمالات نفوسنا غير انه تعالى يجوزها بغير حد — وتوجد فينا بعض القوة وبعض المعرفة وبعض الصلاح . ولكنه الكلي القدرة والفهم والصلاح

ومن ذلك يستخلص لبنز نظرية التفاؤل

قال « الحكمة السامية مضافة الى الصلاح الذي لا يقل عنها لا تناهياً لم يمكنها الا اختيار أصلح الاشياء

فاذن يكون العالم الحالي أحسن العوالم الممكنة وكماله هو سبب كاف لوجوده

لم يكتف لبنز باثبات تفاؤله بداهة a Priori بل اراد أيضاً التحقق من صحة مذهبه اختيارياً Posteriori والتوفيق بين وجود الشر مع القول بكمال العالم ولهذا الفرض يميز بين ثلاث انواع للشر

(١) الضرر النظري . والضرر الطبيعي الجسمي . والضرر الخلقي الادبي . ولاحظ انه لا يجب النظر الى العالم في وقت معين من اوقات الوجود بل في مجموع زمن وجوده الذي يتناول ابدية الاجيال المستقبلة

(نقد فلسفة لبنز) لتقدير هذه الفلسفة يجب ان لا يبرح عن البال انها اصلاحاً لمذهب لوك الحسي من جهة ولبعض اصول العقيدة الديكارتية من جهة أخرى

ولا ننكر انها تتضمن بعض الحقائق السامية غير ان بها أيضاً بعض أغلاط جسمية : فلبنز يخلط بين الحرية والارادة . وينكر حقيقة السبب الموحد بين النفس والجسم

اما نظريته في التفاؤل فيل الى نكران القدرة الالهية الكلية والتحتيم بضرورة الخليقة

ومع ان هذا المذهب في مجموعه معارضة واضحة للمذهب الحسي فهو لم يخل أيضاً من اضرار المذهب التصوري

٦٧

انصار لبنز

يسوغ لنا ان نعتبر من انصار حركة لبنز الفلسفية

كريستيان توماز يوس (١٦٥٥ — ١٧٢٨) الذي اتم تعريف معنى الجوهر ولكن كان أهم اشتغاله بالحق الطبيعي

وكريستان ولف (٩ ١٦ ١٧٥٤) الذي نشر فلسفة لبنزفي المانيا — والاب بسكوفتش (١٧١١ — ١٧٨٧) الذى عدل نظرية الوحدة . فارتأى ان الاركان الاخيرة للجسم هي نقط حقيقية لا تتجزأ ولا تمتد وضعت احداها على مسافة من الاخرى ولها قوتا الجذب والدفع

فهذان القانونان يكفيان لتفسير جميع الظاهرات الطبيعية والصفات الجسمية

وجان باتست فيكو (١٦٦٣ — ١٧٤٤) من مدينة نابولى اشتهر بمؤلفه « العلم الجديد » ذكر فيه المباديء الاولى لفلسفة التاريخ .

المدة الثانية

الجيل الثامن عشر

للحركة الفلسفيه في هذا الجيل ثلاثة مراكز وهي (١) فرنسا (٢) انكلترا واسكتلنده (٣) المانيا

الفلسفه في فرنسا

تكاثرت في فرنسا المذاهب الفلسفية فبعضها تجريبي ومادي وبعضها عقلي والحادي . وبعضها اجتماعي واقتصادي

٦٨

المذهب الحسي

كندلياك

ولد اتيان بونو دي كندلياك Condillac (١٧١٥ — ١٧٨٠) في مدينة جرينوبل وتعين مؤدباً لدوق دي پارما حفيد لويس الخامس عشر فألف له سلسلة دروس خاصة

اما اهم مؤلفاته فهي « مبحث في اصل المعارف البشرية طبع سنة ١٧٤٦ — وكتاب المذاهب (١٧٤٩) وكتاب الاحساسات (١٧٥٤) وكتاب لغة الاعداد ظهر بعد وفاته

ففي المؤلفين الاولين نقل كندلياك وأتم آراء لوك في مصدر اللغة وعلاقتها بالفكر . اما في الكتابين الاخيرين فقد خالف استاذه فيهما وحاول ان يثبت صدور معارفنا وقوانا من الاحساس دون غيره قال « لنفرض تمثالاً مركبا مثلنا وله عقل خال من كل فكر

فعند حصول الرائحة الاولى ، تكون اهلية التمثال للشم منحصرة كلها في التأثير الذي يحدث في العضو .

وهذا ما ادعوه بالانتباه »

فالانتباه اذن هو المصدر الذي تشتق منه كل قوى الادراك : فالمقارنة ليست سوى انتباه مزدوج والذاكرة هي ما تبقى من احساس ماض ، والحكم ينشأ عن المقارنة ، والتروي ليس الا سلسلة احكام قد تدعى التخيل لو كان غرضها الصور ، كما ان التعليل استنتاج حكم من حكم آخر يتضمنه

اذن لا يوجد سوى احساسات في تعليلاتنا كما في احكامنا

واذا اعتبرنا احساساتنا كتمثيلية فاننا قد رأينا ان جميع ملكات العقل مشتقة منها . واذا اعتبرناها واقعية فسنرى انه يتولد عنها جميع القوى التي نعلقها بالارادة

فالالم الذي ينشأ عن الحرمان من شيء مسر يدعى (**الاحتياج**) فالاحتياج يوجه جميع قوانا الى غرض وهذا التوجيه هو (**الرغبة**) والرغبة التي تصبح عادة تدعى **الهوى** واذا كانت شديدة تصير **املا**

اما الرغبة المطلقة فهي الارادة بحصر الكلمة . ومجمل القول يطلق العقل على اجتماع الحس والمقارنة الخ — والارادة هي مجموع الاحساس المسر أو المكدر . والحاجة والرغبة الخ

اما كلمة الفكر فتشتمل قوى العقل والارادة ولما كانت هذه القوى جميعها تتولد بالضرورة من الاحساس كان الفكر على أي حالة . احساسا تغير شكله

اما مسألة اللغة فقد وقع كندلياك في أغلاط جسيمة لم يقع فيها لوك . فعلى رأيه تكون اللغة مبدأ جميع قوانا المختلفة والعلوم ليست سوى سلسلة جمل متشابهة وعلى ذلك تكون اجادة العلم في اجادة اللغة

ملحوظة — يرتكز مذهب كندلياك على مبدأ ان النفس لا تعرف الاشياء الخارجية الا بواسطة الاحساس ، وهذا اعظم خطأ . لان الانسان الذي لا تكون له سوى خاصية الشعور . لا يعرف شيئا

وليس الانتباه — على رأي كندلياك الا احساسا خاصا فهذا الرأي هو أضعف نقطة في مذهبه لان الاحساس شيء انفعالي والانتباه فعلي والفرق بين الاثنين لا يمكن تجاوزه

كذلك توجد أغلاط كثيرة في باقي ارائه

فالمقارنة ليست انتباها مزدوجا . والحكم ليس مقارنة في جميع الاحوال . اما نظرية قوى الارادة ففاسدة فساداً مطلقا

ومن الخطأ البين الذي وقع فيه كندلياك تكييف الهوى بالامل . والامل بالارادة

كما اننا لا نفسر كيف نسي كندلياك التكلم عن الحرية ضمن نظريته في قوى النفس . ولا يستبعد انه ربما يكون مزجها بالغريزة أو بالرغبة

٦٩

المذهب المادي

المذهب المادي نتيجة طبيعية للمذهب الحسي المتقدم واشهر معتنقيه هم : هلفتيوس (١٧١٥ — ١٧٧١) الذي علم به في كتابيه الروح والانسان

والبارون دي هلباش (١٧٢٣ — ١٧٨٩) الذي كتب عدة

مؤلفات في المادية والالحاد واهمها « المذهب الطبيعي »

وسان لمبير (١٧١٧ — ١٨٠٣) الذي اوجز اخلاقيات هلفتيوس في بضعة قواعد دعاها باسم «التعلم الديني العام» .

ولامتري (١٧٠٩ — ١٧٥١) مؤلف كتاب « الانسان النباتي) والانسان الآلي

٧٠

المذهب العقلي

بجانب الحركة المادية التي مال كثيرون من الانسكليوبيدين الى نشرها . قام الفلاسفة العقليون الذين اتفقوا مع الماديين في نظرية الاخلاق يخالفونهم في جميع المسائل اللاطبيعية وقد نصبوا انفسهم مدافعين عن حقوق العقل . فتولى زعامتهم فولتير وروسو بيد ان هذا الاخير اشتهر بتأثيره في المسائل الاقتصادية الاجتماعية اكثر من الفلسفة الصرفة

فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) Voltaire

تلقى العلم على اليسوعيين في كلية لويس العظيم ثم تعين ملحقا بسفارة فرنسا في هولنده . ثم نفي الى انكلترا على اثر مشاجرة

حصلت بينه وبين الشفاليه دي روهان

كانت رواياته : هزياد • وهيكل الذوق وغيرها سببا في شهرته الادبية • ورسائله الفلسفية رفعته الى رأس الفلاسفة المعاصرين

ليس لفولتير فلسفة خاصة وانما اعتنق مذهب لوك بدون بحث وكان يعتقد بخلود الروح وبوجود الله • وفي رسائله الى فريدريك الثاني انتصر ببلاغة لنظرية الحرية البشرية • ودحض مذهب لوك في المنفعة

غير ان اعترافه بوجود الله يناقض عقيدته فيما كتبه في رواية « كانديد » وفي قصيدته عن زلزلة ارض لشبونه فقد انكر وجود عناية ربانية • وفناء الكون

٧١

المذهب الاقتصادى

أخذ المفكرون في الاهتمام بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية في الجيل الثامن عشر ولنذكر بين الذين اشتهروا باصلاحاتهم :

مونتسكيو (١٦٨٩ — ١٧٥٥) Montesquieu

فكان تأثيره عظيما في الاقتصادالسياسي واشتهر على الخصوص بمؤلفه « روح الشرائع » مؤسسا على مبدأ « ان القوانين هي العلاقات الضرورية المشتقة من طبيعة الاشياء» وقد اوضح فيه ان الاجتماع طبيعي في الانسان وان القوانين الاجتماعية ليست اتفاقات تحكمية وانما هي مؤسسة على العلاقات الضرورية للاشياء وهو بذلك يخالف مذهب هوبز . ثم تكلم عن جميع اشكال الحكومات المختلفة وقال انها لا تخرج عن اربعة : الحكومة الاستبدادية القائمة على الخوف ، والحكومة الملكية ومبدأوها الشرف . والحكومة الجمهورية ومبدأوها الفضيلة ، والحكومة المختلطة الشورية ومؤسسة على تقسيم السلطات وهي أفضل الحكومات لانها تمثيلية

ومن رأيه الغاء العقوبات التعذيبية التي كانت شائعة في عصره والغاء الرقيق . والتساهل الديني . وايجاد محلفين في المحاكم



جان جاك روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨)

J. J. Rousseau

كانت حياته ملأى بجلائل الاعمال وهو يعد من أعظم مشاهير عصره وممهدي الثورة الفرنساوية . وله مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب « العقد الاجتماعى » في الحقوق السياسية . وكتاب اميل Emile في التربية

اما رأيه في السياسة فينحصر في « ان حالة الطبيعة للانسان ان يعيش في وسط عائلة بتواضع حر . وان الجمعية المدنية اصبح من الضروري وجودها نظراً لما طرأ على الاخلاق من الفساد . والملكية ضرر ناشيء عن حالة لاطبيعية وضد الاجتماع فالثمر مشاع للجميع واما الارض فليست لاحد — الجمعية المدنية والسياسية مؤسسة على اتفاق معقود بحرية . العقد الاجتماعي لا ينتج عنه تنازل الافراد عن حريتهم وكل عقد يخالف ذلك يكون لاغياً . انما هو عقد مساواة بين الجميع — بعد التعاقد الاجتماعي تظل السيادة من حق الشعب — وليس الحكام ملوكاً انما هم وكلاء عن الشعب — لهذا الاخير الحق في كل وقت ان يعزلهم . ومن الاصوب والمستحسن ان تقسم المملكة الكبيرة الى عدة حكومات صغيرة

متحدة فيما بينها . ويجب ان تنفصل الحكومة عن كل دين سماوي بل تتخذ لها ديناً طبيعياً مدنياً تؤلف الامة مواده

اما تربية الطفل فتجب ان تكون سلبية أي خالية فقط من العيوب والاغلاط

فهذه الآراء الفلسفية السياسية التي قيلت منذ نيف ومائة وخمسين سنة كان لها أعظم التأثير حتى الان في حياة الشعوب قاطبة .

كناي (١٦٩٤ — ١٧٧٤) Quesnay

هو مؤسس المدرسة الاقتصادية المعروفة بمدرسة الطبيعيين Physiocrates اذ كان يعتبر ان الارض مصدر جميع الارزاق واستنتج من ذلك ان الضرائب يجب ان توحد وتقوّم تبعاً لنتاج الارض وغلتها وان مالك العقار هو الملزم دون غيره بدفعها .

ترجو (١٧٢٧ — ١٧٨١) Turgot

نشأت شهرته من خطابين القاهما سنة ١٧٥٠ في السوربون احدهما عن المنافع التي أدتها الديانة المسيحية للجنس البشري . والثاني عن تقدم الفكر الانساني

وقد تعين في القضاء فكان وكيلاً للنائب العمومي فمستشاراً في مجلس الشورى (البرلمان) فوكيلاً للمالية فوزيراً لها

وقد رفعه كتابه « تكوين الارزاق وتوزيعها » في مصاف الاقتصاديين وكان مشاركا لكناي في مذهبه

كوندرسيه (١٧٤٣ ١٧٩٤) Condorcet

كان سكرتيراً لاكاديمية العلوم . فنائباً في الجمعية التشريعية ثم انتخبته سبع مديريات في حكومة « الاتفاق » ولكنه سقط مع حزب الجيروندين ونفته الحكومة فاختفى ثمانية اشهر في منزل مدام فرنيه ولكن القي القبض عليه بعد ذلك واقتيد الى السجن فتجرع السم من تلقاء نفسه

كان يرى ترقي الفكر البشري وتدرجه الى الكمال كلما تقدم في المدينة

الفلسفة في انكلترا واسكتلندة

تعتبر الفلسفة في انكلترا واسكتلندة في الجيل الثامن عشر مناظرة لفلسفة لوك وللنتائج المادية التي استخلصها منها فلاسفة فرنسا . فالمقاومة كانت بالغة اشدها تارة ونتج عنها في الفرع النظري المذهبان : التصوري والارتيابي

وطوراً كانت غير تامة فأدت في فرع الاخلاق الى المذهب الوجداني أو المنفعة بمعناها الصحيح

وتارة كانت على أتمها وفي حدودها المعقولة فادت الى المذهب الاسكتلندي أي الى الذوق الفطري . وسنتكلم عن كل مذهب من هذه المذاهب المتعددة

٧٣ — المذهب التصوري Idealisme

جورج بركلي (١٦٨٤ — ١٧٥٣) Berkeley

ولد في كيلرين بالقرب من توماستاون في الجنوب الشرقي من ارلندة

تلقى دروسه في مدرسة « الثالوث» بدوبلن وتخرج منها وهو في الرابعة والعشرين من عمره . وقد صنف المؤلفات التي خلدت اسمه واهمها كتاب محاورات هيلاس وفيلوناوس

سافر كثيرا في ايطاليا وامريكا وبعد اوبته تعين اسقفاً لكلوين Cloyne في جنوب إرلندة . وبعد ذلك بثمانية سنوات اعتزل العمل فمات في اكسفورد سنة ١٧٥٣

(مذهبه) بنى بركلي فلسفته على نظرية لوك في المعرفة : نحن لا نعرف الاشياء الا بالصور التي نتخيلها لها • فنحن لا نعرفها مباشرة

فهل لهذه الاشياء ،التي نتمثها كمواد تحدث الظاهرات،وجود فعلي ؟

لا يمكن لنا التثبت من ذلك بما اننا لا نعرف الا ما فينا أي تعوداتنا . ولا شيء يؤكد لنا مطابقة هذه التصورات على موضوعاتها

غير ان بركلي يقول « ان لا وجود للتصورات الا اذا كانت مدركة فيجب ان نكون اذن موجودين نحن الذين ندرك هذه التصورات

ولكن هل نحن الموجودون في العالم دون غيرنا ؟

يجيب بركلي على ذلك نفياً لان تصوراتنا محتمة علينا في اغلب الاحيان . وهي تحصل فينا بنظام متآلف لا يتعلق بنا • اذن يوجد روح آخر يخلق فينا هذه التصورات

فالعالم هو مجموع ظاهرات لا يتعلق بنا احداثها او ارتباطها

ولا يوجد هذا العالم الا في الادراك البشرى الذي يتخيله • وفي الادراك الالهي الذى يتضمنه ويجعله قائما

لقد اراد بركلي دحض المذهب المادي فوقع في التصوري ولاعتباره الظاهرات الطبيعيه تتابع بغير غاية مهد الطريق لمدرسه ستوارت ميل التجريبيه

وقال فكتور كوزين « ان الانسان باعتناقه مذهب بركلي التصوري يؤمن بوجود الروح مصدر كل التصورات وبوجود الله العله الاولى لجميع هذه التصورات

فجاء هيوم ولاشى هذه الاعتقادات ونفى وجود الروح كما نفى بركلي من المادة صفاتها الاوليه وازال لوك صفاتها الثانوية من معرفتنا

٧٣ — المذهب الارتيابي Scepticisme

دافيد هيوم (١٧١١ — ١٧٦٦) Hume

ولد في مدينه نين ولس بكونتيه برويك جنوبي ادمبورغ رشح نفسه للمحاماة فلم ينجح فيها • فاراد الاشتغال بالتجارة فولته ظهرها • فقصد فرنسا واقام بها ثلاث سنوات في المدينه التي نشأ فيها ديكارت

وفي عام ١٧٣٩ نشر الاجزاء الاولي من مؤلفه « الطبيعه

٧٥

المذهب الوجداني Sentimentalisme

١ — انطون اشلي كونت شفتسبري (١٦٧١ — ١٧١٣)

Shaftesbury لا يسلم بوجود الخير لذاته فلا يجعل فارقا جوهريا بين الخير والشر فالذى يدفعنا لتحبيذ بعض الاعمال كأنها خيرية وللاشمئزاز من بعضها كانها مضرة . هي حاسة ادبية أى صادرة عن ترو وتأمل

٢ — فرنسيس هتشسون (١٦٩٤ — ١٧٤٧)

Hutcheson

ارلندى الاصل صار في الخامسة والثلاثين من عمره استاذا في جامعة غلاسجو باسكتلنده وظل فيها حتى توفي

اما مذهبه في علم النفس فيتقارب من مذهب لوك ولكن رأيه الأخلاقي يرتكز على قوة خاصة في النفس تدعى الحس الادبي مضافا اليها معنى العاطفة والانعطاف

٣ — آدم سميث (١٧٢٣ — ١٧٩٠) Adam Smith

اسكتلندى الجنس كان مدرسا في جامعة غلاسجو أيضا . اما نظريته في العواطف الادبية تدمجه ضمن فلاسفة المدرسة الاخلاقية الوجدانية. غير ان مباحثه في ماهية ثروة الامم واسبابها تجعله في أول صفوف الاقتصاديين

ففي الاخلاق يقرر آدم سميث مبدأ الجاذبية او الائتناس Sympathie ويزعم ان كل فعل تأنس به او تنجذب اليه هو خير وللحكم على اعمالنا الخاصة يجب ان نقف عندها موقف الغير متحيز

وفي الاقتصاد السياسي يدحض آدم سميث نظرية «الطبيعيين Physiocrates ويقرر ان العمل مصدر الثروة والارزاق . وان شروط اجادة العمل وانتاجه بكثرة هو تجزئته والحرية في المبادلة او في حمايته

٧٥

مذهب المنفعة Morale Utilitaire

جيرمي بنتام (١٧٣٢ — ١٧٤٨) Jeremie Rentham

ولد ومات في لندن وقد أوصى بتشريح جسمه .

سار بنتام على مبدأ هوبز من ان الانسان بطبيعته اناني « محب لذاته » فقال « لا يعمل الانسان قيد اصبع لآخر الا اذا كان له في ذلك اعظم منفعة واكبر فائدة »

وما علم الاخلاق الا تنظيم الاثرة . وهو يأمر باستعراض اللذات المختلفة ويقارنها ببعضها البعض ويختار منها الاكبر في المقدار والكمية

هـذه هي نظرية المنفعة التي وضع اساسها بنتام ونشرتها المدرسة الانجليزية الحديثة وقد اضافت عليها عاملاً آخر وهو صفة اللذات

٧٦

المدرسة الاسكتلنديه

أربعة فلاسفة يمثلون هذه المدرسة التي يدعوها فكتور كوزين « اعتراض الذوق الفطري للانسانية ضد افراط المذهب الحسي وضد المذهب الارتيابي . أولئك الفلاسفة هم توماس ريد . ودوجلد ستوارت . ورويية كولار . وهملتون

١ — توماس ريد (١٧١٠ — ١٧٩٦) Reid

كان ابن أحد القسوس المطهرين — وبعد ان كان راعياً لاحد الكنائس الصغرى . صار استاذا في ابردين . ثم في غلاسجو حيث أخلف آدم سميث

أما مؤلفاته فهي مباحث في العقل البشري . ورسائل في القوى العقلية . وفي القوى الفاعلة

وهو يرى ان الافراط في البحث النظري يؤدي الى الشك ويبعد المرء عن الذوق الفطري

فاول شيء يجب ان تبحث فيه الفلسفة هو النفس وأصح طريقة تتبع في هذا البحث هي تطبيق طريقة الملاحظة التي شرحها بيكون على الافعال الباطنية وبذلك نتوصل الى معرفة التاريخ

الطبيعي للنفس

اما المسائل النظرية الخاصة بالعلة والغاية والمصدر والجوهر فيجب التوا كل فيها على الهام الذوق الفطري

واذ وضع « ريد » هذه المباديء أخـذ في وصف قوى النفس فقسمها الى قوى عقلية (حس وذاكرة وادراك وتجريد . وحكم . وتعليل . وذوق . ووجدان) والى قوى فاعلة (غرائز . وعادات . واهواء . ورغبات وانفعالات ومنفعة وواجب) ووضع للقوى الفاعلة ثلاث مباديء وهي : مبدأ آلي . ومبدأ حيواني . ومبدأ عقلي

وهو لا يسلم بنظرية « صور — المعاني » وهي نوع من الوسائط الالزامية بيننا وبين الاشياء . ويزعم اننا ندرك فوراً ومباشرة تلك الاشياء بغير توسط شيء آخر —

وانكر ريد ما ذهب اليه لوك من ان الحكم هو دائما ادراك مابين رأيين من الاتفاق أو الاختلاف — لان هذا الرأى تنقضه التجربة فقال « ان أول عملية لنا هي الحكم الطبيعى الابتدائي الذي نقرره على وجود الاشياء التي تستوقف نظرنا . فبتحليل هذا الحكم نتصور لكل شيء المعاني التي لها في ذاتنا . — فعلى أي شيء ترتكز أحكامنا الاصلية ؟ يقول ديكارت انها مؤسسة على مبدأ التناقض » — ولكن توماس ريد يؤسس معارفنا على خلاف ذلك فيقول « الاحكام الاولية — الواضحة بذاتها —

هي التي تصدر منا من تلقاء الذات بمقتضى نوع من الحس الطبيعي المشترك بين جميع الناس . وبالرغم عن جميع مجهوداتنا لا يمكنا الارتياب بتلك الاحكام اذ تظهر لنا اكثر وضوحاً من أى برهان أو دليل —

توماس ريد رجل ذو ملاحظة دقيقة صحيحة وهو ليس عالماً نظرياً — فهو يصف الظواهر ، ولا يفسرها . ويعدد جميع قوى النفس وجميع احكام العقل الاولية ولا يرتبها ولا يبين الاتحاد بينها

(٢) — دوجلد ستوارت (١٧٥٣ — ١٨٢٨) Dugald-Stewar

أشهر تلاميذ ريد وسار على خطة وتعاليم استاذه وقد شرحها في كتابه « مباديء فلسفة العقل البشري »

(٣) — رويه كولار (١٧٥٣ — ١٨٤٥) Royer-Collard

علم في باريس مذاهب المدرسة الاسكتلندية وكان من تلاميذه فكتور كوزين وداميرون . وجوفروا

(٤) — وليم هملتون (١٧٨٨ — ١٨٥٦) William Hamilton

« كتب محاورات في الفلسفة » « ودروس المنطق » والدروس

النظرية اللاطبيعية » وفي كتاباته اثار من فلسفة الفيلسوف الالماني « كانت »

كل معرفة هي علاقة بين الفكر وموضوع التفكير فتكون اذن معارفنا تبعية وليست مطلقة وقد قال هملتون «التفكير هو اشتراط او تحديد أي اخضاع الشيء لشروط أو لحدود ولو تكون شروط او حدود فكرنا ذاته »

ونتج عن ذلك ان اللانهائي او المطلق لا يدركه العقل ولا يمكن ان يكون الا غرض الايمان — اذ انه في الواقع غير مستطاع ادراك شيء حقيقي بدون تعيينه او وضعه في فصيلة من الفصائل ومتى تعين الشيء أو تخصص بفعل صار خاصا او مضافاً لجنس

اما المطلق أي الذي لا ينسب لشيء خاص يكون مجردا عن كل تعيين ونفي كل ادراك

ولكنا نلاحظ على هذا القول ان المطلق لا يمكن تعيينه لانه كامل انما هو في أقصى حدود التعيين لانه في اسمى درجة من الكمال

الفلسفة فى المانيا

٧٧



عمانويل كانت (١٧٢٤ — ١٨٠٤)

Kant

ولد هذا الفيلسوف في كنجسبرج ببروسيا الشرقية في ٢٢ ابريل سنه ١٧٢٤ • وتلقي دروسه في جامعة تلك المدينة حيث تعلم فلسفة لبنز كما شرحها ولف ثم تعين مدرساً فيها زهاء الستين عاماً فكان يدرس الفلك والرياضيات والفلسفة

وقد تأثرت افكاره الفلسفية بكتابة « هيوم » الذي ايقظه من ثباته اليقيني ، و « روسو » الذي أوحى اليه ببعض عقائده الادبية •

وقدقال عنه المؤرخ ميشليه ما يأتي « كان يوجدعلى شواطيء بحر البلطيق خليقة غريبة قادرة قل عنها ما شئت • فهي انسان بل مذهب بل مدرسة جدلية • بل صخرة صلدة رسخت في وسط البحر • وكل فلسفة حاولت الدنومن ذاك الشبح ارتطمت وظل هو باق فدعوه « كانت » ولكنه فى الواقع يدعى « النقد »

ظل هذا الكائن المجرد زهاء الستين عاماً بدون رابطة بشرية يخرج في ساعة معلومة ليدور دورته المعتادة دون ان يكلم أحداً ثم يعود من حيث خرج

أما اهم مؤلفاته فثلاثة وهي : نقد العقل المجرد أو النظري (سنة ١٧٨١) ونقد العقل العملي (١٧٨٨) ونقد الحكم (١٧٩٠)

ويصدق على هذه المؤلفات قول «جوبرت» انها جبل اتوس صيغ من الفلسفة وعنده ترتطم الرؤوس البشرية

الفلسفة الانتقادية ، ليست القضية التي حاول (كانت) حلها جديدة ، انما هي اساس الفلسفة الحديثة

وقد تساءل عنها ديكارت للمرة الاولى في هذا السؤال « ما هي قيمة المعرفة » ؟

كان العقليون يقولون بامكان المعرفة بواسطة العقل الصرف بدون احتياج الى أي اختبار أو تجربة

فخالفهم التجريبيون في ذلك وذهبوا الى ان التجربة اساس كل معرفة ، والحواس اداتها

فاعترى المفكرون الشك من هذا التناقض والتعارض وكاد يتجدد عهد السوفسطائيين (المغالطين) بروتغوراس وغورغياس فقام « كانت » مقام سقراط في ذلك العصر واراد وضع حد لهذه الحال المريبة فبحث في مصدر المعرفة واصلها والشروط

التي تحصل بواسطتها

ولم يتخذ لذلك اساساً : « ان المعرفة يجب ان تنظم مستندة الى الاشياء » بل أسسها على « ان الاشياء يجب تنظيمها تبعاً للقوانين العقلية

وتنحصر فلسفته في الثلاث مسائل الآتية

(١) ماذا يمكننا ان نعرف

(٢) ماذا ينبغي ان نعمل

(٣) ماذا نستطيع ان نأمل

وكان غرضه من دراسة المعرفة الوقوف على عواملها المختلفة ومقدار نصيبها من الصحة وقيمتها

نقد العقل النظري : بهذا النقد يحاول « كانت » الوصول الى الغاية الاخيرة من عقائدنا

فبعد ان ميز بين الاحكام التحليلية والاحكام التركيبية analytique & Synthetiques اثبت ان التركيبية هي التي توصلنا الي بعض المعرفة وهي أيضاً مدار العلوم

وهذه الاحكام — بحسب اعتقاده — على نوعين ، تالية وأولية .

فالاحكام التالية Pesteriori من السهل ادراكها لانها نتيجة الاختبار

ولكن كيف يمكن معرفة الاحكام التركيبية الاولية Priori ؟ هذه هي المسألة الواجب حلها .

وللاجابة على هذا السؤال يميز «كانت» بين عاملين مهمين موجودين في كل معرفة : أحدهما اختباري تجريبي . والآخر عقلي بديهي

فالاول يأتي من الخارج وما على العقل الا تحصيله . وهو بطبيعته متغير وخاص ويدعوه «كانت» المادة أو العامل المادي

والثاني يأتي من العقل ذاته فيأخذه العقل من ذاته ويضيفه الى العامل الاول . وذاك العامل مستقر على حالة واحدة لا يتغير وعام ويدعى العامل الصوري

ويلاحظ كانت ان العامل الثاني المذكور هو الاساس الحقيقي للمعرفة . فالمادة من تلقاء ذاتها لا تتجاوز النظام الظاهري الصرف . ولا تصير شيئاً الا اذا اتخذت صورة، أي تطبق عليها قوانين العقل

فمسألة الارتيابيين تنحصر فيما يأتي : ماهي العوامل الاولية لكل معرفة وما قيمة تلك العوامل ؟

ان مرجع كل معرفة اما الى الاحساس أو الى الفهم أو الى العقل السامي

نظرية القوة الحسية:

القوة الاحساسية هي الامكان الذي أودع في الانسان ليشعر

بالتأثيرات التي تحدثها فينا الاشياء المختلفة وهذه التأثيرات تسمى « ادراك عقلي » intuitions وهي مادة المعرفة الحسية

والعوامل الاولية aPriori أو الصور الحسية التي بمقتضاها نتخيل للظاهرات حقيقة واقعية ، تتلخص في أمرين : المكان والزمان — واراد « كانت » تعيين قيمة كل منهما فقال انهما صورتان يتخيلهما العقل ولا مسوغ لنا يجعلنا ان نضعهما في الاشياء. وينتج عن ذلك ان ليس في وسعنا معرفة الاشياء في ذاتها noumenes وانما « ظواهر الاشياء » Phenomenes

نظرية الفهم السامي l'entendement Transcendantal

غرضه ان يشكل معلومات القوة الاحساسية الى معان otion أي مدركات تتكون منها الاحكام . فالمعلومات الحسية هي العامل التبعي Posteriori أو بالحري مادة أحكامنا . أما العوامل الاولية Priori الذي يطلق عليها هنا لفظ « الكليات Categories. فهي القوانين الاصلية التي بمقتضاها يفكر الفكر أو يحكم وعددها اثنى عشر وهذا بيانها

الكمية | الوحدة
| التعدد
| الجمع

الكيفية:
- الايجاب
- السلب
- التحديد

الاضافة:
- الاستقلال
- التبعية
- التبادل

الحال:
- الامكان
- الوجود
- الضرورة

فالكمية في الحكم تعين الشيء بكثرته أو قلته
والكيفية تبين الملاقة بين الصفة والموصوف
والاضافة تبين ماهية العلاقة التي تجمع بين الشيء الموصوف وصفته .

اما الحال فهو الصورة التي عليها انتقشت تلك العلاقة في الذهن .

ويحصل تطبيق هذه الكليات على المعلومات الحسية بواسطة حد أوسط وهو الزمان وهذا الحد هو الذي يدعوه «كانت».

باسم Sheme transcendantal

ولكن ما هي قيمة الاحكام الناشئة عن تطبيق الكليات على « المعلومات الحسية ؟

من الواضح ان هذه الاحكام ، باعتبار انها قوانين لعقلنا ، تؤدي الى اليقين . ولكن هل في استطاعتنا معرفة شيء آخر غير تلك القوانين ، وهل للاحكام التي نصدرها قيمة حقيقة خارجة عنا ؟

كلا بما ان المعلومات ، مادة احكامنا ، ليس لها في ذاتها قيمة وعند ما يكون لتلك المعلومات قيمة خارجية فاحكام الفهم لا يكون لها سوى ظاهرات باطنية صرفة بما ان الكليات التي بواسطتها نضع تلك الاحكام لا يجب اعتبارها الا كقوانين مكونة لقوتنا الفكرية اذ ليس لها أي علاقة بالاشياء الحقيقية

نظرية المنطق السامي Dialectique Transcendantal

العقل هو خاصة استنتاج حكم من حكم آخر . ويؤدي بجميع مدركات الفهم الى التعميم الكامل أو الى اسمى وحدة ممكنة والاحكام هي مادة هذه المعارف الجديدة والعوامل الاولية التي تدير العقل في هذا العمل الاسمى هي المعاني الثلاث الاساسية للنفس والعالم والله . تلك المعاني التي تقف عندها جميع معارف

فما هي قيمتها ؟ وبمعنى آخر هل ممكن البحث في علوم ما بعد الطبيعة ؟

يجيب « كانت » على ذلك سلباً

لان البسيكولوجية النظرية تؤدي الى قياسات باطلة Paralogisme التي حاولت اثبات وجود نفس بسيطة متماثلة مرتكنة على وحدة وتماثل الفكر لان الوحدة والتماثل المذكورين اما علم التكوين النظري فلا يؤدي الا الى متناقضات ضرورية antinomies لا تؤدي الى حل القضايا الآتية : هل للعالم بداية أو هو ازلي قديم . هل هو لانهائي أو انه محدود المكان ؟ هل هو مؤلف من عناصر بسيطة أو قابل التجزئة بغير حد ؟ هل يحتوي على اسباب حرة أو كل شيء فيه معين ومحدود.

كذلك اللاهوت النظري يزعم امكان اثبات وجود الله أي الكائن المطلق الكامل . غير ان البراهين التي قيلت للتدليل على ذلك لا تستطيع تخطي المثال الى الواقع.

واننا باعتقادنا بوجود النفس والكون والله نصف الاشياء بما يصوره لنا الذهن فننتقل من الفكر الى الواقع بدون حق.

اذن لا يمكننا معرفة الاشياء في ذاتها ولكن ظواهرها فقط وهذه هي نتيجة العقل المجرد.

نقد العقل العملي : تناول « كانت » هذا النقد توصلاً الى غرضين أولهما تعيين الاصل الاساسي الذي تبني عليه الاخلاقية الانسانية وثانيهما تقرير بعض ماانكره العقل المجرد الخاص بالحرية وبوجود الله وبخلود النفس وبذلك يكون اجاب على هـذين السؤالين : ماذا يجب ان نعمل . وماذا نستطيع ان نأمل

يميز « كانت » في كل عمل كما في كل معرفة بين المادة والصورة فالمادة مجموع الظروف التي يتنوع بها العمل والصورة المبدأ العمومي الذى يعيننا على تتميم ذاك العمل

وغاية « كانت » ان يبحث بين المباديء المختلفة التي تلزمنا على العمل وبين مختلف صور ميولنا ، تلك المباديء المشروعة التي تنطبق على طبيعتنا ولهذا الغرض قسم الفيلسوف نقده الى قسمين أحدهما تحليلى . والآخر جدلي

القسم التحليلى : (الواجب) ليحل كانت المسألة التي وصفها لنفسه — جاهلاً ما اذا كان يوجد شيء حقيقي — أخذ في تحليل معنى الغاية . فأول ما لاحظ ان هذا المعنى يحتم معاني القوة والحرية والادراك ، ثم تساءل ما هو السبب المشروع الذي يقضي بتلك العلة . فوجد انه يشتق من سبب الزامي وعام وهو الواجب أو بالحري الامر القطعي imperatif Categorique فهو اسمى قاعدة للسلوك وأصل الخير

ولكي أعرف اذا كان العزم الذي نويت عليه شرعياً من

عدمه فا عليّ الا ان أطبق عليه مبدأي الالزام والتعميم او ان اتبع هاتين القاعدتين العمليتين

(١) « اعمل ما يقرره لك عقلك انه الزامي »

(٢) اعمل ما يمكن اعتباره قانونا عاماً لكل عاقل وحر

واذا سألنا كانت عن مبدأ الواجب الذي يقول عنه انه « أمر قطعي » فتارة يجيبنا انه لا يعرف عنه شيئاً وطوراً يقول انه « استقلال الارادة » الذى يكون في ان كل انسان يجب ان يعتبر انه غاية في ذاته . وعلى ذلك تكون الارادة المطلقة قاعدة ومبدأ الاخلاقية

القسم الثاني — المبادىء المسلم بها Postulat ليس لنقد العقل العملي الا قيمة باطنيـة لا تتناول الاشـياء الحقيقية ولكن «كانت » يحاول به الوصول الى نقله الى الظاهر . لست محتاجاً للخروج من دائرة العقل لاجد معنى الالزام الحقيقى لان عقلي يعطيني هذا المعنى ويملي أيضاً عليّ هذا الامر : (يجب ان تعمل هذا أو ذاك) فاستخلص من ذلك اني موجود لان الالزام الحقيقي يستلزم وجود العلة الملزمة

واذ ثبت الوجود الذاتي . نتج عنه أيضاً الحقائق الآتية

الواجب هو قانوني ولكي يكون له معنى حقيقي يجب ان استطيع عمله اذ من المستحيل الزام انسان بعمل شيء لا يتعلق به

فالحرية اذن شرط من شروط الاخلاقية

ومن الامتهان قصر الاخلاقيـة على الفضيلة كما توجـد على الارض لانها بالضرورة ناقصة وتبعد عن الاخلاقية الكاملة وعن القداسة التي تتطلع اليها الارادة القوية فيستخلص من ذلك الخلود وهو الشرط الثاني للاخلاق

اذا كان الانسان لا يمكنه في هـذه الحياة الدنيا ان ينال السعادة والفضيلة • هل في استطاعته نوالهما بذاته في الحياة الاخرى؟

يظهر ان هذا غير مستطاع بل يلزم معونة الملة الاولى فالله اذن هو شرط ثالث للاخلاق

كتب «كانت» في أحد المواضع « اضطررت ان انفي العلم لاثبت الايمان » ففسرت هذه الجملة التناقض الذى احتوى عليه مذهبه . وظل الواجب الاساس الذى لا يتزعزع لجميع المعقدات التي لا يتناولها الاختبار

(٣) الواجبات — تكلم الفيلسوف في أحد مباحثه عن الواجبات وقسمها الى طائفتين : واجبات حق ، وواجبات فضيلة فالاولى قد تتحتم علينا بضغط خارجي . والثانية لا نلتزم بها الا في الباطن

والحق ، اساس الواجبات الدقيقة ، يتضمن الحق الطبيعي والحق الوضعي . فالحق الطبيعي غريزي أو مكتسب . وخاص أو مشترك أو عام اما الحق الوضعي فيتضمن القوانين المشروعة وتتعلق واجبات الفضيلة بنا أو بغيرنا . اما الواجبات الدينية

فهي في المرتبة الثانية في نظر «كانت»

نقد الحكم : يراد هنا بالحكم قوة خاصة من وظيفتها اثبات علاقة بين معلومات العقل المجرد ومعلومات العقل العملي والتوفيق بين عالم المادة وعالم الحرية

وهذا الحكم حالتان : حكم الجمال (استيتيكي) وموضوعه الجميل والسامي — وحكم العلة الغائية teleologique — الذي يبحث في غاية الكائنات

١ — حكم الجمال — ذكر « كانت » عدة تعريفات للجميل نذكر منها هذا التعريف : الجميل هو كل ما يؤدي الى اغتباط المخيلة الحرة بدون ان يتعارض مع قوانين الفهم

والسامي ينشأ من اختلاف المخيلة والفهم بخصوص شيء ليس له شكل محدود . فاذا وجدت للمناظر عظمة كالسماء ذات النجوم الزاهية فهذه هي القوة السامية

وكذلك يعترف كانت بالسمو الفكرى . والسمو الاخلاقى

٢ — حكم العلة الغائية — لنا على الطبيعة احكام منطقية بمقتضاها نجعل للكائنات غايتين احداهما باطنية خاصة بذات الكائنات . والاخرى تبعية او خارجية

فنحن نؤكد تأكيداً عاماً ضرورياً ان لكل عضو في الكائنات غاية يسعى اليها . وانه لا يحصل شيء في العالم بطريق

الصدفة او الاتفاق . وبذلك تظهر لنا كمجموع عظيم من الغايات تسعى كلها الى غاية أخيرة

بيد ان كل هـذه التعليلات باطنية نتصورها في ذواتنا . والعقل العملي الذي يرشدنا الى الخير الاعظم هو الذي يؤكد لنا ان الله هو حقيقة الغاية الاخيرة لكل موجود

(نقد فلسفة كانت) اظهر لنا كانت قدرته الفائقة في التحليل ولكنه اخطأ في كثير من المسائل مثل تأكيده بان العقل هو الذي ارشدنا عن حقيقة ذاتنا البشرية مع انها لم تعرف الا بالضمير أو الوجدان . وقد وقع في أغاليط المذهب الارتيابي بالرغم عما أظهره من البراعة في نقد العقل العملي لانه اذا كان العقل المجرد (النظري) غير قادر على الوصول الى المعرفة اليقينية فالتعليلات التي استخلصها من معنى السبب الحر . هي بالضرورة بدون قيمة

ويمكننا ان نلخص فلسفته في كلمتين : فلسفة ارتيابية في حقائق الاشياء . وفلسفة يقينية في الاخلاق

٧٨

خلفاء كانت

وفلسفة الحلول

قام في وجه كانت اثناء حياته معارضون مشهورون منهم برهارد (١٧٣٩ — ١٨٠٩) وبلا تنر (١٧٤٤ — ١٨١٨) الذين دافعا عن مبادىء لبنز ، ثم هردر الذي عضد فلسفة باكون

بيد ان الفلسفة « الكانتيه » لم تلبث ان انتشرت في جامعات المانيا وتبوأت عرش السيادة بدون نزاع اثناء الثلث الاول من القرن التاسع عشر ولكنها تطورت الى فلسفة حلولية مع فختة وهيجل وشيلنغ

ان الفلسفة النقدية اذا فهمت على حقيقتها توصلنا بنظرية المعرفة الصحيحة الى اليقين . لانها اعطت لكل من المذهب التجريبي والمذهب العقلي نصيبه الذي يخصه . وقد تصير في مستقبل الايام الفلسفة الصحيحة أي تلك التي تعتبر كعلم ثابت القواعد والاصول .

فالعمل الذي بدأه او تصوره « ديكارت » وأتم بعضه « كانت » يكون حينذاك بلغ النهاية ويكون لنتائجه أعظم تأثير

على المدنية قاطبة

وماكان في وسع «كانت» بالرغم من نبوغه ان يقوم بايصال هذا العمل الى حد الكمال من النظرة الاولى لانه تشرب بمبدأ لبنز، وحبه للترتيب التحكمي الذي تركه يتغلغل في استنتاجه «للكليات» جعل فلسفته النقدية غير مستوفاة فتسرب اليها الخطأ

وكان جل خطأه انه لم ينظر الى تلك الكليات كقواعد الغرض منها ربط الافكار ببعضها البعض في نفوسنا ولم يقدر لظواهر الاشياء قدرها الحقيقي فأدت فلسفته بداهة وبالرغم منه الى مذهب المثال الباطني أي الى المذهب القائل بان لا وجود للاشياء العالمية الا في الفكر وبواسطته

ولقد قام فيلسوف يشبه «روسو» من وجوه كثيرة ويشبه أيضاً الفلاسفة الاسكتلنديين واظهر ما لشهادة الذوق الفطري والوجدان من القيمة التي ينكرها «كانت»

ذلك الفيلسوف هو «ما كوبى» (١٧٤٣ — ١٨١٩)

المولود في مدينة دسلدروف . فقد جعل منزله منتدى الادباء والفلاسفة . وقد انتخب عضواً في اكاديمية منيخ سنة ١٨٠٤ وألف روايته الفلسفية Woldemar التي كانت سبباً في شهرته وله أيضاً رسائل في فلسفة سبينوزا ومحاورة بين المذهب التصوري ومذهب الواقع

اما رأيه في المعرفة فهي تصدر عن بصيرة السريرة وعن

الحواس ومن قوله : « اني ارى الشمس فهي اذن موجودة ، وافكر في الروح السامي فهو اذن كائن »

وقد وجه سؤالاً الى « كانت » وهو بأي عقل يثبت ان عقله مخطيء !

اما في علم الاخلاق فيرى جاكوبي ان الخير والشر تابعان للشعور .

فخته (١٧٦٢ — ١٨١٤) Fich'e

تلميذ « كانت » — تلقى العلم في مدينة (يانا iéna) ثم تعين مدرساً فيها ثم في جامعة برلين . اراد ان يصحح مذهب استاذه بالتوفيق بين بواطن الاشياء وظواهرها . فقال

بما انه لا تكون ظواهر الا بوجود شيء ، فلا فائدة منه افتراض « ذوات اشياء Noumenes » متعددة تحت جميع الظواهر . فلا يوجد سوى جوهر واحد هو (الآنية) Moi وعنها تصدر جميع الظواهر . فالآنية وحدها المفكرة وتعرف ذاتها وتستقر ثم تنفصل عن فكرها وتعارضه

ذلك ان الفكر يتوهم وجود شيء آخر غير آنيته أي عالم خارجي . بيد ان هذا التخيل هو عمل الآنية ومظهرها

فالآنية هي اذن كل شيء وهي الموجودة دون غيرها ويمتد

تفكيرها الى كل شيء لتحقق واجبها التصوري

ولما كانت اعمالنا كلها ترمي الي الفضيلة وهذه تكون في نسيان المرء كفرد لمنفعة وسلام المجموع . فعلى ذلك ينبغى علينا ان نشتغل بقدر استطاعتنا في اصلاح الجميع وفي نصرة العقل وسيادة الحرية

وشرح (فخته) هذه النظرية في كثير من مؤلفاته واخصها كتاب نظرية العلم ومصير الانسان

وقد عمل بمبادئه الاخلاقية هذه ، خصوصاً وقت الكوارث التي حلت بالمانيا فذهب ضحيتها اذ كان يواسي الجرحى الذين سقطوا فى ميادين القتال فاصابته عدوى اودت بحياته

***

قلنا ان نظرية (فخته) الاخلاقية حسنة جداً ولكن كيف توفق بينها وبين المذهب المثالي الذي يجعل للآنية ذاتا مطلقة أو بالحري الهاً خالقاً كل موجود

ان اول واجب على الفيلسوف ان يراعي عدم التناقض

ومن التناقض الجمع في شيء واحد بين الوحدة والكثرة والخير والشر. فيظهر ان المانيا حكم عليها بان تكون بلد المتناقضات

هربرت (١٧٧٦ — ١٨٤١) Herbart

تعاليمه في مدينة كتنبج كما في مؤلفاته أيضاً يستطع التخلص

من ذالك التناقض

بيد ان هذا الفيلسوف بذل جهداً عظيماللتوفيق بين التجربة والتأمل واعطاء كل منهما نصيبه الشرعي وهو يعدتجريبياً بالنظر الى معاصريهالذين بهر ابصارهم الموجود المطلق



غير اله هيجل (١٧٧ — ١٨٣٩)

Hegel

تجاوز حد المتناقضات

ولدهذا الفيلسوف في استتجار وعلم الفلسفة في جامعة هيدلبرج ثم في جامعة برلين ومات بالوباء في هذه المدينة الاخيرة بعدان بلغ ذروة المجد والشهرة والنفوذ . فكان ذا مقدرة عقلية وعارضة جدلية

يقول هيجل ان الفكر والكائن شيء واحد « كل معقول هو موجود حقيقي وكل حقيقي معقول »

لقد أخطأ « كانت » في التفريق بين الهيولى أي الشيء المحتوي وبين الصورة أي المحل

وعلى رأي هيجل تمتزج الصورة بالهيولى ، وقوانين الفكر هي قوانين الواقع . الا ان المثال او المطلق دائم الحركة والترقي

فيتشكل الى انواع مختلفة

ولكي يتم وجود أي شيء يجب ان تتعاقب عليه ثلاث حالات وهي :

١ً حالة وضعية ايجابية these و ٢ً حالة تعارضها سلبية antithese و ٣ً حالة تؤلف بينهما Sy.these

فالايجاب بوضعه ، والسلب بمعارضته يتآلفان في ايجاب اسمى منهما وهذا التآلف يصير وضعاً جديداً ينتفي بسلبه ليتكون منهما تأليف ثان وهكذا على التعاقب

فكل شيء يحدث ويترقى طبقاً للحالات الثلاثة فاذا تم التطور اللانهائي للمثل . نتج عنه الغير متناه اي الله

الا ان هذا الغير متناه هو الحد الذى يدنو منه الفكر والواقع بدون ان يدركاه قط ولذلك يكون الله متجدد المصير وابدى التكوين

تلك هي نظرية المثال المطلق الذى يقلده الفكر البشري . وبه يوجد لنفسه شبه عالم نرى فيه ان كل الاشياء موجودة وليست بموجودة . بل هي غير موجودة أكثر مما هي موجودة بما انها « هي » وليست شيئاً « مما هي »

هذا هو جوهر المذهب الحلولي الذى يوحد بين الخطأ والصواب ويجمع بين الخير والشر . فاذن كل ما هو عدل وظلم يجب ان يتلاشى امام تلك الضرورة المطلقة ويا تعساً المغلوب فالحق

للقوة وحدها ولها السياسة والغلبة ! .

اما فلسفة شيلنغ (١٧٧٥ — ١٨٥٤) Schelling

ففي جوهرها مماثلة لفلسفة هيجل

ولد غليوم شيلنغ في دوقية ورتمبرغ وعلم فيها ثم في مونيخ فبرلين .

اعتنق المذهب المثالى المطلق و نظرية استاذه الحلولية ولكنه ميز بين الآنية وغيرها وجعلهما كوجهي قطعة من النقود موضوعة في (المطلق العام)

فما هو هذا المطلق العام ؟

هو العقل المطلق او المطلق اللاشخصى أو المصير العام

هو الجوهر الوحيد الذى يتحول الى هيولى . او اجسام عديمة الادراك هذا من جهة

ومن جهة أخرى هو الروح او الفكر او الآنية المدركة

وللحياة الفكرية ثلاث درجات :

(العلم) وهو ادراك المطلق ادراكاً باطناً

(والفن) وهو مظهر المطلق بصفته الفردية

(والدين) وبه تتحد الروح بالحقيقة المطلقة راجعة بذلك الى المبدأ الذى صدرت منه

هذه هي نظرية المثال الخارجى او الظاهرى

المدة الثالثة

الجيل التاسع عشر

وعلى عتبة القرن العشرين

ليس في وسعنا ان نذكر في هذا الموجز جميع فلاسفة هذا العصر وانما سنلخص هنا المذاهب الجديدة التى كانت نتيجة تفكير كبار العقول في فرنسا ، وانكلترا ، والمانيا ، وايطاليا ، واسبانيا .

الفلسفة في فرنسا

للفلسفة في فرنسا مذاهب اربعة وهي المذهب المادي ، والمذهب الروحاني ، والمذهب الاشتراكي والاقتصادي والمذهب الوضعي واليك نبذة عن كل مذهب

٧٦

الماديون

لامارك (١٧٤٤ — ١٨٢٩) Lamarck

يزعم ان العادات الناشئة عن الاحتياجات التي اوجدتها الظروف والمؤثرات الخارجية تنتج أعضاءجديدة . وان الانواع الحية يمكنها ان تتحول وتندمج بعضها الى بعض وفي بعض

وهو يفسر الحياة بتأثير سائل ساخن تتناسل منه الكائنات التي تتولد بذاتها وتنشأ عن التهييج والشعور والحاجة والعضو المغذي .

ويعتبر لامارك مهيء الطريق لداروِن

جال (١٧٥٨ — ١٨٢٨) Gall

أصله من دوقية باد — شرح مبادءه وملاحظاته في مؤلفين. دعى أحدهما تشريح ووظائف المجموع العصبي ، ودعى الثاني «وظائف المخ»

وهو القائل بان جميع أعضاء القوى والصفات توجد في

الدماغ . ووجد في الجمجمة النتؤآت التي تدل على جميع أعضاء الدماغ .

سبورزهيم (١٧٧٦ — ١٨٣٢) Spurzheim

تلميذ جال . بذل جهداً عظيماً في نشر مباديء استاذه في جميع انحاء أوروبا وعلى الخصوص في انكلترا

بروسيه (١٧٧٢ — ١٨٤٠) Broussais

علم بالمذهب المادي في كتابه « التهيج والجنون » وقال ان جميع الظواهر الحسية والادبية والعقلية التي تتم فينا تصدر عن المخ

٨٠

المذهب الروحاني

Spiritualisme

حصلت في فرنسا في اوائل هـذا الجيل نهضة قوية تحت تأثيرات مختلفة ضد المذاهب المادية قام بها انصار المذاهب الروحانية القائلة بان العقل وحـده هو الواسطة في اكتساب المعرفة الصحيحة

فدستوت دي تراسي ولاروميجيير يوصفان بانهما نقطة الاتصال بين مذهب كندلياك الحسي والمذهب العقلي

كان دستوت دي تراسي (١٧٥٤ — ١٨٣٦) **Destutt de Tracy** سجيناً أيام الثورة الفرنساوية واطلق سراحه في ٩ ترميدور . ثم تعين مدرساً للفلسفة فنشر دروسـه بعنوان « المباديء الفكرية التصورية »

ومن رأيه ان الفكر يصدر عن الاحساس والوجدان مرتكنا على المبدأ القائل (ان التفكر هو الشعور)

فالاحساسات والتذكارات والعلاقات والرغبات ، كلها وظائف للقوى الاحساسية والذاكرة والحكم والارادة

أما لاروميجيير (١٧٥٦—١٨٣٦) **Laromiguiere** فقد

تقدم خطوة أوسع من دي تراسي فالدروس التي القاها في كلية الاداب بباريس من سنة ١٨١١ الى سنة ١٨١٣ وطبعها بعنوان (الدروس الفلسفية) تذهب الى ان جميع قوى النفس تصدر من الانتباه اذ يقول (يتضمن الفهم الانساني ثلاث قوى وهي :

الانتباه او الالتفات الذي يهب لنا المعاني

والمقارنة التي تصل تلك المعاني ببعضها البعض

والتعليل او التروي الذي ينظر في العلاقات الاكثر تعقيدا

هذه هي قوى الادراك الثلاثة ولا يوجد غيرها لان القوة الاحساسية ما هي الا استعدادا بسيطاً

اما الذاكرة ، فهي نتائج الانتباه او ما يتبقى من الاحساس الشديد .

والحكم اذا اعتبر انه ادراك علاقة بمتعلق . فهو شيء انفعالي يتبع المقارنة بالضرورة

والتروي والتخيل هما بلا شك قوتان . غير ان التخيل نوع من التروي في الشكل . والتروي ذاته يتألف من التعليلات والمقارنات وأعمال الانتباه . فهو اذن لا يتميز عن احدى تلك القوى

اذن لا يوجد في النفس سوى ثلاث قوى . ولكن ليس هذا كل ما في الامر

يريد الانسان ان يكون سعيداً . فاذااحتاج الى شيء تشترك
جميع تلك القوى في العمل . واتجاهها الي الغرض الذي نشعر
بالاحتياج اليه يدعى رغبة

والرغبة اذا استقرت على شيء اختارته بين جملة أشياء
عد تفضيلا

والتفضيل بعد المداولة يسمى حرية

ويطلق على مجموع تلك القوي الثلاثة اسم الارادة . كذلك

الارادة والفهم يجمعهما لفظ الفكر

تتولد الحرية عن التفضيل . والتفضيل عن الرغبة ، والرغبة
عن المقارنة . والمقارنة عن الانتباه .

فثبت اذن ان الفكر او قوة التفكير التي تشمل جميع قوى
النفس تصدر عن الانتباه

نقد هذه الفلسفة

نلاحظ مع دكتور كوزين انه يستحيل ان الفكر البشرى
ينحصر باجمعه في هذه القوى الثلاثة أي الانتباه والمقارنة
والتعليل أو التروي

نعم ان الانتباه شرط للادراك ولكنه ليس الادراك
ويلزم للمقارنة استطاعة الحكم . ولكنها ليست ادراك الحقيقة

واذا كان التروي هو الذي يسمح للعقل ادراك بعض الحقائق الخفية . فليس هو الذي يدركها

فاذن لاروميجيير نسي القوة الاساسية التي تدرك الحقيقة مهما عطي لها من الاسماء : الفكر او العقل او الفهم

كذلك من الخطأ القول ان الرغبة تنشأ عن القوى العقلية ولا هي اساس التفضيل والحرية

كما ان تعريف الحرية ناقص . وما كل تفضيل يدعى عملاً حراً اذ لو كان كذلك لكان الشر الذي يفعل عن طيب خاطر وعسرة قلب بدون ترو . يكفي لرفع كل مسئولية ادبية عن الفاعل

V. Cousin فكتور كوزين (١٧٩٢ — ١٨٦٧)

هو مؤسس ورئيس المدرسة الانتخابية

تلقى الفلسفة عن روييه كولار ثم اخلفه في تدريس تاريخ الفلسفة فنبغ في ذلك وطارت شهرته

واعتزل التدريس سنة ١٨٢٠ ثم عاد اليه في سنة ١٨٢٨ على عهد وزارة مرتنياك ثم عين على التعاقب مستشاراً للحكومة فعضواً في المجلس الملكي للمعارف العمومية فعضواً في المجمع العلمي الفرنسي ففي اكاديمية العلوم الادبية والسياسية فمديراً لدار العلوم فاستاذاً اعظم في الجامعة

اما أهم مؤلفاته فهي دروس تاريخ الفلسفة فكتاب الحق والجميل والخير . ونبذات فلسفية

ويتضمن المذهب الانتخابي استخلاص أصدق الآراء من مختلف المذاهب وتكوين مجموعة منها تكون أتم مظهر للحقيقة

فلو اتبع كوزين هذا المذهب بحكمة وروية مسترشداً بالمبادىء القوية التي تميز حقيقة بين الصواب والخطأ لسلمت من كل نقد

بيد ان هذه الطريقة كانت سبباً في الوقوع في اغلاط كثيرة

فكوزين زعم مع المدرسة الاسكتلندية ان الحس والوجدان لا يدركان الا الظواهر

اما معاني الجوهر والعلة والمطلق واللانهائي فهو يخصها بادراك العقل بدون دخل للتجربة . كذلك الحال في معني الحق والجميل والخير فمثالها الاعلى يختص بنوع من العقل اللاشخصي اذا تصورته المخيلة بدون حقيقة واقعية . فكأن كوزين بذلك يجدد المذهب المثالي idealisme ونظرية « كانت » في جوهر الاشياء Noumene

وعبثاً حاول كوزين التمسك بالوحي الباطني أو شبه الايحاء ليبرر قيمة هذه المعارف الاساسية فانه لم يخل من متناقضات مذهب الظواهر العرضية ومذهب المثاليين

ولكنه بالرغم من هذا العيب المنطقي فهو يشغل درجة راقية بين الفلاسفة الروحانيين بالنظر لدفاعه عن نظريات افلاطون

وديكارت في علم النفس والاخلاق وما بعد الطبيعة

تيودور جوفروا (١٧٩٦ — ١٨٤٢) T. Jouffroy

اشتهر ككاتب وخطيب وفيلسوف
كان يلقي دروسه في منزله من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٨٢٨ ثم في كلية الآداب ففي مدرسة المعلمين وأخيراً في كلية فرنسا واهم فلسفته مذكورة في نظريته النفسية عن معلومات الوجدان .

وهو يتعارض مع الحسيين والقائلين بالظواهر ويخص الوجدان بالادراك المباشر للانية النفسية التي هى بمثابة جوهر وكموضوع مماثل للظواهر المتغيرة وكسبب حر في اختياره

مين دي بيران (١٧٦٦ — ١٨٢٣) Main de Biran

تقلب في عدة وظائف حكومية رئيسية واشتهر بجملة مؤلفات وقال عنه فكتور كوزين « انه اكبر فيلسوف نظري تشرفت به فرنسا بعد ملبرانش » وقال عنه روييه كولار « انه استاذنا جميعاً »

وكانت أخص ابحاثه في النفس بواسطة التأمل Reflection وفي مختلف قواها

وكانت « الارادة » أهم ما لفت نظره . والاجهاد في نظره هو المظهر الاساسي للحياة العقلية والبشرية ففيه تتلخص معاني السببية والآنية . وهذا الاجهاد هو الذي يرشدنا الى الا نية الايجابية وما يعارضها سلباً

جرنييه (١٨١ — ١٨٦٤) Garnier

مؤلف كتاب قيم في قوى النفس وهو أهم المؤلفات عن علم النفس في عصرنا الحاضر

وينتمي الى المذهب الروحاني كثيرون من علماء هذا العصر أمثال جول سيمون . وبول جانيه وفوييه وغيرهم مما لا يسعنا ذكر جهودهم وتحليل مؤلفاتهم الفلسفية في هذا الموجز

٨١
المذاهب الاجتماعية

Sociologisme

نستعير هذا التعبير عن «اوجست كونت» للدلالة على عدة مذاهب فلسفية اهم اغراضها اصلاح الهيئة الاجتماعية

فالاقتصاديون (جان باتست ساي، تلميذ آدم سميث . وبستيات . وبلانكي وغيرهم) يأملون ترقي الهيئة الاجتماعية بترك المصالح المادية تنتشر وتنمو بكل حرية خالية من كل قيد

وبعض الاشتراكيين وعلى رأسهم سان سيمون (١٧٦٠ — ١٨٢٥) يتمنون ان يسود الاخاء العام على العالم ويرغبون في تفكك اواصر الاسرة بتحرير المرأة من كل قيد وكل رابطة زوجية . ويطلبون توزيع ثمرات العمل على كل واحد بحسب قدرته وأهليته . وعلى كل أهلية بحسب عملها . وكل ذلك يحصل بسلطة الآب السامي

ومن رأي سان سيمون ان الانسان خلق للسعادة في هذا العالم . والسعادة تكون في نوال الشهوات وابطال حق الملكية الشخصية .

وتوجد فئة أخرى اشتراكية يتولى زعامتها فوربيه

(١٧٧٢ — ١٨٣٧) تتوهم ان في الامكان تشارك الناس في جمعية عامة بواسطة الاجتذاب الجنسي الذى يهيمن على العالم الادبي كما يهيمن الجذب الطبيعي على العالم المادي

ويتم ذلك بانشاء « بلوكات Phalanstere» وهي مساكن تخصص للناس الذين تؤلف بينهم اميال او مهنات متجانسة

وكل بلوك ينقسم الى فئات . وكل فئة تحتوى على مجموعات وكل مجموعة تضم عدة أشخاص يحترفون حرفة واحدة

وتوزيع نتاج العمل يحصل بنسبة رأس المال والعمل والكفاءة مجتمعين

وهناك طائفة أخرى (بيير ليرو ١٧٩٨ — ١٨٧١) وجان رينو (١٨٠٦ — ١٧٦٣) تطلب الاخاء العام مثل الشيعة المنتمية الى سان سيمون . غير انها تشير « بالتضامن » للوصول الى غرضها

وهذا التضامن هو الذي يصيغ الاثرة والايثار في مبدأ واحد . والعائق الوحيد الذى يحول دون تحقيق هذا الغرض هو الاستبداد الذي تغلغل في العائلة باستعباد المرأة . وفي الحكومة بتمييز فئة عن أخرى وشخص على غيره . وفي الملكية باحتكارها تحت أيدي بضعة انفار قلائل . فيجب القضاء على ذلك الاستبداد

وشرح « ليرو » في كتابه : الانسانية ومبدؤها ومستقبلها

كيف ان الانسان صائر الى الكمال بدون حد وان رقيه يتم في هذا العالم الارضي في حياة متعاقبة

واستوفى (رينو) شرح هذا المذهب في كتابه (الارض والسماء)

اما بطرس يوسف برودون (١٨٠٩ — ١٧٦٥) Proudon

فله مركز خاص بين الاشتراكيين لانه يريد تطبيق مذهب هيجل على الانظمة الاقتصادية والاجتماعية

وهو وان كانت له آراء ثوروية والحادية كقوله (ان الملكية هي لصوصية وان الله هو الشر) فله أيضاً أفكار سامية عن الكرامة البشرية وجمال العدالة وكل ذلك ليس لله فيه يد)

انه لا يلغي حق الملك على الاطلاق بل يقول بالحياة الدائمة ولكنه يؤكد ان العمل وحده هو الذي يبرر حق الامتلاك

وقد قاوم بشدة المذهب الشيوعي ومهد طريق الاشتراكية الحديثة . وطلب الغاء الفائدة عن الاقتراض وجعل ضريبة مال واحدة توضع على العقار ليس الا

بيد ان لويس بلانك « الابيض » واتيين كابت . تجاوزا جميع الاشتراكيين بارائهما المتطرفة فهما يريدان المساواة المطلقة بين جميع الافراد وتقسيم الارزاق بين الجميع

ولتحقيق هـذا الغرض يودان الغاء التجنيد والقضاء على الجيش . وترتيب العمل • وفرض الضرائب على الايراد

٨٣

المذهب الوضعي

Positivisme

قال العلامة فوييه : ان مذهب سان سيمون الاشتراكي مضافاً اليه مذهب كبانيه بروسكس المادي تولد عنهما مذهب اوجست كونت الوضعي

ولد اوجست كونت (١٧٩٨ — ١٨٥٧) Auguste Comte في مدينة مونبلييه ودخل في سنة ١٨١٤ في مدرسة الهندسة ثم اضطر للخروج منها لمخالفته النظام . وفي ذلك الوقت تعارف على سان سيمون زمناً قصيراً . وفي سنة ١٨٢٤ تولى زعامـة المدرسة الوضعيه" ومبداؤها رفض كل ما لا يتحقق بالاختبار

والمباديء العامة في هذه الفلسفة تنحصر في ثلاث مسائل :

الاولى — قانون التطور الفكري في ظرف ثلاثة ازمنة

الثانية — ماهية المعرفة

الثالثة — ترتيب العلوم المختلفة

(١) فقانون الازمنة الثلاثة هو أهم تلك المسائل في نظر الفلاسفة الوضعيين. او كما يقول ستوارت ميل «انه السلسلة الشوكية لتلك الفلسفة»

ويتلخص هذا القانون فيما يأتي:

كان الناس في بدء امرهم ينسبون الظاهرات التي يشاهدونها الى قوات غير منظورة يدعونها آلهة، وهذا هو العصر اللاهوتي مع مختلف عقائده من حيث التوحيد والتعدد

ولكنهم لما رأوا ان الظاهرات تحدث على وتيرة واحدة لا تتغير، وهذا لا يتفق مع الارادة المتغيرة، اعتقدوا بوجود صفات خفية أو خواص او سوائل جاذبة

وهذا هو العصر النظري

وأخيراً أخذ التأمل يبدد تلك الخطرات الفكرية المضطربة التي لا ترتكز على أساس. وبحث الفكر في اسباب تلك الظاهرات التي تسبق او تلازم حدوثها

وهذا هو عصر العلم الوضعي الذي نعيش فيه الآن

(٢) الشيء الواقعي هو وحده موضوع العلم لانه وحده الذي يمكن تحقيقه بالاختبار وربط اسبابه بمسبباته

فالحوادث التي يمكن ملاحظتها هي الحوادث الظاهرة. اما الحوادث الباطنة فلا يمكن معرفتها

والعلم الخاص بالانسان هو علم هذا الوجود

والعلاقات التي يمكننا معرفتها هي التي نستطيع ادراكها بالحواس اي علاقات المشابهة بالتوارث

اما البحث عن العلل الفاعلة والغائية فبحث مناف للعلم • وجميع معارفنا نسبية بالاضافة الى شيء آخر اذ لا يوجد شيء مطلق

ولا يفهم من ذلك ان العلم يؤدي الي القول بالمادية وبالالحاد كلا لانه لا ينكر النفس ولا الله انما يجهلهما

(٣) يرتب كونت العلوم كالآتي :

الرياضيات . فالفلك . . فالطبيعة والكيمياء . فعلم وظائف الاعضاء . فعلم الاجتماع

وهذ الترتيب يتناسب مع تكوين العالم : فالحياة الادبية قوامها الحياة العضوية . وهذه قوامها الكيمياء . وقوام الكيمياء الطبيعة . وهذه قوامها الفلك . وقوام هذه العلوم الرياضيات

امافي علم الاجتماع. فقد فسر اولا مايدعوه بالاعتدال والحركة بنوع من الميل الذي تنجذب به الاجرام بعضها الى بعض بدون حرية او اختيار بل بناموس آلي تام كما يحصل في الاجرام السماوية ولكنه عاد وابدل هذه الحركة الآلية بقانون الايثار الذي بمقتضاه يفضل الانسان غيره على نفسه

ثم أدى به القول أخيراً الى الاعتقاد بدين عام للانسانية

Emile Littré (١٨٠١ — ١٨٨١) اميل لتريه

كتب نبذتين عضد فيهما المذهب الوضعي وهو يسلم بان الظواهر الحسية هي وحدها موضوع العلم ولا ينكر كل بحث نظري انما يقول بانه غير مدرك . اما في علم النفس فانه يرجعه الى ظواهر مخية

Hyppolyte Taine (١٨٢٨ — ١٨٩٣) هيبوليت تين

انضم الى المذهب الوضعي وكان اول كتاب فلسفي له هو « الفلاسفة الفرنساويين في القرن التاسع عشر » وهو رسالة هجو ضد المدرسة الروحانية

اما مذهبه فشروح في كتابه « الفهم » وفيه يقول ان العلم لا يتناول الا الشيء المحسوس ، والاحساس والفكر متماثلان وما الفكر الا احساس ضعيف . والادراك وهم حقيقي

ومجمل مذهبه يؤول الى مذهب كندلياك الحسي بدون ان يلتفت الي الفكر او الحكم او التعليل

٨٤
مدرسة النقد الحديث

شارل رينوفييه (١٨١٥ — ١٩٠٣) Ch. Renouvier

حاول هذا الفيلسوف بعد كانت ان يحل مذهباً جديداً للنقد النسبي محل الفلسفة التجريبية والظاهرية كما فهمتها جميع المدارس الفرنساوية الفلسفية

فامتحانات النقد العمومي وعددها خمسة تتضمن فحص قوانا الخاصة بالمعرفة وبموضوع معارفنا ودرجات اليقين

وهو يسلم مثل كانت اننا لا نعرف سوى ظواهر الاشياء أي العامل المتمثل في ادراكاتنا واننا نفرض الكليات الباطنية لقوانا على الظواهر وهذا هو العامل الممثل

غير ان رينوفييه يخالف كانت في مسألة ذوات الاشياء noumenes

فعلى زعم رينوفيه يكفي قانون الظاهرات ويقوم مقام الجوهر وبذلك تكون موضوعات المعرفة هي من اعمال الوجدان والاعمال الخارجية وعلاقات تلك الافعال بعضها ببعض

ويقول ان علاقات الظاهرات وقوانينها تثبت بفعل

الارادة الحرة

ويختم نظريته بان العلم نسبي أو بالحري لا يوجد علم بالمعنى الصحيح

٨٥

المدرسة التقليدية

Traditionalisme

تنقسم المدرسة التقليدية الى قسمين (احدهما) معتدل وهو الذي يقلل من قوى العقل الطبيعية ومن فلاسفة هذا الفريق.

(١) الكونت جوزيف دي مستر (١٧٥٤ — ١٨٢١) J. de Maistre ولد في شمبراي حيث كان والده رئيس برلمان سافوا. واشهر مؤلفاته كتاب ليالى «بتروغراد

وقد اظهر في هذا الكتاب ان الله يهيمن على العالم وقال في موضع آخر ان الانسان يتألم لانه مجرم. وكل مرض جسماني متسبب عن ألم أدبي. والتفكير هو اهتمام كافة الشعوب وهو أيضاً غرض الحكم الالهي. وعن ذلك نشأت الحروب والاوبئة

(٢) الفيكونت لويس دي بونالد (١٧٥٤ — ١٨٤٠) L. de Bonald أعظم مدافع عن الملكية بعد الثورة الفرنساوية

وهو مؤلف كتاب « مباحث فلسفية عن الموضوعات الاولى للمعارف البشرية والتشريع الاصلي

ومن رأيه ان اللغة أوحي بها الخالق الى الانسان لان هذا لا يستطيع بقوته الطبيعية وحدها ان يبتدع النطق

وان الانسان لا يعرف فكره الا بواسطة الكلمات فينتج عن ذلك ان الافكار التي علمها الله للانسان هي الهية بمصدرها كالنطق ولذلك لا تكون عرضة للشك فيجب اذن التسليم بان الحقيقة المؤكدة مؤسسة على الوحي أو الانكشاف الالهي الاصلي ورثناه نحن بالتقليد والتسليم عن السلف

وثاني القسمين تقليد مطلق وهو القائل بان العقل الفردي لا يستطيع قطعياً الوصول الى المعرفة المؤكدة

واشهر القائلين بذلك هما : لامنيه والاب بوتين

لامنيه (١٧٨٢ — ١٨٥٤) F. de Lamennais له كتابان جعلاه في مصاف الفلاسفة وهما «مبحث في عدم الاعتداد بالدين ونبذة فلسفية

اما باقي مؤلفاته : كلمات مؤمن ، وكتاب الشعب ، والرق الحديث فكلها جدلية ضد الكنيسة والحكومة الفرنساوية

قال لامنيه : ان جميع وسائل المعرفة التي يستطيعها الانسان لا ثبوت لها وهي مع ذلك خادعة لان الحواس تمثل لنا العالم في صورة خيالية . والشعور الوجداني لا يرشدنا عن حقيقة انفسنا

والعقل التابع للتجربة ليس له الا مقدمات مكذوبة . فاذن لا توجد حقيقة يقينية الا بارشاد الهى وبالتسليم التقليدي

اما الاب بوتين (١٧٩٦ — ١٨٦٧) Abbé Bautain

فلا يعترف في كتابه « فلسفة المسيحية » بصدور الحقيقة الا من الانكشاف الالهى ، وكل معرفة هي الاعتقاد بكلمة الله

٨٥
الفلسفة فى المانيا

ظلت فلسفة « كانت » السائدة على العقول في المانيا حتى سنة ١٨٣٠ بفضل خلفائه فخت وهيجل وشيلنغ — ولكنها انقلبت بعد ذلك الى «وضعية او تجريبية» مع لوتز ، وهلمولتز . وويبر وفخنر .

والى « مادية » مع مولخت . وبخنر . وفوجت . وهيكل
والى « تشاؤمية » مع شوبنهور . وهرتمان . ونتشه

هرمان لوتز (١٨١٧ — ١٨٨١) H. Lotze

المولود في بوتزن كان اكثر الناس علماً بمذهب هيجل ولكنه مع ذلك كان اكثرهم كراهة لذاك المذهب فاخذ في معارضته ونقده
وقد حاول ان يجعل للادراك مواضع في النفس وهو يعتبر أول من مزج علم النفس بعلم وظائف الاعضاء

اما هلمولتز (١٧٢١— ١٨٩٤) Helmholtz

المولود في مدينة بوتسدام . فانه اضاف الى طريقة لوتز حساباً دقيقاً يختص بسرعه السيال العصبي

وفترة الزمن بين الظواهر الطبيعية العضوية وبين الادراك المدرك ولهـذا الفيلسوف مؤلفات مهمة في المدسات والصوت والـكهرباء .

اما فيبر Weiber

فقـد بين دوائر الاحساسات والفرق بينها وبين دوائر الاجسام المنحنية

اما جستاف تيودور فخنر (١٨٠١ — ١٨٨٧) Fechner

المولود في جروسن سرخن . فانه نشر سـنة ١٨٨٠ ابحاثه في أصغر قوة لـكل حاسة من الحواس . وفي الفوارق الموجودة بين الاحساسات المتشابهة . وهو الواضع للقانون الخاص بعلاقة التهييج بالقوة الاحساسية

ويتلخص هـذا القانون في « ان الاحساس ينمو بدرجـة لوغارتمية للتهييج »

نادى بالمذهب المادي في المانيا في هذا الزمن الفلسوف الطبيعي

مولخوت (١٨٢٢ — ١٨٩٣) Moleschott

المولود في « بوا — لي — دولك » وقـد دافع عن هـذا

المذهب دفاعاً شديداً في كتابه « الدورة الحيوية » وكتاب « وظائف التغذية »

كذلك بختر (١٨٢٤ — ١٨٩٩) Buchner

مؤلف كتاب «القوة والمادة »

ولد ومات هـذا الطبيب الفيلسوف في مدينة درمستاد. واشتهر أيضاً بفلسفته المادية كارل فوجت (١٨١٧ — ١٨٩٨) المولود في مدينة جيسين . بدفاعه الحاد عن نظرية « التطور » في كتابه «دروس في الانسان» وهو القائل ان المخ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء . وكما تفرز الكلى البول !

وهيكل Haeckel

الطبيعي المولود في بوتسدام سنة ١٨٣٤ ذهب بنظرية «التطور» الى ابعد غاياتها واقصى مدلولاتها . فانه ارجع كل شيء الى ذرة واحدة حية monere اشتقت منها كل الكائنات بنوع التطور التدريجي السائر في سبيل الترقي

٨٦



امارتور شوبنهور (١٧٨٨ — ١٨٦٠)

Schopenhauer

ولد في مدينة دنتزج وكان والده أحد أغنياء التجار

ذكرت فلسفته في كتابيه «الجذور الاربعة لمبدأ السبب الكافي» « والعالم ارادة وتمثيل »

فرأيه ان جميع الظواهر الاختيارية واحكامنا واشكال الزمان والمكان . وفعل الفاعل ونتيجة فعله . كل ذلك مرجعه ومصدره « الارادة » دون غيرها وهى العلة الكافية لتعليل كل شيء

« فالعالم هو ما اتمثله » او هو نتاج الفهم

وشهرة شوبنهور في (تشاؤمه)

قال : اثبت العلم ان الانسان يشعر بالالم وبشدته كلما زاد رقيه وكلما تقدم في العمر ، والنوابغ اكثر الناس تألماً ، وان الحب سبب اكبر المصائب واكثرها التي حدثت في العالم ، فهو منشأ البغض والحروب والغيرة والخيانة والخجل والجنون

ان (المطلق) الذي ابدع كل شيء بدون غاية وبلا سبب أوجد في كل الكائنات الرغبة في الحياة ولكن الحياة جهاد . والجهاد تألم . ودواء ذلك ملاشاة « الرغبة في الحياة ولا يكون ذلك بالانتحار • بل بان يدمج الانسان ذاته في مشاهدة هذا الكون العظيم طبقاً للمذهب البوذي

وهو يرى ان العالم الحاضر اقبح العوالم التي يمكن وجودها

ولكن ادورد دي هرتمان (١٨٤٢ — ١٩٠٦) Hartmann

خفف من شدة تشاؤم شوبنهور بأن سلم بمبدائين احدهما الخير والثاني الشر • فوضع بجانب الارادة عنصراً آخر لا يدرك ذاته فيرتب المواد المرتبكة التي تتوارد على الارادة

فالعالم اذن ليس رديئاً بجوهره • انما هو اضر من العدم

ولكي يقارن هرتمان بين الخيرات والشرور شرح ثلاث حالات للحياة البشرية وشبهها باحلام ثلاثة للحصول على السعادة بدون سعادة حقيقية :

(الحلم الاول) تكون السعادة في هذا العالم بتنمية وتقوية قوانا — وهذا هو ضلال الوثنيين : لان حب الوطن • والتضحية والمجد • والحب — كل ذلك وهم وجنون وألم

(الحلم الثاني) سعادة الانسان في العالم الآخر • أي في فردوس النعيم • وهذا هو التعليم الالهي

غير ان هرتمان لا يعتقد بوجود آخرة فالحلم اذن — على زعمه — لا وجود له

(الحلم الثالث) السعادة التي لا حد لها ودائماً في ازدياد وهي امال البشرية المستقبلة ولاجلها يضحي الفرد سعادته الحالية وهذا الحلم هو تعليم بعض المفكرين الاحرار ولكن الترقي يكتسب بترقي الفكر • وكلما ترقى الفكر الى الكمال كلما ازداد الانسان تعاسة وألماً • لانه يزداد فهماً فيكثر شعوره بالالم

والنتيجة : يجب ان يجتهد الانسان في تقصير حياته فلا يسعى للحصول على مسرات الحياة إلى ان يأتي يوم ينتحر فيه العالم بالتلاشي

اما نتشه (١٨٤٤ — ١٩٠٠) Nietzsche

فانه حاول في جملة مؤلفات تأسيس مذهب خلقي مبني على الاثرة والانانية . ومن مبدائه نمو القوة الحيوية نمواً زائداً • والغاية من ذلك ايجاد نوع جديد من بني الانسان هو الانسان السامي •

فقد « نتشه » صوابه وجن سنة ١٨٨٩

وقال العلامة فوييه الفرنساوي « ان مذهب نتشه التمس يؤدي الى مستشفى المجاذيب ونظريته بدلاً من ان تخلق « الانسان السامي » فانها أوجدت الانسان السافل

٨٧

الفلسفة الانكليزية

المذهب الحسي هو السائد على عقول الفلاسفة الانكليز في هذا العصر . وأشهر ممثليه هم ستوارت ميل — وداروين — وهربرت سبنسر — واسكندر بين

نظرية التشارك Associa tonisme

جون ستوارت ميل J. S. Mill

ولد في مدينة لندن في ٢٠ مايو سنة ١٨٠٦ وتوفي في سنة ١٨٧٣

أعجب بفلسفة « أوجست كونت » وادعى التلمذة له ولو انه لم يسلم بكامل نظرياته

وأهم كتبه هي : بحث في فلسفة هملتون . ومباديء الاقتصاد السياسي . وكتاب المنطق

اما مذهبه في علم النفس فتجريبي صرف . اذ يقول ان جميع افكارنا واحساساتنا قابلة للتشارك اذا كانت من نوع واحد فقانون التشارك أو تداعي المعاني . هو اساس الظواهر

الباطنية . اذ اننا عند ما نعتاد على جمع معنيين ببعضهما البعض فاذا خطر أحدهما على الفكر في وقت ما ننتظر ان يخطر الثاني فهذا الانتظار هو اساس الاستقراء .

فنظرية « التعود » لا تفسر معنى « الآنية » ولا معنى « المطلق » ولكن ستوارت ميل اجتهد ان يفسر (الآنية) بواسطة الاحتمالات المستمرة غير ان تفسيره غامض

وقد قبل معني (المطلق) بدون بحث كعامل جوهري للوجدان والفكر

(فالمطلق) حسب رأيه غير قابل للتعريف ولكنه يدرك ادراكا فحسب

(مذهبه الخلقي) اضاف ستوارت ميل على الحساب الخلقي الذى ذهب اليه بنتام — عاملا آخر وهو « الصفة » اذ يقول : ان الافضل ان يكون الانسان سقراطاً متكدراً عن يكون خنوصاً متلذذاً

ولكنه لا يسلم بالالتزام الادبي ويرى استبداله بقوة جاذبية « التعود » الذي نشأ عليه الانسان من صغره فاشرك الفائدة العامة بالفائدة الخاصة

فعلم الاخلاق وعلم الاجتماع يكونان علماً واحداً لا فارق بينهما كما انه يؤسس حق الملكية على «العمل» ويحبذ كثيراً الحرية ورأيه السياسي ان تبنى الديموقراطية على حق التصويت العام والنسبي الذي تكون الاقلية ممثلة فيه



داروِن (١٨٠٩ — ١٨٨٢)

Darwin

ولد شارل روبرت داروِن في شروسبري في الثاني عشر من شهر فبراير سنة ١٨٠٩ وتوفي في داون يوم ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢

بدأ حياته المدرسية في شروسبري ولكنه لم يكن يهتم الا بالصيد وبالكلاب حتى قال له والده يوماً « انك ستكون عاراً على عائلتك وعلى نفسك »

وفي سنة ١٨٢٥ أرسله أبوه الى ادمبورغ ليتعلم فيها الطب . فلم يكن يعبأ بالدرس لانه لاحظ ان والده سيترك له ثروة كافية ليعيش بها بدون احتياج لممارسة مهنة الطب

وكانت المحاضرات تضايقه كثيراً وتردده على المستشفي يلقى الرعب في فؤاده . وقد حضر عمليتين خطرتين احداهما عملت في طفل فارتاع منها وهرب من المستشفي ولم يعد يضع قدمه فيه مرة أخرى

وانتقل بعد سنتين الى كمبردج . وكان يمضي اكثر اوقاته في جمع الحشرات المختلفة وتعرف اثناء ذلك بالعالم النباتي هنسلو

وفي دسمبر سـنة ١٨٣١ سافر مع بعثة في « أرض النار » ومكث فيها حتى سـنة ١٨٣٦ وهـذه المرة كان لها أعظم تأثير في حياته

ثم تزوج في سنة ١٨٤٩ ابنة عمه أيما ورجور واقام ثلاث سنوات ونصف في لندن ثم اشترى ملـكاً في مدينة داون التي تبعد عن لندن مسافة ساعة في السكة الحديد فقضى باقي ايام حياته في وسط سكون الطبيعة واخضرارها

مؤلفاته : أصل الانواع ، تسلسل الانسان ، مظهر التأثيرات في الانسان والحيوان

فلسفته : — تدور حول مذهب التطور Transformisme وقد استعار بعضه عن فيلسوف طبيعي فرنساوي « لامارك » الذي سبق الـكلام عنه

وتتلخص نظريته فيما يأتي :

جميع الانواع الحيوانية والنباتية الماضية والحالية متسلسلة بطريق التطور والتعاقب من ثلاثة أو اربعة أصول . وربما كانت من أصل واحد . اذ يقول : « ان المقارنة تذهب بي الى ابعد من ذلك أي الى الاعتقاد بان جميع الحيوانات وجميع النباتات تسلسلت من نوع واحد »

ولـكي يفسر داروِن هـذا التطور استند على جملة قوانين فالـكائنات الحية ، بدافع ناموس الارتقاء ، تميل الى التكاثر

بنسبة متجاوزة الحد . فتنقاد الى التزاحم الحيوي « أو النضال من أجل الحياة »

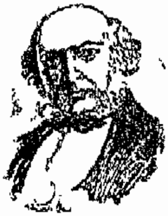
ونتيجة هذا النضال قتل جميع الافراد السفلى باي صفة كانت لحفظ الاحسن وبقاء الاصلح وهذا هو « الانتخاب الطبيعي

وفي كل مرة يحصل هذا الانتخاب يرتقي العضو في طريق مهيأة له من قبل ولا يمكنه ان يحيد عنها ، خاضعاً في ذلك لقانون اختلاف الصفات . ثم عند ما تحين الفرص تتطبع أعضاء كل « ذات» بعوامل الوسط الذي وجدت فيه . ومن ذلك تنشأ أنواع جديدة مختلفة.

وكل نوع قائم بذاته يجب ان يعتبر انه نوع وشيك يأخذ في الترقي تدريجياً

فالنوع الانساني لم يسلم ، بحسب هذه النظرية ، من قانون التطور . فهو متسلسل من قرد وصار في سبيل الارتقاء الى ان صار كما هو الآن

بيد ان دارون قرر انه لا يبحث عن مصدر القوى العقلية



هربرت سبنسر

H. Spencer

حياته — ولد هربرت سبنسر في مدينة دربي في ٢٧ ابريل سنة ١٨٢٠

كان والده مدرساً وعمه قسيساً ومذهبهما في السياسة (راديكالى)

ولما كانت لهربرت الحرية التعليمية اهتم منذ صغره بالعلوم الطبيعية والمسائل السياسية مفضلا اياها على دراسة اللغات البائدة ورفض الدخول في المدارس الجامعة

ولما كان عمره سبعة عشر عاماً استخدم مهندساً في سكة حديد لوندره وبرمنجهام ، وترك وظيفته وهو في السادسة والعشرين من عمره . ومن سنة ١٨٤٨ الى ١٨٥٣ كان سكرتيراً لادارة تحرير جريدة« الاقتصادي » The Economist

مؤلفاته : — الاصول الاولى : مبادىء واصول علم النفس واصول علم الاجتماع واصول علم الاخلاق

فلسفته تدور حول نظرية النشوء والارتقاء Evolutionisme

فلكي يفسر هربرت سبنسر قوانين العقل البشري اضافه الي نظرية (ميل) في العادة ، نظرية الوراثة ومضمونها: ان كل عادة

متى تقوت تصبح طبيعية اعني انها تتغلغل في تكوين الانسان وتصير آلية تتحرك من تلقاء ذاتها

وهذه الاستعدادات العضوية تنتقل بالوراثة، بمعنى اننا حال ولادتنا توجد فينا اختبارات الاجيال التي سبقتنا

فالوراثة في نظر سبنسر هي أصل المعارف العامة الضرورية

فهي عامة لان الانسان لا يمكنه ان يفلت من ان يرث بني نوعه . وهي ضرورية لان الميراث محتم على الفرد كشيء واقع

وترتكز النظرية المذكورة على مبدأ قدم المادة وعدم فنائها (أي ازلية وابدية) اضف الى ذلك قانوني (دوام القوات) و (ارتداد الحركات المسببة عن الحوائل)

يوجد ارتداد اساسي ترجع اليه جميع الارتدادات ذلك هو الارتقاء والتفكك

« جميع الاشياء تنمو او تتلاشى ، تكثر المادة او تستهلكها هـذا هو تاريخ كل تكوين عضوي وهو أيضاً تاريخ كل ترقي وتقدم

فتكوين الارض ونمو الحياة على سطح البسيطة ثم نمو الهيئة البشرية . والحكومة والصناعة والتجارة . واللغة . واذابها - والعلم والفن . كلها تفترض وجود قانون النمو والتفكك

وعلى زعم سبنسر ، بخلاف ما رأى ستوات ميل . ليس العالم احتمال مستمر . بل هو شيء واقعي تشكل بصورة أخرى فالظواهر الطبيعية والنفسية تتوازى على الدوام وهي مثال لحقيقة ذات مظهرين . غير ان تلك الحقيقة ظلت مجهولة

٩٠

فلسفة ايطاليا واسبانيا

تأثرت الفلسفة الايطالية بمذاهب المدارس الاجنبية أثناء الجيلين الاخيرين . فبعد ان كانت « حسية » في الجيل الثامن عشر. صارت في القرن التاسع عشر « عقلية » مع جالوپي . « وتصورية » مع روسميني وجوبرتي

بسكوالى جالوبى (١٧٧٠ — ١٨٤٦) P. Galluppi

ولد في مدينة ترويا (بايطاليا) كان منتمياً الى المذهب الروحاني المسيحى وخصما لدوداً للمذهب الحسي. تعين مدرساً فى مدينة نابولى وبقى في تدريس مذهبه حتى توفى في تلك المدينة

انطونيو روسمينى (١٧٩٧ — ١٨٥٥) A. Rosmini

ولد في مدينة روفردو بالقرب من ترانتا واندمج فى سلك الكهنوت واسس معهد الاحسان الذي كان اشبه بجمعية تضم العدد الوفير من القساوسة والعلمانيين النابهين . ثم تعين وزيراً للمعارف على عهد بيوس التاسع تحت رياسة روسي

كان عدواً لجوبرتي وللامنيه • اراد اخضاع الفلسفة للدين فتجاوزت نظرياته الحد وادت به النتيجة الى ان قال بالمذهب التصوري أي المثالي

ورأيه ان الكليات التي قال بها الفيلسوف «كانت» ترجع جميعها الى كلية واحدة وهي الكائن أو معنى الوجود

قنسنزو جوبرتي (١٨٠١ — ١٨٥٢) V. Gioberti

ولد في تورينو وحاز درجة دكتورفي اللاهوت سنة ١٨٢٥ وكان منفياً سنة ١٨٢٣ لاشتراكه في مؤامرةسياسية . ثم انتخب مندوباً . وتعين وزيراً للخارجية سنة ١٨٤٨ فسفيراً في باريس

كتب كثيراً من المؤلفات السياسية والفلسفية والثوروية

وكان مناجزاً للامنيه وروسميني . بيد انه اتخذ نظرية هذا الاخير في « الكائن » وعدلها على طريقة ملبرانش بان قال ان « الكائن » موجود كامل وغير متناه . ويعرف باستطلاع باطني مباشرة . سواء كان في ذاته او في المخلوقات التي هي مظهر له

اما اشهر فلاسفة اسبانيا فاثنان :

جاك بلميس (١٨١٠ — ١٨٤٨) Balmes

ولد في فيش بكتالونيا

كتب جملة مؤلفات مهمة منها : كتاب « كيفية الوصول الى الحقيقة» وكتاب «الفلسفة الاساسية» والمقارنة بين البروتستانية والكاثوليكية في علاقتها بالمدنية الاوروبية

كانت فلسفته مزيج من نظريات ديكارت ولبنتز . والمدرسة الاسكتلندية .

دونوزو كورتيز (١٨٠٩ — ١٨٥٣) D. Cortes

ولد في الفال . كان خطيباً بليغاً يستحق ان يذكر في تاريخ الفلسفة لكتاباته عن الحرية والاشتراكية التي لا تخلو من النظر الصحيح والفكر الثاقب

كلمة ختامية

لقد وصلنا بتاريخ الفلسفة الى عتبة القرن العشرين . بعد ان ذكرنا المذاهب الفلسفية ومدارسها وادوارها في دائرة الايجاز الغير مخل ولم نتعرض الى ذكر اسماء الفلاسفة العصريين امثال بول جانيه (١٨٢٣ — ١٨٩٩) ورافيسون (٢٨١٣ — ١٩١٠) والفريد فوييه (١٨٣٨ — ١٩١٢) ووليم جيمس (١٨٤٢ — ١٩١٠) وغيرهم ممن لا يزالون في عالم الوجود من مشاهير المفكرين الغربيين فابحاثهم كثيرة كما ان مذاهبهم متشعبة أيضاً مما لا نستطيع ان نلم بها في هذا الموجز

وقد يقل هذا التشعب لو فهمت ماهية الفلسفة على حقيقتها اذ يتوقف عليها أعظم مظهر للحياة واحسن نظام للجمعيات ويا حبذا لو عني مفكرو الشرق والناطقون بالضاد بالمباحث الفلسفية فاننا لا نكاد نعرف اكثر من بضعة افراد يهتمون بهذه المباحث اهتماماً هو دون القليل اصلح الله الاحوال

رسالة الاستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

حضرة حنا افندي أسعد فهمي

تصفحت كتابك تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها فرأيتك في ريعان الشباب تحذو حذو اكابر العلماء ، واعاظم الحكماء ، وأفاضل الكبراء . وما احوج أمتك الي كثير من أمثالك ذوي الجد والاقدام

لقد نبذت في غضون الشباب عوائده وربأت بنفسك ان تخنع الى العجزة ... الروايات الغرامية والاحاديث الهزلية التي عكف عليها الغافلون والشبان العاطلون ، وعلوت بعقلك الى مستوى تقطع دونه الاعناق كما تبين في مؤلفك (القوة الفكرية في المغنطيسية الحيوية) اذ نهجت فيه منهجاً يرفع العزائم ويقوي ارادة النفوس ويعرج بها الى الملأ الاعلى والمقام الرفيع . واني يستوي الفتيان : فتي يغوص في بحار العلم فيحظى بدررها من الايقان والايمان . وآخر ضل سواء السبيل فخلع العذار وهو يدعي انه بالفلسفة موصوف وبالعرفان معروف : — الاساء مثل القوم الجاهلون !

اما كتابك هذا تاريخ الفلسفة فما اجدره بالشيوخ المجربين والعلماء المفكرين وأهل الرأي والعقول السليمة والنفوس الكبيرة . فلله درك من شاب نابغة ومصري باقعة

قدمت لاولى الالباب هدية نافعة وذكرى جامعة . وجوهرة لامعة . ومصر اليوم يعوزها العقلاء المفكرون والفضلاء المذكرون ليتدبروا كتابك وليعلموا ما فيه من العبر وما تضمن من المبتدأ والخبر

ان العقول الانسانية قد تجلت في هذا الكتاب اشبهما على الارض من جبالها واحجارها ورياضها ومزارعها وجناتها . قد نبت فيها الحب والعنب والقضب . والزيتون والنخل والحدائق الغلب . والفاكهة والأب . ومنها يكون السم والترياق والداء والدواء والمر والحلو

مذاهب الفلاسفة متفاوتة تفاوت ما على الارض من مزارع واشجار وجبال وليس يقدر على السير فيها وجني ثمارها والمشي في مناكبها وعقباتها الا القادرون الصابرون فاما من عداهم فانهم لا يفرقون بين الغث والثمين ويهلكون في عقباتها ويمرضون بما يتناولون من ثمراتها

هذا وان الله قد جعلك أيها الشاب حجة على بعض من يدعون الفلسفة في ديارنا ممن طاشت احلامهم وخف مرتزقهم وقرأوا قليلا من العلم وضاق بهم ما كانوا به يستهزئون

الا فليقرأ كتابك العلماء وأولوا الالباب أولئك هم المفلحون

فهرست

صحيفة

فلسفة العصور الوسطى

الفلسفة في انكلترا

الفلسفة في المانيا

المدة الثالثة

الجيل التاسع عشر

فرنسا

الفلسفة فى المانيا

الفلسفة الانجليزية

مجمع الأحياء

بقلم

عباس محمود العقاد

مطبعة محمد مطر بمصر

الغاب

أين أنا ؟؟ وماذا أرى ؟؟ ومن ذا جاء بي الى هنا ؟؟ هل جاء بي الى هذه الارض النائية متصرف فعال أحب أن ينزل في رُوعي أنّ ليس كل ما في الدنيا قصورا باذخة ، وأرائك شامخة ، ومعامل وأسواقا ، ومحابر وأوراقا ، ومحافل وجحافل ، ومساهر ومساخر ، ودرهما وديناراً وفضة ونضارا ، وان المرء قد يحيا حفل حياته وينظر مدى عينيه ويسمع شبع أذنيه ويحب ويبغض ملء قلبه ويتمش وسع نفسه وهو لم يعطف على لندن ونيويورك أو يسمع ببابل وبغداد ولم يقرأ فلسفة ارسطو وسبنسر أو يطرق أذنه اسم هومر وشكسبير وانه يقصد كل القصد في انفاق ساعاته وهو لم يركب البخار ولا طار في الهواء ولم يستخدم النار ولا سخر الكهرباء. فهل هذه ارادة ذلك المتصرف الفعال ؟؟ وهل أفلح فيما أراد ؟؟

* * *

انا الآن في قلب أفريقيه ، والذى أراه حيالى غاب أشجارها باسقات تطالع السحاب من أمم ، وجذورها غائرات تذهب في

طباق الارض ذهابا فى القدم . يلجأ اليها الهواء فكأنه لاجيء الى حصن ، ويقع عليها الضياء فلا ينفذ الا باذن ، اشتبكت أعاليها فكأنها السقوف ، وهالت مداخلها فتقول هى سراديب أو كهوف ، ظلالها أثبت على أديم الغبراء من أصباغ الفراعنة القدماء ، لاتنسخها الشمس الساطعة ولا القمر الزاهر — وأصولها أعمق فى قرار الارض من قبر آدم وحواء ، لا يلحقها ظن الفاحص ولا يتعلق بها وهم الحافر . وفيها من الاحياء ما لا يوجد فى أعمر الحواضر تعداده ولا ينتهى على طول الزمن امداده . كواسر صارخة وعصافير صادحة وهوامّ صافرة ، زاحفة أو طائرة ، ووحوش زائرة ودواب هادرة . يضرب كل منها على نغمته فيتألف من لغطها المختلف موسيقى الطبيعة المبدعة التى لاتعبأ شيئا بصناعة الموصلى ودحمان ولا تحفل قتيلا بافانين واجنروشوبان : والازهارُ نافحات العطر تثني على الشمس بآلائها ، وتبرز لها بما كستها من حلل أصنوائها ، فكأنما هى باشجارها وأزهارها واموامها وثمارها جنة متوحشة متأبدة تأوى صنوف الحيوان وتأنف أن تكون لهوا ونزهة لبنى الانسان

أوغلت فيها وبي من حب الاستكشاف فوق ما بي من

محاذرة الخطر فلما توسطت رحبها لاحت لى على بعد امرأة جليلة الهياة شريفة الطلعة فدنوت منها فلم اكد أصدق ما أرى . رأيتها مفتوحة العينين الا انها ضريرة لا تبصر ورأيتها قد أخذ بيمينها قائد خفى لا يتبينه النظر الا بعد تفرس شديد . فادهشني حالها واختبأت انظر ما شأن تلك المرأة فى هذه البقعة فاذا هي تقول بصوت جهير مطاع :

سلاما ياسا كنى الغاب . سلاما ياأبناء الحياة . سلاما يسل غل الصدور ويصلح ما بين الواتر والموتور ! الىّ يا ابنائى فأنا امكم الحياة جئتكم فى يد القدر ادعوكم لامر خطير !

فما كان الا كلمح البصر حتى مادت الغاب بكل شاهق وزافر مما يمشى على قدمين او يدرج على اربع او يطير على جناحين او يزحف على بطنه . او يتلوى على نفسه . اقدارآ متفاوته واشكالا متباينة والوانا متنافرة . من حيوانات واناسىّ ، فيهم الشمالى والجنوبى ، والشرقى والغربى . وكلهم ينسلون صوب ذلك النداء. نداء الحياة المطاع

فلما علمت ان المرأة الماثلة امامي هى الحياة ! الحياة التي يعبدها الناسك فى الصومعة والعربيد فى الحانه ، الحياة التى تحبها الدودة

المتقلبة فى الاقذار والشاعر المارج فى ملكوت الخواطر والافكار، الحياة التى يضن بها الطفل ابن ساعة والشيخ ابن مائة وعشرين حجة ، الحياة التى لاشبيه لها فى الكون ولا نظير. تقدمت أتأملها فلا أكذبك أيها القارىء : انى وجدت بها شيات ومعائب كثيرة لا تبدو لاول نظرة ، ووجدتها تستر تلك الشيات والمعائب وتموهها . وكأنى نظرت على صدرها تميمة من تمائم السحر أظنها لبستها لتُغرم الانظار بها ، وتعمى القلوب عما لا يُستحسن منها . ولكنّ لمحاسنها مع هذا معاني ما كرة يفتتن بها عاشقوها — وما عاشقوها الا أبناؤها — مهما خدعتهم وعذبتهم وعبثت بهم . فلو سألت ايا كان فى ذلك الحشد المختلط لقال لك انها فتانة القبح والجمال ، قتالة الصد والمطال ، هذا وهى ما لاحت قط لواحد منهم كما تلوح لجاره ، ولا ظهرت لاحدهم فى زى واحد بين ليله ونهاره .

وقفت تلك المرأة العمياء المقودة بيد القدر وقد لزم كلٌّ مقامه وأنشأت تقول :—

خطاب الحياة

أتدرون يابنىّ لم دعوتكم ؟؟ دعوتكم لمّا شجرت بينكم شواجر البغضاء وتقطعت بكم أسباب الرحم فعدا بعضكم على بعض وأصبح الحى منكم ينظر الى سائر الاحياء ، كأنه الحى وحده وهى أحجار صماء ، لا شعور لها ، ولا رغبة فى البقاء عندها . أو هى لا يعرف فيها الحياة الا ايراها أصلح لخدمته ، وأهيب من المادة الجامدة لسطوته .

وأنتم مع هذا أبنائى ، أرضعتكم لبانى وسرت فى عروقكم دمائى ، وميزتكم عن الجماد فجعلتكم جندا لى على أعدائى . يؤلمنى الألم فى أصغركم واوضعكم كما يؤلمنى فى أضخمكم وارفعكم ، وأعالج من الاوجاع والحسرات لمفارقة الجثة الناقصة الدقيقة ما أعالجه لمفارقة البنية التامة القوية .

غركم تباين خلقكم وتعدد سماتكم وسحنتكم ، فخلتم انكم شتيت مفلول ونثير مبدد لا تفيئون الى أصل ولا تلتقون عند غاية . فهل نسيتم ان كلمة الاحياء تشملكم ، وان الموت عدو لكم ، وأنتم بين جنوده وعناصره فى هذا الكون وحدكم ؟؟

فاليوم أجمعكم فى هذه الغاب ليمشى بعضكم الى بعض بالسلم

والمودة وتناصحوا فيما باعد بينكم وأولع بعضكم ببعض فتزيلوه، فهو أولى لكم من هذه الشحناء التى شقت عصاكم واشمتت الجماد بكم وصيرت بعضكم يتمنى لو انه صخرة جامدة أو جثة خامدة، ويحسب الحياة لمنة عليه وعلى الخلق أجمعين

انكم تفهمونى جميعا وتفقهون ما أوحى اليكم به الآن. لكنكم لا يفهم بعضكم بعضا ولا يعى أحدكم سريرة صاحبه الا رجما بالغيب وأخذا بالظن. فليكن لكم مادمتم فى هذا الحشد علم الانسان وبيانه وبصيرته، ولتشرب أرواحكم فنونه وتواريخه وأديانه. تتعاونون بها على التفاهم والابانة عما فى سرائركم: أما طباعكم فحافظوا عليها جد المحافظة فانها دليلكم فيما سينطق به كل منكم عن رغبته وفكره، والمعالم التى تميز بين احدكم وغيره، وهى قوام انفسكم وملاك وجودكم، وليس التجاوز عن هذه المعالم بأسهل علىّ أو عليكم من التجاوز عن الحياة

فابدأوا باسم الخلاق الحكيم. وتكلمى يا يمامة فانك رمز السلم والسلامة. قرن الله بهما عملكم واظل بهما فى التفرق والاجتماع شملكم

فجأروا بلغة واحدة وصوت واحد بين زئير الاسد وصرير الجندب : آمين آمين

* * *

وقبل أن تبدأ اليمامة خطابها نظرتُ أتصفح ما حوته الغاب من تلك الوجوه فسرعان ما توسمت العقل والمعرفة والتؤدة فى الاناسيّ منهم والوحوش، فقلت تالله لقد أخطأت الحياة فانى لاأرى هنا الا خلقا واحدا . سوى أن هذى دواب فى أشكال الاناسى وهذى اناسى فى اشكال الدواب !!

* * *

ثم صعدت اليمامة على ذؤابة شجرة عالية وهتفت قائلة :—

خطاب اليمامة

معشر الاحياء

قال تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض »

ومصداق هذه الآية الكريمة يا بنى أمى قائم فى ملك الله الواسع انى ذهبتم بأبصاركم. فقلبوا الطرف فيما حولكم هل ترون اليمام والزرازير أكثر أم البواشق والنسور، وهل البقر والشاء أبقى على القتل والذبح أم الاسود والنمور، وهل صغار الاسماك اوفر واغزر أم كبار التماسيح والحيتان، وهل أنواع الحيوان أجمّ واعي ام قبائل الانسان ؟؟

فان تبينتم — ولا بد ان تتبينوا — ان الكثرة فى جانب الضعف فتدبروا ذلك تعلموا ان الله لم يخلق المخلوقات المستضعفة عبثا وانه لم يقدر عليها الفناء مذ خلقها ضعيفة كما يفترى اولاة الشره ومستحلو دم البرىء. بل وهبها من ارادة البقاء ما وهب عامة الاحياء، فتمت فيها هذه الارادة بالكثرة كما تمت فى سواها بالقوة. فالجناية على حياتها كالجناية على كل حياة، ومنزلتها من امنا الحياة كمنزلة كل كائن حى بلا جنف او محاباة

ولقد سمعتم هذه الام الرؤم تناديكم قائلة لكم: اننا رضعنا جميعا من اثدائها، وانه اذا نسب الابناء فكلنا معدودون من ابنائها، وانها تتألم في اصغر حي اذا مسه الالم، ويشق عليها ان تخرج منه ليستولى عليه العدم، وقالت لكم ان اخذكم الحى اخذ الجماد الذى لايحفل حالةً من حالاته مضيعٌ لمعنى الحياة حاطٌ من شرفها فميزوا بين المادة الصماء، واخوانكم في رغبة البقاء

ان بعضكم ليقاق احشاءه الجوع ساعة فما هو الا ان يساق اليه حيوان ساع نام فينقض عليه فيزهق روحه لينال منه ملء فمه الجائم يتركه جيفة لا حراك بها . وليت هذه الا كلة تغنيه عن الطعام بعدها، ولكنه يفعل ذلك كلما جاع ، ويجوع في اليوم مرات. افمن اجل شبع ساعة تسلبون حياةً هى كل ما يملك صاحبها من الوجود ؟؟ أليس هذا اقصى ما تنتهي اليه عبادة الغرض وتحكم الشراهة ؟؟

ولا يقولن متهكم منكم : لشد ما تغار اليمامة على تأييد فلسفة الرحمة بيننا ؟ افان خلقها الله نسرا او أسدا أيكون هذا رأيها وهذه غيرتها ؟؟ على انى اقول لهذا المتهكم : انا لا ادرى ماذا يصير من رأيي لو كنت خلقت نسرا أو سدا ولكن الذى أحققه الآن

وأؤكده انه لانسور الذرى ولا ليوث الشرى ينبغي لهاأن تترفع عن فلسفة الرحمة ، اذ ليس من قدير يئيس فيكم الا وثم من هو اقدر منه وأشد بأساً . وليس من غالب بالقوة اليوم الا وهو مغلوب بها غداً ، وهب القوة انتهت إلى أحدكم واجتمع له الحول والحيلة فهل أعطاه الدهر أماناً على نفسه أن لا تقهره الكثرة او المكيدة يوما فلا ترعى فيه عهدالاحسان ولا ذماما لحق ؟ وتذره ينادي العدل فلا يجده ، ويناشد قاهريه الذمة فلا تجده ؟؟ فاذا نسي الرحمة وهو قادر عليها فبأى وجه يذكرّ بها سواه وهو محتاج اليها ؟

أنا انما أدعوكم الى دين سواء بينكم يرضيكم جميعا ولا يظلم منكم أحداً . دين يحوطكم بحارس من العدل والحق ويرصد عليكم وازعاً من الواجب والضمير ، فان صدكم حارس العدل أو وازع الضمير مرة عن أعدائكم صدهم ألف مرة عنكم ، والعاقل من لم يغتر بيومه وتدبر عواقب أمره ، ولأن تسمعوا هـذا الهتاف مني أجمل بكم من أن تسمعوه من الضرورة القاسرة وأنتم بحكمها عالمون .

* * *

ولما سكتت اليامة كان وقع كلامها مختلفا بين خشوع وموافقة واستهجان وسخر وجمود . ولم تطل هذه الحال الا ريث ان وثب الثعلب قائلا : —

* * *

خطاب الثعلب

معشر الاحياء

أنا لا أجهل يا بنى أمى أن بينكم كثيرا يتهمونني بالخبث والخسة فان خطر لهؤلاء ان يشكوا فيما سأقوله الساعة فليفعلوا فانى لا أحاول تبرئة نفسى .

وعظتكم اليامة فأوصتكم بالضعفاء وقالت لكم ان الله بارك فى مخلوقاته الضعيفة ليحرم عليكم قتلها . أما أنا فأسلوبى فى الوعظ غير هذا الاسلوب وطريقتى فى المنطق خلاف هذه الطريقة . أنا أقول لكم ان الله لم يكثر من مخلوقاته الضعيفة الا بعد ان قدر على أكثرها الفناء في هذا المعترك العصيب . فان رغبتم فى المزيد فاسمعوا ما أقول :

ان شئتم ان تستقيم احوالكم ويهدأ بالكم ويعرف كل منكم مقداره فانبذوا من بينكم هذه الكلمات الفارغة : العدل والحق والواجب والضمير فانها أوهام يضيع الجهد وراءها هدراء، وعلالات تخدع أصحابها ولا ترد عنهم ضررا

فما دام في الدنيا القوى والضعيف وما دامت المساواة مستحيلة حتى بين الفردين من جنس واحد والاخوين من عائلة واحدة فلا عدل

وما دام الجهل يغطى على أبصار الجاهلين والخوف والضرورة تلجمان أفواه العارفين والامر يحسن اليوم ويقبح غدا فلا حق

وما دامت البرية تحيا بالاهواء وتموت طبائعها بموتها والغاية من الوجود مستورة عنا، والطبيعة لا تكشف لنا بواطنها القصوى فلا واجب

وما دام العدل مستحيلا والحق معدوما والواجب مجهولا فلا ضمير

فاطرحوا عنكم هذه الترهات التى ما أظن مخترع الغول والعنقاء والشيطان بأوسع من مخترعها خيالا أو بأقدر منه على تمثيل المعدوم وتصوير شيء من لاشيء

وأطلقوا القيود عن غرائزكم المستقرة فى فطرتكم فرى أفضل من هذه الفضائل التى لا ترجع من طبائع النفوس عاليها وسافلها الى أساس مكين

فأنتم تذمون الحسد وهو الحافز للكمال والمرغب فى المزيد وهل امتعاض الحى من ان يسبقه سابق الا صورة أخرى لبغض النقص وحب الكمال؟ وكيف كان الخلق يتزاحمون على التقدم ان كان أحدهم لا يسوءه ان يتقدم عليه سواه ولا يشعر من نفسه بالكراهة له؟؟ ولا أكثر ياقوم مما قيل فى ذم الحسد فلو كانت خلة من الخلال يستدل على شيوعها أو ندرتها بما يقال فيها مدحا أو ذما لكان الحسد حريًّا ان لا يوجد فى صدر مخلوق. لكنى أراه عميق المنبت فى الطباع. وما كان اجماعنا على مقته واخفائه لانه خلة ذميمة فى ذاتها بل لان اظهار الحسد فيه غضٌّ من قدر الحاسد واقرار بتفوق المحسود عليه. وان الخالق القدير أحكم من أن يودع هذه الصفة فى النفوس عبثا فلا بد لها من منافع ترجح بما فيها من المضار. وأقل ما يقال فيها انها تستفز الحاسد وتنبه المحسود الى الحرص على ما فى يده والازدياد منه خوف الشماتة

وأنتم تنكرون البغض وهو مسبار المقاومة وعنوان مناعة

الحوزة وسياج النفس من أعدائها . فمن لم يبغض عدوه لم يحبب نفسه ولم يحم حوزته ومن لم يحبب نفسه ويحم حوزته فهو جدير بالفناء

وأنتم تعافون النفاق والنفاق ديدن الطبيعة والتلون قانونها الذي لاتستحي منه . ولو لم يكن النفاق أصلا من أصول الطبيعة لما كانت جلود الحيوانات تتلون بألوان الاشياء التي تكتنفها لتخدع فريستها أو مفترسها . بل لما كان لكل مخلوق سر يضمره ويظهر للعالم خلافه ولما كان لكل أمة سياسة مجهولة وسياسة معلومة . وأعظم من هذا ان الوجود نفسه له وجهان وجه واضح ينكشف لاول وهلة ووجه غامض لاتراه الانظار مهما نقبت عنه وحدّقت فيه . ولست أنظر في هذا القول الى نتائج النفاق القريبة ولكني ناظر الى النتائج البعيده التي نجهلها نحن ولا يعلمها الا القدرة التي تسخرنا فيما تريد . فنحن نحب أحيانا أن نخدع غيرنا بلاسبب نعرفه وان نستر الحقيقة بلا موجب لكتمانها فلو كان مدار الامر على فائدتنا القريبة التي نعرفها ونسعى اليها لما أخفيت عنا حقيقتها ولكننا نفعل ذلك مسوقين مرغمين . وليس من شأننا معرفة أسباب ذلك النفاق وانما هو شأن تلك القدرة العالية وحدها

وأنتم تستنكفون من الملق والدهان فهلا ذكرتم ان من لم يعرف قدرته فهو الغبي الجاهل وأن من عرف قدرته فصادم بها من هم أعلى منه يدا فهو الطائش المغرور المستحق لجزاء الطائشين المغرورين ؟ وان من يتملق اليوم عدوه قد يتحكم به غدا ولكن من يعاند القادرين يموت فلا هوقضى اربه ولا هو ابقى على نفسه.؟؟

وأنتم تمقتون الكبرياء ومن لم يمقتها منكم مقتموه . وهذا وأيم الله من ظلم الضعفاء لان الكبرياء حق الكبير والادلال بالمقدرة مزية القادر على العاجز والقوي على الضعيف ، لو حرمناه اياها لظلمناه وجعلناه كالضعيف فلحقت القدرة بالعجز والقوة بالضعف ورغبت النفوس عن موضع الفاضل الى موضع المفضول وجنحت عن البطش والجبروت الى الضؤلة والاستكانة . ولعمرى ان تباهي العظيم بعظمته لامر طبيعى معقول ولكن الامر المستهجن المقبوح هو انفة الصغير من الاقرار بتفوق الكبير عليه فكأنه يريد أن لايحس الكبير بكبره ، لا لشيء إلا انه يحس بصغره ازاءه . وهذا عين الظلم والافتئات (تصفيق من جانب الاسد)

وأنتم تحنقون على الانانية ولولا الانانية لكنتم الآن فى خبر كان ولا نقرض الاحياء وفاز الموت على الحياة فى هذه الارض .

ان الخالق لم يودع الحياة في نفوسنا لنبغضها ونخذل من حبها وننضوها عنا لأول من يطلبها منا . كلا بل أودعت فينا الحياة لنفتتن بها ونتفانى في حفظها ونحتجن اليها كل ما حولها ونطبع صورتها على البعيد والقريب منا . والظافر الظافر من غلبت أنانيته على كل أنانية وانطبع أثره على كل موجود . فان الوجود لا يقوم بقولي أن غيري احق بالخير مني بل هو قائم باعتقاد كلٍ انه أحق بالخير من الخلق قاطبة . ومتى أصبح كل حي ينبذ عنه الحياة لياخذها غيره فمن هو اذن الذي يعيش ويحيا ؟؟ وعلى اننا لو فرضنا على المخلوقات ان تخلى عن الخير لغيرها ، فما هي في الواقع الا أنانية مقلوبة تمشي على رأسها وكأننا جعلنا كل مخلوق ينتظر الخير من غيره لنفسه . فأي شيء صنعنا ؟؟ وماذا غيّرنا من طبيعة الانانية ؟؟

وأنتم تتذمرون من القسوة والاعتداء لانكم متشبثون بحياتكم ولو أنصفتم القاسي المعتدي لعرفتم عذره ، فانه هو أيضا يحب أن يحيا كما ينبغي لمثله . ولئن كان خوف القسوة والاعتداء من لوازم الحياة عند الضعفاء فلا حياة الابهما عند الفاتك الصؤل . وان الذي جعله قادرا على الفتك بغيره هو الذي أمره بالفتك به وخوّله ذلك حقا لامنازع فيه . وما قتل المرهّق المغلوب الا الذي وهبه الحياة وأعجزه

عن رد عادية المعتدين

وأنتم تشمئزون من السرقة ولكنكم تعظمون الاغتيال . اذا تسور لص فى ظلام الليل بيتا فأمسكتموه على هذه الحالة فضحتموه وشهرتم به . فكأنكم لم تحقروه الا لاعتقاده أنه يأتى عملا حقيرا يجب اخفاؤه — فاذا سرق فرد أمة أكبرتم دهاءه وأجللتم حيلته وذكاءه . واذا سطا رجل على شعب سجدتم لهيبته وعسجدتم باذياله فكأنكم لا تستطيعون أن تحتقروا الا من يبالى باحتقاركم واحترامكم وأما من يحتقركم ويستعبدكم فأنتم وأموالكم طوع يديه ورهن أمره . ولست ألومكم على ذلك فهذا هو الحق عندى اذ من شأن الحقير أن يشعر بحقارة كل عمل يأتيه لانه لا يحق له احراز ما عنده بله السلبَ من غيره . وأما العاتى المتجبر فليس يصدر منه عمل حقير اذ من شأنه ان يأمر ويتغلب على من لا يستطيع رد أمره والتغلب عليه فهو لا يشعر بخجل من انتهاب غيره بل يدع المنهوب يخجل من نفسه ويتوارى عن الانظار . أما هو فيرفع رأسه ويشمخ بأنفه على الراضين والمنكرين بلا حياء ولا مبالاة . وانكم ما اتفقتم على ان يكون لكل منكم مِلكُه لا يعدو عليه أحد ولا يشاركه فيه غاصب إلا لانكم وجدتم فى ذلك مصلحتكم . فما هي حجتكم

على من لا يجد مصلحته فى قبول هذه الشريعة ؟ أو على الذين يرون انكم ظلمتموهم بسماحكم للذين هم أقل منهم استحقاقا وأحط فكرا بان يكونوا أوفر منهم حظا وأجل قدرا ؟؟ أما والله ان العدل ليقضى بان لا تلزموهم شريعتكم وتتركوهم يدينون بما يرون فيه مصلحتهم. ولكنكم لا تقضون بالعدل بل تقضون بالغلبة . أنتم تجبرونهم على الاذعان لشريعتكم لانكم أكثر منهم عددا لالانهم يتمسكون بمبدأ فى التماس الرزق والقوة يخالف مبدأكم . فما من حجة لكم أو لهم الا المصلحة دون سواها

وأنتم تستقبحون الغدر فهل قام أمر خطير قط بغير غدر ؟؟ ومن كان يطمح الى المراتب التي يكثر حولها الطلاب وتتقطع دونها الرقاب ويقف الخلق للطامح اليها بين منافس وحاسد ومتزلف وكاره فكيف يجرأ على اظهار ما يضمر والوفاء بجميع ما يعد ؟؟ ومن كان يرغب في التسلط على الخلق بما فيهم من المحاسن والخبائث فكيف يلتفت الي محاسنهم وحدها ويغفل عن خبائثهم فلا يعبأ بها ؟؟ أليس هذا من الحمق والغفلة ؟؟ سلوا الشيوخ وذوى التجارب الذين طال تمرسهم بالاهوال والمصائب وحفيت أقدامهم سعيا وراء الآمال والرغائب : كم غدروا ونكثوا وظلموا وكذبوا مكرهين

أو طائعين لاحل أما صغير أو خوفا من ضرر يسير . فما بالكم بمن يتصدى لاعظم الأوطار ويتعرض لاهول الاخطار؟؟ ولا اقصر القول على الشيوخ لان الشبان لا يغدرون ولا ينكثون ولا يظلمون ولا يكذبون بل لان هؤلاء يأتون وهم جاهلون ما يفعلون . وهم يسمون الاشياء بغير اسمائها ويأتون الامور من غير أبوابها . فان كان فيهم من هم أطهر من الشيوخ قلبا وأصدق لسانا فذلك لانهم لم يخوضوا غمرات الدنيا ولم يتجرعوا مراراتها ولم يطأطئوا رؤسهم لضروراتها التى لا تقبل عذرا ولا تسمع للضمائر والاخلاق صوتا . ولو علموا كما يعلم الشيوخ انهم قلما يقدمون على عمل الا وهم بين ضرورتين أو اكثر لكان الشبان كالشيوخ والشيوخ كالشبان

وأنتم تقولون لاتخن من ائتمنك فليت شعري ان كانت لك لبانة لازبة أتقضيها ممن يوجس منك ويستعد لغدرك أم ممن يطمئن اليك ويثق بك !

وأنتم تزدرون من لا غيرة له ولا حمية عنده لعرضه . وكان من لامزفيكم يهمس: هذا فلان العظيم كان يعلم عن زوجه ما يكره وكان يتغاضى عن الشبهة وإن كانت لتفقأ عينه طمعا فى مسعدة

أو اتقاء لمناوأة فهو نذل يدنس العظمة ويلوث الرآسه ... رويدكم أيها الساده !! هلا قلتم ان شغفه بالمجد أكبر من شغفه بزوجه وأنه أشد على المجد غيرة منه على امرأة؟ وهلا عرفتم أن البصقة تلوث الكوب . ولكن الف جيفة لا تلوث البحر المتموج اليعبوب؟؟ وزعمتم انه نذل مزدري فهلا قلتم انه يزدرى العالم حين يترفع عن حكامه ومصطلحاته ويستجهل الدنيا حيث يراها تعبد المجد ثم لا تأنف ان تضع مفاتيحه بعض أحيان في يد السفاسف والشهوات ؟؟

وكم ذا أفصل لكم أيها الاحياء ما أنتم مليئون بعلمه لو انتبهتم اليه . ألا فاعلموا ياأخوتي ان الحسد والبغض والنفاق والملق والكبرياء والانانية والقسوة والسرقة والغدر والخيانة والتغاضي عن العورات الصق بكم وأقرب الى طباعكم وأجدى لكم من العدل والحق والواجب والضمير . فهلموا بنا نقذف بهذه الاوهام في عرض اليم ولا تأخذ لكم باليم رحمة ، فيطلق القوي يده غير حاسب حسابا ولا متوقع عتابا أوعقابا . ويخلد الضعيف الى ضعفه فيرضى بالخسف ولا يشكو من العسف متعللا بالعدل الذي لا يسمع نداء الضعفاء ، والحق الذى لا يقوي على كبح جماح الاهواء ، متعلقا بالواجب

الاعمى والضمير الموسوس ، فالنفس اذا علمت أنْ لا مفر لهـا ممـا يصيبها وان الاقوياء لا يتجاوزون حقهم ولا يخرجون عن حدهم فى عدوانهم عليها وانه لا مهرب لهـا من هؤلاء الاقوياء الا الى قوة مثل قوتهم لا قبل لها بخلقها ، هان عليها احتمال بلائها وصبرت على بغى ظالمها — فاسـمعوا أيها الاقوياء : هذه حقوقكم ومزايا كم واسمعوا أيها الضعفاء : هـذه علالتكم وسلوا كم . وآمنوا ان كنتم تعقلون

*
* *

ولما فرغ الثعلب من خطابه بهت الجمع فوجموا ساعة لا ينطقون لفرط ما بدهتهم أراؤه المرعبة فلما ثابوا الى أنفسهم ضجوا وصخبوا فملا التصفيق من جانب والصفير من جانب وكادت تكون فتنـة ولبثوا كذلك فى اختـلاط ولجب حتى هـدأت ثائرتهم فسمعوا القرد يقهقـه قهقهة عاليـة ويقول : لله درك يا ثمالة ! ما أدهاك فى ضراحتك وأعظم كيدك فى نصحك وأشد محاباتك وتدليسك فى اخلاصك . لقليل والله عليك أن يجزيك أبو الحارث على هـذه الخطبة البليغة بقفص من الدجاج !! وتوجه الى الجمع وهو يقول : لعلكم تضحكون من تصدىّ للثعلب وتولىّ الرد عليه والذب عن

الفضيلة فاضحكوا ما بدا لكم فما هي بأولى مضحكاتي وما أنتم عن الضحك بممسكين . ثم ظهر عليه الجد وتهيأ لالقاء خطاب طويل جليل فقال :

* * *

خطاب القرد

معشر الاحياء

ليس بأهل لعظيم من الحظ ولا يسير من لم يكن عنده من صدق العزيمة وحسن البصيرة ما يلهمه شراء الآجل الكبير بالعاجل اليسير .

ألا وإن الحياة معشر الاحياء لا تسلم لمن طلب الحياة فحسب ، ولكن من طلب غاية فوقها سلمت له الحياة وسلم له ما فوق الحياة

ومن تمسك بالقوة وحدها أضاع القوة وتدلى الى الضعف . وأما من تطلع الى أعلى منها فذلك الذي تدين له القوة ويدين له ما هو أعلى من القوة

كذلك ياقوم من قنع بالكفاف عز عليه الكفاف ومن طمع في الغنى ينال الكفاف وينال الغنى

فاذا علمتم هذا فاعلموا أن العدل والحق والواجب والضمير لو كانت مجهولة لوجب اختراعها ، ولو كانت أوهاما مخترعة لوجب اتباعها ، لان العدل فوق المصلحة والحق فوق القوة والواجب فوق الهوى والضمير فوق الشريعة . فإما أردنا أن نظفر بالمصلحة ونتصرف بالقوة ونتمتع بالهوى ونصون الشريعة فعلينا بما فوقها . علينا بالعدل والحق والواجب والضمير

أنا لا أنهج أيها السادة نهج المجادلين فأتتبع كل كلمة قالها الثعلب بالتفنيد وأبطل كل حجة أتى بها وأدحض كل رأى ندب اليه كأن الحق لا يقوم بين اثنين الا اذا كان أحدهما مصيبا لا موضع عنده للخطأ أو مخطئا لا موضع عنده للصواب . فقد أرى الصواب في كثير مما قال الثعلب وأوافقه على معظم مقدماته بل على ظاهرها كله . ولكني أراه عرف شيئا وغابت عنه أشياء . وربما نظرت مثله الى العالم فألفيته طافحا بالشر مكتظا بالرذيلة حتى اذا نظرت الى النتائج البعيدة والغايات الابدية احتجب الشر عني فلا أرى الا خيرا محضا

فأما ان القوة عماد الحياة وأساس الحق وبغية كل نفس وأنه

يحل لها ما لا يحل لغيرها ويُدرك بالجور والغدر أحيانا ما لا يدرك بالعدل والوفاء فهذا صحيح لا ريب فيه . ولكن أية قوة ؟؟ والى أى حد ؟؟

ليست القوة ضربا واحدا ولكنها قوتان : قوة السيل الجارف العرم تجتاح السدود وتدمّر الصروح وتهلك الحرث والنسل وتطغى على العامر فتخربه وعلى الغامر فلا تُعمّره ثم تسيح على وجه الرمال فتذهب جفاء وينتهى بذلك أمرها كأن لم تكن شيئا مذكورا. وهذه قوة الخراب

وقوة الينبوع العذب المتفجر الفياض تنسرب فى مجاريها فتسرى سريان الدم فى العروق فتروي العطاش وتصلح الموات وتنبت على ضفافها الخيرات وتنشأ فوقها المدن الآهلة فيها سكن للناس ومستراد ، والمروج الناضرة فيها مسرة للناظرين ورزق للعباد — وهذه قوة العمار

القوة قوتان — قوة البخار الهائم تعمى الابصار هبوته ، وتلفح الوجوه وقدته ، وتتبدد فى الهواء حركته ، ثم يّمحى أثره وتغيب عن الابصار صورته — وهذه القوة الطائشة

وقوة البخار المضطرب فى المراجل يسيّر الجبال ويضاعف

ثمرات الاعمال ويصل الغرب بالشرق والجنوب بالشمال ، ينهض عما لا تنهض به الالوف المؤلفة من السواعد والمعاول ويقضي فى ساعة ما لم يكن يقضى فى الدهر المتطاول — وهذه القوة الحكيمة

القوة قوتان — قوة الطاغية المشؤوم ، جبارا عنيدا وقهارا مريدا ، يسوق الصفوف اللجبة تصخب بالحياة فاذا هى جثث يحوم عليها الحمام ، ويطرق المدائن الفخمة فما هى الا لمحة فاذا هى آكام على آكام وركام من فوقه ركام . ثم يقف فوق الاشلاء الممزقة والكواهل المرهقه يعجب بما بلغت اليه قدرته على الخراب والارهاب ، ويختال بما أوتيه من سطوة التنكيل والعذاب — وهذه قوة الهمجية

وقوة الجواد الغيور يرى المساكين يدلحون بالعبء فيسره انه قادر على رفعه ، ويبصر الضعفاء يئنون من الظلم فيطربه انه زعيم بدفعه . وينظر العتل الجهول شامخا بانفه فيلذ له ان يطأه بقدمه ، ويسمع دلال المحامد ينادى عليها فى سوق الفخار فيشتريها بلحمه ودمه ، ويقصده الناس فيرى انهم أقروا له بنهاية القدرة ساعة عرفوه بحاجتهم اليه ، ووفوه أجره حين مدوا أيديهم مستعينين به . ثم يقف بين غرس أياديه وثمار مساعيه فيستروح من شكر الناس

له غبطة لايستروح مثلها ذلك القتل من خشيتهم اياه ـ وهذه قوة المدنية

فيامن يعبد القوة أى القوتين أحق بالسيادة وأولى من الخلق بالعبادة ؟؟

لقد مضى زمانٌ كانت فيه القوة كلها من الضرب الاول : قوة خراب طائشة همجية . كان ذلك وركب العالم فى أولى مراحله، فلما تقدم الركب اصطبغت القوة بصبغة أخرى أبقي لها وللعالم من صبغتها الاولى واستقامت الفطر على هذه الوجهة دهورا وأجيالا بأمر الطبيعة أم القوتين الطائشة والسديدة لا بامر عامل فضولى من خارجها، لان هـذا العامل الفضولى غير موجود . بيد أنه كما ينثلم المجرى أو يعوقه عائق فيتدفع الينبوع الراوى سيلا جارفا ، وكما ينشعب المرجل فينطلق البخار المحرك دخانا عاصفا ، كذلك تفسد الطبائع فتنقلب قوة العظيم بلاء على قومه ووبالا لبنى جنسه فيقال لها حينئذ قوة مُدبرة من المدنية الى الهمجية وتعد نكسة فى الخلق واعجوبة نصفها بشرى ونصفها حيواني وحشي . وهذه هي قوة الغشمة الطامعين الذين لا يبالون شيئا فى جانب قضاء أوطارهم واظهار أنانيتهم . وان شئتم برهانا على أن العمل بالقوة فحسبُ

هو خلل فى الطبع ورجوع الى حال خلّفها الانسان وراءه ليتبدل حالا خيرا منها ، فانظروا أى الناس يظهر فيهم حب التدمير ، ويغلب عليهم العمل بالقوة منفردة عن الضمير . أليسوا هم الطفل والهمجى والمجنون ؟؟ فانظروا فى أى مرحلة من مراحل الخلق هؤلاء الثلاثة : ـ فأما الطفل فهو فى أول عهده بالحياة الفطرية ، وأما الهمجى فهو فى أول عهده بالحياة الاجتماعية ، وأما المجنون فهو مدنى سلبت منه المدنية فارتد الى الهمجية أو الوحشية . اذ ليس الجنون الا نوعا من المسخ والرجعة . واذا شاهدتم دور المجانين رأيتم فيها من يمشى على أربع تقليدا للدواب ، ومن سلبت منه قوة النطق فأصبح يعوي عواء الذئاب ويحاول الكلام كمن لم يعرف النطق قط ، ومن يأكل لحم أخيه حيا كما ينهش السبُع فريسته ، ورأيتم امارات الوحشية بادية فى ملامحهم ونظراتهم واشاراتهم فعلمتم أى مسافة بين القوة والضمير وهالتكم هذه الهوة التى يريد الثعلب أن يسقط الخلق عامة فيها

أرأيتم أيها الصحاب لو بقيت كل قوة فى الارض والسماء فوضى على نشأتها الاولى . أين كانت تكون الآن الكواكب الساطعة والانهار الجارية والصناعات المعجزة والائمة المصلحون ؟؟

ولو أن الثعلب ألقى خطبته هذه فى مستهل الخليقة وفجر الحياة لدنـ ، كانت كل قوة حربا على نفسها وعلى غيرها وكان كل ضعيف قائما وحده عزلا أمام الاقوياء ، لما عدا الواقع ولا قال غير الحق أما والقوة قد هجمت فى الف ناحية قبل أن تنتهي الينا وحاولت كل محاولة تستطيعها قبل أن تحل بنا ، وعرفت جهد ما تقدر عليه اذا انفردت بنفسها وقصارى ما تبلغ اليه اذا أعلنت حكمها باسمها . فاليوم قد اضطرت ان تلقى مقادتها لشيء أكبر منها وخرجت من تلك التجارب مهذبة مستقيمة — ويا للعجب ياقوم ؟؟ ان الذى هذب القوة وأبطل حكمها الاعمى هو القوة لا سواها ......

أقول يا للعجب ولا عجب هنالك لو أنعمتم النظر معى فى الامر . فان القوة ما عرفت الحق الا بعد أن أذعنت لقوة أكبر منها فكأنها نقضت شريعة القوة من جهة لتؤيدها من جهة أخرى ، فا ظلمها الحق ولا غلب عليها الضعف ولكنه نظم صفوفها وحمى الكبير والصغير منها فحفظها من التخاذل والضياع

معشر الاحياء

كان باول قوى عرف نفسه فاعتز بسطوته وأعجبته قدرته

وأقبل يهز سيفه على رأس الضعيف ويقول له : انك أضعف منى فاصدع بأمرى وألحق وجودك بوجودى وسلمنى زمامك واعمل لى لا لنفسك والا أبدتك وهشمتك وجعلتك ترابا لقدمي . فرعب المسكين مما سمع وتلفت الضعفاء بعضهم الى بعض وقد علموا بعد حين انهم مقصودون بهذا الوعيد فردا فردا فأجلبوا وتألبوا وصاروا باجتماعهم أقوى من أقوى الاقوياء فكرّوا الى ذلك المتمرد الجبار قائلين : انك أضعف منا فاصدع بأمرنا وألحق وجودك بوجودنا وسلمنا زمامك واعمل لنا لا لنفسك . فان أطعت أطعنا ، وانتفعت بقوتك وانتفعنا . وان أبيت أبدناك وهشمناك وجعلناك ترابا لاقدامنا. فعلم القوى منذ ذلك الحين أن عليه واجبا كما أن له حقا . وكذلك نجم الحق بجانب القوة

لاتقولوا ياقوم : حسدوه . فليس من الحسد أن يرفع القتيل يد القاتل عن عنقه

ولا تقولوا : ظلموه فما ظلمك من ردك الى الحكم الذى ترده أنت اليه . ولا جار عليك من يعاملك بالقسطاس الذى تعامله به

ولا تقولوا : أخطأوا وضلوا فان ما تفعله النفوس بداهة

بوحي الطبائع والهام الحياة ذودا عن كيانها وابقاء لجنسها واعلاء لشأنها لا يكون خطأ أوضلالا . ولو جاز ذلك لكان الخطأ أصدق من الصواب والضلال أفضل من الهدى

معشر الاحياء

ان كان فى الدنيا شيء معصوم عن الخطأ فهو الفطرة السليمة لانها لا تريد الا ما تريده الطبيعة ولا تهم إلا بما تهم به القدرة العظيمة التى ركبتها ودعتها الى الوجود

سموا حنق الجماهير على العظماء كيف شئتم فانا لا نعبأ بالاسماء سموه حسدا أو انانية أو اضطهادا أو انتقاما أو غيرة أو جهلا . سموه كيف شئتم ولكن انظروا الى الباعث وانظروا الى النتيجة . فان كان الباعث مستمدا من الطبع والنتيجة حفظ النوع فغيروا لغتكم فهو أيسر وأجدى من تغيير قوانين الطبيعة وارادة الخالق الحكيم

انظروا الى الامم التي سادت فيها فلسفة الثعلب فنسى الجماهير أنفسهم وأقروا للاقوياء بالحق المطلق فى التصرف بهم ثم اخبرونى هل أفلحت تلكم الامم ؟؟

انظروا الى الهند ومصر فى العهد القديم ، ألم يكن السوقة

دجزا لايجوز مسه فى نظر رؤس البراهمة ؟؟ ألم يكن الشعب متاعا زهيدا فى نظر كهنة الفراعنة ؟؟ أما كان ساداتهم آلهة وأبناء آلهة؟؟ هل تأشب بين الطبقات حجاب أصفق وأصلب مما تأشب بينها فى هذين البلدين . فماذا أورثهم ذلك ؟ هل دام على أولئك السادة بأسهم واستتب لهم مدى الدهر مجدهم ؟ كلا بل أمن الاعلياء على منازلهم فأفسدهم البطر والدعة فسفلوا . وحجرت المسكنة على نفوس جماهيرهم فلم ينبغ منهم خلف لاولئك الاعلياء فتهافتوا . فكانوا جميعا من الخاسرين

والعالم وفقكم الله كالقدر الفائرة لا تزال تعلو وتهبط ما دام فى مائها حرارة . فاذا نحن ادّخرنا أعلاها وأرقنا ما دونه نفد الماء فلم ندخر شيئا . واذا هى هدأ ماؤها واستقرت طباقها دل ذلك على فتور الحرارة وخفوت الحركة . والجماهير أصلحكم الله هم من كل نوع مادته وذخيرته . منها تجدد حياته ويكمل نقصه . فاذا قضينا عليهم بالهوان الدائم فقد قضينا على النوع باسره قضاء يحيط ضرره بالاعلين والادنين على السواء

فها أنتم أولاء ترون ان التسليم للقوة يهزمها ويضعفها وأن مقاومتها تشحذ سلاحها وتضاعفها . فان كانت رحمة القوى للضعيف

فرحمة الضعيف للقوى منازعته ، وكذلك تشمل رحمة ربكم الخلق جميعا

ولقد يقول قائل منكم : أن المقاومة شأن الجماهير مع كل عظمة فهم يناوئون العظيم سواء كان جبارا طاغيا أو اماما هاديا أو مفكرا واعيا ، فان لم يقدروا على مناوأته أضمروا له الحقد وانطووا له على البغض وتربصوا به الدوائر كأنّ لهم ترة عنده أو كأنه أخذ العظمة منهم وأساء اليهم بالتفوق عليهم

أقول لهذا القائل أصبت ونعم ما يصنع الجماهير !

انكم تكرهون مناوأة الجماهير للعظماء مع أنه لا تثبت لعظيم عظمة الا بالثبات على المناوأة . وتلومون الجماهير فى التريث عن تلبيه النوابغ كأنهم يستطيعون أن يغيروا أنفسهم كلما خطر لنابغ منهم أن يدعوهم الى ذلك . وهم فى الحقيقة لا يتريثون عن أمر يدعوهم اليه نابغ أو مسيطر الا لاحد سببين . فاما انه لا يلائمهم أو أن اسبابه لا تتهيأ لهم . وعذرهم واضح فى الحالتين . أليس الخيرُ قبل أن تتهيأ أسبابه وتتمهد مواضعه شرا عاجلا أو مطلبا مستحيلا ؟؟ ولو أنصفتم الجماهير لرأيتم فى تباطئهم عن اجابة نداء النوابغ دليلا على أن الوقت لم يحن بعدُ لاجابته . فكم من عظيم يرى ما لا يروقه

من أحوال العالم فيخاله عيبا وما العيب الا فى تفكيره ، ويتعجل اصلاحه ثم يحسب اصرار الناس عليه جهلا وما الجهل الا فى تعجله . ويظن ان ما يدعو اليه من بداءة العقول ، وما بديهة الفرد مهما عظم بأصدق من بداءه النوع برمته . فهو اذا أصاب أصابه من جانب واحد وهم اذا أصابوا أصابوا من كل جانب . وهم لا يعرفون جانب الصواب منه الا اذا ناوأوه فاذا ثبت أخذوا به وان لم يثبت فقد كان الضرر فى الاخذ به لا فى نبذه واهماله — هذا هو محك العظمة ولا محك سواه — على انى لا أقول للعظماء كفوا عن دعوة الجماهير . بل أقول لهم ادعوهم الى ما تظنونه صلاحا لهم ، ثم أقول للجماهير قاوموهم حتى يثبت لكم انهم أهل لغير المقاومة منكم . فمن هذا وذاك يصيب العظماء الاجلال من الجماهير ويصيب الجماهير النفع من العظماء . ولولا ذاك لاشتبهت علينا الظواهر فخلطنا بين الجليل والحقير والنافع والضار والباقى والزائل

كذلك ياقوم يصطدم الشر بالشر فيتجلى الخير ، ويلتحم الباطل بالباطل فيتضح الحق ، وتتزن القوة بالقوة فيظهر العدل ، والخير والحق والعدل لا تقوم بغير واجب . والواجب ابو الضمير

معشر الاحياء

سمعتم من الثعلب ان مبادىء الخير اوهام ملفقة مخترعها اوسع خيالا من مخترع الغول والعنقاء والشيطان . فيا لتلك القريحة الهائلة !! لوددت ان الحياة تحب عقلا فذا يقدر على اختراع العدل والحق والواجب والضمير فنفديه بنصف الاحياء !! أويقدر انسان واحد على ان يستعرض امامه ميادين العصور المقبلة قبل ان يماط عنها ستار الغيب فيرى كيف تصطرع فيها القوى وكيف يراوغ بعضها بعضا ، ويقتفى خططها الموجّهة الى اقصاها ثم يتنبأ عن الخطط القوية التي ستُضطر الى اتخاذها فيصورها اصدق تصوير في مبادىء خالدة . مبادىء فوق ما تصف الاهواء المختلفة وتزّن المصالح المتناقضة . مبادىء تصلح للنوع والفرد والقوى والضعيف والسر والعلن والحاضر والمستقبل . ايقدر على كل هذا انسان ؟؟ ما هذا بشرا انْ هذا الا إله قدير

ولكن انصار الشر قد اعتادوا ياقوم ان يصفوا انفسهم بالدهاء والحزم ويصفوا انصار الخير بالغرارة والتفريط . وسبب هذا الاغترار بأنفسهم انهم ينظرون وراء الفاظ الخير والفضيلة والذمة وما يشبهها كلها فلا يرون الا الكفاح والخديعة والظلم والغيلة

فيحسبون انهم عرفوا ما لم يعرفه أحد من قبلهم ويعجبون لدعاة الخير كيف تعمى عيونهم عن هذه الشرور الملموسة والظلم الواضح ، فيقولون عنهم انهم تُبّاع خيالات وعشاق أحلام . هذا ودعاة الخير يضحكون من قصر نظرهم مع ادعائهم بعد النظر ويقولون لهم انظروا وراء الكفاح والخديعة والظلم والغيلة هل ترون الا غرضاً واحداً عميماً يشمل هذه الاغراض ويدمجها في أطوائه ؟؟ فقد يظفر الأشرار بالأخيار وقد يموت الاخيار قبل أن يظفروا بخصومهم لقصر الحياة واتساع مجال النضال . ولكن الخير يتغلب على الشر في نهاية الامر ، وهو يمهله ويملي له املاء الواثق المطمئن الى سلطانه — الاخيار يموتون ولكن الخير لا يموت والاشرار قد ينتصرون ولكن الشر لا ينتصر — فالنظرة الاولى أيها القوم للخير والثانية للشر ولكن النظرة الثالثة تردنا الى خير لا كالخير الأول الذي يظهر على وجوه الاشياء بل هو خير واسع شامل بعيد القرار

يقول السيد المسيح : « مثل ملكوت السموات رجل زرع في أرضه حنطة ، وبينما الناس نيام دب اليه بعض عدوه فدس الزوان في بذور الحنطة ، فلما اعتمّ النبت وأخرج شطأه ظهر الزوان معه . وجاء العبيد مولاهم يقولون : أولست أيها السيد قد زرعت

حبا صالحا فى أرضك؟؟ فن أين له الزوان . قالوا أنذهب فنجمعه ؟؟ قال لا !! لئلا تقتلعوا الحنطة معه وأنتم تجمعونه . ولكن تصبرون حتى يحين الحصاد فآمر الحصادين أن يجمعوا الزوان فيطرحوا به فى النار ثم يضموا الحنطة الى البيدر »

فالانبياء وهم أوسع دعاة الخير بصيرة وأعمقهم نفسا وأبعدهم بديهة لا يزعمون وهم يدعون الناس الى الخير ويأمرونهم بالبر أنهم سيمحون الشر ويقتلعونه من جذوره . ولم يجهلوا أن الخير بالشر مختلط اختلاطا لا سبيل الى فصله وفرزه ، ولكنهم حببوا الناس في العمل الصالح لان الناس لا يحتاجون الى من يحثهم على العمل القبيح وقالوا لهم : لا تنسوا غيركم لانهم فى غنى عمن يقول لهم : اذكروا أنفسكم ولينطلق كل منكم وراء مصلحته ولو صغرت لا يبالى أدركها قاتلا أوسارقا أوخائنا فذلك خير له من أن تفوته بحال من الاحوال . فهل يلامون على ذلك أو يقال انهم غفلوا عن الشر الملموس ؟؟ أم يلام لائموهم ويقال أن هؤلاء الدعاة العلويين لمسوا الشر البعيد الذى خفى عن أعين أولئك اللائمين ؟؟

انما عمل الانبياء على تغليب بواعث الخير على بواعث الشر . ولتعلموا أن الانبياء لم يرسلوا الى فلان وفلان ولكنهم مرسلون

الى الناس أجمعين فلا جرم ينصحونهم بما فيه صلاحهم جميعا . وما اجتهد الانبياء قط فى ازالة الشر ولكنهم أنذروا الشرير بعاقبته وعلموه كيف يتجنبها ، وبشروا البار بجزائه وعلموه كيف يسعى له . وعلموا انهم سيموتون والشر والخير باقيان الى يوم يبعثون . وأحسبهم لو استطاعوا ازالة الشر لما أزالوه لاننا لا نكاد نتصور الخير فى الدنيا ان لم نتصور الشر بجانبه ، ولعله لا فرق بين القضاء بالموت على الناس وبين تفرّد الخير بالسلطان عليهم من غيرما مغالبة أو مجاذبة أو ترقب نصر أو خشية خذلان

وبحسب الخير أنه منذ اهتدى اليه الناس تراجعت القوة وتمردت النفوس على شريعتها فأصبح أقوى الاقوياء لا يجرأ على الاعتداء والجور باسم القوة العمياء، إلاّ أن يتمحل لها المعاذير ويتذرع لها بسبب من الحق والعدل . فبطل القول القديم : اعمل ما تستطيع ، وخلفه القول الجديد : اعمل ما يحق لك عمله . وعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به

ولست أعنى ان القوة العمياء قد خضعت للحق كل الخضوع ودانت له فى الصغائر والكبائر . فهذا ما لا يدعيه الحق وما ينبغى للحق أن يدعى ما ليس له . ولكن عنيت أن الناس لا يسلمون

اليوم بظلمها وان اضطروا الى الخضوع لها ولا تقتنع ضمائرهم بشريعتها وان لم تكن لهم حيلة في تبديلها. وياضيعة العالم ان سلموا، وياسوء المنقلب ان اقتنعوا . فليس وراء ذلك الا أن يسترخي الاقوياء فيفقدوا العزيمة والمضاء، وينزل الضعفاء عن الحياة بنزولهم عن الرجاء فتنهدم القوة الحافزة المجددة بين هؤلاء وهؤلاء، وينهار سلم النشوء والارتقاء الي حضيض الموت والفناء

فاذكروا ياقوم - أقوياءكم وضعفاءكم - ان التسليم للقوة الغاشمة يفسد القوى منكم والضعيف، وانه لاشيء يُشرّف التسليم له الاقوياء كما يشرف الضعفاء الا الحق . فاجعلوه لكم قبلة واماما . واتخذوه لكم صاحبا وازاما

واذكروا أن العالم لم يسلك طريق هذه الآداب وله ندحة عن سلوكها ولم يلجأ اليها وفي وسعه الاستغناء عنها لان الطبيعة لا تملك الخيار بين طريقين وليس لها الا طريق واحدة هي أهدى الطرق وأقربها بل هي الطريق التى لا طريق سواها . فان قال لكم أنصار الشر : نحن لا ننظر إلا الوقع فقولوا لهم : هذا هو الواقع امامكم فما لكم لا تنظرون

ولقد خصصت الانسان بأكثر كلامي، فلا يعتب على عاتب

فانكم لاتنكرون أن الانسان سيد المخلوقات وان الصراع بين القوة والحق لايظهر فى حياة جنس من الاجناس ظهوره فى الحياة الانسانية وأنا أقرب الخلق اليه وأعرفهم به وأعلاهم رتبة بعده ..

....

فلم يمهله النمر حتى يتم كلامه ورفع يده ليهوى بها عليه فتعلق القرد بأطراف الشجر وترك النمر الهائج يهدر ويزمجر حتى وقف الاسد فهابه النمر واصغى اليه الجمع وليس أعجب لديهم من قوة النمر الشرس الأغم إلا عجز القرد الفيلسوف عن دفعه

وقف الاسد موقف الخطيب والقى على الجمع الخطبة التالية : —

خطاب الاسد

معشر الاحياء

ربما انتظر بعضكم مني أن أتقدم الى الترجيح بين حزب وحزب من المتكلمين بين أيديكم — أنا لا أعني بذلك وما نويت التعرض له حين وقفت للكلام . وليس كلامي الذي سألقيه عليكم يتوقف على رجحان واحد من الحزبين على الآخر . فسواء صح قول الثعلبة ان العبرة بالنجح لا بكيفيته ، أو صح قول القرد ان الحق ظافر بالباطل ولو بعد انهزامه ، فأول الواجبات عندي على الحي أن يكون قويا وآخر الواجبات عندي على الحي ان يكون قويا ، فانه لا ظفر لحق او لباطل إلا بقوة

وهما حالتان لا بد للحي من احداهما في هذه الدنيا : القوة والضعف . ولئن خيرت بينهما لاختارن أن اكون قويا ظالما ولا ضعيفا مظلوما . بل اني لأوثر أن أكون قويا مظلوما ولا ضعيفا ظالما، لأن القوة رائعة حتى في انخذالها والضعف مخز حتى في انتصاره

ولقد أذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان الطبيعة نفسها تحب

الظلم وتقلد الظالمين آلاته وأسلحته ، ولولا ذلك لما كانت حيوانات الفتك والافتراس وان صغرت ، أشد وأجرأ من آكلات العشب وان كبرت . وهاكم اخواتنا الفيل والزرافة والجمل فانها مع جسامة أبدانها وصلابة أركانها لا بطش عندها تفزع به أعداءها ولا انفة لها تنحيها عن اعطاء مقادتها لاصغر طفل من بنى آدم . ولم ذلك ؟؟ لانها تتغذى بالنبات ولا تأكل من لحوم الحيوانات . فكان الطبيعة لا تهب الحيوان البطش والشجاعة الا للاعتداء بهما . فان لم تكن به حاجة الى السطو وازهاق الارواح سلخت عنه البطش وجردته من الشجاعة . فان بقى له بعدهما قوة فتلك قوة الصبر على البلاء لا قوة العزم على الاعتداء . قوة تحتمل الضيم من القاهرين . ولكنها لا تقدر على قهر أحد

فيا معشر الاحياء : عليكم بالقوة لا تنيطوا لكم أملا بغيرها ـ عليكم بقوة الاتحاد ان تخطتكم القوة في الانفراد ، وعليكم بقوة الحيلة ان أعيتكم قوة الاتحاد . انما كونوا فى كل حال أقوياء تنجوا من عقاب الضعف المبرم . ولست أغلق على الضعفاء باب الامل مما بين الاقوياء الطامعين من فرجات الخلاف التى لا تنسد أبدا ، ولكنى أقول لهم أولا وآخرا : كونوا اقوياء ثم كونوا أقوياء

يكن أملكم بايديكم لا بايدى الاعداء والاصدقاء

* * *

فلما انتهى الاسد من كلامه تهيبت الحيوانات أن تعقب عليه وظل كل منها ينتظر أن يقدم غيره للكلام بعد الاسد لانهم لا يريدون أن يوافقوه على رأيه وحكمه ، ولا يهتدون الى وجوه الحيلة فى مناقشته . وقد كانت المرأة تهم بالكلام بعد كل خطيب فيسبقها حيوان الى الخطابة فلما رأت سكوت الحيوانات فى هذه المرة لم ترد أن تضيع الفرصة فبادرت الى وسط الغاب وباغتت الجمع بهذا الاستهلال العجيب

خطاب المرأة

سبع يخطب بين السباع . ولا سبع الا هـذه القائمة بينكم الآن . فقد دعاني بعض الرجال سبعا جميلا . فأذنوا لأحد السباع أن يبسط لكم شكواه من الرجال

شغلكم البحث في النزاع بين القوة والضعف والغلاب بين الحق والباطل عن البحث في عـلاقة هي الصق بكم من كل علاقة . أعني علاقة الزوج بزوجه . فرب قوى منكم لا يعرض له ضعيف في غدواته وروحاته ورب ضعيف لا يُعنى بقوى طول حياته، ولكن ليس منكم ذكر لم يسكن الى أنثى أو أنثي لم تسكن الى ذكر

ولا غرو أن سهوتم عن هـذه العلاقة فانكم لا تبخسون لاناثكم قدرا . ولا تهضموهن حقا، وأكثركم يكل اليهن اختيار من يعجبهن منكم فتنتخب الانثي من تحب وتصدف عمن تكره، فهن معكم في حال لا توجب الشكوى ولا يُستحب معها التبديل

أما نحن بنات حواء فليت لنا عند رجالنا حظوة أناثكم من ذكوركم !! نحن نساق سوقا الى أغراض ليست باغراضنا، وتُغمض

أعيننا عمداً الا عما يروق أزواجنا . معطلات الا عند ما يشتهينا الرجال ، مقصورات الا عما يرضونه لنا من ضروب الكمال ، لنا رؤس ولكنهم يقولون إنها لم تجعل للتفكير بل لارسال الشعور ، وحواسّ ولكنهم يزعمون انها لأجلهم ركبت لا لادراك الحقائق والامور . ووجوه يلفّونها فى الحجاب لفّ الثياب فى السباب ، واحداق لم تخلق لننظر بها بل لينظر اليها الازواج والاصحاب . أخضعتنا الهمجية بالقسوة وأذلتنا المدنية بالحاجة ، ولكن الهمجية كانت أعدل منا والطف بنا من المدنية . فقد كانت توقعنا فى أحضان أشد الرجال أسرا وأمتنهم خلقا وأحماهم أنفا ولم يكن أفضل لنا ولنوع الانسان من هؤلاء الرجال فى تلك الاجيال . أما المدنية فانها تجرنا الى فراش أوفرهم حطاما وأسناهم مقاما ، من كل أعجف أسلف ، محدودب الظهر مأفون الفكر ، مرذول الخلقة والخليقة ، نقبلهم لنا عشراء ؛ ونتخذهم لابنائنا وبناتنا آباء . لانهم يجلبون لنا الطرف الثمينة ، ويكفلون لنا اللهو والزينة : حاجات المدنية الخاوية ، أما حاجات الطبيعة المكتوبة فى كل ذرة من ذرات أجسامنا من رونقٍ للصبا يرقص له قلب المرأة ، ونضرةٍ للعافية تتشوف اليها جوانحها ، وخصالٍ نبيلة وصفاتٍ رائعة وروحٍ خلابة يسرها أن

تنقلها الى أبنائها وأن تجب جيلا كُلُّهُ مصوغ في قالبها، فقد علمتنا المدنية أن ننزلها المنزلة الثانية بعد حاجاتها. فاذا نسينا أنفسنا طرفة فتغلبت ارادة الطبيعة القهارة علينا فنلنا من تلك الحاجات نصيبنا كان أول من يُسفهنا ويهجرنا أبوانا وأهلونا — أو ننال منها خلسة فنغنمها ما خفي سرنا، فاذا انكشف امرنا للناس كان القضاء القائم بالعدل الكاذب بين الناس أولَ من يضطهدنا ويسمنا بميسم خزي لا يمحى

ظلمتنا الهمجية فجعلتنا اماء للرجل نعيش في رقة ما عاش ونهلك معه متى هلك كانها لا ترى لنا حياة مستقلة عن حياته، وقواما يجوز ان يستمر بعد مماته، وقد يورثنا ابناءه كما يورثهم الشاء والنعم، أويئدنا رضيعات كأن وجودنا ضرب من التهم. وكان المعوّل في تلك الاجيال على العنف وبسطة الجسم فلم يخصنا هذا الظلم بل شاركنا في اكثره كل ضعيف مغلوب على امره: رجلا كان اوامرأة، وحرًّا كان او اسيرا. وكنا لا نعقل ما المساواة ولا نحسب الا ان العدل ما يُصنع بنا. فلما تعاقبت الاجيال، وحالت الاحوال، واشتدت الملاحاة بين المقهور والقاهر، وزالت الغشاوة عن الابصار والبصائر، عرف المغلوبون انهم هم الاقوياء ولكنهم

مسحورون بالطلسم القديم ، وعرف الغالبون انهم هم الضعفاء ولكنهم جالسون مجالس النفوذ والسيطرة — يهابهم الناس لمكانهم لا لجسارة جنانهم أو صلابة أبدانهم أو طلاقة لسانهم أو رجاحة اذهانهم ، فوقف كلاهما امام صاحبه بادئ المطاعن عاريا الا عما فيه من فضل واستحقاق ، فنزع الأولون عن تلك الغطرسة ، ونفض الآخرون غبار تلك المسكنة فأصبحوا منذ ذلك الحين سواء بين يدى القانون : لِأذلهم مثلُ ما لأعزهم من الصوت فى اختيار الحكام ومراقبة الاحكام .... أفما كان ينبغى حينئذ أن تشمل هذه المساواة كل من كان مغبونا بالأمس ؟؟ نعم ولكنّ هذا ما لم يكن . فقد بقى النساء مستثنيات من هذه الرحمة العامة حتى فى أرقى الامم — وإن تعجبوا معشر الاحياء فاعجبوا لامرأة تملك الضياع الفيحاء والرباع القوراء والمتاجر الجوابة والمصانع الدوارة وتُسَن القوانين لاصلاح هذه الاموال وحياطتها فلا تُخَوَّل فى سَنها صوتا يُخَوَّله رجل لا يملك أصبعا من ضيعة أو لبِنَة من دار أو علبة فى متجر أو مسمارا فى مصنع ، وتحرز احداهن أسمى شهادات العلوم والفنون ثم لا يسعها الا أن تيأس اليأس كله من منصب قد يتطال اليه رجل لم يمر فى حياته بشارع فيه مدرسة — فهل حالٌ

اعجب من هـذه الحال فيا تماموں ؟؟ أنبلى بسيئات الهمجية ثم نحرم حسنات المدنيـة ؟ فأين اذن يكون انصافنا ومتى نخاص من أسرنا ؟؟

اسألوا هؤلاء الرجال معشر الاحياء : أيستكبرون على أمهاتهم وأمهات اولادهم حقاً ناله خدامتهم وأجراؤهم ؟؟

انهم لا يدعون انهم اجمل منا استواء خلق وا كمل منا هندام شكل . ومع هذا فنحن لا نزعم ان كل امرأة اجمل من كل رجل . فما بالهم يزعمون ان كل رجل اعقل واحزم من كل امرأة ؟؟

على اننا لا ننكر ان المجال اتسع لنا مرةً لمجاراة الرجال فيما يباهون به من اعمال العقل والحزم فقصرنا عن شأوهم ولم نفرِ فريهم . فمنا نساء الحرب اللواتى كن يقاتلن مع الرجال كتفا لكتف نضحا عن اوطانهن ومحاماة عن بعولتهن ومنا الشواعر والرياضيات والكواهن والملكات والبواحث والطبيبات . فان كان عدد هؤلاء لا يضاهي بعدُ عددَ امثالهن من الرجال فليس هـذا من خطأنا . ولكنه خطأ الرجل الذى اهمل فينا تلك المواهب وشغلنا بما هو احط منها شاناواقل نفما ، موافقةً لاهوائه ومرضاة لكبريائه

ونحن بعد صلح للحياة الاجتماعية لما ثبت من ندرة الجرائم

ونحن بعد أصلح للحياة الاجتماعية لما ثبت من ندرة الجرائم بيننا في جميع الامم وأصح تركيباً ومزاجا لما تقرر من قلة الوفيات منا في الطفولة والهرم ، نحن غبينات ان رضينا بهذه القسمة الضيزى ، ونحن خليقات بالغبن ان لم نطالب لانفسنا بخير منها . وها أنتم أولاء مجتمعون ههنا لتبعدوا أسباب التخاصم وتقربوا وسائل التفاهم ، فهلا أهبتم بالرجل أن امنع الغبن من بيتك قبل أن تمنعه من الدنيا وارفع الصغار عن أمك وزوجك قبل أن ترفعه عن الناس ؟ انكم لا شك فاعلون

*
* *

وجلست المرأة وهي توهم نفسها أن أناث الحيوان ستثب على الفور للاخذ بناصرها فلم يحصل شيء من ذلك ونظرت كل أنثى الى صاحبها وهي تبتسم ابتساما لم يغرب عن السامعين مغزاه ثم بادر الرجل فقال

خطاب الانسان

معشر الاحياء

كنا نحذر كل الحذر من يوم تصل المرأة فيه الى نصيب ولو قليل من الحرية فتنظر الى نفسها بعين المعجب المفتون كما كانت

تنظر الى وجهها بهذه العين آلافا من السنين . لأننا نعلم أن المرأة شديدة الطيش والغرور لاتنال القليل الا طمعت فى الكثير وهى اذا حرمت كل شىء لم تطمع فى شىء ما . ثم هى لا تجد من يساعد غرورها الا ذهبت فيه أبعد مذهب ولن ترى مسألة مهما ضخمت أكبر من أن تخلطها بسفسافها وألاعيبها الصغيرة

قامت المرأة بينكم اليوم تطالب بشىء ليس من ضروريات حياتها ولا هو مما يلزمها لأداء وظيفتها الطبيعية ولكنها تطالب بضرب جديد من الزينة سمعت باسمه فتعلقت به كما يتعلق الطفل بما يسمع عنه ولو كان مقره وراء النجوم . فلا تصدقوا معشر الاحياء أن المرأة تطلب الحرية لانها تفهم الحرية ولكنها تطلبها كما تطلب قرطا نفيسا أو ثوبا من الزي الأخير ، ولو صبغنا لها الحرية باللون الذى ألفت أن ترى به الاستعباد لما استطاعت أن تميز بين هذين النمطين من الثياب . ثياب النفس لا ثياب الجسد

انكم قد اجتمعتم هنا لتتشاوروا فى أمر ليس أجل منه ولا أصعب . اجتمعتم للنظر فى مسألة الحياة كلها ومعضلة الخلق أجمع فما كان يدورلى فى حساب انى حين أتقدم للخطابة بينكم أجد نفسى أمام حماقة من حماقات المرأة المعهودة . ولكن ما العمل

وهذه الحماقة لا تفارقها في موقف من المواقف. حدثها عن كواكب السماء تقل لك ما أحلاها! انها تشبه اللعبة التي يلعب بها ابني أو ابنتي .... وهي تدخل فى كل امر مطالبها التافهة التى يخيل اليها أن الوجود لا يدور الا على محورها ولا ينبغى للناس ان يأبهوا الشأن من شؤن الدنيا غيرها

لقد طالما صبرنا أحقاباً مديدة على حماقات المرأة صبر المرء على شيء لا مهرب منه. ولا بد لنا أن نصبر بعد على ما يمتحننا به الله من هذه الحماقات الى آخر الزمان — خلا هذه البدعة التي جاءتنا بها فى هذه العصور الحديثة. نصبر على كل حماقة خلا قولها أنها قد أصبحت فجأة — ولا ندرى كيف؟ — مثلنا فى كل حق وواجب، لها ما لنا وعليها ما علينا. وانها اليوم لن تحل فى الهيئة الاجتماعية محلا دون محلنا أو تتجاوز عن حق نحن نتمتع به — هذا ما لا نطيق الصبر عليه الا اذا أطاقت هي أن تكون رجلا وامرأة فى آن واحد. وأطقنا نحن أن لا نكون رجالا ننفرد بحقوق خاصة للرجولة، ولا نساء نخلف المرأة فى وظيفتها التي تريد أن تتخلى عنها

أى مساواة للرجل تدعيها المرأة وهى الى اليوم لا تجاريه في

صناعة الطهى لو شاركها فيها ؟؟ فما اشتغل رجل وامرأة بهذه الصناعة الا برعها واستحق أضعاف أجرها مع أنها قضت الدهور والاجيال لا عمل لها سوى طهي الطعام واشتغل الرجل فى هذه الدهور والاجيال بكل الاعمال سوى هذا العمل

لافرق ياقوم بين أن تقول المرأة أنها مثل الرجل فى كل شىء أو تقول انها أرجح منه وأكمل . فلو سلمنا لها بانها قادرة على أن تجمع صفات الانوثة من لطف ووداعة وعطف وملاحة واستعداد للحمل والحضانة ؛ الى صفات الرجولة من همة وعزم وحكمة وحزم واخلاق متماسكة وطبائع نزاعة ومواهب متنوعة ؛ فهل يقدر الرجل على أن يجمع مثلها بين هاتين المزيتين ؟؟ ان كان الجواب (لا) وهو حتم لا مراء فيه . فما بالها زادها الله تواضعاً تقنع بمساواة الرجل ولا تدعى التفوق عليه وهي امرأة ورجل معاً وهو رجل فقط ؟؟ أليست هى حينئذ أجدر بأن تتولى السيادة في ميدان هذا العالم الكبير فوق سيادتها فى عالم الحجال والمقاصير؟؟

لو قام رجل فادعى انه يستطيع أن يزاحم المرأة فى الولادة والرضاع لقام فى وجهه مكذب من تركيب الجسم ونظام أجهزته وأعضائه . لكن صفات الرجولة التى قدمناها ليس لها جهاز

خاص ثابت للنظر أو لعلم التشريح ، فلذلك ظنت المرأة أن ادعاءها الحزم وسعة العقل وقوة الطبع أيسر عليها من ادعاء الرجل الاستعداد للحمل والرضاع — مع أن الأمرين بمنزلة واحدة من الصعوبة والاستحالة ، وكل ما بينهما من الاختلاف ان مزيه المرأة فى التركيب الجسمى ظاهرة للحس وأن مزية الرجل لم تظهر بعد فى شكل خصوصية جسمانية . على أن هذا لا ينفى أن هناك خصوصية ظهرت آثارها فى أعمال الرجل ومراميه وان لم تظهر أعيانها فى أعضائه وجوارحه . هذا اذا كابرنا مكابرة المرأة وقلنا أن الرجل والمرأة فيما عدا الحمل والرضاع سواء فى كل صفة جسمية : ثم جاريناها فى القول بان ما يبدو بينهما من الفروق حتى فى هندام الجسم وهيكله الظاهر انما هو عبث لا يشير الى حد طبيعى بين عمليهما فى الحياة

ولقد والله أنصف (انا كريون) المرأة حيث قال : وهو اسبر الناس لسرها وجهرها وأخبرهم بحولها وحيلتها « أن الطبيعة الحكيمة قد وهبت الثيران القرون ، والجياد الحوافر ، وجعلت للارانب سوقا دقيقة سابقة تنجو بها ، وللأسود نيوبا حديدة قاطعة تمزق بها فرائسها ، وقد علمت الأسماك كيف تنفتل فى الماء

والأطيار كيف تجدل فى الهواء — والرجل أودعت قلبه الشجاعة والبأس . أما المرأة فلم تجد عليها بشيء من كل ذلك . فبم جادت عليها ؟؟ بالجمال .... الجمال سلاح المرأة ومغفرها فمن عرفت من النساء كيف تُعمل هذه الشكة السابغة فاياك اياك من سلطانها فالسيف والنار بعض أعوانها ... »

وليس هذا القول من قبيل المجاز لأن حقيقته محسوسة بارزة للعيان . فالجمال فى المرأة كالسيف فى يد الرجل وكثيرا ما صارع الجمال السيف فثلمه وفل حده وأخذ بقياده لأنه سلاح طبيعي لا عار فى الانهزام أمامه ؛ فان فى هذا الانهزام انتصارا للطبيعة والمهزوم أمام سلاح الطبيعة غير مغلوب — ما بال المرأة جهلت قدر هذا السلاح فى هذا الزمان ؟؟ وما بالها تراه لا شيء عندها فى جنب قوة الرجل ؟؟ هل يعجب المرأة الجميلة أن تخلع الجمال وهي امرأة لتتقلد السيف؟؟ انها لا تستحق حينئذ حب الرجل وهيامه لانها عدوٌّ له يغلبه بسلاحه أو يزاحمه فى مفاخره ، ولا تثير شغف المرأة واعجابها لان المرأة لا تشغف بامرأة مثلها — ألا إن المرأة المترجلة لتصول بسلاح غير الذى قلدتها الطبيعة اياه فهى لا تصل بهذا السلاح الصناعى الى غرض من أغراض طبيعتها ؛ وهى خاسرة بـ لها

من مزية على سائر النساء وليست برابحة، فما حظها في هذا الخسران؟؟

أيتها المرأة ! قد أصغر هذا الزمان سلاحك في نظرك فهل تظنين انه أنصف الرجل ؟؟ كلا ! ما نصيب الرجل من زماننا هذا إلا كنصيبك وما ظلمك هذا الزمان بشيء الا بعد أن ظلم الرجل باضعافه — إن العيوب الاجتماعية التي أصغرت سلاح الرجل الطبيعي في نظره وجعلت الدينار فوق الأخلاق والمواهب والقوى هي العيوب التي جعلت المال فوق جمالك وفتنتك، فلا تحسدي الرجل على قسمته بل عاونيه على الرجوع الى حالة ترغبينه فيها لشجاعته وقدرته ومزاياه لا لقصوره وضياعه، ويرغبك فيها لجمالك وشمائلك لا لميراثك ورتبة أبيك

أيتها المرأة ! ارجعي الى أعماق نفسك هل تجدين نعمة من النعم تسرك كما يسرك الجمال ؟؟ هل تصبين في نفسك إلى غرض أحب اليك من امتلاك قلب الرجل ؟ وبماذا تمتلكينه ؟؟ أبالعلم والفلسفة والصناعة ؟ لا . بل بالطبيعة . بالجمال سلاحك وعدتك — وكل جمال لا يبلغك هذه الأمنية جمال عقيم لا تنتفعين به ولا تغبطك عليه اترابك. وكأنك قلت منذ هنيهة متباهية : أنا اجمل من الرجل؛ نعم انت اجمل من الرجل في عين الرجل أما في عين أختك

فاقبح رجل اجمل منك واحب اليها امتلاكه من امتلاكك ولو كنت تمثال الزهرة حسنا وحوراء الجنة شبابا — ولا تظنى انك كنت تحلين بهذه الحلية لو لم يردها الرجل لك. أليس جمالك الانثوى هو الثوب الذى اعجب الرجل ان يراه على جسدك قد البسك اياه فلبسته؟ وهل انت التى تحبين هذا الجمال لنفسك ام هو الذى يحبه لنفسه؟ وهل كنت ترين مسحته على وجهك ورواءه على اعضائك ام هو كان يراه فيختار منه ما يحلو له فيبقى عليك. ويزهد فيما لا يلائمه فيزول منك؟؟

ايتها المرأة! لا تفخرى بثوب العرس تقولين للرجل ان ثوبى أفخر وأبهى من ثوبك فانه هو الذى أهداك اياه ولو لم يعجبه لما أعجبك

معشر الاحياء

قالت المرأة بين أيديكم أن الرجل يظلمها اذ لا يرى لها من المحاسن الا ما يروقه. فان كانت المرأة تعد ذلك ظلماً فهو العدل جد العدل فى حكم الطبيعة

نعم نحن نشنأ المرأة المترجلة. ولكننا لا نشنأها اتباعاً لنزوات الشهوة الطائشة أو التماساً للذة العاجلة. على انه لو كان الامر

كذلك لعازنا أن نعرف لم كانت خصال الأنوثة فى المرأة ألذ للرجل وأجلب لاستمتاعه من الترجل وخشونته . وما دام الرجال كلهم يتفقون على شناعة المرأة المترجلة . ألا يشير ذلك إلى أن فى باطن هذا الهوى سرا فوق ارادة الرجل والمرأة جميعا

نحن نشنأ المرأة المترجلة لأن الطبيعة علمتنا أن نشنأها على الكره منا . الطبيعة تبذل لكل جنس ولكل نوع من المزايا ما يحتاج اليه وتحرمه ما هو فى غنى عنه . الطبيعة لا تقسم هباتها إلا بميزان دقيق لا يختل قيد شعرة . وهي تحبينا فى المرأة الخفرة العروب فسبيلنا أن نعلم من ذلك أن هذه المرأة أجمع لصفات الانوثة من سواها . وما خلوها من صلابة الرجل وخشونته الا دليلا على أن صفات الانوثة ملاثها وطغت فيها على صفات الرجولة . فهي لذلك أوفى بغرض الرجل من كل امرأة أخرى ، وهى أصلح لغرض الطبيعة الذى تريده منها ومنا . وما غرضها من النساء الا أن تجعلهن أمهات صالحات لولادة أحسن النسل وافراغ البنين فى أحسن قالب . وكأن الرجل اذا بصر بامرأة مترجلة أدرك بالغريزة أن رجولتها تحيف على أنوثتها وأنها لا تليق أن تكون أما لأولاده فنفر منها قلبه واجتواها طبعه ، وقد يألف عشرتها ولكن كما يألف

صديقة أو صاحبة لا حايلة أو حبيبة .

لمَ تنفر المرأة من الرجل المتأنث المترهل ؟؟ أليس لانها تعرف بفطرتها ان استجماعه لأوصاف الانوثة منتقص من أوصاف الرجولة التي تنشدها فيه !! فلما اذن نلوم الرجل على كراهته المرأة المترجلة كما تكره هي الرجل المتأنث !! وما هو الظلم الذي تشكوه منه ما دام كلاهما مسوقا الى غاية واحدة

انكم ربما وجدتم المرأة تخوض في بحار الثروة ، وتلعب بصولجان السلطة ، وترفل في سرابيل الجاه والسمعة . فان فقدت مع هذه النعم شيئا من شمائل المرأة التي يحبها الرجل في النساء كالملاحة والخفر والطراءة والظرف والولادة والحب حزنت لفقدانه حزنا لا يعادله سرورها بتلك النعم الجليلة التي لا يتوق أي رجل الى اعظم منها . لأن شمائل المرأة أرسخ في تكوينها واقرب لميلها من هذه المطامع والجدود ، وقد لا يسرها ان تكون أحسن من أحسن رجل إن لم تكن أيضا احسن من احسن امراة . بل هي متى وثقت من انها احسن النساء لم تبال ان يرجح عليها احقر رجل تحت السماء — يروى ان الملكة اليصابات لما نقل اليها خبر وضع ملكة ايقوسيا ولدا وسيما ، قالت لمن حولها بنم وكمد

لم تحاول اخفاءها « ها قد اصبحت ملكة ايقوسيا اما لولد وسيم وانا بعد ذلك الشيء المقفر العقيم » وما ادرا كم ما اليصابات ؟؟ هى اذكى الملكات فى العصور المتأخرة وا كيدهن وارشدهن واعرفهن بالحكم . انتج رأسها لما عقم بطنها ونضجت فيها الملكة لما تعطلت فيها المرأة وحيي طمعها لما مات قلبها — فعاشت وماتت وهي تعزى نفسها بما قالته لمجلس النواب لما اقترح عليها الزواج: «حسبي ان اعيش واموت فيكتب على قبري : هنا مثوى اليصابات الملكة البتول » ولكنكم رأيتم كيف كانت حسرتها على البنين وهي ام السلطة والمال

تذكرنا المرأة بالمساواة الحديثة ، وقد تعنى بها مساواة الانقلاب الفرنسي — نحبا وكرامة : نحن لا ننسى مبادئ هذا الانقلاب الجليل . ولكن المرأة نسيت ان تبين لنا هل كان الانقلاب الفرنسي انقلابا اجتماعيا ام انقلابا طبيعيا ؟؟ وهل كانت غايته تحويل مواقف الطبقات ام نسخ خواص الاجناس والمخلوقات ؟؟ فاما اذا علمت وعلمنا انه انقلاب اجتماعى فحسب ، فلتعلم انها قد نالت من هذا الانقلاب ما ينبغى أن تناله من المساواة حسب مركزها الاجتماعى . فمالها اليوم موفور وامنها مضمون وحقها يصونه

القانون كما يصونون حقوق الرجل . اما ان الانقلاب الفرنسى يبيح لها الخروج عن جبلتها وان لا تلد وان لا ترضع اولادها وان تهجر المنازل الى الدواوين فهذا ما لا يفعله هذا الانقلاب وانما هي تحتاج الى انقلاب في جسم الطبيعة تنقلب عاليها سافلها والعياذ بالله !!

معشر الاحياء

هل لكم في نكاهة اسوقها اليكم مما احفظه من حكايات القدماء . . . . يحكى انه فيما سلف من الزمان وقف جماعة من اهل الفضول على ساحل البحر اللجي والسابحون في غمرته تتقاذفهم أمواجه وتنفغر تحت رؤسهم لجاجه فيهوى فيها الغريق تلو الغريق وهم يرون الطريق الى الساحل ولا تنفتح لهم الطريق . فأوما أولئك الفضوليون بعض لبعض يقولون تالله لنحن أمهر فى السباحة من هؤلاء السابحين . اذ نحن لا نغرق وهم يغرقون ..... أليس هذا أيها الاخوان مثل المرأة والرجل اذ تقول له انها أصلح منه للحياة الاجتماعية لأنها أقل منه جرائم وأسلم جانبا ؟ ما للمرأة والجرائم وقد أعفاها الرجل من مضالك الكدح وكفاها مؤنة النزول فى زحام الحياة . شاطرها ماله وجاهه وقاسمها سعادته وصيته

وهى فى كسر بيتها لم تشمر معه ذيلا ولم تجرد سيفا . وهبوها كانت لها حاجة الى الجرائم فمن أين لها القلب الذى به تجترىء والساعد الذى به تصول. والحق أن المرأة ليست بأسلم جانبا من الرجل كما تقول لأنها أميل منه الى الشحناء والشجار . فربما اتفق مائة رجل على الخطب المتفاقم الجسيم ولم تتفق امرأتان على الهنة الواهية الطفيفة . ولقد أغناها عن أن تكون مجرمة بنفسها أنها تجرم بيد غيرها لأن أكثر الجرائم انما تقع بسببها ولأجلها فهي تدرك ماتشاء من الجريمة دون أن تحتمل تبعتها وقلما تقع مصيبة كارثة ولم يكن وراءها وطر لامرأة تقضيه بيد المجرم وهى بعيدة عما يتعرض له من العقاب . وهى وإن كانت أقل من الرجل عيثا واجراما فما هي بأقل منه خطايا وآثاما . فلها من الجريمة أخس الجزئين وأضعف الجانبين : لأنها تشارك الرجل فى خبث النية ولا تشاركه فى القلب الجرىء واليد القوية . والرجل قد يفعل فعلاته مغمض العين بباعث الغضب أو الالم فلا يهمه آلمت غيره أو لم تؤلمه . مثله فى ذلك مثل السبع الذى يوثبه الجوع الى قتل الفريسة وهو لايسيء النية بها . أما المرأة فالايلام همها الاول والنكاية عندها غرض مطلوب لازيادة عارضة . وذلك لؤم معروف فى الضعفاء

لايخجلون منه لانهم يجهلون مكانه من الفسولة والرداءة

ولقد نرى ان المرأة مابرحت أبعد عن أوضاع المدنية وفروضها من الرجل : مثال ذلك أن المرأة كما يعلم الخبيرون تؤتمن على كنتها وقد لا تؤتمن على بنتها . لانها لا تبالى من أى الرجال تلد بناتها ولكنها تبالى كل المبالاة أن تلد كنتها من غير ولدها . وذلك لان الطبيعة لا تندبها لغير انتاج الذرية سواء كان انتاجها على حكم العرف أو على ضد حكمه

ولا نتكلم عن رعاية الحدود والواجبات فقد عرف الناس أن المرأة فى ذلك كالطفل تتشبث بما تروم ، ولا تعبأ الا بما ترضى وتشتهى ولو كان لغيرها فيه حق مهضوم

وثم فكاهة أخرى أيها الرفاق مما أحفظه من حكايات القدماء . . . فقد قيل أن النبات صاح بالحيوان عام كذا وكذا قبل ميلاد آدم عليه السلام فقال بصوت سمعه الثقلان : أيها الحيوان -: أنا أصح منك مزاجا وأقوم تركيبا لانى أطول أعمارا وأثبت في الارض قدما . فمنى ما يعمر خمسة آلاف سنة وليس منك ما يناهز المائتين الا قليلا . فلم ينشب أن صاح بهما الجماد من ورائهما وقال : بل أنا أصح من كليكما لانى أعمر أدهارا لا تعرفون ما أوائلها

وما أواخرها، الى آخر ما قال . . . . أليست هذه ايها الرفاق حكاية المرأة والرجل حين استدلت بطول العمر على صحة التركيب واستقامة المزاج ؟ ؟ لا ننكر ان العلماء لاحظوا فى الزمن الاخير ان النساء اطول اعمارا من الرجال وان الوفيات بين البنين اكثر من الوفيات بين البنات، ولاحظوا ايضا ان الاولين انشط واصعب مراسا من اخواتهم ، ولكنهم لم يهتدوا الى تعليل ثابت لهذه الحالة ؛ فنهم من عللها بأن رؤس المواليد الذكور اكبر من رؤس الاناث ولذلك كانت ولادتهم اصعب والخطر عليهم اثناء الولادة اشد . . ومنهم من عللها بأن النساء لا يتعرضن للمتاعب ولا يتجشمن المعاطب فلا يسرع الموت اليهن اسراعه الى الرجال. وهما تعليلان وجيهان فى هاتين الحالتين اما فى حالة الطفولة فلم نسمع بتعليل مقنع مقبول. ولا يعجبنا رأى القائلين بأن علة الموت الكثير فى البنين قلة غذائهم وانهم لا يصيبون من الغذاء ما تصيبه البنات . فاننا لا نفهم لماذا يأخذ البنون كلهم دون كفايتهم من الاكل ويستوفى البنات كلهن كفايتهن منه !! أليس فى المسألة سبباً آخر !!

نعم . سبب ذلك فيما نرى مرتبط بتفاوت سن البلوغ بين الجنسين . فالجارية تراهق قبل الغلام والمرأة تستكمل نماءها قبل

الرجل لان وظائف بنيتها اقل من وظائف بنيته فهى تبلغ حدها الاوفى وهو لما يبلغه لتشعب جهات قوته واختلاف خصائص بانه؛ وكذلك يكفى غذاء الطفلة لوقاية جسمها من الآفات لانه ينصرف الى جهة واحدة وهي اشباع الجسم فتكون أسرع نموا وامنع على الادواء بنية . اما الطفل فلا يكفيه غذاؤه لان بعضه ينصرف الى اعداد قواه العقلية والنفسية التى يتفوق بها الرجل على المرأة فيكون نصيب جسمه من غذائه وان كثر اقل من نصيب جسم الطفلة من غذائها وان قل — ويغلب ان ينصرف غذاء الطفل الى توثيق الاعصاب والعضل وينصرف غذاء الطفلة الى تربية الانسجة اللحمية واصلاح الدم — ولا يخفى ان النشاط والارادة من اعمال الجهاز العصبي وان الوقاية من الامراض ومقاومة جراثيمها من اعمال الدم والانسجة — فلاجرم كان الولد كما لاحظ أولئك العلماء انشط واصعب مراسا وكانت البنت امنع بنية واغض جسما

وكأننا ايها الرفاق قد وصلنا من هذا التعليل الى نتيجتنا التى نكررها وندعمها : وهى ان الفرق بين الرجل والمرأة اصيل مستمر يبدأ منذ سن الطفولة الاولى . ولئن قلنا فيما مضى ان مزايا الرجل لم يظهر لها فى التشريح خواص بدنية محسوسة ، فالآن

يسوغ لنا أن نقول إن هذه احدى خواصها الباطنة التى تبين لنا أن الرجل يتغذى بالحزم والشجاعة ورباطة الجأش في طعامه ، وأن المرأة لاتستطيع أن تكتسب مزايا الرجولة الا اذا استطاعت أن تهدى بنيتها الى وجوه النماء وترشد غذاءها الى مجاريه فى عروقها ، وأن القدرة التى خلقت الرحم فى جوف المرأة هى القدرة التى خلقت العقل والبأس في رأس الرجل ونفسه ، وبثت الهمة والاستعداد لكفاح الحياة فى جسمه

ونحن لو لم نصل الى هذه النتيجة من هذا الباب لوصلنا اليها من كل باب سواه . فما نظن عاقلا يتصور أن الاختلاف بين الرجل والمرأة فى التركيب لا يستلزم اختلافا بينهما في الاستعداد من شأنه أن يفرد كلا منهما بعمل مستقل فى الهيئة الاجتماعية — هذا ما لا يجوز فى العقول — ولله در تنيسون حيث يقول : « خلق الرجل لنيران الوقائع والمرأة لنيران المواقد ، وخلق الرجل للسيف والمرأة للابرة ، وخلق الرجل برأس مدبر والمرأة بقلب عطوف ، وخلق الرجل للامر والمرأة للطاعة . وما عدا ذلك خبط وهراء ...... »

فلئن غمت علينا أيها الرفاق مقاصد الطبيعة وتشابهت علينا

الأمور فلم نعرف فى حاضرنا أسائرون على صراط الطبيعة نحن أم ناكبون عنه . فليكن لنا من حالة الرجل والمرأة مقياس لا يغلط ولا يكذب . ولننذر الأمة التى لا تكون فيها المرأة مرأة والرجل رجلا بأنها ناكبة عن صراط الطبيعة السوى وأنها حقيقة بأن يحيق بها عقاب الذين ينكبون عن هذا الصراط . وهل هو الا الاضمحلال والفناء ؟؟

* * *

والآن وقد فرغنا من حساب المرأة فلنرجع الى ما كنتم فيه : —

معشر الاحياء

صدق الاسد حيث يقول إن الواجب الأول والأخير على كل حى أن يكون قويا — فهذه حقيقة لا تتغير سواء أكان العدل هو الغالب على الدنيا أم الجور ؛ وسواء أكانت العاقبة للمتقين أو للظالمين. ولو فرضنا كما يفرض الواهمون أن التقوى عمت هذه البرية حتى أصبحوا لا يستحقر قويهم ضعيفاً ولا يخشى ضعيفهم قويا ، فأين من يؤامن غيره باختياره ، ممن لا يأمن على نفسه الا بعفة فى غيره

وصدق القرد حيث يقول أن الاخلاق قوة فوق القوة —

اذ أى شيء يغل يد القاهر المنتقم عن عدوه بعد أن تتمكن من عنقه الا قوة عليا فوق قوته الدنيا ؟؟ أليس العفو والحلم والصبر وما شا كلها من الخصال، هي القوة التي لا يُحمد على الخضوع لها الا القادرون ؟؟ هل يوصف بالعفو والحلم الضعيف ؟؟ كلا ! وانما يوصف بهما القادر الذي تغلب نفسُه نفسه. وأى شيء أجمل من ان يكون الانسان مزيجا من قوتين احداهما رقيبة على الاخرى ؟؟ فيملك قوته ولا يدعها تملكه فتسخره كالآلة الصماء ؟؟

وصدق الثعلب حيث يقول أن مصالحنا الخاصة أظهر لحواسنا وأقرب الى أهوائنا من المصالح العامة، ولكننا نقول أنه حيثما وُجد شيء يُسمى أمةً فلا بدّ هنالك من شيء يُسمى مصلحةَ الامة. وكيف تقوم هذه المصلحة الا برعاية أبناء الامة لها ؟؟ وهل يقال أن هذه المصلحة قائمة ان كان أبناء الامة يعبثون بمصلحتها كلما عنت لهم فائدة قريبة ؟؟ اذن فلا علامة على وجود الامة قط وانما هم آحاد مبعثرون وجسم مفكك لا تدب في عروقه روح مؤلّفة ولا تشده بنية موصولة ولا تعمل أعضاؤه بارادة واحدة. وكما أن الرأس اذا أصابته ضربة مؤلمة ارتفعت اليد اليه من تلقاء نفسها لتحمل عنه ألم الضربة، كذلك يجب أن تكون الامة التي تشبه

فى مجموعها مجموع أعضاء الجسم الشاعر الصحيح . يجب أن تغرس فى كل فرد من أفرادها غريزة تدعوه الى تقديم نفسه لاحتمال الاذى متى تعرضت مقاتل الامة لخطر من الاخطار ؛ ولهذا تكثر الاريحية والمفاداة بالمآرب الخاصة فى الامم الحية القوية . وتكثر الخيانة والجشع وعبادة المنافع في أيام انحلال الدول وتدهورها

إن الثعلب ينظر إلى الفرد وحده ؛ ونحن لو نظرنا مثله بهذه العين الضيقة لغبطنا الرجل على فوزه ولو كان لم يوفق اليه الا بالاسفاف والخداع والاحتيال ، ولكننا متى نظرنا بعين الامة لم نجد قط أمة تغبط أخرى على مصلحتها الضائعة بين مصالح أفرادها المتدابرة ، وحياتها التى يزهقها أبناؤها قبل أعدائها . فان لم نقدر على أن ننظر بهذه العين فذلك آية على موت روح الامة فينا أو على أن الامة قد شارفت الهلاك . ويجوز لنا فى هذه الحالة أن نسخر من الحق ونهزأ بالضمير ونتهكم على العدل ، ونقصر فى الواجب ، فان الميت لا يأسى على الجراح ، والغريق لا يحذر البلل

وأزيد على ما تقدم أن مبادئ الحق خالدة متجددة ، وأن المصالح بائدة متقلبة . الحق مرتبط بحياة الانسانية ، والمصلحة

مرتبطة بحياة الفرد . ولو أننا أخذنا اليوم فى استئصال الحق فمحونا مدلولاته من الكتب وحذفنا أسماءها من اللغات وحرمنا على الناس تخيلها والتفوه بها لما لبثوا جيلا أو أجيالا حتى يثوبوا فيخرجوها من حيث أخرجوها أول مرة . لان الانسانية كلها لا تستغرق نفسها فى حزب فذ أو عصر واحد ؛ ولا غنى لها عن ركن تعتصم به على تداول الاحزاب وتقلب العصور

لا الانسانية أيها الرفاق ولا القوة نفسها تستغنى عن الحق — فأى قوة ياقوم أعظم وأرهب من القوى التى أعدتها أمم أوربا فى هذه الايام ليظفر بعضها ببعض ؟؟ ملأت الأمم البرور والبحار والاجواء ناراً وحديداً ، واستنفدت رجالها وأموالها ، وتركت مضاجعها وأعمالها والتفتت الى اعداد القوة فجمعت فى حرب واحدة مالعله لم يجتمع فى حروب العالم أجمع — ومع ذلك لم تكف أمة منها عن درء وصمة الظلم عنها ، والجهر بأنها مسوقة الى الحرب على الكره منها . وأنها لم تأتِ الا حقا ؛ ولم تعمل الا أمرا واجبا فان كان الحق وهما كما يقول الثعلب وأشياعه فما حاجة الامم الى الاستعانة بالاوهام ؟؟ أليس هذا برهانا على ان القوة لا تستغنى

عن مؤازرة الحق ولو بلغت غايتها ، وأفرغت وسعها فى استتمام وسائلها ؟؟

نعم معشر الاحياء . أن الانسانية كلها تنصر المحق على المبطل والانسانية كلها تميل الى المظلوم وتكره المعتدى . ولا نجحد أن الاعجاب بالقوة كثيرا ما يغطي فى صدور الناس على حب الحق . ولكنهم لا يعجبون بالقوة الا ريثما تأخذ حقها من العظمة ، ثم يكرهونها ليعجبوا بقوة أخرى أحق بالعظمة منها — ثم ينصرون القوة الحقة على القوة الكاذبة . ويكرهون أن تنخذل القوة ظلماً وهى خليقة بالانتصار ، فلا ضير على الحق في الاعجاب بالقوة لان الحق لا يكون فى جانب قوة واحدة أبد الزمان — ولا تنسوا ياقوم أن الانسان قد يعجب بالقوة وهو يحبها ، وقد يعجب بها وهو يبغضها — فهو يحبها اذا اعتقد أن الحق معها ويبغضها اذا اعتقد أنها على غير حق . ومن أبغض شيئاً لم يساعده — ألا خبروني أى ضير على الحق فى ذلك ؟؟ أليست القوة حقيقة بالاعجاب ؟؟ انه يعجب بها !! أليس الجور حقيقا بالبغض ؟؟ انه يبغضه !! فلا تسرعوا الى اتهام الفطرة الانسانية فى أميالها فانها متى اتفقت على ميل ما لم تحد فيه عن الصواب

ولا أخفى عنكم أيها الاحياء أن الحق لفظة شائعة ليس لها مفاد معين محدود . فلقد نعلم ماهو الحق فى هذه المسائل الصغيرة التى يتناوبها الناس فى معائشهم آنا لهذا وآنا لذالك . فأينما عرفت هذه الحقوق فيجب وجوبا لامثنوية فيه أن تنزه عن اللىّ والبخس وتوضع بمعزل عن المحاباة والهوادة . فانه ليس أقتل للهمم ولا أفسد للاخلاق ولا أكسد للمساعى والأعمال من شعور قوم بضياع الحق بينهم مع علمهم به

بيد أنا قد نجهل وجوه الحق المطلق المشرف على الوجود بأجمعه . لأن هذا الوجود لا يكاد يبين لنا حكمته فيما كان فكيف بما سيكون ؟؟ وكأىّ من نهضة كبرى شغلت التواريخ وصعدت بأناس الى أنجم مقاوم السؤدد والخلود بجبرية واقتدارا اذا كشفناها تكشفت عن عميم من المساوئ والاوضار ، وألفيناها تنطوى على كثير من الكذب والجهل والاغتصاب والعنف والاقتسار، فاذا قسناها بما نحاكم اليه من مبادئ الحق اليومية لاحت لنا كأنها عمل باطل من البدء الى النهاية وليست هى كذلك — لم تخل نهضة دينية أو اجتماعية من هذه الاشياء فكيف تكون نهضات

الانسانية كلها باطلة مزيفة ؟؟ وعلام المعول اذن فى الاهتداء الى هذا الحق أيها الرفاق

أننا نجهل الغاية من تنازع الامم . ومتى جهلنا الغاية فكيف نحكم على الواسطة ؟؟

نقول أيها الاحياء إن الوجود الذى أخفى عنا كنه أعماله لم يحرمنا من بصيص نامح بنوره حكمته الخالدة . ونحن نعلم علم اليقين أن العقيدة هي قائدة الامم الى بلوغ أغراضها . فما من نهضة قط قامت على غير عقيدة ثابتة فافلحت . وحسبنا من هذا دليلا على أن العقيدة هي الابرة التى تتجه بنا الى قطب الوجود . هي الهادى الى نواياه ومقاصده . فلامعول فى الاهتداء الى الحق الأعلى الشامل الخالد إلا على العقيدة . فهى رائده وعليها سمة من سماته الابدية . ذنوبها مغتفرة عند أياديها ونقائصها منسية فى جنب كمالاتها . على انها لا تذنب إلا متى تزعزعت ولا تنقص الا اذا تشككت . أما وهى قوية مكينة فلن تراها إلا وفى جوفها نار تصهر أوشاب الطبائع فتطهرها كما تصهر نار البركان أوشاب الارض فتفجرها سيلا أحمر يتأجج ناراً ، ويتدفق تياراً ، ويطير فى الفضاء أعصاراً . فلا تعرف أماء هو أم لهب ، وحديد هو أم

ذهب ، لـكنه على أى صورة قوة جارفة صادعة ، وحركة من صـميم الارض ثائرة والى أعنان السماء نازعة — كذلك العقائد تصهر الطبائع المختلفة وتحيلها الى طبيعة مدمجة حارة — لافرق بين عقيدة فى مذهب أو رجل أو وطن أو دين أو أمل كبير

ولما كانت العقيدة علامة نيـة الوجود لم يكن أثرها قاصراً على قوم دون قوم . ولعل الشعب الذى تظهر فيه لا يكون أوفر الشعوب قسطا من نفعها . وهذه ألمانيا عـدوة فرنسا اللدود قد انتفعت بالثورة الفرنسية أكثر ممـا انتفع بها الفرنسيون، فضمت شملها وألفت وحـدتها . ولولا الثورة الفرنسـية لما أحست ألمـانيا بحاجة الى الانضمام، ولما صارت شيئا مذكورا فى قليل من الاعوام. فالعقائد تجمع من حين الى حين حتى تهب هبوب الصرصر العاتية فتحرك الحياة الانسانية الراكدة وتستفز العناصر العاملة فى الشعوب والأقوام من كل فج عميق . ولا عجب فما العقائد الا عناصر طبيعية كالرياح التى لا تقف فى مهابها والسحاب الذى لا يهطل فى مناشئه والانهـار التى لا تجمـد فى منابعها . ولـكنها تجرى حيث يجريها القدر المجهول ، من وراء حجابه المسدول . وكأنه ليس على العقائد إلا أن تتحرك فتأتي من العجائب بما لم يخالج أنصارها المتشيعين لها

ولم يدْر فى حسبان أعدائها الحانقين عليها . فالانقلاب الفرنسى لم ينشر فى ألمانيا الحرية والإخاء والمساواة . وهى المبادئ التى كان زعماء الانقلاب يرمون اليها ويعنون بنشرها ، ولكنه نفعها من هذه الطريق التى ما نظر اليها الفرنسيون ولا حلم بها الالمان . فكان له فى كل أمة يدٌ خلاف يده فى سواها

إن الفكر يقودنا الى حيث نعرف . أما العقيدة فتقودنا الى حيث تعرف الطبيعة وهي أهدى منا وأبصر بغايتنا — كفلتنا ردحا من الدهر أيام كنا فى غيابات الجهالة لا مرشد لنا إلا ما تأمرنا به أو تنهانا عنه، ولا تزال تكلأنا وترعانا كلما أضلنا الفكر بنوره الضعيف . وما أضل الذين يرون أن الفكر وحده يحكم الدنيا.... لا أيها المفكرون !!! الفكر لا يحكم الدنيا ولا الانسان ... نحن بالفكر قد نفهم الحياة ولكننا لا نحيا الا بالخوالج والعقائد ، وانما يحيا الذين خلقوا للحياة . أما الذين خلقوا للفكر فقد يكون حظهم من فهم الحياة كبيرا ولكن حظهم من الحياة غير كبير . فما أخسر أمة عندها الفكر وليس عندها العقيدة !! .... ما أظن فكرها هذا إلا موديًا بالرمق الباقي فيها من الحياة

وأى شىء يعيشكم أظهر ليد العقيدة فى العالم ، وأبين من

كنهها المعجز العجيب ، وأنها لا وازع يساويها ولا باعث يفعل فعلها ؛ من هذا الاجلال المقدس الذى يخص به الناسُ رسلَ الاديان وأصحاب الملل دون عامة العظماء والمشاهير ؛؟ كم خلا فى أرضنا هذه من فلاسفة مصاحين وحكماء مرشدين وعلماء محققين وشعراء مفلقين وسواس محنكين وقواد مدربين وصناعٍ مخترعين ؟؟ كم خلا من أمثال هؤلاء فى الارض ثم نسيهم الناسُ واذالوهم وبقى ذكر هؤلاء النفر المعدودين المرسلين بالاديان أسيرَ من كل ذكر ، ومقامهم عاليا فوق رؤس ملايين الملايين الذين مازالت تقذف بهم الارحام ، وتتلقفهم الرجام ؛ من قديم الازل الى هذه الايام ؟؟ إنْ خلد أولئك أحقابا خلد هؤلاء أدهارا وآبادا ، وإنْ ذُكر أولئك بين الدارسين والقراء ذكر هؤلاء فى الجهر والخفاء ، وظهروا فى كل أرض وسماء ، كأنهم كواكب السماء . لا ذرية آدم وحواء . وإن قُرنت أسماء أولئك بالثناء والتكريم ، قرنت أسماء هؤلاء بخالق السكون القديم . كأنهم جزء من ذلك الوجود السرمدى ، وكأنهم شهدوا معه خلق العالمين العلوى والسفلى ، — فهل نقول ان الفطرة الانسانية بُنيت على الزيغ وأُشرجت على الزلل أم نقول خدعة صادفت غفلة كما يقول الثراثرة المتفيهقون ....

يسر الله لهم الامور ما أيسر غلابهم وأريح بال الباحثين معهم !!!
أما نحن فنقول ان هؤلاء النفر الاعلام لم يتبوأوا بين البشر هذا المحل الاوحد الذى لايدانيه الملك والفتح والحكمة الا لانهم جاءوا الى البشر بما لم يجئهم بمثله الملك والفاتحون والحكماء، والا لان البشر أحوج الى العقيدة منهم الى ثمار الاستاذين والرؤساء، وانهم ان كان لهم تاريخ فى صحيفة الحياة فذلك تاريخ العقائد لاتاريخ الاقوال والآراء، أو الوقائع والانباء. أو البخار والكهرباء

فالمرء يصغر كل عظمة فى جانب عظمة النبوة لأنه مدين للانبياء بيقينه وايمانه، وما هو بمدين لغيرهم من المشاهير الا بعروضه وأمواله. ولن يستوى الايمان بالعروض والاموال. لان المرء اذا أخلص فى الايمان يفدى العقيدة بالمال ولن يفدى المال بالعقيدة، وهو يصنع لحماية عقيدته ما ليس يصنع بعضه لحماية نفسه وولده — انظروا الى العرب فانهم فتحوا مصر مرتين: مرة على يد الرعاة ومرة على يد المسلمين. لبثوا فى المرة الأولى ما لبثوا ثم أخرجوا منها فلم يتركوا بعدهم أثراً. واستولوا عليها فى المرة الثانية فأصبح دينهم دينها ولغتهم لغتها ونجرهم نجرها وأصبح تاريخهم لاينفصل عن تاريخها. وما ذاك الا لأنهم كانوا فى المرة الاولى رواد كسب

وكانوا في المرة الثانية خدام عبيده . فنالوا لما عملوا لمكاسبهم وألحوا لما عملوا لعقائدهم . وكذلك فتح العرب الدنيا يوم كانوا يذبون عن الدين ولكنهم عجزوا عن منع ذمارهم يوم صاروا يذبون عن التراث والديار . وكذلك قل في المدنيات الزاهرة الشرقية والغربية بين قديم منها وحديث

إن موسى وعيسى ومحمدا واخوانهم من الانبياء والمرسلين ، لم يكونوا لاعبين ولا خادعين ولا واهمين . بل هم عاملون لا يشبههم غيرهم من العاملين. وليست نهضاتهم الخطيرة صدفا بتراء منعزلة عن حوادث هذا الكون الواسع الكبير . فنقول إنها فلتة لا تنطبق على أحكامه ولا تدل على غاياته ـ ولو قيل انهم طلاب مجد وعشاق خلود ، قلنا : ولم يطلبون المجد ويعشقون الخلود ؟؟ وما الذي جعل تعشقهم للمجد والخلود ينتهي هذه النهاية في نفع الخلق واستجاشة أفئدتهم وعقولهم وأنفسهم ؟ ـ أمضطرون هم في ذلك أم مختارون ، وقائدون هم في فعلهم أم منقادون ؟؟ لا بل مضطرون لا يد لهم فيما يأخذون وفيما يتركون ، ولا اختيار لهم في خلق أنفسهم بحيث ينادون الناس فيطيعون ، وما قصدوا ما كان من آثارهم وما يكون ، ولكنها تمت وهم لا يعلمون ــ وكم قصد

العظماء نفعاً للعالم فلم يتم ما قصدوه وتم النفع من جهات عدة لم تخطر لهم على بال ولم تقع منهم فى ظن أو تقدير. بل تم من الامور بسببهم ما لو فطنوا اليه قبل وقوعه وعلموا أن أعمالهم تؤدى اليه لما عملوه، وعملوا ما فى وسعهم لاحباطه ومنعه . ريشيليو أراد ان يؤيد الملكية فى فرنسا فأسقط الملكية. ألا يدل ذلك وأمثاله على أننا آلات مسيرة لقدرة لا نهائية عميقة الحب والخير ؟؟ ألا يجب علينا أن نؤمن بتلك القدرة وننيب اليها ما دامت تحيط بنا وبأغراضنا، وما دامت تفعل من اجلنا وبأيدينا مالا يدور بأخلادنا ؟؟

معشر الاحياء

ان كان الاسد يقول لكم عليكم بالقوة فأنا أقول لكم عليكم بالعقيدة لانها تقوى الضعيف وتضاعف قوة القوى — وغاية الفرق بين ضعيف وقوى فيها أن الضعيف تحمله عقيدته فلا ترى فيه الا عقيدة سائرة، وأن القوى يحمل عقيدته فترى فيه العقيدة والمعتقد . وهى فى الحالتين تخرق العادات، وتنجز الآيات المدهشات

فى القوة ترون العقيدة فى عمر بن الخطاب وهو يحتد فى عدله ويعدل فى حدته . ويرهب النيل وما بالنيل من رهب أو رغب،

ويعجب لموت النبي ومافى الموت من عجب . هل أطمعته العقيدة حتى بطاعة الجماد والتمرد على الموت ؟؟ يقيم الحد على ولده وله مندوحة عن قتله ، ويعلن الاذان بين جنود الكفر وأهله . ويهم بالخطوب الجسام فما هى إلا كرجع الصوت ، ويُهوّر الممالك بشراذم لا يملكون من أنفسهم ما ينفسونه على الموت — هذه هى العقيدة فى القوة

وفى الضعف ترون العقيدة فى جان دارك العذراء النحيلة وهى تزجى عسكرا وتتوج أميرا . وترونها تحت أسوار أورليز والدمع يطفر من عينها ، والدم ينفر من عاتقها . وهى تترامى على الاسوار كأن الحمام لا يجرأ عليها أو يحق الله وعده بانقاذ فرنسا على يديها — هذه هي العقيدة فى الضعف

واعلموا أنه لا يأس من أمة ما بقى فيها استعداد للعقيدة وأنه لا أمل فى أمة قد نضب فيها هذا المعين السماوى مهما أعجبتكم ظواهرها ، وغرتكم بوادرها ، فانه لا عمل بغير أمل ولا أمل بغير ايمان

واذا كان القرد يقول لكم عليكم بالحق فأنا أقول لكم عليكم بالاعتقاد بالحق . لان أنفع ما فى الحق الغيرة عليه والسعى اليه .

ولعمري لقد أصاب القرد حين قال لكم إن حياة البرية فى بقاء الحق والباطل متغالبين لا فى اجتثاث الباطل وازهاقه . وإلا فهل حالة أشنع لو صحت من تلك الحال التى يتمناها بعض الحالمين؟؟ يتمنون أن لا تطلع الشمس الا على ذى حق لا ينازع فيه والا على راض لا يجد ما يشكو منه . فان تم هذا - وان يتم - فأين يكون تنافس الاقوياء واقدامهم ، وأين تكون خشية الضعفاء وتآزرهم ، بل أين يكون الحق نفسه ؟؟ هل علم كل منكم لنفسه حقا موقوفا عليه متصلا بكيانه يقول هذا حق كما تقول هذا رأسى وهذه يدى؟؟ انما الحق ما يخلص من هذه المنازعات والاطوار ويحصل من اختلاف نظر الناس اليه وتعدد مناحيه . فلا حق الا بالنزاع على الحق . وزوال النزاع موت ، وزوال الحق باطل ومحال .

والحق يكون معكم مرة وعليكم مرة فاذا أردتم أن تعرفوا فى أى جانب هو فانظروا الى جانب العقيدة فثم الحق الاكبر المنشود .

*
* *

عندئذ قال الذئب : وما مرادك بهذا الكلام أيها الانسان؟؟ أتريد أن يصر كل منا على عادته ويؤمن بما هو فى صدده ؟؟ ان

كان هذا مرادك فهذه يدي فاني أول المشايعين لك

قال الانسان : لا بل أردت أن تؤمنوا بي وتركنوا الىّ . لاني — ولا أزدهي عليكم — قد جمعت من دواعي الايمان ما تفرق فيكم . وقد زدت عليكم باشياء لم يتحلّ بها أحد منكم ، ومتى آمنتم بي كنت واياكم على حد قول المتنبي لاسد قنسرين :

فهل لك في حلفي على ما أريده   فاني باسباب المعيشة أعلم
اذن لأتاك الرزق من كل وجهة   وأثريت مما تغنمين وأغنم

قال الذئب : أيـ نعم ! كما أثريت الكلاب من فضلات موائدك ، وأطعمتها من عظام البهائم الآوية اليك . فجعلت الكلب — وهو واحد منا — يعبدك ويحرس نومتك ويرعى ماشيتك ويعادي بني جنسه في خدمتك !!

قال الحمار : مهلا أيها الذئب فانا راضون بان نؤمن بالانسان ولكن على شرط أن نحرق الأكُف والمناخيس في مجلسنا هذا

قال الحصان : والسروج والمركبات والطواحين !

فقالت البقر والغنم والماعز بصوت واحد : وأن نكتب كتابا بمنع شرب الالبان وتحريم ذبح الانعام والماشية

فاشتد اللغط بين الاوز والدجاج وصاحت من كل جانب : وذبح الاطيار الداجنة أيضا

وزمجر النمر قائلا : وقبل ذلك أبيدوا الراميات والرصاص والمفرقعات فلا تبقى منها باقية

ومضى كل منهم يعرض اقتراحا ، أو يزيد شرطا . حتى نفد صبر الانسان فقال غاضبا : وهل يقال أيها البهائم انكم تؤمنون بى وأنتم تقيدوننى بهذه الشروط ، وتجعلونني آلة بين أيديكم ؟؟ أم حسبتم اننى لا أنال منكم قسرا ما اعرضه الآن عليكم عرضا

وكأنما كانت هذه الكلمة جذوة نار ألقاها الانسان فى تلك الغاب . فقد احدثت فيها مايحدثه الحريق من الهياج والاضطراب فأخذتهم سورة الوحشية ، وهجم بعضهم على الانسان فذادهم بعضهم عنه . وهو واقف بينهم نادما على تلك الكلمة ؛ ولو أمعن فى قلبه لوجد فيه بعض السرور من تلك النكسة التى كادت تفقدهم المنطق العارية الذى سمحت لهم به الحياة فضارعوه فترة من الزمان

***

وبينما هم كذلك اذ ارتفعت من نواحى الافق قطعة سحاب كطلائع الخيل ما زالت تكبر وتنتشر حتى سدت الآفاق

واطبقت الارض والسماء، فاربدّ الجو وقصفت الرعود وانقضت الصواعق وانهمرت الامطار. وظل جمع الغاب في عمياء من أمرهم لا يعرفون قبيلا من دبير، وقد شغلهم هول ماهم فيه عن التفكر في المصير. ثم سمعوا مناديا يناديهم بصوت كان هزيم الرعود معه أخفت من دبيب النمال، وأهدأ من نسيم الشمال. قائلا

اخشعوا للطبيعة يا أبناء الحياة الغرور!! أنصتوا للدوام يا اسراء الفناء والدثور؟

فخشعوا واجفةً قلوبهم، راجفة من الهلع فرائصهم. ثم التفتوا فانقشعت هذه الغمة عن شخص هائل رأسه فوق النجوم، وقدماه تحت الثرى. مهيب ولكنه مودود، وعجيب ولكنه معهود. وهو من ثم قطوب كالجبل الأغبر. ومن ثم بشوش كالربيع الأخضر. فألهموا انه روح الطبيعة. وكان في تلك اللحظة يهدر بصوت لم تستقل بسماعه الآذان دون سائر جوارح الابدان

خطاب الطبيعة

أيها الاحياء

لا أطلب اليكم أن تصيخوا الىّ فان فى كل دقيقة من دقائق اجسامكم اذنا تتسمعنى فى كل حين ، غير انها قد تغفل عنى أحيانا فيبلغها صوتى منحرفا عن الحقيقة ، مزيفا بضلال الصناعة . فالآن انفى عن آذانكم كلها هذا الوسواس لتسمعونى حق السماع ، وتنبذوا ما سمعتم من سواى كل النبذ

وانت ايتها الحياة ؛ تمخضتُ عنك وما تركتك لنفسك لمحة عين . فما زلتِ عمياء حتى فى طلب الخلاص من الموت . ولأنت اقرب ما تكونين اليه حين تفكرين فى الخلاص منه . ولقد ظننت انك اعرف مني بما يسعدك وما يشقيك . فعكفت على الصخب، ودأبت فى الهرب، وعكست الامر فأشقيت نفسك من حيث تلتمسين السعادة ، وجاءتك السعادة من حيث تخافين الشقاوة ، ولا أذكّرك الا بانك وليدتي واني انا أمك . اعلم من شأنك ما لا تعلمين ، وقد كنتُ ولم تكونى وأكون حيث

لا تكونين. وانا احرص عليك منك ، وان زعمت انك اخبر مني بنفسك ، فما من صلبك ولدت بل انا الوالدة ، وما من جسدك تأكلين ولكني انا المأكولة الآكلة — انا التي اصوغ من الصعيد الخانق والماء الجاري ، ومن الهواء الخافق والماء الساري، عجينا منه تنشأين ، ثم منه تستمدين ، تتناولينه جمادا جاسيا ثم تجرينه في باطنك احساسا مدركا واعيا . ولو سألت كل ذرة فيك أن ترجع الى موضعها مني لما بقي فيك إلا مكانك ، ولضاع منك احساسك وعلمك وبيانك ، فمن جسدى كيانك ، ومن جسدى قوامك ، والى جسدى مرجعك ومآبك . فكيف اذن تختارين لنفسك ما لست اختاره لك. ومن لك بمحاربة الموت وهو قضاء حتم عليك

اعلمي ياحياة انك لاتخافين الموت الا لانك تمشين في انفاقه معصوبة العينين ، ولو كان لك اطمئنان الوليدة الى أمها لتأكدت انك ناجية ما دمت في يدى . ناجية ولو احاط بك ظلام الموت من كل الجهات . ولا بدع فصدر الأم ملاذ البنين كلما احتلكت الظلمات. ألا تعلمين انني امر بك من انفاق الموت الى ضياء اسطع من الضياء الذى كنت فيه ؟؟ اين امسك من يومك ، واين الجسم السوي من المضغة القذرة ؟؟

تشفقين ياحياة ان يلم الموت بمضغة ترمزين فيها لمحة من الوقت ولو انها نقطة من تلك النقاط الزلالية التى لا يميزها الناظر من نقاط الماء — وجهلت انا لو جاريناك على هذا الاشفاق لـكانت تلك النقاط غاية ما تسنمته من درجات التـكوين ، ولخسرت الوجود برمته وانت تتمسكين بالوجود . فـكانت كواكب السموات وكنوز الارضين واسرار الخليقة وودائع المعرفة كأنها لم تخلق ، وكأنه لم ينشق عنها العدم المطلق ، وهى هى التى تجالسين اليوم فى سويدائها، ويمر بك الموت في سراديبه الى دارة دارة من سبحات اضوائها

انظرى آلاء الموت عليك

قالت الطبيعة ذلك ثم نادت ... ياموت!! فانطلق من يسارها شبح يفيض شملتنا رؤيته بقشعريرة باردة . وامتلأت الحياة ذعرا وهى تصارع ذلك الشبح ويصارعها . وما استطال هذا الصراع حتى غشيتنا الغاشية مدة لا ندرى ما مقدارها ، ثم صاحت بنا الطبيعة فانتبهنا . فاذا نحن خلق آخر واذا الحياة امامنا ابهى مما كانت واعدل قواما واحب منظرا واذكى عرفا وانبل طلعة . ثم قالت الطبيعة تخاطبنا : —

اما وقد شاهدتم ايها الملأ كيف ان الموت ينقلكم من طور الى طور اكمل ، ومن هيئة الى هيئة اجمل ، فاعلموا كملكم الله ان الكمال غايتكم في الحياة وليس البقاء . فلا تخافوا الموت بل خافوا النقص فهو اعدى لكم من الموت ولا تسمعوا صوت الحياة بل اسمعوا صوت الطبيعة فهي ابر بكم من الحياة

* * *

فما كادت تلفظ الكلمة الأخيرة حتى وثب الاسد على الثور
وقبض النمر على الأيل وعدا الثعلب وراء الارنب ووجأ
الذئب عنق الشاة والتهم الهر الفأر وجذب الانسان
سلاحه يضرب ذات اليمين وذات الشمال .
والقدر يضحك والحياة تصرخ . وكلهم
ذاهبون على رؤسهم يصيحون :
اسمعوا صوت الطبيعة ؟ اسمعوا
صوت الطبيعة ؟؟

الخطأ والصواب

السطر	الصفحة	الخطأ	الصواب
٨	١٠	ملئ	ملء
٦	٢١	عن حكامه	عن أحكامه
١	٣٣	فرحمة الضعيف	الابقاء عليه فرحمة
٨	٣٥	خصطها	خططها
١	٣٧	حذفت بعد كلمة الزوان هذه الكلمات :— « قال تلك دسيسة عدو	
١٥	٣٩	لواقع	الواقع
٦	٤٢	فكان	فكأن
٥	٤٨	خدامتهم	خدمتهم
١٧	٤٨	صلح	أصلح
١	٤٩	السطر الاول مكرر	
١٥	٦٣	سبباً	سبب

« كلمة للمؤلف »

بسم الله الرحمن الرحيم

نهدى الى كل قارىء مسلم ومسلمة كتابا وضمناه لم نقصر فيه عما استطعنا من النصح للأمة والحرص على ارشادها الى الحق وهدايتها الى سبيل المنفعة فيما تبغيه وتسمو اليه من مرافق الدنيا وأمور الدين نهدى هذا الكتاب الى كل قارئ مسلم ومسلمة لانرجو منهما أجرا عليه ولا جزاء له الا احسان العناية به واجادة النظر فيه والاستبصار فيما يشتمل عليه من موعظة وحكمة ومن نصيحة وهدى ولسنا ندعى اننا قد بلغنا من كل ذلك أقصاه أو وصلنا منه الى غايته وانما نعلن أنه غاية ما نستطيع ان نصل اليه على ان مادتة الدين الصحيح والعلم النافع توخيناهما بدقة وامعان . ولئن كنا قد ألبسناه ثوب الخيال فانا لم نغال في ذلك ولم نبالغ فيه وانما قصدنا الى الحقيقة المرة ذات المنظر المؤلم فأسبغنا عليها من الخيال مايسيغ مزاقها ويذهب بشئ من بشاعة منظرها ولعمرى ان الانسان لخليق ان يقابل الحق وجها لوجه لايزهد فيه ولا يتبرم به ولكن ذلك ان لم يكن مستحيلا فهو بعيد . . . . ! !

ولن يصيب الكاتب الذي يعرف من طبيعة الناس حب الهين و بغض الشاق والنفرة من الدواء اذا كان غضا

لن يصيب اذا صدم الجمهور بحقيقة جافية المنظر غريبة الخلق لأنه ان فعل لم يزد على ان يبغض الجمهور فيه و ينفرهم منه و يصرفهم عن حقه الى باطلهم وعن رشده الى غوايتهم و يعرض نفسه لسهام من اللوم صائبة ونصال من الذم جارحة وقالة بين الناس يشيع شرها الآن و يحفظ نكرها في مستقبل الدهر ومستأنف الأيام ... !!

لذلك عمد المصلحون من عهد الهنود القدماء الى الرسائل والأقاصيص الخيالية يفعمونها بالموعظة و يملأونها بالعبرة يضعون رأيهم الاجتماعى والديني أو الفلسفي الهادم للعادات السيئة والآراء الفاسدة في قالب من الخيال عذب رائق فيتناوله الجمهور بالابتهاج والاعجاب ولا يكاد يعكف عليه و ينظر فيه حتى تظهر آثاره النافعة ونتائجه الحسنة .

ولقد كنا نود ان نكون المبدعين لهذا الخيال المخترعين لنظامه المستبدين بحسنه وروائه ولكنا لم نستطع ذلك ولن نستطيعه الا بعد جهد وعناء وانما الخيال اختراع فيلسوف حكيم وكاتب طائر الصيت هو الفيلسوف الروسي « تولستوي »

فقد وضع لبيان ما عرض على الدين المسيحي من تغيير واختلاف كتابا سماه « مملكة جهنم » وزعم أن قصته جرت على الشياطين فأحببنا

أن نصنع ذلك لبيان ماعرض للدين الاسلامي فى نفوس العامة من فساد وتبدد وسمينا كتابنا « مملكة الشياطين » على ان بين طريقتنا وطريقة الفيلسوف فرقا من وجهين ..

الاول — أنه وضع كتابه ليبرهن على فساد الدين المسيحي فى نفوس الناس وكتب العلماء وان ماوضعته الكنيسة من الطقوس والنظامات انما هو من عمل الشيطان لامن وحي الله

أما نحن فلم نقصد الا الى بيان ان مافي نفوس العامة من شكل الدين بعيد كل البعد عن حقيقته الظاهرة وطبيعته الطاهرة التي لاتزال واضحة جلية فى القرآن الكريم والسنة المطهرة وما يتبعهما من كتب العلم ومقالات الأئمة ..

فنحن لا نميل الى ان الدين الاسلامي قد عرض له من الفساد العلمي فى الكتب والمقالات شيء يخاف منه وانما كل همنا اصلاح شكله النفسى

الوجه الثانى — أن الفيلسوف سلك في كتابه مسلكا دينيا صرفا فنبذ المادة وآثارها وذم العلم الحديث ونتائجه فلم يرض علم النجوم ومراصده ولا الطبيعة والكيمياء ومعاملهما ولا المطبعة والمطبوعات وما اتصل بذلك بل أراد أن يجعل العالم في هذه الايام كما كان في عهد المسيح صلوات الله عليه

ولسنا نلوم الفيلسوف في ذلك ولا نعتذر عنه لان هذا المقام لا يسمح بشيء من هذا وانما نقول انا لم نسلك هذا المسلك ولم ننح هذا

النحو لأنا نعتقد أن الدين والدنيا كليهما لا ينفع أحدهما بدون الآخر فليست الدنيا الا مادة تسيرها قوة اذا لم تنظم اندفعت بها في غير طريق وليس لهذه القوة نظام الا الدين

وعلى كل حال لم نر أمة عاشت ملحدة فنحكم باستقلال الدنيا عن الدين كان من المستحيل ان تعيش أمة متدينة قد انقطعت الاسباب بينها و بين الدنيا الا اذا كانت مسا كنها في السماء

لذلك ألممنا في كتابنا بطرفي الاصلاح الديني والدنيوي ورجاؤنا أن يتقبله الله قبولا حسنا و يصل به القراء الى ماينفع ويفيد والسلام

اكتوبر سنة ١٩١٥ «ت · ي»

الفصل الاول

« جهنم ملتهبـة وقد وقف عليها جماعـة يتلقون الوافدين وقد أخذ جماعـة منهم قباح الوجوه يمسكون الناس ويلقونهم فيهـا وهؤلاء يصيحون ويستغيثون وعلى مقربة منها مجلس الشياطين وقد جلس في صدرة رئيسهم ابليس بوجه كالح وهو مبتسم ابتسامةسيئة وحوله أعوانه وأتباعه بأشكال مختلفة جدا الا أنها في الجملة قبيحة من كل وجه »

الزبانية (من الداخل)

مرحبا بالضيف يأتى مرحبـا   أضرموا النار وأذكوا اللهبـا
واقذفوا الأضياف فيها حطبا   فقري الضيف هنا هذا السعير

***

من عصى الله ولم يسمع لمـا   أمر الله اسـتحق النقما
وغـدا في النار يلقى حربا   عانيا ما بين حـر وزفير

سكان جهنم (من الداخل يستغيثون)

***

ربنا هـل لنا   مطمع في سواك
أولنا كلنا   نفحة من رضاك

***

قد أطعنا الغرور   وأضعنا الصواب
وغرسنا الشرور   فجنينا العـذاب

***

ولبثنا الدهور في أشد العقاب
فاغتفر جهلنا لم يخب من رجاك

***

الشياطين (من الخارج . . .)

نحن جند الشر أنصار الفساد وحماة الغى أعداء الرشاد
همنا فى الأرض اضلال العباد عن سبيل الله والنهج القويم

***

كم محونا آية الحق المبين وخفضنا راية العدل المكين
وتركنا الناس من شر العناد في خصام ونزاع مستديم

***

كم صرفنا الناس عن دين صحيح ودعوناهم الي دين قبيح
فاستجابوا بولاء ووداد واستلذوا الاثم والفحش العظيم

***

قد بسطنا ظلنا فانبسطا وفرطنا عقدهم فانفرطا
فليعش ملك الشياطين الشداد ولتعش معمورة دار الجحيم

***

ابليس — « يجلس على كرسى عال وأمامه أعوانه وأتباعه » نعم أيها الأعوان هذه هي المملكة المعمورة التى تنتهي اليها سبل الحياة فهي أشبه شيء بالبحر المحيط يمتص جميع أنهار الدنيا ! !

نعم هـذه هى المملكة المعمورة التي يظهر زخرفها لأعيننا وأعين المفتونين بأحاديثنا وأكاذيبنا الباطلة وما هى في الحقيقة الا سجن اليم يجمع التعاسة والشقاء لأولئك المنكوبين البائسين من أبناء الانسان. انى لتاخذنى عليهم الشفقة والمرحمة ولكنى لا أستطيع ان أستجيب لهاتين العاطفتين بل أعتقد ان من الواجب علينا أن نعمل لما خلقنا له. فنغوي من استطعنا اغواءه من عباد الله حتى يسيروا طائعين أو كارهين الي جوارنا حيث يلقون منا أحسن ما يقري به الاضياف من عذاب شديد وحظ منكود ثم نحن نخيل اليهم بعد ذلك انهم انما يعملون في هذه الحياة عن روية واختيار ..!!

مساكين أبناء هذا النوع فانهم يلقون فى حياتهم أشد البؤس وأقبح العنت ثم لا يجنون من صبرهم واحتمالهم الا عناء و بلاء

لقد علم بارئهم الذى فطرهم ومنّ عليهم بنعمة الحياة انهم ليسوا أشد منا قوة ولا أصعب مراسا فلماذا سلطنا عليهم وحكمنا فيهم وجعلهم نهبا مقسما لأطماعنا السيئة ونفوسنا الباغية ..؟

يقولون ان مصدر هذا حكمة مطلقة ولست أدري ماهى هذه الحكمة ..؟ ولكنى ملزم بتنفيذها فأنا فى عملى هذا مطيع لله لاخارج عليه فاسمعوا لى وأطيعوا أيها الاعوان المخلصون وليمض كل منكم لوجهه وليتم كل منكم عمله

افسدوا بين الأفراد والأمم !!

اقطعوا الأسباب والوسائل بين الرجل وزوجه !!

اغرسوا البغضاء والشحناء بين الاصدقاء !!

حببوا الى كل انسان مافي يد غيره !!

انزعوا من قلوبهم فضيلة الرحمة وامحو من نفوسهم أثر العدل . ثم اغمروا الارض ببحر خضم من الدماء دماء الأبرياء ثم مروا هؤلاء الزبانية فليفتحوا أبواب جهنم وليستقبلوا أولئك الوافدين عليها !!

ضعوا في نفوس الملوك حب الظلم وبغضوا اليهم كل مصلح واعلموا ان في هذه الارض عدوين متحاربين هما الخير والشر واعلموا انكم أنتم أنصار الشر وان الزمان معين لكم منفذ لأغراضكم وان أولئك النفر الذين يفلتون من أيديكم الى نعيم الآخرة بعد أن يذوقوا أنواع الشقاء في الحياة الدنيا هم أعداؤكم المصلحون وهم الذين لم تخلقوا الا لاشهار الحرب عليهم في كل حين وليس يرجي منكم أكثر من ارغامهم على ماتطلبون واعلموا أن الله قد فطر هذا العالم وبسط قوته عليه فلم يشذ من ذلك الا مملكة الشياطين التي أنتم زعماؤها فمقامكم لذلك هو مقام المناظرين لله . . !!

فاحتفظوا بهذه المنزلة الرفيعة واعلموا إن الله قد أنظركم الى يوم البعث وهو لايعاقبكم في هذه الحياة فانتهزوا هذه الفرصة وخذوا لأنفسكم حظها من هذا السلام . . !!

اضربوا بين الملوك وبين الشعوب بسور متين من الظلم والعسف

واعلموا أن نجاحكم في ذلك رهين بان تشعروا نفوس الملوك انهم آلهة الارض وتشعروا نفوس الشعوب انهم مسخرون لارادة هؤلاء الآلهة بامر من إله السماء ... !!

احتفظوا كل الاحتفاظ بتلك التماثيل المنصوبة التي تسمى آلهة وحببوا الى الملوك والرعية تعظيمها وتبجيلها وليتخذ كل منكم مثالا من هذه المثل فليسكنهم وليكلم الناس بلسانه اذا دعت الحاجة الى ذلك .. !!

وجملة القول انه يجب عليكم ان تنصروا الشر في هذه الحياة وأن تغلبوه على الخير فانكم لم تخلقوا الا لذلك . !!

« يتقدم اليه كبير من كبار الشياطين ذو صورة بشعة قد برزت أنيابه وطالت أظافره وهي مغمورة بالدماء .... »

الشيطان — أجل يامولاي الرئيس انا قد سمعنا نصائحك ووعينا وصاياك وليست هذه أول مرة دعوتنا فيها الى ما يجب علينا أن نعمله فانك في كل مائة عام موقفا مثل هذا تذكرنا فيه بالواجب وتبين لنا فيه مانحن ملزمون به في هذه الحياة.

وانا لسعداء بان لا يأتي قرن أو بعض قرن حتى تظهر نتائج أعمالنا باهرة فاتنة فانك تعلم ان جهادنا في هذه الدنيا ليس بريئا من المعاندين المكابرين من أولئك الانبياء الذين هم رسل الرحمة الى الناس ولولا هؤلاء النفر ما احتجنا الا الى شيء واحد وهو ان

نؤسس مملكة ثانية كهذه « يشير الى جهنم » لتسع أفواج الضالين المضلين فان نبيا منهم وهو موسى مازال ينازعنا وننازعه ويناهضنا ونناهضه حتى انتشل من بين أيدينا شعب اسرائيل وأنقذهم من عذابنا الاليم أجيالا من الدهر ولولا مهارتنا فى تحريف الشرائع وتبديلها مااستطعنا أن نرجع هذا الشعب الى حكمنا ولست فى حاجة الى أن أذكر مع السرور والابتهاج نجاحنا الباهر فى صد هذا النبي عن شعب مصر ذلك الشعب الذي خدعته أوهامنا وأباطيلنا فلم يسمع لهذا النبي ولم يلتفت اليه بل تبعه فرعون وجنوده الى حيث تلقتهم أنصارنا فروا بهم مسرعين الى هذه المملكة المعمورة وهم الآن يقاسون أنواع العذاب وصروفه

كذلك يا مولاي تعاقبت على شعب اسرائيل طائفة من الانبياء لم يكونوا أقدر منا على قلوب الناس بل كانت الحرب سجالا بيننا وبينهم وكانت النتيجة دائما اننا نحن الفائزون . . !!

ولكن شيء واحد يزعجني ويوقع الرعب فى قلبي حتى كاد يصرفني عما انا بازائه من العمل وهو وان كان بعيدا الا ان من الواجب ان نتخذ له الحيطة قبل وقوعه . . !!

الشياطين — « جميعا بصوت واحد مزعج » ماهو . . ؟

ابليس — هو ذلك النبي العربي الذى سيظهر فى بادية الحجاز بعد حين من الدهر « ثم يوجه كلامه الى كبير الشياطين » أليس كذلك . . . ؟

الشيطان — بلى هو ذاك فما اعلمك بالغيوب وأحاديث القلوب ؟!

ابليس ـ ولكن ما الذي تخافه من هذا النبى العربى ... ؟

الشيطان — أخاف شيئا كثيرا جدا انك تعلم ان الشعب العربي هو من أشد الشعوب لنا اخلاصا وولاء وان فقدنا اياه خسارة كبرى لا يمكن ان تعوض أضف الى ذلك أن أنبياء بنى اسرائيل قد قرروا ان هذا النبي هو آخر الرسل الى أهل الارض ولابد من أن تؤيده قوة كبري من ذلك الاله القدير تضمن بقاء شريعته واستمرار دينه الى آخر عهد الناس بهذه الدنيا

ومن المدهشات ان بشائر هذا النبي قد أخذت تظهر متواترة فى بلاد العرب فبدأت تلك الامة الوحشية السفاكة تثوب الى السكينة والامن وبدأ الناس يشعرون بميلهم الى أن يكونوا أمة واحدة وانه يجب عليهم أن يجتمعوا من كل صوب من العام الى العام لتتحد ألسنتهم وقلوبهم وذلك كما تعلم يامولاي نذير سيئ بقرب النازلة

نعم ان النفور والبغض والعداء يزدادان من وقت الى آخر بين هاتين المملكتين الكبيرتين مملكة الفرس والروم كما أن السخط والمقت يشتدان من الشعوب على ملوكهم ولكني لا أري ذلك أيضا الا نذيرا سيئا لآخر عهد هؤلاء الملوك المطيعين لنا وان هذه الشعوب ستتحرر من ظلمنا يوما ما وان هذا اليوم فيما أظن لقريب فأشر علينا ماذا نعمل وكيف نتقى هذا الخطر الداهم الذى ينذرنا

بسوء العاقبة ... ؟

ابليس — ما كنت أظن انك جبان الى هذا الحد .. !!
فان تلك الحيلة التي غلبتنا على هؤلاء الانبياء ستغلبنا على هذا النبي
وهل تظن أن قوة هـذا النبي مهما عظمت ستكون أ كثر من هؤلاء
الانبياء الذين غلبناهم .. ؟
هون عليك فانـا الدنيا ملك لنا نفعل فيها ما نشاء ومع ذلك فان
جهنم قد أخذت تعلن احتياجها الى الناس
فليذهب كل واحـد منكم الى عمله ولكن اجتهدوا فى ان تفسدوا
تلك القلوب التي أخذت تصلح في بلاد العرب وفى أن تحكوا تلك
القروح التى أخذت تندمل حتى تعود دامية كعهدها وحتي تثور
الحروب المنكرة فان الارض فيما أظن فى ظمأ الى الدماء كما أن جهنم
فى حاجة الى الوقود

الشياطين — (جميعا) نعم ثم ينشدون بصوت منكر

هيا انهضوا للأذي واستقبلوا المنكرات
لستم بشيء اذا لم تنشروا السيئات

***

لا تتركوا طائعا لله أو عاصيا
حتي يرى نازعا عن ربه قاصيا
عبدا لكم خاشعا فى حبكم فانيا

اغروا بهذا وذا جندامن المهلكات

***

لاتتركوامسرحا قفرا ولا آهـلا
الا اذا أصبحا بجمعكم حافـلا
فيـه تدور الرحى بشركم عاجـلا
لا تتركوا منفذا للناس في الصالحات

***

أذكوا أوار الحروب واستوقدوا نارها
واستنطقوا للقلوب في اللهو أوتارها
فالملاهي ضروب ان تلق أنصارها
كونوا لها كالغذا تستتبع المخزيات

***

«هنا يتفرقون جميعا و يبقى ابليس وحده وهو يطوف بجهنم»

«ابليس وحده»

ابليس ـ «يطوف بجهنم» لله أنت أيتها المملكة المعمورة التي لاتشبع ماأحبك الي الآن وأبغضك الى نفسي غدا
نعم أنت حبيبة الي الآن لانك تقبلين على الرحب والسعة من أبعث بهم اليك من الوفود فتعينيني بذلك على تنفيذ خطتي ومع أن لي الفضل في بنائك وتأسيسك فاني أبغضك أشد البغض لانك ستصيرين بعد

حين مأوى لي ومستقرا ولئن كانت ضحايا غوايتي يلقون فيك الآن أنواع العذاب فان ماادخرته لي من هذا العذاب أشد وانكى.. . !!

نعم اني أطوف بك الآن طواف الحاج للكعبة أقدسك وأعظمك ولكني سألقى منك نكرا . . .

ان هول تلك الساعة التي تظفر بن بي فيها ليخلع قلبي ويذهب برشدي على أني أعاني عذابا آخر ملازما لي لا ينفك عني طرفة عين

أعاني عذاب الندم . . ! !

أعاني وخز الضمير . . !!

أعاني آلام النفس السيئة . . . ! !

وكيف لا أندم وقد كفرت النعمة وجحدت الصنيع فاصبحت حربا على من خلقني وان كانت غوايتي لا تضره وطاعتي لا تنفعه .. وهبني نعمة الوجود فخرجت عليه ومنحني فضيلة الحياة فلم أعرفها له فهل أنا بعد ذلك الا دنيء خسيس . ? اني لأعاني من هذه الخواطر آلاما شديدة ولكني صبور عليها فقد كتمتها عن أعواني وأنصاري وبينت لهم اننا في نعيم دائم لا يزول وأن السعادة والهناء مضمونان لنا

هل من سبيل الى عقد الصلح بيني وبين هذا الملك الكبير الذي حاربته ولا قبل لي به ..؟ هيهات هيهات

قد سبقت الكلمة ونفذ القضاء وأصبحت مطرودا من رحمته بعيدا عن نعمته فلتنفذ مشيئته وليكن مايريد ولأتم ما يجب على أن أتمه

من معصية الله وعناده فانى لا أخشى العذاب فى تأدية الواجب ولو أن أبناء الانسان اقتدوا بي فى هذه الفضيلة فضيلة الحرص على الواجب واحتمال الآلام فى سبيله لا منوا شري ولتمت لهم السعادة ويلاه انى لا أستطيع ان اجيل ذكر هذا الاله فى قلبي وانه ايراني على هذا الحال السيئة ويسمع نجواى ثم هو مع ذلك لا يرحمنى فهل تعد هذه قسوة وظلما ..؟

كلا انما هو العدل يجب أن يأخذ نصيبه الكامل من النفوذ والاحترام ....!! آيه أيها الاله القادر انى قد عصيتك فامطر على لعناتك من كل صوب فانى لها أهل وبها خليق ..!!

« يتمشى ويقرب من أحد أبواب جهنم فيتلقاه الزبانية باللعن ويهجمون عليه بمقارعهم ولكنها لا تناله »

كبير الزبانية — اخسأ أيها الشيطان الرجيم فانى لا انتظر لك تلك الساعة التى أملكك فيها وأصب عليك من أنواع العذاب مالا طاقة لك به

ابليس — نعم وانى لانتظر هذه الساعة أيضا ولكنى لا اناها من غير ثمن فسأقدم اليك كثيرا جدا من تلك الضحايا التى تضحى ارضاء لمطامعي وغوايتى فلا تتعجل هذه الساعة ياصاح فانها قريبة . انك عدو لدود لى ولكني أحبك وأشكرك واثنى عليك لانك تستوصى خيرا بوفودي الذين أبعث بهم اليك

كبير الزبانية — بكرهى والله أن ينال أبناء آدم عندى هذا العناء

الذي لم يجنه لهم الا أنت ولئن ظفرت بك لا تتقمن لهم منك

ابليس — حبذا لو استطعت ان تنجيهم من هذا العذاب . ! !

كبير الزبانية — اخسأ أيها اللعين فعبثا تحاول أن تغويني كما أغويت ضعاف القلوب من أبناء الانسان وهل أنا الا منفذ العدل ومحض ارادة ربي . . . ؟

« هنا تسمع ضجة من داخل جهنم ويرى الساكنون فيها وهم صائحون يتقدمون الى الباب . .

سكان جهنم — دعونا نخرج فقد تبنا وانبنا

« يكر عليهم الزبانية فيضربونهم بالمقارع . . . . »

سكان جهنم ـ (صائحين وقد تقطعت جلودهم) لاحاجة لنا بالخروج كفوا عنا مقارعكم ولكن خلوا بيننا وبين هذا الشيطان اللعين الذي اغوانا وأضلنا لننتقم منه

ابليس — وهل جنيت عليكم ذنبا ولماذا أطعتموني واستجبتم لي . . . ؟

(ثم يقهقه قهقهة مزعجة وهنا تسمع ضجة شديدة من البعد وأصوات الشياطين وهم ينشدون وصرير الاسنان وأصوات الصائحين ويعلو لهيب جهنم . ويسمع منها صوت الابتهاج والسرور . هنا يدخل الشياطين فيطوفون بالرئيس وهم ينشدون ضاحكين وخلفهم جمهور من الناس بين مقطوع اليدين ومطمون فى صدره ومكشم الانف وكلهم صائحون . . . . »

أيه يادار الجحيم استقبلى . ذلك الوفد بابهى محفل

وأكلي أن كنت لما تأكلي   من جسوم عودت لمس الحرير

***

عودوا من قبل لذات الحياة   فأذيقيهم أفانين الاذاة

وأقيميهم بشر المنزل   بين حر وشهيق وزفير

***

قد بلغنا مانرجي ونريد   فابلغي فيهم من البؤس المزيد

واشكري فعل الرئيس البطل   مبدل النعمى ببؤس وسعير

***

«ابليس وأعوانه والقوم صائحون»

القوم — ربنا عفوك ومغفرتك فما أضلنا الا الشياطين

« يتقدم اليهم الزبانية فيسوقونهم بالمقارع ويصيحون فيهم »

الزبانية — ألم يأتكم نذير ... ؟

القوم — بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وكنا من أصحاب السعير

« الزبانية يزجونهم فى جهنم ويسمع منها صوت مزعج ... »

جهنم — الى الى هل من مزيد ... ؟

ابليس — (لاعوانه) شكرا لكم أيها الاعوان فلا بد من أن أقسم بينكم مكافأتكم على هذه الاعمال الجليلة ولكن ماهذه الوفود ... ؟

« يتقدم اليه الشيطان ذو الانياب والاظافر المخضوبة بالدماء »

الشيطان — هذه يامولاى الرئيس ضحايا الحروب التى أشهرتها بين الفرس والروم وبين قبائل العرب

نعم من أجل عشرين ناقة رهانا بين متسابقين من العرب أشهرت الحرب بينهما أربعين سنة ومن أجل ناقة واحدة رماها زعيم تغلب وهو كليب ثارت الحرب بينهم و بين أبناء عمهم بنى بكر بن وائل أربعين سنة

ومن أجل ان أخا النعمان بن المنذر ملك الحيرة رمي ناقة لرجل من تميم فقتلها فقام هذا التيمى وقتله حلف النعمان ليحرقن من بنى تميم مائة رجل بالنار فقد حُرِّقوا بالنار فى الدنيا وهم الآن يحرقون فى هذه النار الخالدة هذا قليل من ضحايا العرب وحدهم

أما ضحايا الفرس والروم فلا أستطيع أن أحصيها وانما أقول ان شعبين كبيرين يهلك أحدهما الآخر ارضاء لمطامع رجلين قدجلسا على عرشيهما وزعم كل منهما انه إله أو خليفة إله ... ! !

ابليس — « يَصفِرُ صفيرا مزعجا ويثب وثبة منكرة ويصفق بيديه ويقهقه حتى يكاد يستلقى على ظهره .... »

انك لماكر محتال وان هذه لمهارة تشكر عليها

أحد الشياطين — وهذه ضحايا السرقة يامولاي

آخر — وهذه ضحايا الزنا

آخر — وهذه ضحايا الاوثان

آخر — وهذه ضحايا الكذب

ابليس — (مقاطعا) كفوا الآن

« ثم تحدث ضجة فيطوفون بابليس وينشدون بصوت مزعج »

ياشياطين الفساد　　جردوا سيف الخداع
واشغلوا كل فؤاد　　عن هدي الله المطاع

***

اغلقوا باب النعيم　　وافتحوا باب الجحيم
وأذيعوا فى البلاد　　كل تضليل يزاع

***

اشعلوا نار العداء　　لهداة الانبياء
واملأوا قلب العباد　　لهم شر نزاع

الفصل الثاني

« الكعبة المطهرة وقد نصبت عليها الاصنام و بينها صنم كبير جدا ، هو هبل وقد وقف رجل فى زِي عربى متوسط السن ووقف الى جانبه شيطان حسن الهيئة وقد وضع الشيطان فمه على أذن الرجل والرجل متغافل عنه لانه يفكر فى أمر خطير ثم يتمشى الرجل ذهابا وايابا والشيطان ملازم له لايرفع فمه عن أذنه ..... »

الرجل — نعم نعم لابد من ذلك (يمشي) هذا حق لاشك فيه
(يمشى) عجيب ..!! (يمشي) وأين كنت بالامس ...؟
(يمشى) ومالى لم أقتل هذا الرجل ..!!

انها الخائنة ما كرة ولكن ربما كان لها بعض العذر فسأعاتبها

(يمشي) لا بد من تنفيذ هذه الخطة

الشيطان — (يبتعد عنه قليلا) لله درك لقد أحسنت الاستماع

« ثم يخرج مسرعاً »

الرجل — (يقف فجأة وقد ظهرت عليه آثار الغضب والانفعال)

خانتني تلك الفاجرة بالامس وستأتي الآن فتزعم انها لي حبيبة صادقة فلا بد من قتلها نعم لا بد من قتلها ولا بد من أن أقدم دمها الدنس ونفسها الخبيثة قربانا لهبل أين تلك العهود والمواثيق التي قدمتها الي وزعمت أنها لا تخونها يوما ما . . . ؟

أمن أجل أعرابي حقير يسكن الوبر ويشرب دماء الابل وأبوالها ويأكل الحشرات والخنافس تنصرف عني لا بد من قتلها ومن قتله نعم اني سأدنس هذا المكان الحرام بذلك الدم الخبيث وسأقترف اثما لم أسبق اليه فقد عصمت الآلهة نفوس الناس وحقنت دماءهم في هذا البلد اكراما لهذه الكعبة المقدسة ولكني سأخالف أمر الآلهة سأقتل نفسا معصومة وأهدر دما حراما في الكعبة نفسها وامام الآلهة العظام . . !!

اقبلي أيتها الخائنة الماكرة اقبلي فان سيفي اظمأ ما يكون الي دمك وان كان قلبي أظمأ ما يكون الى ريقك العذب اقبلي فسيعانقك الموت الآن واني لأحسده على هذا العناق وأود لو سبقته اليك اقبلي فستكونين جثة هامدة وسيشهد الآلهة عذابك الأليم

وسيصبون على رأسك بعد الموت عذابا أشد وسخطا أقبح

تريدين كيما تجمعيني وخالدا وهل يجمع السيفان ويلك في غمد

(ثم يبكى) آه ويح هـذه النفس البائسة انها لتحدثني بالفتك والانتقام وانها لتحذرني من عاقبتهما فماذا أصنع ... ؟ الا اني ان قتلتها فقد قضيت على نفسي بالشقاء الدائم وان أبقيتها فقد خضعت للعار وسوء القال

« هنا ترى فتاة في زي عربى وقد أقبلت تخطر ومرت فلم تلتفت الى الرجل حتى انتهت الى أكبر الآلهة فتقبله وترفع يديها ضارعة داعية . ثم تعود .... »

«الرجل والمرأة»

المرأة — عم صباحا أيها الحبيب

الرجل — عمي صباحا أيتها الحبيبة أظنك تأخرت

المرأة — لم أتأخر الا قليلا ولقد تعرف سبب ذلك

الرجل — (بفتور) لا أعرفه

المرأة — (ضاحكة) كيف لا تعرف ان علي ارصادا وعيونا يتربصون بي السوء ويتوقعون لي الفضيحة واني أجد في سبيل لقائك من العناء والمشقة مالا يقوي أمثالي على احتماله

الرجل — (ضاحكا) ان كان هذا حقا فقد أعذرت ولكن .. ؟

المرأة — انك ستقص على حديثا ربما كنت به عالمة فأرح نفسك منه ولا تحوجني الى الدفاع عن نفسي فاني لا أعرف حبا كحبك

. تعبث به الشكوك والاوهام من حين الى حين

الرجل — أو كذب ذلك الحديث . . . ؟

المرأة — من غير شك

الرجل — ومن أين علمت اذا لم يكن حقا . . . ؟

المرأة — انى لا أقول انه كذب من جميع الوجوه بل أقول انك مخطىء فيما استنتجته منه فقد كنت بالامس مع خالد عند الصفا وقد تناجينا طويلا ولكن من أين لك ان هذه النجوى كانت غرامية . ؟

الرجل — وما شأن خالد معك اذا لم يكن هناك غرام . . . ؟

المرأة — (مبتسمة) شأنه معى معروف فانه ابن عمى وهو يتعشق أختى بثينة و بينه و بين أبي وأخى ملاحاة ومجافاة شديدة ولا يجسر أحد منا ان يكلمه ولا يرق له أحد غيري فأنا أرحمه وأعطف عليه وقد كنت بالامس أنصح له ان يخرج عن مكة سنة كاملة وأن لا يظهر أمره فى شعره حتى لا يتحدث الناس بما بينه و بين أختي وقد ضمنت له ان فعل ذلك ان يعود فيقترن بها

الرجل — قد يكون هذا حقا وان خالدا لسيء الحال ولكن ألست أولى منه بهذه الرحمة . . . ؟

ألم تعلمى انى لم أذق الكرى فى ليلتي هذه . . . ؟

ألم يكن من اليسير ان تهبيني بعض تلك الساعة كالتى وهبتها خالدًا . . . ؟

المرأة — لا لم يكن ذلك من اليسير فأنت تعلم انى لو استطعت ان

أنفق معك جميع أوقاتي افملت وما كدت أفرغ من حديث خالد حتي علمت ان ميعاد شوراكم قد انتهى وان كلا منكم سيرجع الي بيته وفيكم أبي فلم يكن لي بدمن المودة وقد عرفت ان هذه الشكوك ستخامر قلبك فلم أستطع ان أتأخر عنك اليوم وأردت ان نجدد عهد الحب والولاء بين يدي الآلهة العظام فيما بنا

« تأخذ يده فيسير معها ثملا يتمايل نشوة وطربا ثم يسجد لهبل وتقف هي فتقبل هبل وتتضرع اليه ثم يقوم الرجل من سجدته فيصافحها . . . . »

الرجل — ليشهد هبل ولتشهد اللات والعزي على انني مخلص لك وصادق في حبك . . !!

المرأة — ليشهد هبل ولتشهد اللات والعزي على انني مخلصة لك وصادقة في حبك . . !!

« ثم يطوفان بالكعبة ويتضرعان . . . . »

المرأة — اذًا فدعني أرجع الآن أيها الحبيب فان القوم سيتوافدون على الكعبة للعبادة وموعدك العشية في الصفا

الرجل — ليكن موعدنا العشية هنا

المرأة — نعم ليكن ماتريد « ثم تخرج »

ووددت وما تغني الودادة انني ... بما في ضمير الحاجبية عالم
فان كان خيرًا سرني وعلمته ... وان كان شرا لم تلمني اللوائم
وما ذكرتك النفس الا تفرقت ... فريقين منها عاذر لى ولائم

فريق أبى ان يقبل الضيم عنوة وآخر منها قابل الضيم راغم

الآن استراحت نفسي واطمأن قلبي وعرفت انها بريئة وانني كنت مخطئا فى اتهامها واني أحمد الله على ان يدى لم تسبقني الى السيف

« وهنا يتوافد الناس وكل من دخل منهم يحييه . . . . . »

القوم — عم صباحا

الرجل — عموا صباحا أيها الساده

« يتقدم الجميع الى الآلهة فيسجدون سجدة طويلة يقبل الشياطين فى أثنائها ويتخذون ناحية ثم يقوم ابليس فيسعى مختفيا حتى يقف خلف هبل . يرفع القوم رؤوسهم من السجود واذا بهبل يتحرك ويخرج من فمه دخان ويسمع منه صوت قبيح ولكنه غير فصيح ثم يتبين الصوت قليلا . . . »

هبل — أى عبادي المخلصين . يامعشر قريش وصميم العرب وسكان البطحاء وولاة الكعبة وقادة الشعوب ومطوفي الحجيج وسادة الدين ورؤوس القبائل

القوم — (بصوت مضطرب) لبيك ربنا لبيك

« ثم يسجدون ويرفعون رؤوسهم من السجود فيشتد اضطراب هبل ويكثر الدخان الخارج من فيه ويأخذ صوته فى الارتفاع . . »

هبل — يامعشر العرب قد سمعتم لي وأطعتم وقد تقدمت الى إله السماء ان ينظر اليكم نظرة العاطف المشفق وان يتولاكم برحمته ومغفرته فأجابني الى ذلك ورفع درجاتكم فى جنته ورضوانه . . !!

القـوم — (جميعا) شكرا لك ربنا « ثم يسجدون سجدة طويلة»
هبل — وقد أحسنتم البلاء في تجديد الكعبة وبنائها ولكن احذروا كل الحذر من سفيهكم الذى سيضلل أحلامكم وسيسفه آراءكم ويعيب آلهتكم

« هنا تعلو أصوات الاصنام ويأخذ القوم فى الزهول . » نعم وحق الآلهة وعزتها وجلالها وما قدمتم الينا من قربان ونحرتم على أنصابكم من هدى وأفضتم من عرفات وسعيتم بين الجبلين ليخرجن منكم رجل ينهاكم عن دين آبائكم ويدعوكم الى دين جديد هو الشر كل الشر تذهب به زعامتكم ويضيع به شرفكم وينهدم له مجدكم فالحذر الحذر عذبوه وعاقبوه وشردوا أصحابه كل مشرد وحق الآلهة لايميلن اليه رجل منكم الا ألحقت به عذابي وسخطي

نعم ان جهنم تنتظر من يحيد منكم عن سبيلنا وانى لاعلم ان فيكم ضالين سيسمعون لهذا الرجل ويطيعون فاياكم والاشفاق عليهم لاتراعوا لهم عهدا ولا عصبية وها نحن لكم بالمرصاد . أغدوا على قرابتكم . .

« ثم تسكن الاصنام وينقطع الصوت والدخان فيقوم القوم وهم زاهلون مضطربون »

أبولهب — هل سمعتم يامعشر قريش حديث الآلهة ومن هو هذا الرجل . . ؟ ألاتدلونني عليه لأريحكم منه وأقدمه قربانا الى الآلهة؟
أحد الجماعة — والله مالنا به من علم ولو عرفناه لقتلناه فلن نرضى

لأنفسنا ان تعاب آلهتنا

أبو لهب — نعم وموعدكم غدا في دار الندوة

« يطوفون بالكعبة ويتضرعون الي الآلهة ثم يخرجون و بعدها يجتمع الشياطين الى رئيسهم وهم يتشاورون »

« الشياطين والرئيس »

ابليس — أرأيتم ياأبنائي الأعزاء الى هذه الحيلة التي ملكنا بها قلوب القوم ودفعناهم باسم الدين الى أن يخرجوا على ربهم ويردوا بايديهم حظهم من السعاده الدائمة والحياة الباقية . . . ؟

الشيطان (ذو الانياب) قد رأينا أيها الرئيس الاعظم حيلتك وأظنها ناجعة ولكنك تعلم ان قوة الله أشد من قوتنا وانا نحتاج الى كثير من أمثال هذه الحيلة حتى نتمكن من الوصول الى غايتنا فنقضي على هذا النبي قبل ان ينتشر دينه فاني أري ان دين الله سمح اذا انتقل من قلب الى قلب اندفع فلم يمكنا ان نرده أو نوقف تياره الا بعد جهد جهيد وقد علمنا وعلمت ان الله متم دينه على كره منا

ابليس — يعجبني منك نظرك في العواقب وحبك للاحتياط ولكن لايصر بك هذا الى الجبن والفرق فان الانسان ضعيف ونحن مسلطون عليه ومهما قوى الدين واشتد أزره فلا بد من أن نجد لنا أعوانا ينصروننا ويخضعون لنا فلنشمر عن ساعد الجد ولنبذل قوتنا وحولنا لمحاربة هذا النبي وللمحافظة على مافي هذا البلد من الضلال فان الخطر

كل الخطر والشر كل الشر في أن يدخل الهدى قلوب قريش لان العرب جميعا لهم تابعون وعلى أثرهم سائرون لنحتفظ بهذه التماثيل المنصوبة والاوثان المرفوعة ولنصدم بها النبي الجديد ولنأته من طريق لايجد عنها مندوحة فنعترف بوجود إله فى السماء وبأن هذه الآلهة وسطاء بينهم وبين الناس

« وهنا يدخل شيطان بشع الصورة مغبر الوجه وهو يلطم خديه وقد شق ثيابه ونهق نهيق الحمر . »

ابليس ـ ويك ماخطبك وما هذه الحال التى أنت بها ... !

الشيطان ـ (بصوت حزين) دهمتنا النازله وأصابتنا الكارثه التى لاأجد لها مردا وقد بعث محمد ... !

ابليس ـ (يقهقه) بعث محمد ...؟ وأي شيء فى ذلك ...؟

الشيطان ـ انك يا مولاى لتستهزىء بهذه البعثة واني لاجد لها خطرا كبيرا على ملكنا وسطوتنا

ابليس ـ انا لانريد الجبن فدع عنك هذا واقصص علينا كيف كانت بعثته ...؟

الشيطان ـ كان محمد رجلا أمينا محبوبا حسن السيرة في قومه قد اشتهر بالصدق والامانة وبالعدل والفطنة فلم تؤخذ عليه كذبة ولم تعرف عليه خيانة وكلكم تعلمون ان قريشا اختلفت حين جاء أوان وضع الركن في القبيلة التى ينبغي لها أن تضعه موضعه واشتد بها الخلاف فى ذلك وذكت نار الفتنة والموجدة وتنازر القوم الحرب

وكانت تسفك بينهم الدماء ومكثوا على ذلك أياماأربعة ثم اجتمعوا بالمسجد وتشاوروا متناصفين واقترح المغيرة بن عبد الله المخزومي اسنهم كافة أن يحكموا فيماشجر بينهم من الخلاف أول داخل عليهم فرضى القوم ذلك واتفقوا عليه فكان أول داخل هو محمد وتصايح القوم هذا محمد هذا الامين هذا الصادق قد رضيناه ثم اختصموا اليه فقضى بينهم قضاء أردهم الى السلم أذ بسط رداءه ووضع الركن وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف الرداء وترفعه ففعلوا ووضع محمد الحجر موضعه بيده وبنى عليه . وكان هذا الحكم الذى حقن الدماء ورد السلام الى نصابه وأخمد نارالحرب بعد ان كادت تشتعل مصدرا لحب الناس له وعطفهم عليه وهو كما تعلمون من عصبية قوية قد طاب أصلها وذكت فروعها وانتهت الرآسة اليها فى قريش وقد تزوج كما تعلمون بامرأة لها من قومها عزة ومنعة فاذا جمعتم هذه الاسباب بعضها الى بعض عرفتم ان من الصعب جدا على أى قوة فى العالم أن تقاومه لاسيما اذا أيد بقوة الله التى لاراد لها . . !

ابليس ـ نحن لانريد الجبن فلا تكثرعلينا من هذا الشرح والتفصيل بين لنا كيف كانت بعثته فلم نرسلك الا لذلك

الشيطان ـ انى لم أذكر هذا التاريخ الموجز جبنا أو فرقا وانما أريد أن أبين حرج الموقف الذي سنقفه من هذا الرجل لنتخذ الحيطة قبل الاقدام عليه ولتعلم اننا اذا اقتحمناه كنا قد أتينا أمرا عجيبا يجب أن نفتخر به على مر الزمان وكرور الاحقاب واذا كنتم

تكرهون ان تسمعوا تاريخ هذا الرجل فانى أقص عليكم بالايجاز والاختصار بعثته وكيف كانت

واعلموا قبل كل شيء انى لاأخاف على نفسى انأومن به أو أكون من أنصاره وان كانت آياته ظاهرة واضحة

كان محمد رجلا عفيفا عن دين قومه ينكره سرا ولا يجهر بذلك ولم يعرف عنه انه سجد لصنم من هذه الاصنام أو قرب اليه ولم يكن مع ذلك يجحد الاله بل كان يعتقده ويؤمن به ايمانا صحيحا وكان يعبده عبادة حقة ذلك انه كان يعتزل قومه ويهجر بيته مدة من الزمان فى كل عام ويخلو الى نفسه في غار حراء فيعبد ربه هنالك

أحد الشياطين — وكيف كان يعبد ....؟

الشيطان — كان يعبد ربه فى هذا الغار عبادة صحيحة هى التى أمر الله بها فى جميع ماأنزل من الكتب والشرائع وهي خلاصةالإديان ونتيجتها تلك العبادة التى تعرف الانسان نفسه وتشعر قلبه انه سيد هذا العالم وما فيه وانه لم يخلق عبثا ولم يترك سدى وانما خلق ليؤدى حقا فرض عليه ويبلغ من الكمال منزلة رفيعة تلك العبادة التى لاتقوم لنا قائمة الا اذا حاربناها وضربنا بينها وبين الناس حجابا مستورا أريد بها التفكير فى خلق السموات والارض والتدبر فيما يشتمل عليه هذا العالم من الآيات البينات والآثار الناطقة بوجود إله حكيم ....

هذه عبادة محمد فقد كان اذا خلا الى نفسه جعل يفكر في هذه

الاشياء وكثيرا ماحاولت ان أصرفه عنها وأحول بينه و بينها أو ان أوسط هذه التماثيل فى العقيدة بينه و بين ر به كثيرا ماحاولت ذلك فكنت أجد قوة خفية ولـكنها شديدة جدا تصدني عن ذلك حتى مضت تلك السنين الطوال التي حاولت فيها اغواءه ولما أظفر بطائل و يسوءني جدا أن أعلن اليكم اني فشلت فشلا مطلقا فيما كلفتموني اياه واردتموني عليه ... !

ابليس ـ ولذلك أخذت تقدم المعاذير وتبسط الحجة لتنجو من العقاب

الشيطان ـ لالم أبسط حجة ولم أتقدم بمعذرة وانما قلت لكم الحق وأنا قابل حكمكم علي وأن لم أكن للعقاب أهلا فان الرئيس نفسه لو حاول ما كنت أحاول من أغواء هذا النبي واضلاله مااستطاع اليه سبيلا

ابليس ـ (بصوت مزعج) اخسأ أتمم حديثك

« ثم يثب عليه الشياطين فيشير اليهم ابليس فيعودون الى أماكنهم. »

أحد الشياطين ـ هذه أول مصيبة تنالنا من هذا النبي وأى مصيبة أكبر من أن يتوب شيطان عن ديننا و يؤمن بدين الله

الشيطان ـ (المتكلم) قد قلت لكم أني

ابليس ـ (مقاطعا) انك لاتريد ان تؤمن به

الشيطان ـ نعم ولو أردت ذلك ماعدت اليكم

ابليس ـ (بصوت منكر) أتمم حديثك كيف بعث محمد ... !

الشيطان ـ كنت واقفا بازاء الغار ذات يوم واذا بملك قد نزل

ابليس ـ هو جبريل من غير شك

الشيطان ـ نعم ثم تمثل رجلا فدخل على محمد فقرب منه صحيفة مكتوبة وقال له اقرأ فقال له ما أنا بقارئ ثم أعاد عليه ذلك ثلاث مرات وهو يجيبه بمثل جوابه وعند ذلك نطق له بأول آية من الكتاب الذى أخشى ان يقضى علينا قضاء أخيرا

الشياطين ـ (جميعاً) ماهى ؟

هى . اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم

« يضطرب الشياطين جميعاً ويكاد يغمى عليهم »

ابليس ـ (يصيح بأعوانه صيحة منكرة فيقومون وهم فى زعر شديد يضرب بعضهم بعضاً) ويلكم أين ما تعلمتموه منى ؟ أهذه هى قوتكم وبأسكم ؟ أهذا هو مكركم الذى ستحاربون به عدوكم ؟

أحد الشياطين ـ معذرة يامولاي الرئيس فلم يكن لنا جلد على ان نسمع ذلك الكلام

ابليس ـ انى أخشي أن أكون قليل الثقة بما ستبذلونه من القوة لمحاربة هذا العدو

الشياطين ـ كلا كلا

ابليس ـ اذا الكلمة الأخيرة التى أقولها لكم أن يذهب كل واحد منكم الى دار الندوة فيأخذ مكانه بجانب رجل من قريش حتى اذا

أخذوا فى الشورى لم يتكلموا ألا بألسنتكم ولم يجمعوا ألا على رأيكم أما أنا فسأذهب في زي رجل نجدى وستكون لمشورتي على القوم المنزلة العليا من القبول والتأثير

« وهنا يثب الرئيس وثبة منكرة وكذلك أتباعه وهم ينشدون »

***

ياجنود الضلال وحماة المحال أقبل الهدى
فالبسوا للكفاح جده لا المزاح وابسطوا اليدا

***

جاء داعى العباد لسبيل الرشاد مبطل الوثن
فانهضوا لاتقاء شر هذا البلاء وادفعوا الحزن

***

ويحكم جردوا عزمكم جردوا وانشروا الفتن
اطلبوا الانتصار والعلا والفخار أو الى الردي

الفصل الثالث

« دار الندوة »

« منزل به قاعة كبيرة وقد اجتمع فيها الشياطين ألى رئيسهم وجلسوا يتشاورون . . . . »

أبليس — كأنكم بالقوم مقبلين الى مشورتهم فلعلكم لم تنسوا ما أمرتكم به من أن يجلس كل واحد منكم الى جانب رجل منهم فيوسوس له بما يتكلم به

اعلموا ان محمدا قد اشتدت شوكته وقد كاد دينه ينتصر فأذا لم نقتله الليلة فليس لنا رجاء فى النصر بعد ذلك نعم قد طالما عارضناه وناوأناه ولكنه سيترك انا الليلة هذا البلد الى قوم قد أعطوه العهد والميثاق على أن ينصروه و يشدوا أزره فخذوا حذركم أما أنا فسأتركم الآن لأحكم الرأى الذي دبرته « يخرج »

أحدالشياطين — أرى القوم مقبلين ليأخذ كل منكم مكانه

« وهنا يدخل القوم أفواجاً »

أبولهب — يامعشر قريش قد علمتم لما اجتمعنا

القوم — نعم

أبو لهب — فان محمدا قد بالغ في الدعوة ألى دينه وقد علمتم صدق الآلهة فيما أنبأتنا ولعلكم لاتنسونا أن هبل أقسم ليخرجن منا رجل يسفه أحلامنا و يكذب ديننا ودين آبائنا وأوعد من اطاعه بالجحيم

وضمن لمن عصاه النعيم وقد خرج هذا الرجل من خيركم حسبا ونسبا ومن أشدكم قوة وعصبية ومن أنفذكم كلمة وأصدقكم رأيا ومن بني هاشم (وهنا يدخل ابليس فى صورة شيخ وقور)

أحد القوم ـ ممن الشيخ ؟

أبليس ـ رجل من نجد علم بما تأمرون فجاء ليحضر مجلسكم عساه أن ينفعكم رأيه

أبولهب ـ نعم ولو كان هذا الرجل غير محمد اهانت البلية ولكنه هو محمد ذلك الصادق الأمين الذي كنا نجله وندعن له فلعمري ماأدرى كيف زعم أنه مرسل من عند الله

ظهر محمد وكتم دعوته الى دينه ثلاثة أعوام تبعه فيها خلق كثير من الاقوياء والمستضعفين ثم زعم أن ربه قد أذن له باعلان الدعوة فأنذر عشيرته الاقربين وكنت منهم فلم أزل بهم حتى صرفتهم عنه ونفرتهم منه وقد كان من حماية عمه له ماتذكرون وكل ذلك بفض اليكم وأنا معكم أيضاً بنى هاشم فتعاهدنا على مقاطعتهم ومنابذتهم فلم يكن بيننا وبينهم علائق ولا معاملات حتى سئمنا ذلك وسئموه وحتى مات أبو طالب فاستبحنا لأنفسنا ايذاء محمد والانتقام منه وألحقنا به وبأصحابه كثير من الضر حتى هاجر منهم الى بلاد الحبشة خلق كثير ومما يأسف له أن أقوانا عضدا وأشدنا بأسا وأربطنا جأشا أي عمر ابن الخطاب قد آمن بهذا الرجل • كل ذلك قد كان ولم يلق محمد وأصحابه منا ألا نكرا فحمله ذلك على أن يعرض نفسه على قبائل

العرب فى الموسم يبتغى منهم النصر والمعونة فكنت أصدهم عنه حتى لم يفلح وقد ترك مكه وذهب ألى ثقيف بالطائف يستنصرهم فخذلوه وآذوه ايذاء شديدا ولقد كانت هذه الخطة التى اتبعناها معه بأرشاد الآلهة كفيلة بأسقاطه واهباط سعيه لولا انه التجأ الى الاوس والخزرج من أهل يثرب سرا منذ سنتين فقبلوا دعوته وبايعوه على أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم وأموالهم وقد أنبأتنا الآلهة بأنه ظاعن الليلة عن هذا البلد ألى يثرب فواللات والعزى ائن مكنتموه من ذلك ليكونن عليكم حربا وليصرفن عنكم وجوه العرب و وفود الحجيج وليضرمن عليكم نارا لاقبل لكم بها

يامعشر قريش واللات والعزى أن هذه الليلة المقبلة لهى الفاصلة بينكم وبين محمد فاما أن يفوز فوزا دائما وأما أن يموت بسيوفكم فتنالوا عز الدهر

يامعشر قريش تالله مارضى أحد بما رضيتم به فان قوما تسفه أحلامهم وتسب آباؤهم ويكذب دينهم وتذرى آلهتهم ثم يسكتون على ذلك ألا جبناء أذلاء

يامعشر قريش كأني بالآلهة ينظرون أليكم نظرة المستنصر المتوعد فأن نصرتموهم فالسعادة الدائمة وأن خذلتموهم فالخذلان المبين

يامعشر قريش أن يفتكم محمد الليلة فقد التجأ الى قوم أولى قوة وأولى بأس شديد لهم من خصب أرضهم وكثرة عددهم حول عليكم وطول فانظروا ماذا تصنعون «مجلس»

أبو سفيان — لعمرى لقد قلت فاجدت ونصحت فصدقت وأننا لاحوج مانكون الى أن نسمع لقولك ونصغى الى رأيك فاشر علينا

أبو لهب ـ لارأى عندى الا أن يقتل

أحد الجالسين ـ ولكن ماذا نصنع مع بنى هاشم .... ؟

أبو لهب ـ تلك هى التى نبحث عنها

أبو سفيان ـ نعم أن بنى هاشم ذوو عصبية وأولو قوة و بأس وخلفهم من العرب نصير واهم منا رحم وقرابة والحرب ممكنة ولكنها مهلكة فانظروا واحصفوا الرأى ثم أشيروا

أحد الجالسين ـ أحبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ماأصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله حتي يصيبه ماأصابهم

ابليس ـ لعمرى ماصنعت شيئا ولئن فعلتم ذلك لينفذن أمره الى أصحابه فيضرمون عليكم نارا محرقة

آخر ـ نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنافاذا أخرج عنافوالله مانبالى أين ذهب ولاحيث وقع

ابليس ـ لا والله ماوفقت فلو خرج لاشتد عليكم أذاه ولم تخرجونه وهو يريد أن يخرج من نفسه ولعمري يامعشر قريش لقد جئتكم برأى هو الخير كله

القوم ـ هات

ابليس ـ يجتمع من كل قبيلة من قبائل قريش شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يجلسون بباب محمد

حتي اذا خرج وثبوا عليه فضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتل ولا تستطيع بنوهاشم أن تطلب دمه من قبيلة بعينها كما أنها لاتستطيع أن تمادى قريشا أجمع فيضيع دمه بيننا هدرا

أبو لهب ـ (ضاحكا) لعمرى أن هذا لمن توفيق الآلهة فماذا ترون يامعشر قريش ...؟

القوم ـ (جميعا) هذا حق . هذا حسن

أبو لهب ـ اذا فلننصرف الآن ولتبعث كل قبيلة رسولها الى باب محمد مساء اليوم «يخرجون و يدخل الشياطين ورئيسهم ابليس»

ابليس ـ الى هنا يظهر أننا قد فزنا

الشيطان ـ (ذو الانياب) لم نفز الا فى تسيير قريش الى ما نريد ولكن من لنا بمصادمة الاسباب الطبيعية والفوز علي الله نفسه فانه قد وعد نبيه بالنصر وأكد له الفوز واني لاخشى أن تكون هذه الحركات التى نأتيها أشبه بحركات المذبوح قبل الموت

ابليس ـ (صارخا) أف لك من يائس جبان

أحد الشياطين ـ وقد وعد الله نبيه موسى وغيره من الانبياء بالنصر ولكنا مع ذلك قد انتصرنا عليهم

ابليس ـ (ينظر) أري فتاة مقبلة ففيم جاءت ...؟

شيطان العشق ـ (ينظر) هذه يامولاى الرئيس فتاة عاشقة جاءت تنتظر حبيبها

ابليس ـ لاشأن لنا هنا الآن فلنخرج

شيطان العشق – كلا يامولاى أن لى شأنا كبيرا فكيف أترك هذين العاشقين بدون ان أغريهما ان شئتم ان تخرجوا فافعلوا ودعونى وان شئتم ان تبقوا فتنظروا مايجرى بينهما افعلوا

أحد الشياطين – ان لدى أعمالا كثيرة وقد تركت قبيلتين من قبائل العرب على مقربة من الحرب فلا بد من أن أرجع لاشهر الحرب اشهارا نهائيا

آخر – ولدى أيضا أعمال كثيرة فقد تركت جماعة من أهل نجد يتأهبون للنهب والسلب ولا بد من أن أهديهم سواء السبيل

آخر – ولدى أيضا أعمال كثيرة فقد تركت مدائن الفرس فى خلاف شديد وهم عازمون على قتل الملك فلا بد من أن اتمم عملى

آخر – ولدى في مصر أعمال أخرى فقد تركت الخلاف شديدا بين البطريرك والحاكم الرومي وقد هم الحاكم بقتله وأخاف ان يهرب البطريرك فيجب أن أدركه

ابليس – اذا فليذهب كل منكم الى عمله ولا تنسوا ان تتوافوا هنا فى المساء لتشهدوا قتل محمد اما انا فسأبقى في هذا البلد لاحرض الناس واوغر صدورهم حتى لايكون منهم فتور ولا قصور

« يخرجون ويبقى شيطان العشق مختفيا وهنا تدخل الفتاة »

الفتاة – (وهى فى ذهول) ويحى قد كنت اسمع اصواتا خفية وانا الآن ارى خيالات مزعجة وانى لاحس بنذير السوء يتقدم الى وقد ابطأ على حبيبى فليت شعرى ماذا حدث ... ؟

فقد التقينا فى الصفا وكان ميعادنا ان ينتظرنى هنا بعد فراغه من المشورة فأين ذهب وما باله لم يأت ...؟

انى لاخشى عليه العاديات فأن القوم به يأتمرون وقد كنت ارى على وجهه بالامس آثار التردد والاضطراب

الشيطان ـ (هامسا) صدقت فأنه لم يأت للمشوره اليوم ولقد شغلت عنه ولا ادرى اين هو ...؟

الفتاة ـ (منتحبة) اذا لخير لي ان انصرف لابحث عنه ولا اعرف شؤونه فلعل قارعة قد اصابته . ويلاه اني لمشفقة عليه من اشياء كثيرة اقلها سخط ابى فيجب ان اخرج الآن لعلى اعرف من امره شيئا

« تهم بالخروج وهنا يدخل العاشق رزينا تبدو على وجهه ابتسامة جميلة »

الفتى ـ مكانك أيتها الحبيبة لاتخرجي فها أنا قد جئت وأعتذر اليك من التأخير

الفتاة ـ (مبتهجة) لعمرى لقد روعتنى كثيرا (ثم تريد مصافحته فيكف يده) مابالك لاتصافحنى وهل هنا ثالث...؟

الفتى ـ لا

الفتاة ـ اذا فمالك ..؟

الفتى ـ لست أدرى ماذا أقول لك ولكن (يبكي)

الفتاة ـ (بسكون) انه يبكى ليت شعرى ما الذى جرى ابنتني بحق عليك لماذا تنتحب ولماذا تنفر من مصافحتى ولماذا جئت اذا..؟

الفتي ـ انتحب لان الفراق قد حان حينه وأ أبى مصافحتك لانها على حرام وجئت لأ ودعك الوداع الأخير

الفتاة ـ (مرتجفة) ماذا اسمع من الألغاز ... ؟ تبكي لقرب الفراق وتأبى مصافحتى لانها حرام عليك وجئت لتودعني فماذا حدث نبئنى فقد أزعجتنى ... ؟

الشيطان ـ (هامسا) ان صدق رأيي فقد حدث لهذا الفتى حادث جليل لم يخطر لى على بال

الفتى ـ (يلتفت يمينا وشمالا) لا ليس هنا أحد أتريدين أن تعلمى الحقيقة ... ؟

الفتاة ـ من غير شك

الفتى ـ (بهدوء) انى قد تبعت محمدا

الفتاة ـ «صارخة» ويلاه ياللداهية ويالالمصيبة

الفتى ـ تثبتى فاني لم أتمم حديثي

الفتاة ـ لعمرى لقد صدعت قلبي بهذا الحديث وقد وقفتنى موقف الحائرة الزاهلة فلا أدرى ماذا أصنع ولا أعرف كيف أقول .. ؟

الفتى ـ أن الطريق واضحة والامر ظاهر ظهور الشمس فأنك تحبينني وأنا أحبك وقد استجبت دعوة محمد

الفتاة ـ (مقاطعة) لاتسمعنى هذا الاسم

الفتى ـ اذا فاذني لى بالانصراف (يهم بالخروج)

الفتاة ـ قف أكمل حديثك ثم ماذا ...؟

الفتى ـ ثم أريد أن أهاجر الى المدينة مستخفيا فان كنت على عهدك فهلمي اتبعي هذا النبي الكريم واخرجي معي

الشيطان ـ (هامسا) ياللداهية ..

الفتاة ـ (بحماسة) تلك التي تستك منها المسامع أجننت ..؟ كيف أترك دين أبي وأخرج مستخفية من بلدي فيتحدث العرب أن ابنة فلان هربت وجلبت على أبيها عارا لا يمحى

الفتى ـ إذاً فالوداع واني لأرجو أن يهدي الله قلبك فنجتمع مسلمين كما اجتمعنا مشركين

الفتاة ـ (بحماسة) مكانك فانك لاتستطيع أن تخرج وقداستحال حبك في قلبي الى بغض ولا بد من أن أدل القوم عليك فيقتلونك قبل أن تخرج من مكة

الفتى ـ (مبتسما) لعمر أبيك ماصدقت ولا بررت في حديثك فان حبك لي أثبت من أن ينقلب الى بغض في لحظة واحدة وانه اذا كان كذلك فحق على ان لاأمكنك من الخروج واست لأبى ان لم أروى سيفي هذا من دمك

الشيطان ـ (مبتسما) ان فاتني اغواؤهما على الفجور فلم يفتني سفك دم أحدهما ولا بد من ان شيطان القتل سيشكر لى هذه الصنيعة

الفتاة ـ (بصوت هادئ) هوّن عليك أيها الحبيب فقد كانت بيني وبينك نزوة أظنها شيطانية فما بالنا قد لجأنا الى السيف ونحن نستطيع أن نجعل الحب حكماً بيننا ..؟

الفتى ـ أنت التى قد ألجأتني الى ذلك ولست أريد ان أطيل الحديث فهلمي اسمعيني كلمتك الأخيرة أمسلمة انت ؟

الفتاة ـ لا

الفتى ـ اذا فلا موقف لى معك

الفتاة ـ اني أقسم عليك بموقفي معك أمس ان تصطنع الأناة لعلنا نتفق أنه قد كانت بيني و بينك مودة قديمة منذ سنين وقد أوشكنا ان نجنى ثمرتها ولن تكن العواطف الدينية تستطيع ان تحكم بيننا وانما كنا نكتفى بعواطف الحب والغرام فلماذا صفيت الى تلك العواطف واستجبت لمحمد ؟

أليس من الممكن أيها الحبيب ان نعتزل الفريقين ونعيش وحدنا لادين لنا الا الحب ؟

الفتى ـ مستحيل سبق السيف العذل واعلمي ان هذا الامر لايحتمل مناقشة ولا جدالا وعزيز عليّ جدا ان أحدثك بهذه اللهجة ولكن معذرة اليك فانى مغلوب على أمرى

الفتاة ـ اني لاأستطيع ان أصادر عاطفة كهذه تخيل الى انها شديدة ولكنى أرى رأيا ربما كان فيه الخير

الفتى ـ هات

الفتاة ـ ابق على دينك ولكن تكتمه وابق معى وأنا اؤكد لك انى أتبعك

الفتى ـ لايمكن ان الهجرة أصبحت امرًا مقضيا

الفتاة ـ لعمرى لقد قلبت وجوه الحيلة فلم أفلح وانى لبين نارين فأما فراق واما جلب العار على أبى كلاهما صعب لايحتمل فاشرعلى

الفتى ـ لا أرى لك الا اتباعي ومع هذا فقد آن وقت الرحيل فاستودعك الله وأرجو ان يهديك

الفتاة ـ (تنتحب ثم تقبل اليه فتريد مصافحته فيأبي) ويحك انك قاتلي إذاً لم تقبل مصافحتى (ثم تهم بمصافحته)

الفتى ـ (يدفعها عنه ويخرج مسرعا) بينى وبينك الاسلام

الفصل الرابع

« ابليس وأعوانه »

« الكعبة المطهرة عارية من الاصنام وقد وقف بعيدا عنها جماعة الشياطين وفيهم رئيسهم وهم جميعا يبكون ويلطمون وجوههم وهم ينشدون . . . . »

جاء دين الهدى رغم دين الضلال
وجنينا الردي بعد طول النضال

***

ليس يجدي العناد للقضاء المتاح
قد أردنا الفساد وأراد الصلاح

فليكن ما أراد قدوضعنا السلاح
وقبضنا اليـدا عن فنون النزال

***

ابليس ـ يامعشرالشياطين
الشياطين ـ لبيك وسعديك
ابليس ـ قد رأيتم ماحل بكم وبمملكتكم فقد انهدمت جهنم أو كادت وأصبحت كأن لم تكن وقد حطم محمد آلهة القوم بالأمس فأصبحوا كأن لم يكن لهم المجد والسؤدد في هذا البلد وقد أصبحت قريش والامة العربية بأسرها تلك الامة المشركة الضالة مؤمنة قانتة لله بعد أن كانت لاتعرف الاالغى والبغى والاالظلم وسفك الدماء نعم آمنت الامة العربية بمحمد وانتصر حق الله على باطلنا ولم يبق لنا فى هذه الجزيرة مقام ولست آسف لاننا قصرنا فى سعينا أو أهملنا فيما كان يجب علينا فقد أبلينا أشد البلاء وأحسنه فى محاربة هذا النبى ولكن الله متم دينه ولو كره الـكافرون
نعم قـد أبلينا بلاء حسـنا فى حرب محمد فأغرينا به قومـه حتى آذوه وآذوا أصحابه واضطروهم الى الهجرة فهاجروا وحرضوا القوم على ان يقتلوامحمدا قبل انيخرج من بين اظهرهم فاستجابوا لنا واجتمعوا بازاء بابه ليقتلوه ولـكن الله اعمى ابصارنا وأبصارهم فخرج محمد من بيته ووضع التراب على رؤوس القوم وهم غافلون ونحن أشد غفلة منهم ثم نجا مع صاحبه الى يثرب هنالك وثقنا بالخيبة وأيقنا بالفشل

ولكننا جاهدنا جهادا شديدا واوقعنا فى نفوس القوم حب الحرب فكانت بينهم وبين محمد حروب كثيرة لم يفوزوا فيها بشيء ما وقد أضرمنا على محمد نيران العرب جميعاً فلم نفلح بل انتصر على كل أعدائه وكنا كمن يسعي الي حتفه بظلفه وكان من جميع هذه الحروب قوة لمحمد مكنته من أن يجمع العرب الذين كانوا أعداء ويأتي بهم الى هذا البلد فيدخله عنوة ويكسر الاصنام والآلهة وقد أسلم معه جميع قريش وفيهم أبو سفيان ذلك الذى كنا لا نعتمد الا عليه وكانى بكم الآن وقد رأيتم قوة سماوية فرقتكم أيدى سبا وحيل بينكم و بينى فأن مما لا شك فيه أن الله لا يقبل مقامنا فى هذه البلاد التي آمن أهلها فأمنوا مكرنا فليذهب كل منكم لعمله فى غير هذه البلاد فان المسلمين قليلون ولديكم بلاد فارس والروم ومصر وغيرها من مدن الدنيا

اشعلوا فى نفوسهم نار الشر واحذروا أن يغلبكم عليهم محمد كما غلبكم هنا

الشياطين — (جميعا) وأنت أين تكون ؟

ابليس — أنا سأبقى هنا لعلى أستطيع ان أحدث فى نفوس القوم شيئا من الحوادث وأوقع بينهم الفرقة واذا كان شيء من ذلك فسأدعوكم فتستجيبون لى

الشياطين — نرجو أن نوفق

« ثم يخرجون وهم ينشدون بصوت الحزين »

جددوا العزم ولا تطمئنوا للكسل
رب ساع فشل ثم وافاه الامل

***

ان يكن عم الهدى فسيمحوه الضلال
وسناق السؤدد بأفانين المحال
فهبوا الشر يدا منكم ذات نوال
واجيدوا العمل مصدرا لنجح العمل

***

ابليس وحده — نعم ان مهمتي عظيمة جدا فانى احاول ان اهدم بناء قد ثبت الله اساسه وقديما كانت هذه حيلتي في افساد الاديان والشرائع ولئن كان هنالك ذنب لي سأخلد من اجله في النار فهو هذا الذنب . . ؟

أجل قد أمهلني الله كثيرا وما أظنه الا سيمهلني في هذه أيضا فان يوم الدين الذي أنظرت اليه لم يأت وان يأتى الا بعد زمن طويل فلانتهز الفرصة ولكن كيف يكون الوصول الى غايتي . . ؟

انى أزعم أنى رئيس المكره وزعيم الشياطين ومدبر الفساد في الارض فلاعمل اذا ذا كرتي وقوتي لاختراع حيلة تؤدى الى الغاية في وقت قريب « ثم يمشي مفكرا ثم يرفع رأسه باسما مبتهجا »

الآن قد وضحت السبل فمالى لا أغرس في نفوس افراد من الذين آمنوا بمحمد حب الحسد والمنافسة واحبب اليهم ادعاء النبوة

وأنهم شركاء محمد فى الامر والقوم حديثو عهد بالدين وهم أولوا عصبية لابنائهم ...!!

نعم هذه فكرة صائبة فلاوجه أعوانى ألى أفراد من قبائل العرب ولاتوجه أنا ألى من ستكون له الكلمة العليا وأنى ارجو أن نصل فى وقت قريب الى مانريد

« وهنا يصفر صفيرامزعجا فيتقاطر عليه افراد الشياطين من كل صوب بصور مختلفة ولكنها بشعة . »

الشياطين — لبيك هل اهتديت الى طريق تخلصنا من هذا السوء؟

ابليس — نعم فاسمعوا وأطيعوا .

أحد الشياطين — ومتى كنا فى حاجة الى مثل هذا الامر

ابليس — أني اعلم منكم الطاعة فليأتمر كل منكم بما آمره به

« يشير الى أحدهم فيتقدم اليه »

تذهب الى الجزيرة فتنزل فى بني تغلب وهم نصاري لم يسلموا الى الآن وهناك امرأة موسوسة يقال لها سجاح فضع في قلبها حب النبوة ولا تدعها حتى تظهر دعوتها وتأتي بجيش من قومها وأولى عصبيتها لتغزو المدينة

أحد الشياطين — انها لفكرة جميلة

ابليس — « يشير الى آخر » وتذهب أنت الى بلاد بنى أسد فتجد هناك رجلا مشعوذا يقال له طليحة بن خويلد فالزمه ووسوس له وانطق على لسانه بالاسجاح وأظهر على يده الأعاجيب حتى يدعى

النبوة ويؤمن به قومه وينتقضوا على المسلمين

الشيطان — نعم الرأى

ابليس — « يشير الى آخر » أما أنت فاذهب الى بنى تميم وحبب اليهم الكفر بعد الايمان وبين لهم أن دفع الزكاة ذلة لايرضى بها الحر الابي ولاتدعهم حتى يمتنعوا عن أداء الصدقة

الشياطين — (جميعا) أنه لتدبير جميل

ابليس — « يشير الى آخر » أما انت فاذهب الى عبد القيس فى بلاد البحرين وانتظر موت محمد فاذا مات فضع فى نفوس القوم أنه كاذب لانه لو كان نبيا لم يمت ولا تدعهم حتى يكفروا بعد ايمانهم « الشياطين جميعا يرقصون و يصفقون وتكون لهم جلبة »

احد الشياطين — اذا فسيرجع لنا المجد والعظمة وسنكون أهل القوة والسلطان كما كنا وأنى لا رجو أن لايمضي زمن حتى تعود الآلهة الى مكانها فى الكعبة

ابليس — نرجو جميعا ذلك فليذهب كل منكم الى حيث أمر

بعض الشياطين — انك لم تأمرنا بشيء ما

ابليس — قد وضعت لكم أساس الفكرة فعليكم أن تروجوها بكل قواكم وأذا استطاع أحدكم أن يذهب الى المدينة وينتظر انتقاض العرب على المسلمين فينصح لهم عند ذلك بان لايحاربوهم فليفعل واذا استطاع آخر أن يذهب الى اليهود فيحرضهم على ايقاع الفتن والدسائس بين المسلمين فذلك خير

أما أنا فسأذهب الى رجل سيكون على المسلمين شرا شديدالوقع وهو مسيلمة الحنفي فأنكم تعلمون سخف عقله و كثرة ماعنده من مال ورجال ومن عدد وعدد

الشياطين — (جميعا) لله درر ئيسنا «ثم يضحكون ويرقصون وهم ينشدون.»

من هذا الدين نمن يد الفساد
هل له معين من أولى الرشاد
نحن بعد حين سادة البلاد
سوف نستعيد عزة الاوثان

***

فليدم ابليس مصدر الشرور
نصحه تدليس وهداه زور
أيها الرئيس أننا حضور
مر بما تريد كلنا شيطان

« هنا يتفرق الشياطين و يدخل جماعة من الناس فى ازياء عربية بين رجال ونساء وهم يرفعون أصواتهم بذكر الله تعالى فيطوفون بالكعبة أشواطا ثم يجلسون. »

احدالجماعة — الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

آخر — نعم لقد هدانا الله جل علاه بفضله الى رضاه وأوقع ذجسيم حب طاعته بعد أن كاد يهلكنا الشرك ويقضى علينابالحين كريم

ولقد مكرنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مكرا شديدا فآذيناه وأخرجناه من دياره وشردنا أصحابه كل مشرد ولولا ان من الله تعالى علينا بالهدى لكنا الآن من اصحاب الجحيم .

آخر — ماأسمح هذا الدين واجمله أيها القوم فقد كنا نجد ايام الشرك شقاقا وعنتا فاصبحنا الآن وقد برأ الله نفوسنا من كل غي وطهر قلوبنا من كل رجس وغرس فينا الفضائل فمن منا الذى يستطيع الآن ان يتعصب لغير الحق او يغضب لغير الله . ؟

قد كنا غلاة فى حب انفسنا فاصبحنا الآن نؤثر عليها حتي أن احدنا ليقول لصاحبه اختر احدى زوجاتى فأطلقها لك وكنا غلاظ الاكباد قساة القلوب لا نعرف العفو ولا نطمئن اليه فاصبحنا الآن رقاق القلوب رحماء حتى ان احدنا لا يعرف الانتقام ويكاد ينسى اسمه كل هذا انما تعلمناه من سماحة هذا الدين الكريم وبشاشته ومما اتصف به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضائل ومكارم الاخلاق فهل بلغكم خبره مع كعب بن زهير . ؟

القوم — لا

الرجل — لما فتحت مكة اسلم اهلها وخرج بجير وكعب ابنا زهير فلما كانا فى الطريق تذكرا ان اباهما قد كان حدثهما ان سيكون للسماء [illegible] فرأى بجير ان يرجع فيعرف ما عند النبي فرجع ولكنه واذا [illegible] النبي حتي آمن وتاب الله عليه فغضب أخوه لذلك وهجاه والدسائس [illegible] بشىء من شعره فلما بلغ النبي ذلك أهدر دمه

فكتب اليه أخوه يحذره ويدعوه الى الاسلام ويضمن له عفو النبي عنه فاقبل كعب متنكرا حتي دخل المدينة ولقي النبي بعد صلاة الصبح فقال يارسول الله ماتقول فى كعب اذا جاء تائبا اليك مسلما فقال أقول أنه مسلم معصوم الدم والنفس قال أو تعفو عنه قال نعم فرفع كعب لثامه وقال هاأنا ذا كعب يارسول الله ثم آمن به وأنشده قصيدة طويلة مدحه فيها ومدح أصحابه

فلما سمعها النبي خلع عليه بردته وباعها كعب من معاوية بأربعين ألف دينار

بعض القوم — ليس هذا بكثير على النبي فقد أدبه الله فأحسن تأديبه وقد أثنى عليه في القرآن فقال وانك لعلى خلق عظيم * وقد أمره الله باللين والعفو والشورى فقال ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر وقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين

آخر — اليوم آمن بالنبي محمد ... قلبي ومخطئ هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها ... ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والدي كلاهما ... زللي فانك راحم مرحوم
وعليك من علم المليك علامة ... نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه ... شرفا وبرهان الاله عظيم
ولقد شهدت بان دينك صادق ... حق وانك في العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى ... مستقبل في الصالحين كريم

قوم عـــلا بنيانه مـــن هاشم　　　فرع تمكن فى الذرا وأروم

آخر — بمثل هذا الحديث تعطر الاندية والى مثله تطمئن القلوب فالحمد لله على ماأسدي الينا من نعمه وآلائه

الفتى العاشق ـ « مبتهجا » الحمد لله لقدمن عليّ بنعمتين لا أستطيع لهما شكرا من عليّ بالاسلام فانقذنى من الضلال والشرك ومن على باسلام حبيبتي فضمن لى السعادة والراحة فى هذه الحياة ولقد لقيتها بالامس عند الصفا بعد هـذه الفرقة الطويلة وسلمت عليها بســلام الاسلام ثم اتفقت معها على القران وبهذا ستتم لى السعادة كل هذه نعم لله عز وجل يجب أن أشكرها له وأثني عليـه من أجلها وأقسم أني لعاجز عن ذلك على أني لاأبغى الا شيئا واحدا وهوان استشهد فى سبيله وأموت في اعلاء دينه فانه تعالى يقول ـ ان الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون ـ ثم ينهض القوم جميعا

أحدهم — ليغد كل منا الى عمله « ثم يخرجون وهم يجأرون بذكر الله »

الفصل الخامس

﴿ المنظر الاول ﴾

« هيئة قاعة مظلمة يظهر عليها قدم العهد قد ألقي فيها ابليس مصفدا مقيدا في حال رثة وصورة قبيحة تظهر عليه التعاسة والبؤس وهو يتكلم بصوت خافت . »

ابليس — هذه هي الساعة التي كنت أنتظرها منذ هبطت الى هذه الدنيا فقد عشت في الارض وأفسدت أمور أهلها زمنا طويلا والآن خضعت كارها لقانون الانتقام فانا الآن أؤدي للناس والله ما كان عليّ من الدين

عصيت الله وخالفت أمره وبثثت بين عباده اعواني وأنصاري يغوونهم ويقودونهم الى الشرور والآثام ثم الى جهنم حتى ملئت حظائرها ولم يبق فيها موضع قدم الا تلك المنازل التي أعدت لي ولأعواني . فهل هذه القاعة المظلمة التي انا فيها حفرة من حفر جهنم . ؟ لا فمالي لا أسمع ضجيج المعذبين وصرير أسنانهم . ؟ ومالي لا أرى جلودهم تنضج وما لي لا ألقى من الزبانية ذلك العذاب الشديد الذي أنذروني به منذ أمد بعيد . ؟

أجل اني لا أظن اني القى عذابا اشد مما انا فيه من عتب النفس ووخز الضمير ومن العجز عن القيام والحركة ومن الضعف عن اغواء الناس وتضليل عقولهم ولكن هيهات هيهات : اين يكون هذا من

عذاب الآخرة فالعذاب الآخرة أشد وابقى ٠٠ !!

اني اندم الآن اشد الندم ولكن أعرف ان هذا الندم لا يفيد لذلك لا أتوب الى الله ولا اسأله العفو والمغفرة فاي فائدة في طلب المحال٠؟ وكيف تصغر نفسي الي هذا الحد تلك النفس التي جادلت الله فيما مضى من الزمان عتوا وظلما وصارحته بالمعصية وابت عليه ان تخضع لامره كيف تتوب الآن وتعترف بذنبها مهما كانت مخطئة آثمة ومهما كان الخطر الذي يتهددها شديدا ٠٠؟ لا ٠ لا ٠ لا توبة ولا معذرة فليفعل الله مايشاء ولاحتمل ما انا فيه بصبر وثبات ٠ عاديت محمدا واعنت عليه وخذلت الناس عنه ورغبتهم في ان يثيروا عليه الحروب ويظهروا له السوء ويتولوه بالاذى ففعلوا ولكنهم فشلوا وفشلت فانتشر دين محمد في مكة ثم هاجر الى المدينة بكرهنا ثم اخضع جزيرة العرب واصلح امرها في زمن قليل حتى انهزمنا عنها او كدنا ننهزم ٠ ثم مات وقد اتم الله دينه واكمل شريعته فانتهزنا هذه الفرصة واتينا الى القوم من مواضع الضعف فيهم فزينا لهم الردة وحببنا اليهم المروق فارتد عامتهم الا قليلا من قريش وثقيف والانصار واصبحت جزيرة العرب مشركة بعد ان آمنت وكدنا نعيد الاوثان الى اماكنها في غير مكة ولكن واحسرتاه فقد ابى الله الا ان يتم دينه وينصر الذين احبوه فقام المسلمون بعد قليل من التردد وقاتلوا القوم قتالا شديدا حتى ردوهم الى ما كانوا فيه طائعين او كارهين هنالك وثقنا بالفشل وانجلينا عن جزيرة العرب وقلنا حسبنا غيرها من بقاع الارض ولكن ماهي

الا ان ابصرنا جيوش المسلمين تتبعنا فى كل صوب وتطاردنا من كل مكان وقد زحفت جنودهم على الفرس والروم وافريقيا وانتشر دينهم انتشارا هائلا فكدنا نصعق من هول النازلة ولم ندر اين نذهب ولا من اين نجيء حتى ظهرت دعوة المسلمين وعم دينهم وعلت كلمتهم فظهرت بذلك الفضيلة وعم العدل وثبتت مكانة الحق ونفر الناس مما كنا ندعوهم اليه من الاثم والفجور ومن البغى والازور ومن عبادة الاوثان وتعظيم الكواكب والسجود للنار واضطربت عقائد اهل الكتاب من اليهود والنصارى فدخلوا في الاسلام افواجا وصلحت سيرة من بقي منهم على دينه خضوعا للبيئة والوسط فلم يبق لنا مع القوم مقام وقد سدت علينا السبل وضاقت فى وجوهنا الحيل فتفرقنا في كل صوب وما هى الا ان هبطت قوة هائلة من السماء لا اعرفها ولا استطيع ان احيط بها علما وانى لتأخذنى الرجفة اذا تذكرتها وتذكرت صوتها المزعج الذي لايزال يرن في اذني قائلا لا بقاء لك الآن ..!

هنالك لم اشعر بما اصابنى ولم ادر ماذا حل بى ولم اعرف نفسى الا ملقى فى هذه الهوة والآن وقد مضى على اقامتى من تلك الرجفة اكثر من ستة قرون اعاني فيها الآلام والهموم وقد انقطعت عني اخبار الدنيا وانباؤها ولم ادر اين اعوانى ولا ماذا اصابهم ... ؟ الآن اتساءل لمَ لم انظر الى يوم الدين كما سبق لى الوعد بذلك ..؟

« هنا يسمع ضجيج هائل واصوات مختلفة وصرير اسنان ... »

ماذا اسمع لعلهم زبانية جهنم أقبلوا ليقودونى الى منزلتي من النار .؟.

« هنا تقرب الاصوات »

ان لى بهذه الاصوات عهدا ويخيل الى انى أسمع زفير جهنم

« ثم يضطرب ويتحسب » اذا قد حيل بيني و بين الرجاء

« هنا تقرب الاصوات جدا » ولكن مالي أشعر بشيء من السرور وأرى قليلا من القوة يتمشي في جسمي الهامد وكأن هذه الاصفاد والقيود تريد ان تنحل ألعلها يقظة الموت . . . ؟

« هنا يقرب الصوت ويتبين ألفاظه ويسمع زفير جهنم وصياح الناس ونشيد الشياطين . يثب جالسا وقد انحلت قيوده » ماذا أسمع نشيد الشياطين . . ؟ اذا فقد انتصرنا

« هنا يرفع ستار من الداخل عن جهنم وقد اكتظت بالناس وهم يصيحون ويبكون والشياطين ينشدون بسرور ثم يتسابقون الى ابليس فيحيطون به . . . . »

ايه دار الجحيم قد أتاك الوقود
بين عاص أثيم وكفور جحود
فاحمدي للجنود جدهم في العمل

***

قد رفعنا الضلال وخفضنا الدين
ونشرنا المحال وطوينا اليقين
ماترى من مثال للنجاح المبين
قد ملكنا الوجود بعد ذاك الفشل

***

قبرا يطاف به وقبة تزار فلم يبق بلد أو قسم من بلد الا وفيه شيخ أو إله صغير

ابليس — تلك أيضاً مقدرة مدهشة وبراعة نادرة فلله درك ولله أبوك «ثم يشير الى الشياطين» أيكم أبلى بلاء حسنا كهذين ؟

«يتقدم اليه شيطان أشيب يظهر التفكير والتؤدة»

ابليس — ماخطبك ؟

الشيطان — أما أنا يامولاى الرئيس فمفسد أفكار الأمة ومضلل عقولها وصابغ دينها صبغة الوثنية ومقيم الادلة على الباطل ومثير الشبهة على الحق وقاسم الامة ثلاثا وسبعين فرقة لكل عقيدة ولكل دين وكل يكفر بعضهم بعضا

ابليس ـ انى لا أصدق ما أسمع وكانى فى حلم وكانما تحدثوني بالمعجزات فكيف تنقسم أمة يقول كتابها (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) ؟

الشيطان — لا تسأل عما وقع فانه قد أصبح لا يحتمل الشك ولا النزاع وتأكداني سلكت طريقة جديدة وهي التي سلكتها في افساد المسيحية وتقسيم أهلها فرقا وأحزابا فانت تعلم ان لليونان فلسفة

ابليس ـ وهل سلك القوم هذا الطريق ؟

الشيطان ـ نعم قد سلكوه فقد كانت أحزابهم سياسية بادئ الامر ثم أخذت تستحيل الى أحزاب دينية وبعد أن سئموا الحروب لجأوا الى المناقشة اللفظية واحتاجوا الى الادلة والحجج فاغريتهم بالفلسفة

وحببتها اليهم فنبغ منهم المترجمون والباحثون وأخذوا من الفلسفة الغث والثمين ومزجوا ذلك كله بالدين فنشأ مذهب التعصب للآراء وانقسموا شيعا وأمحى بعضهم على بعض وانتصر لكل شيعة خليفة وأعقب ذلك جمود أفكار الامة و بغضها للفلسفة والبحث وأصبح الناس الآن يعدون الباحث عن الحق كافرا وقضى على الامة بالسكون المطلق حتى رجعت الى عهدها الاول لا تعرف من الدين الا اسمه ولا يدينون الا بالخرافات

ابليس ـــ هذه الاسباب الثلاثة تكفي لاسقاط الامة من شامخ مجدها مهما كانت قوية عزيزة

الشياطين ـــ (جميعا) لا بل هناك أسباب أخري لم تسمعها بعد

ابليس ـــ فقصوا على منها مع الايجاز والاختصار مايكفى لاقناعى على اني قد اقتنعت

ابليس ـ «يشير الي أحد الشياطين» وأنت ماذا فعلت ؟

الشيطان ـ أما أنا فشيطان الحرب المهلكة للنفوس المفنية للاجسام العابثة بالامم المسقطة للدول اللاعبة بالهام كانها الكرة والاكف كانها أوراق الاشجار الفاجعة للام بوحيدها وللمرأة بزوجها وللاخت بأخيها الثالة للعروش الذاهبة بالاموال الناقلة عمران القصور الى خراب القبور المقدمة الي جهنم فى كل يوم قربانا لا يحصيه العد ولا يناله التقدير المروية للارض بالدماء لتنبت البغضاء والشحناء وتحصد البوار والدمار نعم أنا شيطان لا كالشياطين ومفسد لا كالمفسدين قد اتخذت من

العلم جهلا وأنبت من الخير شرا واستخرجت من الفضيلة رذيلة وانتهيت بالرقى الي الانحطاط حببت اليهم الابداع والاختراع لاعزاز الوطن وحمايته فأبدعوا ماشاء العلم واكتشفوا ماشاءت غوايتي من مدمرات للحصون مهدمات للقلاع تهزم ولا هزيم الرعد وتعصف ولا عصف الزوابع وتثور فلا يقنعها المئات من الناس تقطعهم اربا ولا يرضيها الشامخ من البناء تدكه دكا فبعد أن كان غواة العرب يفتخرون بان أحدهم ينتظم الفارسين في طعنة واحدة أصبحت هذه المدمرات تنتظم المئات في طلق واحد . نعم وقد اتخذوا البحر ميدانا يترامون فيه بالنار و يتقاذفون فيه بالقنابل حتى لايحتاج القتيل الى دافن وحتى تجد بنات البحر طعامها سهلا ميسورا . نعم وقد زاحموا الطير في السماء واتخذوا مهلكات تصب عليهم العذاب من فوق رؤوسهم حتى لايجدوا لهم مردا كل ذلك اخترعته و بنيته علي قواعد العلم وأصول الفضيلة بعد أن اصغرت شخص الحق حتى كاد يفنى وأكبرت شخص القوة حتى لاتكاد تأخذه العيون وسحرت القوم بفنون من القول رائجة وأباطيل من الزخرف محمودة فلا يلبث الفيلسوف الحكيم أن يكون وزيرا مصلحا حتى يكون رسول الهلاك إلى الامم وشيطان الفناء في الشعوب أحييت الوحشية البشعة وجملتها بثوب المدنية الجميلة أيقظت حب النفس والبسته ثوب الوطنية أكبرت شخص القوة ونقبته بالتوازن الدولى فليس يمر عليهم يوم الا وهم ينتظرون أن يدور عليهم الفلك أنحس دوراته ويطلع عليهم النجم شر مطالعه ويأتيهم العذاب من حيث لايحتسبون فان

شئت فانظر فى البر والبحر تجد قوما قد عكفوا على الشر يعبدونه وصبوا الى القوة يمجدونها وشعوبا تنتحل الحرية ولا تلبث أن تساق الى الموت ارضاء لشخص الملك أو اطاعة لامر الوزير على ان سياحة منك تقوم بها بعد الآن كفيلة بان تظهر لك فضلي وتبرهن على مهارتي

ابليس — مازلت أعلم انك داهية فى الخبث لا تبارى ولك منى المكافأة الحسنة بعد . . !!

« يتقدم اليه شيطان آخر بشع الصورة عليه ملابس سوداء . »

الشيطان ـ وأنا شيطان المآتم وعملى قليل المؤنة جدا ينحصر فى أن أعمد الى الرجل يموت له الميت فاغريه باشياء لا أصل لها في دين ولا يبررها عقل على أنها مذهبة للثروة مفسدة للاخلاق يموت الرجل فاذا أريد تشييع جنازته أوقعت فى نفس أهله ان الجنازة لا بد أن تشيع بما تستحق من اجلال واكرام فتحف بانواع الزينة وصنوف الحلى ويسعى أمامه الناس أفواجا وهم يجأرون بالذكر ويرفعون أصواتهم بالقرآن وقصائد الشعر ولهم فى ذلك طرق يظنونها محزنة وهى فى الحقيقة مضحكة ويتقدمون بالمجامر وأنواع الطيب فيعيدون بذلك سنة المجوس ويتبعهم النساء شاهقات ناهقات قد شققن ثيابهن وخمشن وجوههن وضربن الصدور والاصداغ واتخذن السواد وصبغن جلودهن به ورفعن الاصوات بكلمات من سخف القول وهراء الحديث وبين هذا وذاك يامولاى تنتهك الحرم والاعراض فيجد فتيان السوء وفتيات الخنا من تلك الغوغاء مروجا لبضاعتهم السيئة فلله اللحظات والغمزات

وما يجرى هنالك من منكرات فاذا انتهوا إلى القبر دفن الميت وقام على قبره رجل من العامة فجعل يخطب بآيات محرفة وأحاديث مصحفة وكلمات هي الكفر بعينه وهو يزعم أنه يلقن الميت جوابه الذى يجب أن يقوله للملكين إذا سألاه ويزعم أن الميت له سامع وعلى قوله حريص والكتاب بين أيديهم ينطق بان الموتى لا يسمعون ولا يبصرون حتى إذا رجعوا إلى البيت أقيمت السرادقات والخيام وجلس فيها وفود المعزين يدخنون وبينهم نفر من حسان الاصوات يرتلون القرآن ترتيلا يغير معناه ويخرج به عن معنى الدين الى الغناء فكم ترى هناك من خلاعة في الصوت وحركات فى الترتيل والنغمات هي أحق بالمغنيات لا بالمغنين فضلا عن القراء

أما فى صبيحة النهار فتقام حفلات الحزن التى يقيمها النسوة وهى تنحصر فى أفانين من الهزل بين لطم الوجوه وضرب الصدور والقفز والوثوب وبين هذا وذاك أقوال باردة تلقيها النادبة هذا هو مجمل الاعمال التى يقوم بها أهل الميت أياما طويلة بعد موته ولا تسل عما يذهب في سبيلها من المال وقد يكون صاحب البيت أحوج ما يكون إلى قوت يومه ولكنه يرهن ويستدين ويبذل ماء وجهه للناس مخافة اللوم إن قصر في هذه العادة المنكرة ولئن سألت يامولاى عن مصدر هذا كله فليس له أصل إلا وثنية القدماء من المصريين تلك الوثنية التي نبذها الاسلام فى أول أمره ولكن أهله لم يلبثوا أن رفضوه وقبلوا هذه العادة منا صاغرين

ابليس ـ لله أنتم من مكرة فجرة فقد أتيتم من المعجزات مالا يكاد يطمئن اليه عقل ولا يرتاح الى تصديقه ضمير

« يتقدم اليه شيطان آخر حسن الشكل عليه ملابس حمراء . »

الشيطان ـ أنا يامولاي الرئيس شيطان الافراح ولست أفعل شيئا إلا أن أحذو حذو شيطان المآتم في اغراء الناس فى التبذير وتحبيب السرف إلى نفوسهم فلا ترى أحدهم يهم بزواج أو نحوه مما يبعث على السرور حتى يقيم الحفلات الضخمة وينفق الاموال الطائلة فى أشياء لاقيمة لها على أن فيها كثيرا جدا مما يخالف أصول الدين ويشذ عن قواعده وجملة القول ان الافراح الآن أصبحت سبيلا الى ضررين كبيرين يستتبعان ضررا ثالثا . الاول ضياع الثروة والثانى فساد الدين وكلا الامرين يستتبعان فساد الاخلاق فتكثر الخصومات ويزيد الفقراء وفيهم اللصوص والمتشردون الذين يختل بهم الامن ويشقى المجموع ..!!

وهذه أيضا حيلة نادرة قد أحسنت التأدية الى المقصود فلك الشكر

« يتقدم اليه شيطان آخر بشع الصورة جدا . . . »

الشيطان — اني يامولاى لا أكثر اللوم على أصحابى فى الاسراف فى المآتم والافراح فان ذلك يصدر عن باعثين كبيرين فى النفس هما الحزن والسرور وانما اللوم كل اللوم على أولئك الذين استطعت أن أقودهم باسم الزار الى حيث أريد

ابليس — وما هذا الزار فانى لم أسمع به من قبل . . ؟

الشيطان — الزار يامولاى هو عفريت خيالى يلبس المرأة وربما لبس الرجل أيضا فيحملهما على نسيان أنفسهما واتيان الاعاجيب والاكاذيب من الرقص والقفز والاستماع للطبول والزمور والتفنن فى اتخاذ الزخرف واصل هذه البدعة علمي لاشك فيه وهو ان الانسان قد يعتريه مرض عصبي وقد ينجح في دواء هذا المرض سماع الموسيقى والطبل وهذا شيء قد قرره العلم ولم يبق للشك فيه مجال فكما أن الثعبان يتشنج اذا سمع الطبل والموسيقى كذلك الانسان يتأثر من هذين الشيئين تأثرا يختلف باختلاف مزاجه فمن الناس من تتشنج أعصابه للطبل والموسيقى ومنهم من يعتدل مزاجه ويستقيم أمره به ومن هذه القاعدة النافعة استنبطت للناس تلك البدعة السيئة فاغريت معظم النساء بانتحال هذا المرض وأوقعت فى نفوس الناس ان مصدر هذا المرض انما هو تلبس الجن بالانس وانه لادواء له الا استحضار الجن بالطبل والزمر حتى اذا حضروا وجب أن يسألوا عن السبب فى اصابتهم لهذا المريض وعما يطلبونه أجرا لمبارحته وقد اخترعوا لذلك أساليب وأفانين من الغناء والمقاطيع تناسب ماتخيلوه في الجن من قبح الصور والاصوات فاذا مرضت المرأة ولو باصبعها زعمت لزوجها ان أسيادها الجن قد ركبوها وانها فى حاجة الى اقامة حفلة هائلة تذهب فيها أموال طائلة ويجري فيها الرقص وما يتبعه من المخزيات وقد يكون الغرض من هـذه الحفلة مقصورا على مايكون بين الرجـل والمرأة من الاعمـال السيئة فيختلط الحابل بالنابل والمريض بالصحيح وحسبك ان محضر

العفريت قد يكون رجلا فى أكثر الاحيان فتراه يدق الطبل ويلق المقاطيم والنساء حوله يرقصن ويتثنين تثنى الاغصان وحول ذلك جماهير النظارة يستجلون جمال هـذا المنظر المضحك المثير للمواطف السيئة وقد كان هذا المرض مقصورا على السيدات وكانت طريقة دوائه شرقية صرفة ولـكنه أخذ يترقي مع الزمان حتى عم الرجـل والمرأة وحتى أصبح له من الدواء طرق حديثة غريبة فبعدان كانت العفاريت سودانية أو حبشية أو مكية أصبح منها الآن عفاريت تركية وفرنسية وايطالية وأصبح لعفاريت الفرنج محضرون متفرنجون ومما يجب ان يلاحظ انى قد أوقعت في نفوس الناس انه يجب ان يكون بين العفريت وصاحبه اختلاف فاذا كان المريض رجـلا وجب أن يكون عفريته جنية واذا كان المريض امرأة وجب أن يكون عفريتها شيخا كبيرا من شيوخ الجن ليحسن الاقتران بين المريض ومصيبته ومن حسن الحظ انى قد وفقت فى هـذا العـمل فضللت به الناس جميعا حتى المتعلمين سواء كانوا من رجال الدين أو شبان النهضة الحـديثة فاما الاولون فيستدلون على ذلك باحاديث يروونها وأقاصيص ينتحلونها وأما الآخرون فيستدلون عليه بعلم ماوراء المادة من التنويم المغناطيسى واستحضار الارواح وغـير ذلك وجملة القول أني قد ملكت قياد الجميع وان هذه البدعة تحدث فى نفوس الناس آثارا سيئة لاتكاد تحصى أخصها افساد الدين والاخلاق واضاعة الثروة والاعراض ومع ذلك فمن اليسير علينا ان نطلع مولانا الرئيس الآن على ذلك ان أراد

ابليس — وكيف ذلك ... ؟

الشيطان — نمثل هذا الدور فيزعم أحدنا انه مريض وأزعم انا انى عفريتـه والباقون يطبلون ويزمرون لاستحضارى

ابليس — لابأس ولكنى سأرى ذلك رأي العين أثناء تفقـدى لاحوال الناس وحسـبى ان النتائج المرجوة قد حصلت كما نريد

« يتقدم اليه شيطان آخر حسن الشكل جميل الهندام .. »

الشيطان — وأين أنت مني يامولاى الرئيس

ابليس — (ضاحكا) وهل كان لك دور أيضا مع أهـل هـذا الدين الذين يشدد عليهم كتابهم فى العفة والاحتفاظ بالفضيلة ويأمر الرجال والنساء منهم بغض الابصار واصطناع الحياء ... ؟

الشيطان ـ (ضاحكا) وهـل تبقى فضـيلة مع وجودنا وكيف تبقى الفضيلة وقد ملكنا نفوذ المرأة منذ أول عهدها بالوجود .. ؟

ابليس ـ ان الاسلام قد أصلح أمر المرأة وحررها من رقنا فاصبحت حرة تعمل في المجموع كما يعمل الرجـل وقد رأيتها في حروب الفرس والروم تبلى البلاء الحسن ولعلك لاتنسي ان المرأة هى التى هجمت جيش القادسية على كثرته

الشيطان ـ نعم اني لاأنسي ولـكن كيف تنسي أنت ان الحضارة والترف يفسدان أخلاق المرأة ويردانها الى السكون والانهكاف على اللهو وانى لم أفعل أكثر من تحبيب الزينة الى المرأة واختراع الافانين فيها حتى تركت شؤون المنزل وتربية الابناء والبنات وأصبح

كل همها أن تعجب الرجل والرجل من طبيعته ميال الى اللهو نزاع الي الفتنة فكان من تلك الزينة ومن هذا الميل الطبيعي فساد الامة وأصبحت المرأة كعهدها في العصور الاولى فقد نسيت نفسها ودينها وأضاعت حقها فى سبيل اللذة واعترفت للرجل بانها ليست الا اداة في يده يتصرف فيها كيف يشاء وقد حمد الرجل منها ذلك فصنع بها مايصنع بالاداة فالقى عليها الحجاب وسدل دونها الستر وضرب بينها و بين العلم بسور منيع ففسد من ذلك أمر المنزل والدولة وأصبح حال الامة يسرنا جدا وان أغضب الله ورسله والملائكة

وفي هذه الايام الاخيرة أخذت المرأة المسلمة تحس بان لهـا حقا مهضوما فلم أترك لها سبيلا الى البحث والتنقيب بل حببت اليها والى الرجال طريقة المرأة الغربية وأنت تعلم مافي هذه الطريقة من الفساد وعلى الجملة فقد انقسمت المرأة المسلمة قسمين قسم بقي على حاله القديمة لا يشعر ولا يحس وقسم أخذ بالاساليب الغربية لا يفرق بين الحسن منها والقبيح أما السبل الواضحة المأمونة فقد طمستها ومحوت معالمها ولم يبق الى الاهتداء فيها طريق

ابليس ـ اذا فقد أفلحنا كل الفلاح في جميع مانحتاج اليه من طرق افساد الامـة وأصبح عملنا الآن مقصورا عـلى أن نسوق الناس الي جهنم

الشياطين ـ (يضحجون) ان لنا أعمـالا أخرى يجب أن نعـني بها وتلتفت اليها

ابليس ـ حسبنا ماسمعناه فما أظنكم أتيتم بشيء جديد

الشياطين ـ (جميعا) كلا

ابليس ـ تكلموا منفردين فاني لم أوهب آذانا بعددكم

« يتقدم اليه شيطان ذو قرنين كبيرين .... »

الشيطان ـ انا يامولاى الرئيس شيطان القيادة وقد اسقطت في نفس المسلم قيمة الفضيلة وعلمته التهاون بها والازدراء لها والاطراح لكرامة نفسه حتى لايأنف من ان يقود غلاما الى فاسق أو فتاة الي زان ولم أجعل ذلك مقصورا على فرقة خاصة من الناس بل أوقعت في نفس كثير منهم ان للصديق على صديقه ثلاثا منها القيادة ولو انك اطلعت الآن على منازل اللهو والاثم ومواطن الغي والفجور لرأيت كثيرا من الشبان النجباء يتقارضون الفحش ويتبادلون القيادة لايأنفون من ذلك ولا يتبرمون به بل يأتونه كما يأتون معروفا من الامر غير منكر وممدوحا من الفعل غير مذموم ولهم في ذلك فنون كثيرة ومذاهب مختلفة واشارات متنوعة فربما اتخذ الحانوت للخياطة وما هو الا للقيادة ولله باعة الازهار وما يأتون من قبيح ولو شئت أن أسرد عليك فنونهم في ذلك لاطلت حيث يجب الاقلال

ابليس ـ مرحي مرحى بمهارتك

« يتقدم اليه شيطان جميل الصورة ذو قرن واحد كبير .. »

الشيطان ـ أنا يامولاى شيطان الغلمان

ابليس ـ وماذا فعلت ...؟

الشيطان ـ لم أفعل شيئا كثيرا فقد رأيت تربية الشبان فاسدة لفساد المرأة فوضعت فى نفوسهم حب التشبه بالنساء والميل الى الترف والفجور وكان من ذلك امرأة مشتركة نصفها للبيت والسرير ونصفها لمختلف الاعمال والشؤون

« الشياطين جميعا يقهقهون »

ابليس ـ « يشير الى أحد الشياطين » وانت ماذا فعلت . . . ؟

الشيطان ـ اما انا يامولاى فشيطان الازياء

ابليس ـ وماذا تصنع بالازياء . . . ؟

الشيطان ـ لااصنع بها شيئا ولكني اثير فى نفس الانسان ميله القديم الوحشى الي حب الزينة وايثارها على المنفعة الحقيقية فانك تعلم ان فى متوحشى الهند من يفضل ابتغاء الاشياء التافهة من ادوات الزينة على الاشياء النافعة من ضروريات الحياة فتراه ينفق ما لديه من المال فى سبيل أن يملأ جسمه بالوشم والنقش وهو مع ذلك لايبالى أن يظهر للناس عاريا بادى السوأة وترى من متوحشى السودان من يفضل شراء الخرز على شراء الملابس ويفضل شراء الاحمر من كل شئ مهما كان رديئا على غير الاحمر مهما كان جيدا

هذه مكانة الزينة يامولاى عند المتوحشين اما عند أهل الحضر من الشرقيين والغربيين فمن العسير على أن اصفها لك ولكنى اكتفي بان أقول انهم قد شغفوا بالزينة وقدموها على المنفعة فى كل شيء حتي فى العلم والمعرفة فترى أحدهم يقتني من الذخائر والنفائس مالا

يحتاج اليه وربمـا لم يجد فى بيته فراشا ممهدا ينام عليه سواد ليله اما فى الازياء فحسبك ان الامر أصبح مختلطا فمال الرجل الى تقليد المرأة في ثيابها وترجيل شعرها وتصفيف طرتها وترى المرأة قد بالغت في الزينة حتى سئمتها وربمـا مالت الى تقليد الرجل في بساطة الملبس والتخفيف من الزينة • وجملة القول انك قليلا ما تجد الفرق بين الرجل والمرأة فى حب الزينة والميل اليها ولم يكتف الشبان بذلك بل رأوا من كمال الزينـة أن يقلدوا المرأة فى اصواتها وحركاتها حتى انك لو سمعت احدهم يتكلم بتظرفه من وراء حجاب ماشككت فى انك انمـا تسمع فتاة

هذا بعض عملى فى افساد النفوس وانت ترى انه ينحصر فى تحويل الحضارة الناضرة الى وحشية قبيحة وانى ارجع بالانسان الراقى الى عصر الهمجية القديمة

ابليس ــ لقد أجدت تمثيل دورك فاثني عليك وأشكرك .

« يتقدم اليه شيطان آخر كثير الحركه ٠٠٠٠٠ »

الشيطان ـــ أما أنا فشيطان المرقص وعملى سهل جدا وهو أن أظهر ميل الرجل الى المرأة والمرأة الى الرجل بشكل فظيع فيجتمع جمهور المسلمين فى مكان فسيح الارجاء ويجلس اليهم فتيات يغنين ويهزين بالفاظ لا تفهـم غير أنها مثيرة للعواطف ثم يظهر فتيات على مايسمونه المرقص فيتلوين تلوى الحيات ويظهرن ماأمر الله أن يستر من بطونهن وظهورهن وعفوا ياسيدى الرئيس لا تسأل عن تلك النخوة العربيـة

وعن تلك الحميـة الدينيـة فـكل ذلك قد ذهب به الترف والقوم يفعلون ذلك على أعين رجال الدين وعلى مرأى منهم ومسمع ٠٠!!

« يتقدم اليه شيطان آخر ٠٠٠ »

الشيطان ـ أما أنا فشيطان القرآن

ابليس ـ وكيف بلغت بك الجرأة الى هذا الحد وهل يصح أن يلعب الشياطين بالقرآن ٠٠٠؟

الشيطان ـ المسألة بسيطة جدا يامولاى فقد حببت الى الناس أن يتغنوا فى القرآن بالمجالس كما يتغنون بالزجل والادوار البلدية فادخلت فى القرآن الجركه والدوكه والسيكه وغيرها من طرق الغناء والقوم يسمعون ذلك وهم يلغون ويلغطون بين مدخن ومحشش وكل ذلك باسم الدين وباعين العلماء

« يتقدم اليه شيطان آخر كثير النزق والطيش »

الشيطان ـ أنا يامولاى الرئيس شيطان الانتحار

ابليس ـ وما هذا الانتحار ٠٠٠؟

الشيطان ـ هو شيء بسيط ينحصر فى أن الشرقى المسلم يقلد الغربى فى قتل نفسه فلا يكتفي بقتل غيره بل إذا ضاقت نفسه بحادثة كبيرة أو صغيرة ولملمة يسيرة أو عسيرة يتجرع كأس الموت مستحليا له على مرارته مستلذا له على بشاعته فيخسر دينه ونفسه وتخسره الامة التى أنشأته ليكون فيها عاملا مفيدا بل يخسره النوع الانسانى الذى يستفيد منه فائدة كثيرة مهما كان حقيرا صغيرا ومعنى هذا أن داء الانتحار

الذى فشا الآن فى الشرقيين هو آية على فساد الاخلاق وصغر الهمة وانحطاط النفوس فان امرأ يقتل نفسه لضجر قد يصيبه من أشياء وهمية خليق أن لا يطمع فى جلائل الامور ولا يسمو الى عظائم الاعمال

ابليس ـ حقا إنك قد أبليت بلاء حسنا وجاهدت جهادا شديدا فى ادخال هذه الرذيلة على نفوس المسلمين الذين قد ملئ دينهم بالامل وحب الحياة وتشنيع القتل والعقوبة عليه بل أن الامة العربية من أوسع الامم آمالا وأكبرها أماني فان المؤرخ العالم مهما بحث وأكثر التنقيب يستحيل عليه أن يأتى بحادثة تدل على ان اعرابيا قد انتحر وحسبك بهذا دليلا على قوة هذه الامة

الشيطان ــ كل هذا حق ولكن حادثة واحدة فى التاريخ الخرافى للعرب تدل على الانتحار وهى التى تعيننى أحيانا على تضليل المنتحرين

ابليس ــ وما هى هذه الحادثة ..؟

الشيطان ــ هى حادثة الزباء ملكة تدمر التى رأت عدوها مقبلا عليها يريد قتلها وقد ظفر بها وأخذ عليها طرق النجاة فمصت فصا من السم كان فى أصبعها وقالت ذلك المثل المشهور بيدى لا بيد عمرو

ابليس ــ أحسنت كل الاحسان فشكرا لك

« يتقدم اليه شيطان آخر »

الشيطان ــ أنا يامولاي الرئيس شيطان الخمر فقد هيجت في نفوس الناس ميلهم الى نسيان أنفسهم للاستراحة من العناء والشقاء فكان من ذلك ومن خمولهم الدائم ميل الي الخمر والحشيش وأنواع المنزول

ابليس — (ضاحكا) وما هو هذا المنزول ..؟

الشيطان — هو أنواع من العقاقير يخلطونها وفيها المغيبات فيبتلعونها مساء كل يوم و يشربون بعدها قربا من القهوة حتي اذا صهرت فى بطونهم صعدت الى رؤوسهم فغابوا عن أنفسهم وكان منهم الاولياء والصالحون والمحدثون بالغيب والذين يتلقون الوحى من السماء و يزعمون انهم أقطاب الوجود

ابليس — « يشير إلى آخر » وأنت ماذا فعلت ؟

الشيطان ـ أنا يامولاى الرئيس شيطان الميسر فقد أعدت الامم المتحضرة الى عهد الامم الجاهلية الهمجية فبدل ان كان اؤلئك يقامرون فى جمل أوشاة أصبح هؤلاء يقامرون فى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولو أن أموالهم تخرج من أيديهم الى أيدى اخوانهم لهان الامر ولما ذهبت الثروة العامة ولـكنها مع السرور تذهب الى الاجانب غنيمة باردة

ابليس ـ « يشير إلى آخر » وأنت ماذا فعلت ...؟

الشيطان ـ أما أنا فشيطان الزنا ولم أصنع شيئا إلا أني جعلت الزنا رسميا يجرى بامر من الحكومة الاسلامية التى يأمرها الله بجلد الزانى والزانية أو رجمهما

ابليس ـ « يشير إلى آخر » وأنت ماذا فعلت ...؟

الشيطان ـ أنا يامولاى شيطان الصحف فقد حببت الى القوم تقليد الفرنج فى نشر الصحف التى يسمونها الجرائد والمجلات ولـكني

عدلت بهم عن الطريق الواضحة التي هي خدمة الامة والدفاع عنها إلى تلك الطريقة الجميلة التي هي التجارة بالآراء السياسية وبالدين وبالعادات وبالقذف بالاعراض والاشخاص حتى أصبحت هذه الصناعة مصدر البلاء المطلق للامة كافة والناس يرقصون اعجابا بها وانما هي رقصة المذبوح يستلذ ألم السكين في أول الامر وليعلمن نبأه بعد حين

ابليس ـ « يشير إلى آخر » وأنت ماذا فعلت ..؟

الشيطان ـ أنا يامولاى شيطان الوطنية

ابليس ـ وما هذه الوطنية ..؟

الشيطان ـ هى الانخداع بالاسماء والغلو في تعظيمها والاندفاع في ذلك الى حد يشبه الجنون واعتقاد أن الصياح بالحياة والسقوط والرفعة والانحطاط يكفى للرقى الحقيقى في الحياة العامة والخاصة وكل ذلك قد أوقعته فى نفس الكثير من الشبان فتراهم قد اجتمعوا لاى حادث يجهرون ويرفعون أصواتهم بالنداء لفلان أو عليه فيضطر أولو الامر إلى إرجاعهم عن هذا الغي وهدايتهم الى الصواب وقد خيلت اليهم أن رقى البلد رهين بهذا الطيش المزعج للاجانب المخيف للفرنج فعكفوا عليه واشتدوا فيه ووصموا أنفسهم بامور يفرون منها ويخافونها فقيل عنهم انهم طلاب ثورة وحرب وقيل عنهم انهم أصحاب تعصب فى الدين وقيل عنهم انهم يكرهون الاجانب ويودون الفتك بهم والانتقام منهم وعلى هذا ساءت العلاقة بينهم وبين الاجانب الذين

هم المالكون لحياتهم الاقتصادية وقد شغل الشبان بهذا الطيش عن الاعمال الاساسية التى يقوم عليها الرقي الصحيح فلا علم ولا تعلم ولا زراعة ولا تجارة ولا صناعة ولا جد في شيء من الاشياء إلا ما تقدم اليك الشياطين بوصفه ولولا أني ألهيتهم عن الاعمال الجدية النافعة ما وجد إخوانى سبيلا الى زجهم فى تلك المهلكات الكثيرة فان امرأ يعتقد انه إنما خلق للصياح والضجيج يمكن بسهولة صرفه الى اللهو والفجور وحشو عقله الفارغ بالاوهام والاباطيل وعلى هذا تستطيع أن تنظر الى الكثير منهم فلا ترى الا قوما من أولى البطالة قد لجوا فى طنين الذباب ونقيق الضفادع من غير ما فائدة ولا نفع مأمول

ابليس ـ انك لماهر مجيد خليق بالمكافأة والجزاء

« يتقدم اليه شيطان آخر »

الشيطان ـ أنا شيطان الحرية الدينية

ابليس ـ وما هى هذه الحرية . . . ؟

الشيطان ـ ألحد الفرنج وتعلم بينهم المسلمون فارادوا ان يلحدوا وعللوا أنفسهم بانهم أحرار في الدين وقد حببت اليهم هذه الخديعة وزعمت لهم ان الدين يجب أن يتشكل باشكال الانسان لا ان الانسان يجب أن يتشكل باشكال الدين فاصبحت الامة قسمين قسم الشبان الملحدين وقسم الشيوخ الجامدين وبين أولئك وهؤلاء نفر من المنافقين المذبذبين الذين لا ينفعون ولا يشفعون اما المصلحون فانا لهم بالمرصاد وقد عذبت منهم نفرا كثيرا فأريت ابن تيمية والافغاني

وغيرهما من العذاب والهون مالا استطيع ان اصفه لك فان آثار الضجر ظهرت عليك

ابليس ـ حسنا ولقد أجدت تمثيل دورك فشكرا لك

« يتقدم اليه شيطان آخر »

الشيطان ـ أما أنا يامولاى فشيطان الشهادات وعملى ينحصر شرحه فى عبارة موجزة ولكنها مضحكة فقد جعلت العلم عند الناس أشبه شيء بما تخرجه الحقول من الحنطة والشعير أى ان له مكاييل يكال بها فتعرف مقاديره ولكل مقدار منه قيمة خاصة وهذه المكاييل يسمونها الشهادات فيدرس الطفل فى المدرسة الاولى حتى اذا أتم الدرس فيها وأخذ منها صاعا أو صاعين من العلم اشترت الحكومة والمصالح الحرة منه هذا المقدار بمقادير معينة من المال وكذلك الامر فى الشهادة الثانية والعالية و يظهر ان الناس قد اعجبوا بهذا النوع من التجارة العلمية ففضلوه على أنواع التجارة الاخرى بل فضلوه على الزراعة والصناعة أيضا وقد أثمر هذا الغرس الذي غرسته اثمارا مختلفة . الاولى ـ ان العلم لم يعد مصلحا للعقول مربيا للكفاآت لان الناس لم يطلبوه لذاته وانما طلبوه لثمنه من الاعمال الادارية والعسكرية الثانية ـ انه أصبح قليلا جدا فى نفوس الناس لانهم لايأخذون منه الا المقدار الذى ينيلهم الشهادة ولو انهم أرادوا أن يزدادوا علما لما وجدوا بين أيديهم مايسمح لهم بذلك لان الحكومة لم تدع فى مدارسها من العلم الا ما يخرج لها آلات عاملة فى المصالح المختلفة والمدارس

الاخرى مقتدية بالحكومة متأثرة لها حرصا على الشهادات وزد على ذلك ان حرص الناس على هذه الشهادات لم يكتف بصرفهم عن الاعمال النافعة فقط بل اشتد فى أنفسهم حتى أصبح أحدهم ان ظفر بالشهادة عظم فى نفسه حتى ادعى لها كل فخر وألصقها بكل عز وان فشل في نيل الشهادة أو فى نيل الوظيفة بلغ اليأس من نفسه واستحكم القنوط فى قلبه وكان أحسن قربان ما يقدمه صديق شيطان الانتحار الى دار الجحيم

ابليس ـ لقد أحسنت الحيلة وأتقنت العمل وأحرزت النجاح

الشيطان ـ فلم تبق الا المكافأة

« يتقدم شيطان آخر »

ابليس ـ ماذا فعلت ..؟

الشيطان ـ أنا شيطان القتل وعملى بسيط جدا وهو ان اسعى فى أن يذبح الانسان كما يذبح الحيوان وربما قتل الانسان أشنع قتلة فى دجاجة أو صاع من شعير

شيطان آخر ـ أنا شيطان البيع وعملى ينحصر فى الغش

شيطان آخر ـ وأنا شيطان احراق المزروعات وعملى ينحصر فى تحويل الجنات الناضرة الى رماد تعبث به الريح

آخر ـ وأنا شيطان تسميم الحيوانات وعملى ينحصر فى أن يكون نصيب الحيوان من القتل ظلما كنصيب الانسان على الاقل

« وهنا يضحج ابليس ويثب من مكانه ويصيح الشياطين فى قائل »

أنا شيطان الجمعيات الخيرية

آخر ـ أنا شيطان الاندية

آخر ـ أنا شيطان التبشير

آخر ـ أنا شيطان التمثيل

آخر ـ أنا شيطان الكذب

آخر ـ أنا شيطان الربا

(ثم تختلط أصواتهم فيصيح فيهم ابليس)

ابليس ـ ويحكم كفوا عن اللغط

(وهنا تسمع الاصوات عالية من جهنم والزبانية يصيحون)

الزبانية ـ هذا ماقدمت أيديكم فذوقوا ما كنتم تعملون)

ابليس ـ (لاعوانه) انى أشكركم أيها الاعوان على ماأبديتموه من العناية التامة فى افساد الشعوب الاسلامية وأرجو أن تتخذوا هذه الخطة سبيلا لكم الى يوم الدين

(ثم يضج الشياطين ويشتبكون ويرقصون والرئيس في وسطهم وهم ينشدون . . . .)

***

عاد سلطان الجحيم بعد ما كان اندثر

وانطوى ظل النعيم بعد ما كان انتشر

رب شيطان رجيم فاز بالنصر المبين

والى سوء العذاب   ساق أبناء البشر

***

يابنى الانسان مهلا   انه حكم القضاء
لاتذموا الشر جهلا   فكذاك الله شاء
جعل القسمة عدلا   بين شك ويقين
ففريق في الثواب   وفريق فى صقر

***

لا تسبونا ولا   تكثروا فينا الجدال
وأطيعونا بلا   أيما قيل وقال
كل حق فالى   باطل من بعد حين
ثم من غير ارتياب   نحن أصحاب الظفر

مهمة الشاعر

في الحياة

وشعر الجيل الحاضر

بقلم

سيد قطب

١٣٥٠ — ١٩٣٢

الثمن ٢ ص

مطبعة الرسالة بمصر

مقـــــدمة

هذا مجهود ضئيل ، صغير الحجم ، أعد ليكون محاضرة فحسب ، فلا يحتاج إلى مقدمة تبين أغراضه وتوضح اتجاهه ؛ فهو ذاته يصح أن يكون مقدمة لبحث كامل في موضوعه هذا « مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل الحاضر » ! وسيكون ...!

وإذا كانت الظروف لا تهيىء اليوم إلا لطبع هذا البحث الصغير دون غيره مما بين يدى ؛ فإني أطمع في فرصة قريبة أكثر توفيقا .

والذى أريد أن أقوله فى مقدمة هذا المجهود الضئيل ، الصغير الحجم : إن أهم مافيه ، اقتناعي بما فيه ، اقتناعا كاملا متغلغلا فى نفسى ، حتى لهو جزء من عقيدتي ، أدافع عنه كما يدافع كل مؤمن عن عقيدته !. وإذا لم يكن لى فضل « الرسالة » بهذه العقيدة الأدبية! فإني مقتنع بأن أكون من أشد أنصارها دفاعا عنها ، وأن أحاول مااستطعت توطيد أركانها ، والزيادة فى بنيانها . وإنى لفخور بذلك بقدر ماأنا مقتنع به !

هذا أهم ما أريد أن أقوله عن الموضوع ، مضيفا إليه أنني تعمدت أن أختار أمثلتى من مجهود الشبان الناشئين ، الذين لم يعرفوا فى عالم الأدب إلا قليلا ؛ وإنى لاستريح إلى أن أكون واسطة تعارف بين المشتغلين بالأدب ، وبين خمسة من الشعراء الحدثين الذين

تجرفهم الشهرة الزائفة والصحيحة فى تيارها ، وقد تغشى عليهم فلا يسمع لأصواتهم صدى، وسط ضجيج الشهرة؛ وصخب المشهورين!

وقد اخترت للأستاذ العقاد قطعة واحدة ، لم أكن مختارا فى اختيارها، بل مضطرا لذلك اضطرارا !، لأني لم أجد فى موضوعها مايماثلها،فى كل ماقرأت من الشعر العربى القديم والحديث ؛وكنت أصور المثل الأعلى فى نقطة خاصة ، وكانت هذه القصيدة ، نموذجا لذلك المثل الذي أريد !

ولست بهذا وذلك ، حاقدا على المشهورين ، أومحاولا تشويه مجهوداتهم ، فالشباب لا يعرف الحقد ، لان الحقد طبيعة الضعفاء ، الذين لا يستطيعون،فيحقدون،!...انما أريد فقط ، أن أشق للناشئين طريق التعارف ، وأريد أن أطلع الامة على أنها بخير ! ، وأنها لم تصب بالعقم الفني بعد ما أخرجت هؤلاء المشهورين !

يقول الدكتور طه حسين : « انك لتبحث عن الشاعر الشاب الذي نشأ فى هذه الاعوام فصرف جماعة من الشباب عن شوقى ، وحافظ ومطران ، فلا تجده ، وعن الكاتب الشاب الذى ظهر فاستحدث مذهبا فى النثر صرف بعض الناس عن هيكل والمازني والعقاد فلا تظفر به » .

ولكن الدكتور فى هذا ينسى فعل الزمن الطويل الذى جعل لهؤلاء الأدباء تلك المنزلة ، وينسي طبيعة العصر الذى نشأ بعضهم

فيه وظروفه العامة والخاصة ، وينسى عمل هؤلاء المشهورين على تشجيع بعضهم البعض ، والاشادة بذكرهم ، وتقارض الثناء بينهم ، وعمل بعضهم - على الاقل - على محاربة الناشئة ومنعهم من الظهور . . .

وأريد أن أقول للدكتور الفاضل : ان هذا الشباب الناشيء المغمور لن يقنع بقسمته تلك ، ولن يهن أمام العقبات ، وسيعمل لنفسه ، كما عملوا لأنفسهم ، ويخلص لجهوده ، كما أخلص لجهودهم من قبل ، فلم يكافئوه على اخلاصه . وسيمتاز عنهم بألا يكون أثرا ، وبأن يكون معهم ، أفسح صدرا مما كانوا معه . والمستقبل كفيل !!!

سيد قطب

كلمة للمربي الفاضل الاستاذ مهدي علام

حينما عزمت على طبع هذا المؤلف الصغير ، كان فى نيتى أن أتقدم به للقراء فى هدوء يناسب حجمه وقيمته! وعلى هذه النية تم طبع الكتاب بمقدمته الطبيعية التى كتبتها له ، وفى اللحظة الأخيرة شاء المربى الفاضل الاستاذ « مهدى علام » أن يضيف الى فضله على بصفته « أستاذا » فضلا جديدا بكتابة هذه الكلمة ، وما أحسب ما جاء بها من ثناء إلا طرفا من طريقته الحكيمة فى التربية ، وهى اتهام طلابه بالفضائل ! بقصد التوريط ! ! !

وانني ازاء هذا المظهر السامى ، والعاطفة التى أجلها وأشعر بقداستها ، لا أجد ما أرد به ، إلا أن أعمل على أن أكون فى الغد خيرا منى اليوم ، وبعده خيرا مني فى الغد . وهو ما أرجو أن أوفق اليه .

وهذه هى كلمة الاستاذ المربى الحكيم

مهمة الشاعر فى الحياة

لقد كان من بواعث اغتباطي ، أن أشرفت على إلقاء هذه المحاضرة ، بمدرج « دار العلوم » معهد العلم والأدب ، الذى قال فيه المرحوم الامام الاستاذ الشيخ « محمد عبده » : إن باحثا مدققا ، لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا ، لوجدها تموت فى كل مكان ، وتحيا فى « دار العلوم . »

ولئن كنت قد قدمت المحاضر «سيد قطب» بأنه طالب يسرني أن يكون أحد تلاميذى ؛ فانني أقول اليوم ـ وقد سمعت محاضرته إنه لو لم يكن لى تلميذ سواه ، لـكفاني ذلك سرورا ، وقناعة ، واطمئنانا إلى أنى سأحمل أمانة العلم والأدب ، من لا أشك فى حسن قيامه عليها .

لقد كتبت منذ أسبوع كلمة قدمت بها كتاب « تاريخ اللغات السامية » لنجم آخر من نجوم «دار العلوم» هو «جودة الطحلاوى» وقد قلت فى تلك الكلمة : ان فى « دار العلوم » اليوم نهضة علمية أدبية ، يحمل لواءها نفر من أعز أبنائنا علينا . وإنني حين ذكرت ذلك كنت أفكر فى رهط ، أعد « سيد قطب » فى طليعتهم .

يعجبني فى كاتب هذه المحاضرة جرأته الحازمة ، التي لم تسفه فتصبح تهورا ، ولم تذل فتغدو جبنا . وإن هذه الجرأة الرشيدة التي دعته الى الاستقلال بالرأى في بحثه ـ حتى ولو خالفنا فى بعض مانعتقده من الآراء الادبية ـ لهى التي تجعله أحب إلي قلوبنا . ولا أتردد هنا فى أن أعلن أنه قاس على « شوقى » قسوة لا أغفرها له . لقد نقب فى شعر شوقى ، حتى أخرج منه سقطات لا يسلم منها فحل من فحول الشعراء فى أى عصر أو فى أية أمة . وليس ذلك من الانصاف ، لأن لشوقى كنوزا عظيمة من الشعر الخالد ، كان جديرا بالمحاضر أن يضعها فى كفة ، وتلك السقطات في كفة أخرى

ولست أشك فى أنه إن فعل رجح كفة الحسنات ترجيحا . على أنني لو سلمت له جدلا بأن جميع ماذكر عن شوقى صحيح ، لكان من القلة ، إزاء بحوره الزاخرة ، بحيث لا يقدح فى منزلته ، ولا ينزله عن عرش الشعر الذي قلما نازعه فيه منازع .

و « سيد قطب » باحث ناشىء ، تعجبني منه عصبيته البصيرة ، وإشادته بذكر الشعراء الناشئين من أمثاله . وهو جد موفق فى اختياره لهم ، وليس أقل توفقا فى اختياره من شعر نفسه ، وإن ستره تواضعه وراء ستار « لشاعر ناشىء . »

وقصاري القراء ، أن أقول لهم : انني أعد « سيد قطب » مفخرة من مفاخر (دار العلوم) ، وإذا قلت (دار العلوم) فقد عنيت دار الحكمة والأدب .

٢٨ فبراير سنة ١٩٣٢

محمد مهدى علام
أستاذ التربية بدار العلوم

* * *

ملاحظة : مع احترامي الكثير لما ذكره أستاذى عن شوقى ، فانى أميل إلى أن أقرر : أننى فيما ذكرته فى محاضرتي لم أكن بصدد أصدار حكم علي شوقى ، وانما أنا اخترت أمثلة من شعره ، واذا كنت قاسيا فى تعليقى ، فتلك قسوة على المثال الذى اخترته لا قسوة

على شوقي نفسه . وان كان رأيي في شوقي كله ، بعد دراسة كاملة لكل ما أنتجه ، لايختلف كثيرا عن تعليقي على الامثلة المختارة وبهذه المناسبة أعد بأن أكتب نتيجة دراستي لشوقي في محاضرة أو كتاب آخر، يتسع للبحث والدراسة والاستقصاء ، ويكون رأيي إذ ذاك مؤيدا بكل ما أنتجه شوقي بلا استثناء

وأنا أعود فأشكر لأستاذي الفاضل أن حفزني إلى اخراج مبحث جديد

تنبيــه

وقعت اخطاء في الطبع قليلة العدد ننبه منها هنا على أهمها .

في ص ١٩ في هامش الصحيفة « تكلم الاستاذالعقاد الـكلام » وصحتها « تناول الاستاذ ... »

وفي صفحة ٣٠ في بيت المعري « ويريد العيش مبتهجا » وصحتها « ويروم العيش ... » ـ وفي بيت خليل جبران

واذا الصفصاف ألقي ظله فوق الهشيم

وصحتها

واذا مااللوز ألقى زهره فوق الهشيم

وفي ص ٣٩ في بيت الاستاذ العقاد « كأنها المقبرة المقلوبة » وصحتها « كأنها الهاوية المقلوبة »

(٩)

مهمة الشاعر فى الحياة

— ١ —

الشعر والفنون الجميلة والفلسفة

مهمة الفنون الجميلة

الشعر أحد الفنون الجميلة — أو (المثل الرفيعة) كما كان يسميها العرب (١) وأكبر مهمة لهذه الفنون جميعها أن تقوم واسطة بين ماهو كائن وما يجب أن يكون ، وان تقربنا من المثل الأعلى، الذى نرنو اليه ، كلما عز علينا بلوغه فى عالم الحقيقة .

وهى فى كل صورها نزاعة إلى الكمال المنشود ، وان اختلفت طرائقها فى هذا النزوع . فهى إذ تصور الخير ممحضا خالصا ، تدعو إلى هذا الخير الممحض الخالص . وهي اذ تصور الشر خالصا كذلك تدعو للاشمئزاز منه وهجرانه . وهي تجنح فى بعض الأحيان إلي تصوير الخير والشر يتنازعان ، ولكنها تشير إليك من طرف خفى ، أن تأخذ بناصر الخير، ليفوز ، ويتغلب علي منافسه الخبيث . ووسيلة هذه الفنون جميعها ، أن تخاطب العاطفة ، فيما تريد أن

(١) وأنا أميل الى تسميتها بالمثل الرفيعة ، لان فى هذا الاسم إشارة الى مهمة الفنون الجميلة وهي الدعوة الى المثل الاعلى

أن تبثه من مبادىء أو تصوره من احساس . وهى تختلف فى وسائل المخاطبة ، وكلما قلت هذه الوسائل كان الفن أقرب الى العاطفة . وأدنى الى طبيعة الجمال الرقيقة .

منزلة الشعر من الفنون الجميلة

وقد تكون الموسيقي على ذلك هى الأولى فى عالم الفن الجميل ، لأنها تخاطب العاطفة بأقرب وسيلة ، وبواسطة مبهمة غير محدودة ، فما هي إلا نغمات غامضة ، تسرى الى النفس ، لاتستطيع أن تعبر عنها تعبيرا دقيقا ، وان استطعت أن تشعر بها شعورا عميقا . ثم يلى الموسيقي فى ذلك الغناء ، ويجيء الشعر فى المرتبة الثالثة ثم يتلوه التصوير فالنحت أو يتقدمان عليه إذا لاحظنا غموضهما عنه فى التعبير

وإذن فالشعر قيمته بين هذه الوسائل التي تربطنا بالمثل الأعلى وتدنينا منه رويدا رويدا . وليس لغوا فى هذه الحياة يعبث به العابثون ، ويرتقب من الدجاجلة والمهرجين . وليس بضاعة مزجاة تباع وتشترى فى الأسواق أو تتخذ حبائل لقضاء المصالح والاسترزاق !

وإذن فالشعر كلما قلت الوسائط بينه وبين العاطفة فى الخطاب كان أنبل وأسمي وكان أدخل فى كيان الجمال ، وأكثر حساسية وشعورا

الثانية : أن يعبر عما يحسه بهذه الطريقة ، تعبيرا أسمى من تعابير الجمهور . مظهرا فى تعبيره هذا نفسه ، وتأثراتها بما شاهدت وأحست . لا أن ينقل لنا الصور كما تراها سائر العيون . وبعبارة أخرى أن تكون له فى الحياة فلسفة خاصة به ، منشؤها احساسه الشخصي ، يفسر الحياة على ضوئها ، ويظهر للناس بعنوانها.

وتجد بعض من يدعون أنفسهم ، أو تدعوهم الجماهير شعراء: تجده يصف لك الليل ، فلا يعدو أن يقول : إن الجو ظلام ، والحركة هادئة والأحياء كلهم ساكنون !

وهو إذ يقول ذلك فى ثوب خلاب من الألفاظ، وبريق وهاج من الاسلوب ، يعد نفسه أدى واجبه كشاعر ، وخلص من ذلك الواجب السامي الذى ناطته به الحياة !

ولكننا لانريد أن نقبل منه هذا الاحساس السطحى الزهيد الذي لايعز على كل انسان أن يدركه ، لأنه يتعلق بالعين والأذن ولكل فرد من الناس عين وأذن !

انما نريد أن يحدثنا الشاعر عن أثر ذلك الهدوء فى نفسه ، وروعة هذا الظلام فى خاطره ، ورهبة ذلك الخشوع الشامل الاطراف نريد أن يصور لنا ما وراء الماديات المحسوسة ، مما يبعثه السكون الساهي فى نفسه ، وما يوحيه الليل الرهيب من ذكرياته وأشجانه ، ومقدار مايحسه من تغلغل الليل فى مجاهل الأبد ، ومقدار ما أودعته

الطبيعة من أسرارها ، وما قصدت إليه من وجود هذا الليل فيها ؟.

نريد أن يقف أمام هذا الليل كما وقف أمامه شاعرنا الناشىء «على افندى عبد العظيم» من قصيدة طويلة فى الليل ، يقول فيها :

مد الظلام على الآفاق سلطانا وطوق الليل وديانا وكثبانا
وبات يسبح فكري فى غياهبه حتى لتحسبه فى الكون ربانا
وراح يصطحب الأزمان مقتحما ما لم يحن وقته منها وما حانا

ثم يخاطب الليل :

ما أنت ياليل إلا مسرح حجبت أستاره خلفها أسرار دنيانا
طويت أسرار هذا الكون فى سدف لا نستطيع لها كشفا وتبيانا
ياليل بح لى بها إن كنت تعلمها ياليل حسبك اخفاء وكتمانا
أكان صمتك عن عي وعن حصر أم كان صمتك اغضاء وإهوانا !
أم أنت تجهلها مثلى فتنكرها أم أنت تبعث فيها الفكر ادمانا !
مشاكل تترك الالباب حائرة تثير ابحاثها شكا وايمانا !

* * *

ياليل كم فيك آيات محجبة يظل فيها شهاب الفكر حيرانا
تطوى النهار وتطوى فى تبلجه فما لركبك لاينفك جولانا ؟
وعيت أخبار من مروا . فهل نبأ عنهم ببطن الثرى تفضى به الآنا ؟
جبت الحياة أتدرى ما مصائرها أم كنت عن سرها ياليل غفلانا ؟
قل لي : أترابطها بالكون رابطة تبقى إذا دام أو تفنى إذا بانا ؟

إني لأسمع وحيا منك يلهمني ولست آلوه تصديقا وايقانا
ان الحياة ستبقي جد خالدة تفني وتعمر أكوانا فأكوانا!

ذلك نوع من احساس الشاعر بالليل، ووقفته أمام روعته الشاملة وهو احساس ينبئنا فى الوقت نفسه عن جانب من فلسفة الشاعر فى الحياة ونظرته اليها. وليس مجرد كلام يقال!

ولقد تجد الشاعر المحسوب علي الشاعرية ظلما وبهتانا، يحدثك عن حبيبته، فاذا هو موظف فى قلم تحقيق الشخصية، أو سلك الشرطة السرى، يشبه أحد المجرمين!

اللون قمحى، والعيون عسلية، والعنق كذا، والرجل والذراع والخصر والجيد ... الخ. فهذه الحبيبة في نظره عبارة عن هذه الأشلاء الممزقة من العيون والخدود والنحور، والارداف والخصور. وهى ليست إنسانة حية، يشملها معني روحي واحد، يتراءى للشاعر وحدة جامعة ... هى فى نظرة كتلة لاقوة! فهو يعبر عنها بالوزن والقياس، لا بالحس والشعور، فهو ليس محبا لهذه المخلوقة، ولكنه موكل فقط بوصف ظواهرها، التي يراها كل انسان.

ولن نقبل نحن من شاعر مثل هذا الوصف الممزق لحبيبته انما نريد منه أن يحدثنا عنها كوحدة محبوبه لديه، يشملها معنى روحي جامع. نريد أن يحدثنا عنها: كيف يراها، وكيف تتمثل فى خاطره، وكيف شعوره بها ... الخ

وانا لنعجب في هذا المعنى الشامل بقطعة للأستاذ العقاد، ونعدها مثلا أعلى في هذا المقام:

يارجائي وسلوتي وعزائي ... وأليفي إذا اجتواني الأليف
نبئيني فلست أعلم ماذا ... منك قلبي بحسنه مشغوف
كل حسن أراك أكبر منه ... إن معناك تالد وطريف
لست أهواك للجمال وان كا ... ن جميلا ذاك المحيا العفيف
لست أهواك للذكاء وان كا ... ن ذكاه يذكي النهى ويشوف
لست أهواك للدلال وان كا ... ن ظريفا يصبو إليه الظريف
لست أهواك للخصال وان رف ... م علينا منهن ظل وريف
أنا أهواك «أنت» فلا شي ... ء سوي «أنت» بالفؤاد يطيف
إن حبا ياقلب ليس بمنسيـ ... ـك جمال الجميل حب ضعيف

هكذا «أهواك أنت» هي بعينها، لأنها هي بعينها، وهذه الاجزاء الجميلة فيها ـ الجمال والذكاء والدلال والخصال ـ لم تكن لتحب لديه إلا لانها فيها، فتكسب هذه الاجزاء حبه من حبه لحبيبته، التي هي وحدة جامعة، وروح شاملة، تدركها النفس أكثر مما تدركها الحواس.

نريد هذا النحو من الشعر، وإلا يكن؛ فان الشعر براء من الوصف المشوه الذي لا يوصف به إلا القتلة والمجرمون !!

* * *

ولقد نعلم أننا سنجد من الكثيرين مخالفة، كبيرة أو صغيرة

وأن تقديرنا للشاعر وما نطلبه في الشعر، سيبدو كثيرا مبالغا فيه وانما يبعث الينا هذا الاعتقاد أن تقدير الشعر لا يزال حتى اليوم في أولى درجاته ، رغم الجهود التي بذلها المجددون في تصحيح ذلك التقدير ، ولا تزال هناك طوائف من الجماهير ، والمتصدين للبحث في الأدب أنفسهم ، تقنع من الشعر بأزهد درجاته ، ظانة أنه الشعر الغالي الثمين !

وكل ما بيننا وبين هؤلاء من فروق في تقدير الشعر ، أننا لا نقنع من الشاعر بالتصوير السطحي ، والاحساس العادي ، بينما هم يقنعون .

وأننا لا نتقيد بالحدود التي سنها القدماء وغير القدماء في تقديرهم ونقدهم ، بينما هم لا يزالون مقيدين .

وأننا نعتقد أن المثل الأعلى للشعر وغير الشعر ، انما هو في المستقبل ، لأن الكمال أو ما يقاربه يتراءى في الأمام ، وقد نكون اليوم أقرب الى هذا المثل من العصور السالفة . بينما هم يرون أن المثل الأعلى في الماضي ، ولا يمكن أن يكون بحال، في الحاضر ولا في المستقبل ، ولا سيما في الشعر الذي يقيسونه بمقياس القدم كالنبيذ !

فالشعر الجاهلي أفضل الشعر ، ويليه شعر صدر الاسلام فالامويين فالعباسيين، وهكذا حتى تجيء الى عصرنا هذا الحاضر

فاذا الشعر ـ فى نظرهم ـ متأخر منحط ، لا بل كل شيء غير الشعر كذلك . فنحن اذن ملزمون فى عرفهم ، أن نقدس كل ما يتصل بالماضى وأن نفنى فيه حتى نفقد أنفسنا ، وأن نقلد الشعراء السابقين، كما صنع كثير من شعرائنا المشهورين الآن ، الذين ارتفعوا في غفلة الزمان!

تلك هى الفروق بيننا وبين هذه الطائفة ، وهى التى تجعلنا نعتقد أن لا بد من مخالفتهم لنا فيما نتطلبه فى الشعر ، وفى تقدير نا للشعراء .

ثم نحن فى الوقت نفسه نكاد نيئس من التفاهم مع هؤلاء ، لانه ليست للفنون مقاييس محدودة ، وتعاريف معلومة . حتى يسهل الاقتناع أمام البرهان. وانما هي راجعة إلي الذوق والشعور قبل كل شيء : فأنت لكى تتفاهم مع آخر على مسألة فى نقد الفن ، يجب أن يكون بينكما اتصال شعورى . وتشابه نفسى ، حتي تستطيعا ايجاد أساس للتفاهم . فاذا لم يكن ذلك فلا فائدة فى الجدل ، ولاجدوى في المناقشة . وليس هناك من طريقة للتفاهم إذ ذاك إلا الامثلة . وهى أيضا تختلف فى التقدير . فأنت تعجب بقصيدة ، لا يعجب بها سواك ولا تستطيع افهامه وجهة نظرك بالتحديد .

ومع هذا كله فسنحاول قبل أن نمضى طويلا فى موضوعنا أن نبحث في هذه الفوارق . وأن نقارب بين وجهتى النظر . فاذا لم نجد ذلك ، فحسبنا هذا الشباب الناهض المتفتح للحياة ، القابل

للتفاهم بلا تعصب طويل .

الشاعر والمصور

يقولون لنا : أن الشاعر ليس مكلفا أن يحدث عن خواطره في كل مرة ، وأن يرسم لنا الاثر الذي خلقته المؤثرات في نفسه . وبحسبه أن يجيد تصوير ما يراه ويسمعه، كما رآه وكما سمعه . ثم يسألوننا في لهجة المنتصر الظافر : أليس الذى يصنع ذلك يكون مصورا ، والمصور في هذا العهد ، يجد الكثيرين ممن يفضلونه على الشاعر ؟

وهنا غلطة كبرى لا بد من تصحيحها : تبتدىء هذه الغلطة في الخلط بين الشاعر والمصور وطريقتهما في التعبير، وتنتهى فى تقدير المصور ذاته واعتباره ناقلا عن الأصل بلا تصرف ولا ابتكار.

فأولا ليس المصور والشاعر سواء في طريقة تعبيرهما : فالشاعر لديه متسع لتسلسل المعانى وعرضها من البدء للنهاية ، أما المصور فلا يستطيع أن يعرض الفكرة من مبدئها إلى نهايتها بل يعمد إلى أظهر حلقة منها ، وأبرز نقطة ، فيلتقطها ويصورها ، ويدع للناظر بعد ذلك أن يبحث عن أوائل السلسلة ، ويتتبع أواخرها . وهـذا هو الفرق الرئيسى بين المصور والشاعر ، الذي يفرقهما ، ويختط لكل منهما طريقه فى التعبير .

وثانياأن المصور يملك من وسائل التصوير الحسي مالا يملكه الشاعر فلديه الريشة والزيت والحبر والفحم والبستيل . . الخ . والمحاكاة لهسهلة ميسورة، أما الشاعر فلا يملك إلا ألفاظا يصوغها، لاتستطيع بحال أن تخرج صورة حسية، فان أخرجتها كانت ولا شك مشوهة، وخير منها ألف مرة، صورة فتوغرافية على « كارت بوستال » !

هذا كله من وجهة أولى ، ومن وجهة ثانية ، أن المصور الفنان هو الذي يخلع على الصورة ظلا من نفسه وخياله ، وتظهر فى صوره شخصيته واضحة متميزة. أما الذى يكتفى بتقليد الأصل أو التصرف فى النقل فقط ، فهو المصور المبتدىء الذى لم يرتفع بعد إلى درجة الفنان

هذا هو المفروض فى المصور ، بله الشاعر . فاذا نحن سلمنا جدلا أن الشاعر والمصور سواء ، كانت النتيجة أن الشاعر الذى ينقل الصورة كما هي لا يعد فنانا ... فالذين يريدون من الشاعر أن يكون مصورا ناقلا فقط ، انما يخرجون به أولا عن طبيعته الأولي، طبيعة الشاعر مصور العواطف، أو المناظر كما يراها هو لا كما تراها سائر العيون . وهم ينحطون به ثانية إلي مرتبة صغار المصورين . الأمر الذى لا نطيق أن ننزل الشاعر الى مستواه كما يريدون !

ولقد يكون النموذج في هذا الموضع خير ايضاح لما نريد . وهانحن أولاء نقدمه . فلقد وقف الشاعر الناشيء «عبدالعزيز عتيق» أمام ربع دارس مهدم الجوانب، يراه الغادي والرائح، فما هو إلا منزل

قديم فى نظر الرائحين والغادين ، لا يستلفت الأنظار، ولا يوحى للخواطر بشيء ـ اللهم إلا الاشمئزاز والاحتقار ـ أما فى نظر الشاعر فهو شبح كاسف شجي، يتيه فى تأمله الخيال، ويوحى بشتى الأحاديث. وهاهي ذى القصيدة:

الطلل البالى

هو ربع طامس العهد خرب   مظلم الأرجاء مفقود القطين
كان بالأمس يوشيه الصبا
وعلى دارته العز حبا
لهف نفسى ماله اليوم خبا
ضوءه الزاهى وولى واحتجب   بين طيات الليالى والسنين؟
تتمشى بينه الريح فلا
تلتقي إلا بأمواج البلا
عاصفات المد تذرو ما علا
بينما الربع حزين مكتئب   ساعر الأحشاء مكتوم الانين
خيم الصمت عليه والعدم
وحناه الدهر احناء الهرم
وهوجاث لم يهوم أو ينم
وصروف الدهر ترنو عن كثب   عله يغفي فتصليه المنون

مسرح المـاضى ورمز البسمات
موطن الجرذان مأوى الحشرات !
مطلع الافلاك . مهوى النيرات !
عجبا يأيها الدهر عجب فعلك الطائش بالربع الامين
زرته والنفس يوما ثائره
فاذا الربع عيون ناظره
واذا الاشباح تهفو نافره
واذا الهاتف مني يقترب يرسل الحكمة فى رفق ولين :
أيهـا الواقف بالربع اتئـد
واحبس الانفاس إجلا لا فقد .
غالنا غول الفنـاء المستبد
فغدونا مثل نار من حطب تخدع السارى وتخبو بعـد حين
فتنظر هل ترى الا رسوما؟
عابسات تملأ النفس وجوما
أكبر الدهر عليها أن تدوما
فاذا القائم منها منشعب وإذا الربع يغشيه السكون

هذا هو «الطلل البالى» كما يراه الشاعر ، فيه همس ووسوسة ؛ وفيه أشباح نافرة ، وصروف الدهر ترقب اغفاءه لتصليه المنون . ألخ وهو ليس بناء فحسب مهدم الجدران !

على أن الأوصاف والتشبيهات الحسية، قد تستساغ، وقد ترتقي إلي الدرجة الفنية في بعض الاحيان، وإن يكن النادر من الشعراء من يستطيع الوصول إلي هذه الدرجة، ولا نكاد نعرف في الشعر العربي أحدا استطاع ذلك غير ابن الرومي، الذي كان مصورا أكثر منه شاعراً، أو شاعرا مصورا على أصح تعبير

والتصوير الحسي يبلغ درجة الفن العالي حين لا يجمد عند الصور الحسية، بل يدع للخيال سبيلا للعمل حول هذه الصور، يتدرج منه إلى التأثر الوجداني. وهذا الشاعر السوري «فؤاد الخطيب» يصف بلدا أثريا بقوله:

بلدا كأن يدا دحته فخر من قلل الجبال ممزق الاوصال
فهنا الصخور على الصخور تحطمت وهناك منه حقيقة كخيال
أو كالطلاسم فوق مهرق ساحر في كل زاوية خبيئة حال
موت تطوف به الحياة وموقف تخشعت لديه طوارق الاهوال
تمضي القرون علي القرون كأنها وقد انحدرن اليه ـ بضع ليال

هذه صورة حسية لا تقف عند الحس الجامد، بل تدع للخيال أن يتصور اليد تدفع هذا البلد من قلل الجبال فيخر ممزق الاوصال ثم يتدرج من ذلك إلي تشبيه هذا البلد بأنه كمهرق الساحر « في كل زاوية خبيئة حال » . . . ألخ ما لا أريد أن أشوهه بشرحه لأن الصورة في درجة سامية من الفن العالي النادر المثال في الوصف الحسي

أما الغالب فيمن يعمدون إلى هذه التشبيهات الحسية ، فهو أن يعطونا عدة أشباه للشيء الواحد لاتزيدنا به تعريفا ، وليس بينها وبينه من صلة إلا ما تراه العين من اللون والحجم والشكل . أو ما تسمعه الاذن من النغم والرنين

فابن المعتز حينما يقول في تشبيه الهلال

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

لا يزيد على أن يعطينا نسخة من صورة الهلال لا علاقة بينها وبينه في طبيعته الاصيلة . ولا رابط بينهما غير ما تراه العين من البياض والسواد . ومع ذلك فهل أحسن في نقل نسخة من الهلال؟ يكفي للجواب على ذلك أن تتصور الهلال في خيالك ، ثم تتصور بجانبه زورق ابن المعتز . لتدرك الفارق الكبير ، وتعلم مقدار ماشوه ابن المعتز من منظر الهلال الجميل !

وكذلك التشبيه المشهور :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

انما يحشر لنا مجموعة لأشياء بيضاء وحمراء . ليس بينها من علاقة إلا علاقة الالوان . وإلا فأية علاقة بين الدمع واللؤلؤ . وبين العناب والانامل ، وبين السن والبرد . إلا علاقة العين المجردة . وهي علاقة سطحية بين المشبه والمشبه به . إن أجازتها القواعد وقبلتها فالشعر الذي يبحث عن العلائق الخفية العميقة في طبيعة الاشياء

لا يقبلها بحال .

ومثل ما تقدم تقريبا ما يقوله شوقى الشاعر عن السفين فى خضم البحر :

نازلات فى سيرها صاعدات كالهوادى يهزهن الحداء

فأية رابطة هنا إلا رابطة الحركة فى النزول والصعود ؟ ـ وهى مع ذلك غير دقيقة — وعلاقة قطع المسافات على السفينة وعلى الناقة؟ ولكن أية علاقة وثيقة بين طبيعة السفن وطبيعة الهوادي ؟ ماذا يجمعها فى عالم النفس الداخلى الحساس الذى يعنى بالصلات العميقة لا بالطلاء والقشور ؟

أو قوله عن البدر :

وافى بك الافق السماء فأسفرت عن قفل ماس فى سوار نضار

فبغض النظر عن القفل والسوار «ماساو ذهبا» ! والفرق بين شكلها وشكل البدر فى السماء ! بغض النظر عن ذلك ، فنحن لا ندرى ماذا نحس من روعة خيال هذا الوصف الابيض والأصفر ؟!

وقد يكون التشبيه أحوج إلى الدقة فى بيان زيفه مما سبق لأن الزيف يتصل بالاحساس الفنى فيه ، كقول شوقى الشاعر يشبه توت عنخ أمون داخل أكفانه

وكأنهن كمائم وكأنك الورد الجنين

فقد يلوح للنظر جميلا ، أن يشبه توت عنخ أمون فى كفنه ، بالوردة فى كمها . ولكن أية علاقة فى هذا غير علاقة العين المجردة

بين ميت ملفوف فى كفنه ، ووردة ملفوفة فى كمها ؟.. أية علاقة بين ميت يستقبل الفناء ولا تنبض به حياة ، ووردة فى كمها تتفتح للحياة وتنبض بها عروقها ؟

إن الاحساس السليم لايستسيغ الجمع بين النقيضين فى الطبيعة، وإن لاح أنهما متشابهان فى النظرة البصرية العجلى ، التي لاتشعر ولا تحس .

ولقد تعظم النازلة ، ويشتد خطب الشعر والشعور ، حين يبدو لواحد من هؤلاء المحسوبين على الشعر ، أن يلج فى تشبيهاته هذه ، فلا يقنع منها بتشبيه ، حتي يأتى بملابسه ، وبملابس ملابسه ، كما صنع ابن المعتز فى هلاله حين قال :

انظر الى حسن هلال بدا　　　يهتك من نوره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة　　　يحصد من زهر الدجا نرجسا

فعلاوة على أنه لاتشابه بين الهلال والمنجل إلا فى الشكل الخارجى ، ولا صلة بينهما فى الطبيعة ، إلا صلة النظرة البصرية . علاوة علي ذلك راح صاحبنا يصنع المنجل من الفضة ، ثم هذا المنجل لابد له من شيء يحصده !، فماذا يحصد إذن ؟ يحصد النجوم ؟، ولكن النجوم لاتحصد ! ، إذن فلتكن نرجسا ، وليكن لهذا النرجس زهر ، وليكن هذا الزهر نابتا فى الدجا ، وتكون هناك استعارة فى الدجا هذه !!!

ثم ماذا وراء ذلك كله من العاطفة والاحساس، أو من إدراك شيء من خفايا الحياة، وأسرار الطبيعة ؟ لاشيء إلا الهذر والهذيان.

ومثل هذا بالذات مايقوله شوقي :

والغبار الذي على صفحتيها   دوران الرحا على الأجساد[1]

حينما شاء له إحساسه أن يشوه قول المعري في بيته الخالد في قصيدته الخالدة

خفف الوطء ماأظن أديم   الأرض إلا من هذه الأجساد

وأسخف من هذا وأحط معظم ما يعرف بحسن التعليل، وإمكان التشبيه !

فلما قال المتنبي :

فان تفق الأنام وأنت منهم   فان المسك بعض دم الغزال

كان ـ إلى حد ما ـ مقبولاً في قوله، لأن هناك ارتباطا على أقل تقدير من ناحية الطبيعة بين الانسان والغزال ، فكلاهما تنبض به الحياة . وان يكن ارتباطا متصيدا نحاوله !

فلما قال البحتري

دنوت تواضعا وعلوت مجدا   فشأناك انخفاض وارتفاع

كذاك الشمس تبعد أن تسامى   ويدنو الضوء منها والشعاع

لم يبق من الارتباط الذي في حديث المتنبي شيء ، وكان

---

(١) تكلم الاستاذ العقاد الكلام عن هذا البيت فلاحاجة بي لشرحه

الموضوع هنا مجرد دليل عقلى منطقى ومسألة شكلية تراها العيون

ثم نكب الأدب بمن ينحط عن هذا المستوى ويسخف حتى يقول :

فكرت ساعة وصلها فى هجرها　　فجرت مدامع مقلتي كالعندم
فجعلت أمسح مقلتى بخدها　　إذ عادة الكافور إمساك الدم

أرأيتم كيف كان دمعه دما — وهى مبالغة لا نقبلها فى هذا العصر ولكنا نميل إلى أن نغتفرها لقائلها — فلما رأى هذا الدم يسيل ، ورأي خدها كافورا ، وعلم من الطب أن الكافور يمسك الدم ، مسح بخدها هذا الدم المنبجس ، حتى يقف جريانه ويحتبس !!! وهكذا يكون التلاعب المزري باسم الشعر المسكين !

أين كل ما مضى من هذه الألاعيب أو السطحيات من تشبيه شاعر ناشىء لمخلوق صغير بائس بدأ ينعشه أمل جديد !

زهرة قد كاد يعروها الذبول　　ثم حيتها تباشير الربيع
فهى ترنو بين صحو وذهول　　مثلما تحتار فى العين الدموع

أو حينما يعرب عن قلبه بعد يأس عقيم :

هذا الفؤاد الذى خلفته تعبا　　مضنى معنى يرجي منك مقتربا
هذا الرجاء دهاه اليأس فانطمست　　آثاره وتوارى ضوءه وخبا
وبات قلبي كالمحراب دارسة　　أطلاله يتراءى موحشا خربا
يجلل الصمت والذكرى جوانبه　　ويطويان به الاجيال والحقبا

وأين ذلك أيضا من قول الشاعر الناشيء محمد افندي الداخلي الهوارى . فى قلبه المحطم اليائس :

واذا قلبي كالرمس به رفقة دون حديث من نديم
واذا قلبي سماء أقفرت وخبا البدر عليها والنجوم

قلب يائس خامد كالمقبرة . فيه ذكريات وخيالات وعواطف ولكنها لاتتحرك ولا تحس ، ولا تتناجي بحديث ، كالمقبرة فيها أحباب وأعداء ، ولكن لانقاش ولاحديث . ثم الروعة الغاشية على القبر الموحش وعلى قلبه الموحش علي السواء . واذا قلبه كذلك سماء مقفرة . خبا البدر بها ، وانطمست النجوم فلا لمعة ولا ومضة ، الا الظلام الدامس والأسى الكاسف ، والصمت الرهيب .

أو قول هذا الشاب نفسه . ساعة حيرة نفسية تغشيه وتطغي عليه ولا يدرى لها سببا ولا يجد فيها مخرجا :

مظلم النفس كأني ملك غضب الله عليه فى السماء

وأود أن أقف قليلا أمام هذا التشبيه الرائع العميق ، فالملك البريء الذى غضب الله عليه ، يستحق العطف المضاعف ، ويكون فى درجة من البؤس فوق مايتصور ! فهو مطرود من الرحمة دون أن يعرف له موئلا آخر ، هو طاهر لايستطيع الانغماس في الرذيلة ، يسرى بها عن نفسه . فلو أنه كان شيطانا مغضوبا عليه لكان له فى « شيطنته ! » عزاء ، وفى الرذيلة يلهو بها غناء ، عن العالم البريء

الذي طرد منه ، والرحمة الوادعة التي أقصى عنها . وهكذا الشاعر الرقيق الحساس ، يؤلمه المجتمع فلا هو يستطيع إيلام غيره كما آلمه ، ولا هو يصبر على الايلام، فيبقى هكذا حائرا مضطربا «مظلم النفس كأنه ملاك ، غضب الله عليه في السماء» !

وكذلك قوله ـ ولا زلت كلما قرأت في شعر هذا الشاب أجد النماذج التي لا تنتهي حتي ينتهي ديوانه غير المطبوع ـ قوله

ذهبت في الناس أناتي سدى كتلاشي العطر في عصف الهواء

وهكذ معظم أنات الشعراء الحقيقيين ، تتلاشى في الناس كتلاشى العطر في عصف الهواء ، لأنهم لا يعرفون كيف يهرجون ويزيفون ، ولا يسيغون أن يتخذوا هذا الشعر وسائل للشهرة وقضاء المصالح الرخيصة ، هم يصونونه ولا يزدلفون به ولا يهوشون ، ولا يتملقون به الجماهير بأن يخرجوا لها ما تفهم من زخارف خادعة، وبهارج براقة . ولذلك تتلاشى أناتهم دون أن يشعر بها إلا القليلون

حقيقة إن هذه المثل السامية التي نتطلبها في الشعر ، قد تقصى كثيرا من الشعراء ولا سيما كبراءهم في هذا العهد ، أولئك الذين ليس في هذه الناحية إلا القليل

وقد تكون هذه مغالاة فيما نتطلبه ، ولكننا لا نريد النزول عن هذه المغالاة ، لأنها وسيلتنا إلى المثل الأعلى . وما دمنا نجد هذا الشعر الذي نريده من بعض الشعراء ، ومن شبابنا الناشيء في هذا

العهد ، فسبيلنا إذن أن نجعل هذا النوع هو المثل الذي نسعى إليه ؛ فمن ناله فهو الشاعر الحق ، ومن قصر عنه فليس ذلك ذنبنا حتى نشفق عليه ، وهو لن يعدم من غيرنا القانعين ، من يطلق عليه لقب الشاعر . وربما الشاعر الكبير ! !

— ٣ —

الخيال في الشعر

مهمة الخيال

وعجيب أمر هذا الشاعر ! ، فبينا جماعة من الناس يرون من المغالاة، أن نشترط فيه ما اشترطنا، ويحسبون أن الشاعر لا يمتاز عن الجماهير بشيء فى إحساسه ، وإنما يمتاز عنهم فقط ، بأنه يستطيع التعبير فى أسلوب خلاب . ولذلك يقنعون منه بالتصوير السطحي مادام فى أسلوبه بريق ، وفى تعابيره زخارف وطلاء .

بينما جماعة يرون ذلك ، إذا بآخرين يفهمون فى الشعر أنه الخيال المطلق، الذى لابد ـ فى اعتقادهم ـ أن يناقض الحقيقة . وهو كلما اشتط بعدا عنها ، دل على عبقرية الشاعر فى نظرهم . ومن هنا نشأت الجملة المحفوظة «أعذب الشعر أكذبه» لان الشاعر فى نظرهم غير مسئول ، وذلك أحط ما يمكن أن يصور به الشعراء !

وقبل أن نصحح هذه الفكرة ، نود أن نبحث في طبيعة الخيال وصلته بالحقيقة المجردة ، أو الحقيقة النسبية ، إذا كانت الحقائق المجردة غير موجودة .

نحسب أن الخيال ، هو صلة ما بين الانسان القاصر والحقيقة المحجبة ، التي تدق على الافهام ، فينبعث الخيال ليقرب هذه الحقيقة .

وهو في ناحية أخرى صلة مابين الانسان وآماله البعيدة ، التي لايحققها له الواقع فيبعث إليها بشباك من خياله ، يدنيها منه ، ويقربه إليها

ليست مهمة الخيال إذن أن يشتط ويبعد عن الحقيقة حين يجدها . وهو إذ يصنع ذلك يفقد طبيعته ، التي هي ربط الصلة بين الفكر والحقيقة التي لم يهتد إليها بعد ، أو بين الانسان وآماله المترامية . حيث تنتهي مهمة الخيال ويكون قد أدى واجبه المطلوب منه

أما الذي يجد الحقيقة أمامه ، ثم يتجاهلها ، ويجنح للخيال يشتط به عنها ، فهو الزائف الاحساس ، المموه الطبيعة . ولن يكون هذا هو الشاعر . الشاعر الذي كل ميزته أنه يحس بالحياة احساسا صادقا ، ويعبر عما يحسه باخلاص .

الشعر والحقيقة :

ويقال هنا : ان الشعر الذي يعبر عن الحقيقة ، قد يفقد شاعريته وموسيقاه ، ويصبح فلسفة مجردة جافة ، لادخل فيها للشعور إلا بقدار .

ونقول «بمقدار» لان الفلسفة نفسها ليست بمعزل عن الشعور. والشعور ليس بمعزل عن الفلسفة. وإنما هما يتداخلان ويتفاعلان بمقادير وكيفيات غير مضبوطة ولا دقيقة، ككل ما يتصل بالنفس الانسانية.

وجوابنا أن الشعر في الواقع يعبر عن الحقيقة، كما أشرنا أول الحديث. ولكن الحقائق التي يعبر عنها الشعر، من نوع آخر غير الحقائق التي تعني بها الفلسفة. هي حقائق الاحساس الخفي، التي قد يختلف في تقديرها كل فرد عن الآخر.

واذا قلنا يختلف في تقديرها كل فرد عن الآخر، فانما نعني ذلك إلى حد محدود، لأن هناك مقدارا أوليا من الاحساس مشتركا في النفس الانسانية عامة، ما لم تفسد فطرتها، هذا القدر الأولى تشترك فيه النفوس المختلفة، ثم تأخذ بعده في الافتراق، حسب الامزجة أولا، ثم حسب الافراد، فيمتاز احساس بالدقة، ويمتاز آخر بالعمق، وثالث بسرعة الانتقال ورابع بادراك الأوجه المتعددة للمسألة الواحدة وهكذا . . .

والشاعر أصدق احساسا من ذلك كله، لأنه أكثر ادراكا أو أكثر شعورا، بالحقيقة الطبيعية «الخام». الحقيقة التي تنبض بها الحياة نفسها، بل الحقيقة التي تكون الحياة ذاتها إحدى أفرادها! وابن الرومي مثلا حينما يقول عن الارض في الربيع. . .

تبرجت بعد حياء وخفر تبرج الأنثي تصدت للذكر

إنما يدرك أعمق طبيعة الحياة ، حينما يدرك أن الارض تتبرج للربيع تبرج الانثى تصدت المذكر . فليست الحياة فى صميمها إلا تزاوجا بين الجنسين ، وإلا اغراء من كل منهما للآخر بكل الوسائل ، حتى يكون هذا التزاوج . وفى هذا القدر تشترك الأرض الصامتة ، والنبات الساكن ، والحيوان الاعجم ، والانسان المتوحش ، والانسان الراقى على السواء . ولا سيما فى فصل الربيع

وكذلك حين يقول شاعر ناشىء فى قصيدة بعنوان

الصبح يتنفس

نسمات زفها الفجر الوليد بعد ماجاش بها صدر الحياه
ناعمات مثل أنفاس الورود بلل الطل شذاها بنداه

* * *

كانت الدنيا يغشيها السكون وظلام الليل والنوم العميق
طفلة قد ضمها الليل الحنون ضمة الرحمة كالأم الشفوق

* * *

وتراءى الصبح في سمت بديع فاذا الطفلة تصحو من سبات
ترسل الانفاس فى رفق وديع وإذا الانفاس تلك النسمات

* * *

وإذا الزهر يحيي فى ابتسام ذلك الصبح ويرنو فى هدوء
كابتسام الطفل فى عهد الفطام حينما يحلم بالثدي الملىء !

وإذا الطير وقد ران النعاس فوق عينيه تنزى فصحا
يرمق النور بهمس واختلاس ويحييه طروبا مرحا

* * *

وانبثاق الفجر من سدف الظلام مثلما يبسم للعانى الامل
يلثم السكون ببشر وابتسام ويحييه برفق فى القبل

* * *

وإذا الأنفس فى هذا الحنان وادعات بين احضان الطبيعه
ساهيات راضيات فى أمان ترسل الطرف برنوات وديعه

* * *

حالمات في كراها يقظات سابحات في التعلات الوضاء
تنشد الآمال عذب الأغنيات بين سمعيها ويحدوها الرجاء

* * *

فترة فى مطلع الفجر تمر هي حلم مثل أيام الطفوله
فاذا مرت فجو مكفهر هو فى الطفل شباب وكهوله

* * *

ليتني عشت بأحضان الصباح أو قضيت العمر أستمتع طفلا
لا . ولا هذا من الدهر يتاح لا. ولاقدعدت أستمتع. كلا !

حينما يقول : إن الحياة طفلة ، كان يضمها الليل فى كنفه ، ثم لما أبصرت الصباح استيقظت وتنفست ، فكانت أنفاسها هي

نسمات الفجر الرقيقة ... هو في الحقيقة لا يتخيل، ولكنه يتعمق في طبيعة الحياة أكثر من الفرد العادي الذي، لا يرى الا ظواهرها ، فاذا الحياة طفلة لأنها لاتزال ولاتزال غريرة صغيرة ، وإذا الليل يضم هذه الطفلة بين عطفيه كالأم الحانية، وإذا الصبح فتنة تلك الطفلة التى تأخذها المظاهر ، وتجتذبها الاضواء . ونظرة إلى الدنيا فى الصبح الباكر لابد أن تصورها طفلة وديعة .

وكذلك حين يشبه الزهر فى تفتحه لنسمات الفجر ، بالطفل المبتسم لحلمه بالثدي، بعد فطامه ... لم يهده الخيال إلى ذلك، ولكن هداه إحساسه الدقيق الذي يلمح العلاقة بين الزهر والطفولة، وبين ابتهاج الزهرة بنسمات تحييها وتغذيها ، وابتهاج الطفل بحلمه البرىء ، بثديه الذي يحييه ويغذيه !

وكذلك تشبيه انبثاق الفجر من أسداف الظلام، بانبثاق الأمل للعاني المكدود ... فاستروإح النفس للفجر كاستروإحها للأمل، وأدق من ذلك أن الفجر هو أمل الحياة، الذى يقشع عنها ظلمة الليل البهيم.

فاذا رأى الناس بعد ذلك خيالا فى الشعر الحقيق بهذا الاسم، ورأوه بعيداً عن الحقيقة التي يدركونها ، فذلك لان الشاعر أدرك من الاعماق ما لم تدركه الجماهير ، ودق فى احساسه حتى تراءى ذلك خيالا ، لمن لايحس بقرارات الطبيعة ، والصلات الخفية بين أبنائها جميعا .

احساس الشاعر بالكون

ولقد تكون نظرية وحدة الكون جديدة في عالم النظريات العلمية ، وبعض المذاهب الصوفية . ولكنها كانت منذ عهد بعيد ثابتة فى طبائع الانسان العميقة ، وهي أثبت من ذلك فى طبيعة الشاعر وفى نظرته للحياة ، وهي كذلك فى نظر الفنانين جميعا . لانهم إذ يقربون بيننا وبين المثل الاعلى ، يجب أن يحسوا قبل ذلك بالعلاقة التي تربطنا بهذا المثل ، والطريق التى توصلنا إليه ، ومقدار الخطوات التي قطعها الكون كله فى هذه الطريق . وهم فى أثناء ذلك سيحسون بتساند الاحياء جميعا ، وتكاتف المخلوقات كلها . وهى تسير ميممة للامام .

لا بل أنهم لم يكتفوا بالاحياء . فراحوا يشركون الكائنات جميعها — حية وميتة — في هذا التساند والتكاتف . ومنشأ ذلك كله احساسهم بوحدة الكون فى جهاده . فنظروا إليه نظرة المحيط بالاطراف ، المتعمق في القرارات .

ومثل هذا الاحساس يبدو فيما تقدم من حديث ابن الرومى عن الارض والربيع . وفى قصيدة الشاعر الناشيء «تنفس الصبح» كما يتجلى فى فلسفة المعري جميعها ، وان اتجه إلى طريق التشاؤم . فهو متشائم من الحياة جميعها ، وكل شيء فيها متصل بكل شيء فى نظره

فهي جميعها حساسة متصلة

ومن ذلك قوله

تسريح كفك برغوثا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة ويريد العيش مهتاجا

ويتضح أكثر فى قوله :

خفف الوطء ما أظن أديم الأ رض إلا من هذه الاجساد

وفى قول جبران خليل جبران موازنا بين عالم الطبيعة وعالم الانسان

واذا الصفصاف ألقى ظله فوق الهشيم
لم يقل هـذا حقير وأنا المولى العظيم

وفى شعر الشباب الحاضر ماقد تغلغل فى الاحساس بالصلة بين الانسان والطبيعة إلي حد كبير . وإني لميال لان أستشهد بالشباب الصغير ، الشباب الناشىء المغمور . وفيما مضى ذكرت شيئا من ذلك لعلى افندي عبد العظيم فى قصيدة «الليل». وهأنذا أذكر مثالا للاستاذ «محمود عبد الرحمن قراعة» في قصيدة متعمقة فى الحيرة والجولان فى هذا العالم :

اسرحي أيتها البهم على بسط منسوجة من سندس
اسرحى من مطلع الشمس الي أن يبيد الضوء جيش الغلس

. . .

لاعلى قلبك من ذل الاسار طائف يمنعه أن يستقرا

لو تجلى لك ماخلف الستار   لذت بالبيد من الانسان ذعرا
هو ذا القصاب يختار الشفار   ثم لا يلبث أن يهديك شفرا !
يبلغ الاوداج يفري المفصلا   فاذا العمر كرجع النفس
واذا ما حشرج الروح فلا   من فداء بالعزيز الأنفس

. . .

اقبلي دنياك ما طابت مراحا   ودعي المخفى للعالم وحده
ليس أمر الغيب للناس مباحا   لا . ولن يستطيع عقل أن يحده
إنما لاندرك الحق الصراحا   أو أعددنا لدفع الموت عده ؟
أم طبيب قد يرد الأجلا ؟   ليته يستطيع برء الأنفس !
كل ماجاد به أرن عللا   مظلم النفس بنور القبس !

. . .

من لقلب فرغت حاجاته   فهو خلو من أماني الشباب ؟
حطمته فعفت آياته   صدمة الصد واسدال الحجاب
ماتبدى أبداً آهاته   أفتحييه سطور من كتاب ؟
لا أبالي ان فقدت الأملا   أي رمس خط لي في الأرمس
أوحيدا ضعت في قفر الفلا   أو عزيزاً مت بين النرجس !

. . .

ليس يختار أكيل آ كله   وأرى الساعات تمضى لاتعود
أترى هذي الحياة الزائله   أطول الآجال فيها ظل عود ؟

كل ما فيها أمانت باطله   يستوى النبيد فيها والمسود
كل ما شيد بها مهما علا   لا يساوي حيرة فى حندس !
هل تراه حل أمرا معضلا ؟   لا . ولارد عناد الشكس

***

لم كان الكون ما بين سماء .. فجبال فنجاد فبحار ؟
لم حل الذر اطباق الفضاء   لم كان القطر من بين البخار
لك ربي دنت فاحكم ما تشاء   غير أن العقل فى الحكم يحار
برد الشك ومهما نهلا   ما روي مظماه ما يحتسى
يهبط القاع ويعلو الجبلا   هائما من عريه لم يكتس

فى وسط هذه الحيرة الجارفة ، من هذا الكون وما فيه من طلاسم ومعميات ، يلمس الانسان احساسا بوحدة هذا الكون وتفاعل جزئياته : وان كان الشاعر يريد أن يعلم سر اجتماع هذه الاجزاء وسر تفاعلها ، ومن أين جاءت ؟ وأين ستنتهى ؟ ، وهو حائر

يهبط القاع ويعلو الجبلا   هائما من عريه لم يكتس

وهو يغبط البهم ، لانها لاتحار هذه الحيرة ، ولا تفكر فى صلاتها بالآخرين !

اقبلى دنياك ماطابت مراحا   ودعى المخفى للعالم وحده

- وهى نظرة شاعر شديد الحساسية ، يجنح للفلسفة ، ولكنها فلسفة الحياة النابضة : فلسفة الشعور المتحفز المتعمق ، وذلك أدخل

الخيال الشعرى و المبالغة

ويحسب البعض أن الشاعر حينما يعبر عن إحساسه ، وحينما يصف عواطفه وأشجانه، فى صورة رائعة . يحسبون أنه يدرك الحقائق كما تدركها الجماهير، ويحس كما تحس الجماهير، ولكنه يزيف فقط فى التعبير ، فيفخم ويعظم

ولكن الواقع أنه لا يفعل ذلك إلا الشاعر الزائف الاحساس، السطحى الشعور، أما الشاعر الحق، فهو يدرك الأشياء على هذا النحو من الدقة والعمق والفخامة، فيعبر عنها كما يراها. وهذا ماقصدنا إليه من أن الشاعر يعبر عن الحقيقة . لأنه يتحدث كما يري ، ويعبر عما يحس بلا تزييف ، اذا كان شاعرا جديراً بهذا اللقب النبيل .

إن الشاعر يدرك من العلاقات بين التصورات والأحاسيس مالا يدركه الآخرون، فتراه ينتقل من هذه الخاطرة إلى تلك ، لانه يلمح العلاقة بينهما فى أعمق من الطبقة الظاهرية . بينما الآخرون لا يلمحون هذه العلاقة ، فيحسبون أن فى تعبيره مفارقة ، أو كذبا وما هو بمفارق ولا كاذب ، ولكنه أدرك أعمق وأدق وأسرع مما يدركون

على أن الخيال كما قلنا له وجهة أخرى، هى التقريب بين الانسان

وآماله تارة ، وبينه وبين المثل الاعلى — إن كان من طلاب هذا المثل ـ تارة،فالخيال بهذا الاعتبار متسع المجال للشاعر ، الذى لاتفتأ آماله فى اتقاد ، ولا تفتأ آلامه أيضا فى اشتداد . وهو دائب على طلب المثل العليا، سواء أحس بذلك أم لم يحس ، فهو يؤدى مهمته بلا تفكير .

الناس تقنع بالحياة وترتضى   منها محاسن شوهت بمثالب
والشاعرون تؤزهم أدرانها   يبغونها لم تمتزج بشوائب !
حسن أرق من الاثير، يهيجه   ماقد تمر عليه مر اللاعب !
وهي الحياة : لمن يرق شعوره   ألم . وإن يـكشف فلذة راغب

وليس معنى الخيال هنا ، أن يبالغ الشاعر وهو مدرك لمبالغته فان ذلك شأن المهرجين . ولـكنه يبالغ بطبيعته، ودون شعور منه بمبالغته ، لانه أشد حساسية وأدق شعورا ، فهو يتلهف لما يريد ، وهو يألم للاصطدام. وما أكثر الآلام، اذا كثرت الا مال ـ وانه لصادق فى تلهفه ، كما هو صادق فى تألمه على السواء .

تناسق الخيال

وثمة ناحية أخرى خاطئة فى فهم طبيعة الخيال ، ومهمته فى الشعر نشأ الخطأ فيها عن الخطأ الاول . ذلك أن الذين يفهمون أن الخيال الطبيعي كل مابعد عن الحقيقة — ولو طوعا واختيارا —

لا يشترطون بطبيعة الحال أن يكون فى هذا الخيال حياة نابضة ، متناسقة الاجزاء . وبعبارة أخرى لا يشترطون التلاءم والتوازن فى هذا الخيال . ولا يعتبرون نقصا فيه أن يبدو أحد الأخيلة فى القصيدة مناقضا للآخر لأن الاثنين يتفقان فى أنهما غير حقيقة ، وهذا هو كل شرط الخيال فى نظرهم !

أما نحن فلا نرى فى الخيال سموا ، إلا إذا كان كل جزء منه مكملا للآخر ، بحيث تكون أخيلة القصيدة جميعها متناسقة ، والظل الذى تطبعه الصورة المتخيلة ظلا كاملا ، متلائم الأجزاء ، لا نتوء فيه ولا تعارض . وبعبارة أخري أن تكون وحدة الشعر هى القصيدة لا البيت — أو الشطرة — كما غالى بعض المتقدمين ، ومن لا يزالون يعيشون بعقول المتقدمين !

والذي نتطلبه هو الذى يتفق وطبيعة الجمال . الجمال لا يعترف بالأجزاء ، بل ولا أتصور وجوده فى الأجزاء كل على حدة ، فالجمال تناسق الاعضاء ، أو هو قوة تنتج عن هذا التناسق . ولن يكون تناسق بين العضو ونفسه . ولهذا كانت التشبيهات التى تقتصر على العين وحدها ثم الخدود والخصور والارداف ... الخ . تشبيهات سقيمة تجزىء هذه المجموعة الحية ، وتدعها أشلاء ممزقة كما ذكرنا فيما مضى ، فضلا علي ماقد يكون هناك من تعارض بعض الاجزاء مع البعض الآخر .

وأمثال التجزئة في الوصف ، ولا سيما وصف الخدود والعيون والنحور ، كثيرة مشهورة تملأ الشعر العربي ، وتطغى على شعر العصر الحاضر إلا القليل .

وأما تعارض الأخيلة في القصيدة الواحدة فمثاله قول شوقي الشاعر عن أبي الهول :

تهزأت دهرا بديك الصبا ح فنقر عينيك فيما نقر

ودعنا من الصباح وديكه ! ، وكون هذا الديك لا بد أن ينقر كما تفعل الديكة ! وكون الصباح وحده أثر في أبي الهول دون الليل مثلا ! . دعنا من هذا ومافيه من تكلف وقصر ، نظر إلى أن شوقي يقول لأبي الهول نفسه هذا الأعمي الذى نقر ديك الصباح عينيه :

تطل على عالم يستهل وتوفى على عالم يحتضر
فعين إلى من بدا للوجود وأخرى مشيعة من غبر

فهنا عاد أبو الهول مبصرا ، يطل على عالمين ، وعادت عيناه سليمتين حادتي النظر .

وقد يكون كل تشبيه بمفرده حسنا في ذاته ، ولكن باجتماعهما يتعارضان ، ويدلان على أن هذا الشاعر لم يكن صادقا فيما يحس ، لان الصادق لا يتناقض أول كلامه بآخره !

سيقولون شاعر شبه أبا الهول تشبيها ، ثم شبهه تشبيها آخر مستقلا . ولكنا نحن لا نقبل منه هذا التعارض في الأخيلة بين تشبيه

وتشبيه، فى قصيدة واحدة على الاقل. والشعر لا يعرف هذا الاستقلال بين التشبيهات، ولا يريد ضرائر المعانى، تتخاصم وتتشاحن. بل كل المعانى لديه أخوات مؤتلفات. لا بل أدق من ذلك: كل المعاني في القصيدة الواحدة أجزاء يكمل بعضها بعضا. ويتصل به اتصال العضو بأخيه، لا غني عنه، ولا فكاك منه!

ومثال من التعارض نأخذه من قول «عبد العزيز عتيق» الذى أعجبنا بقصيدته «الطلل البالى» منذ لحظات. إذ يقول فى قصيدة «أنا والحياة» في ديوانه المطبوع:

تخاف على الدنيا تمرد شاعر! وهل ظالم الايام من عاش زاويا؟

ويقول:

بعيدا وحيدا غير نفسي وخاطري سعيدا بأن أحيا مدى العمر خافيا

فيمثل بذلك الانزواء والبعد عن الحياة وأهلها بحيث لا يراه أو يشعر به كائن من كان. ولكنه لا يلبث أن يقول بعد ذلك:

سأبقى على الدنيا خيالا مشاكسا أبدد أحلاما وأقصى أمانيا

فيشعرنا أنه سيشاكس هذه الحياة، ويبدد أحلامها، ويقصى أمانيها. فتتجلى أمامنا صورتان متعارضتان: صورة «الوادع» وصورة «المشاكس». صورة «المنزوى» وصورة «المناضل»، والذي يعيش زاويا خافيا، لا يحس به أحد، لا يمكن أن يكون مشاكسا يبدد الاحلام ويقصي الأماني، وأن لفظة «المشاكسة» في ذاتها لتحدث

ضجة وقسوة لا تتفق وهذا الانزواء

نعم قد يكون عذره في ذلك أن القصيدة اضطراب نفسي حانق وهذا الاضطراب يوحى مرة بالقوة، وأخرى بالضعف ، مرة بالمسالمة وأخري بالمشاكسة. وهو عذر طبيعي يحسه الشعراء . وغير الشعراء ولكنا مع هذا لا نميل الى التسامح معه في هذا التضارب .

وأقل من هذا تعارضا. قوله فى قصيدة لم تكتب بعد ! بعنوان «مدينة الاموات» :

خيم الصمت فوقها والظلام وغزا النوم ساكنيها فناموا

فقد أحسست عندما أسمعني هذا المطلع أن كلمة «غزا» تحدث ضجة وجلبة ، لا تليق بهذا الصمت الخيم ، وذلك النوم الذى لا حراك فيه . وهى تحد من جوانب هذا الجلال النائم ، وتوقظه من سباته الرهيب. حينما تلقى فى الذهن صورة للغزو، مصحوبة بالصخب والضجيج!

وهو يصر على الاعجاب « بغزا » هذه . كما أعجب « بمشاكس » واكبر الظن أنه الشباب المتحفز، يدفعه للاعجاب بهما. الشباب المغرم بالضجة والقعقعة . وإلا فأنا لا أفهم كيف يصر على ذلك من يقول مثل قصيدة « الطلل البالى » أو « حلم الورد » وأمثالها فى ديوانه

ومثال هذا أيضا . قول « على عبد العظيم » الذى أعجبنا بقصيدته عن الليل قبل ذلك. فهو يقول عن السماء فى نفس هذه القصيدة :

كأنها فوق هذا الكون مقبرة أرخت عليه ظلام الليل أكفانا

كأنها رأس فنان وأنجمها بنات أفكاره تبدى له شانا

فان تشبيه السماء بالمقبرة . والظلام بالاكفان المسدلة على الكون . يلقي في ذهن السامع صورة للفناء الشامل والموت المحيط. فلا يليق بجانبها أن تكون السماء رأس فنان ونجومها بنات أفكاره . لان رأس الفنان ، أول مظهر على الحياة النابضة الحساسة. فهما خيالان متعارضان لا نغتفرهما لشاعر ملهم كعلى عبد العظيم

وقد جاء هذا المعنى للاستاذ العقاد في وصف السماء !

كانها المقبرة المقلوبة كانها الجمجمة المنخوبة

فسلم من تعارض الخيال . لان الجمجمة المنخوبة ، لاتتعارض مع المقبرة المقلوبة ، تعارض رأس الفنان الحية النابضة !

وقد أعجبنا من قبل بقول الداخلي أن قلبه كالمقبرة ، وفى الوقت نفسه كالسماء المقفرة : لان القلب اليائس المظلم الجوانب يشبه المقبرة ، كما يشبه السماء المقفرة، ولاتعارض فى التشبيه

وقد يقال : إننا نحرم تشبيه شيء بأشياء من نواح مختلفة. ونحن لم نرد ذلك ، ولم نحرم تشبيه الشيء بكثير من التشبيهات . ولكننا فقط نشترط تلاءمها وتعارفها

وها هوذا شاعر ناشيء . يحدث عن نغمات «العود» فيقول :

كأن ألحانك اللاتي ترددها أطياف ذكري توارت ترجع الآنا

كانها خطرات فى مخيلة تحسها ثم لاتستطيع تبيانا

كأنها همس جن أو ملائكة   أسرّ عن عالم الانسان كتمانا

فهنا تشبيهات ثلاثة . ولكنها متآخية ، لا يزحم واحد منها الآخر ولا يتنافر معه... فالاطياف. والخطرات. والهمس. تشترك جميعها في الرقة والخفوت والحنان .

إلى هذا الحد نحن نذهب إلى وجوب التناسق والائتلاف ولا نتسامح فيه، ولا يمنعنا الاعجاب بشعرائنا الناشئين ، أن نحاسبهم على هذه السقطات البسيطة مهما كان لهم عذر فيها ، لاننا نريد نوعا جديدا من الشعر والشعراء، يمثلون فطرة الشاعر الصحيحة ، فطرة التناسق والجمال . ونريد أن يكون هؤلاء الناشئون هم نماذج الكمال .

— ٤ —

ذوق الشاعر

ومسألة تناسق الخيال ، وتلاؤم أجزائه . مسألة ترجع الى الذوق كما يرجع معنى التناسق في كل شيء الى هذا الذوق الحاكم ، الذى لا تعلل أحكامه تعليلا منطقيا . لانه غير محدود، ولا يقبل بطبيعته التحديد

والشاعر الحقيقي ـ وهو الدقيق الاحساس ، الملهم الفطرة ـ لا بد له من ذوق أرق من الاذواق، ذوق يستطيع الملاءمة في الاحساس والتناسق في التعبير . لا بل أن الاحساس السامي الدقيق لمبعث هذا الذوق . أو هما على الأقل أمران متلازمان ، ومظهران من مظاهر الالهام الصادق والوحي العميق

اثر البيئة فى الذوق والشعور والخيال :

على أن تنافر الأخيلة والصور ، قد يكون راجعا الى البيئة الطبيعية ، وإلي درجة الثقافة التى تهذب الأذهان والاحساسات ، وتجمع بين الفكر الشاردة برباط من المعرفة الجامعة . وإلي الحالة الاجتماعية ، وما فيها من ارتباط بين الافراد ، أو تنافر وشرود

كل هذه عوامل تؤثر فى نفس الشاعر وذوقه ، وبالأخص في ناحية ائتلاف المعانى ، وتناسق الأخيلة . وهذه النظرية أكثر ما تكون وضوحا فى الشعر الجاهلى . وهى فى البوادي أظهر منها فى الحواضر ، وقد كانت عوامل التنافر علي أشدها ، وكانت كلها جميعا

كانت بيئة طبيعية مجدبة ، متنافرة المقاطع ، لاتحوى من ألوان الحياة إلا قليلا ، ولا يكاد يربط بين أفرادها رابط ... هنا تل وهنالك جبل . هنا غور وهنالك رابيـة . وهي جميعها أو معظمها جرداء لاتصل بينها صلة من الحياة ... مناظر تشتت الذهن ، وتوزع الخيال .

وكانت الثقافة العامة ، التى تصقل الأذهان ، وترتب الخواطر تكاد تكون مفقودة فقدانا تاما ، فالمعلومات فى هذه الأذهان — إن تكن ثمة معلومات — لاتلتقى واحدة منها بالأخرى ، ولا رابطة بينها جميعا ، وإنما هي شوارد نافرة ... ولهذا أيضا أثره فى تنظيم

أفكار الشاعر ، وفى نظرته للحياة وإحساسه بها

وكانت القبائل ، بل الأفراد ، فى خصام دائم ، يشعر بالتفكك والانحلال ، ولا يوحى الى الذهن ، إلا بأن العالم أشلاء ممزقة ، كل واحد منها لا يتعاون مع الآخر ، ولا يمت اليه بسبب .

وفوق هذا جميعه ، فقد كانت المناظر الخاصة التى يقع عليها نظر الشاعر فى كل مكان : فى فسطاطه وفى ملبسه . وفى طريقه . كلها توحي اليه بخيال متنافر لاارتباط بين أجزائه .

بعد هذا كله لانري عجيبا أن يكون الشعر فى هذه الفترة . مشرد الخواطر . مشتت الأخيلة تكاد كل شطرة — لا كل بيت — تكون وحدة قائمة بذاتها . وهي أشبه شيء بخواطر الاطفال ، يسترعي انتباههم كل حادث ، فيعبرون عنه للحظته ، تعبيرا متعجلا سريعا ، لا يكاد يتم حتي تنتقل خواطرهم إلى جديد . قد يكون أبعدما يكون عن الخاطر الأول .

والباحث في الشعر الجاهلى . . أو « شعر الصحراء » عامة جاهليا ، وغير جاهلى ، لا يكاد يعثر على صورة كاملة لخاطرة من الخواطر . إلا أن يكون ذلك عرضا واتفاقا قليل الوقوع وفي حالة نفسية عارمة ، لاتدع للخاطر أن يذهب إلى سواها . كذلك الشيخ الجاهلى من بني ضبة ، اذ كان له سبعة أولاد — كما يقول الأمالي — نخرجوا يصطادون فأووا إلى غار فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعا فقال :

أسبعة أطواد أسبعة أبحر — أسبعة آساد أسبعة أنجم
رزئتهمو في ساعة جرعتهمو — كئوس المنايا تحت صخر مرضم
فمن تلك أيام الزمان حميدة — لديه. فاني قد تعرقن أعظمي!
بلغن نسيسى وارتشفن بلالتي — وصلينى جمر الاسى المتضرم
أحين رماني بالثمانين منكب — من الدهر منبح في فؤادي بأسهم؟
رزئت بأعضادي الذين بأيدهم — أنوء وأحمى حوزتي واحتمي؟
فان لم تذب نفسي عليهم صبابة — فسوف أشوب دمعها بعد بالدم

وهذه القطعة مع روعة ظرفها ورهبته ، حتي خرجت قطعة كاملة دامية الجوانب . مع ذلك لم تسلم من التنافر : سبعة أطواد . وسبعة أبحر . وسبعة آساد . وسبعة أنجم . لا جامع بين هذه التشبيهات الا ما يريد الوالد المفجوع من مدح بنيه . وليس بينها جامع نفسى مشترك سوي هذا .

جمال السذاجة والصدق

وليس لنا أن نتهم احساس الشعراء في هذه الفترة ، فقد كان احساسا ساذجا وخالصا . ولكن هي الظروف جميعها ، تكاتفت على الشاعر ، فتركت أثرها ظاهرا ، وهذه الظروف هي التي تزيد اعجابنا بالشاعر « الصحراوى » ـ لا الشعر «الصحراوى» [1] ـ

(١) نقصد بالشعر الصحراوي ما قيل في البادية ولو لم يكن جاهليا

لأنه استطاع رغم تلك الظروف السيئة التى أحاطت به ، أن يخرج فى بعض الاحيان صورا حية كاملة الاجزاء ، متناسقة الاعضاء بقدر الامكان .

ولئن فات الشعر فى هذا الوقت جمال التناسق والعمق والالتئام، فقد كان له جمال آخر هو جمال السذاجة والبراءة والصدق، وهلا تقفون معجبين بتلك السذاجة البريئة النقية :

حللنا آمنين بخير عيش ولم يشعر بنا واش يكيد
ولم نشعر بجد البين حتى أجد البين سيار عنود
وحتى قيل : قوض آل بشر وجاءهم ببينهمو البريد
فلما ودعونا واستقلت بهم قلص هواديهن قود
كتمت عواذلى مافى فؤادى وقلت لهن : ليتهمو بعيد !
فجالت عبرة أشفقت منها تسيل كأن وابلها فريد
فقالوا : قد جزعت ! فقلت : كلا وهل يبكي من الطرب الجليد ؟!
ولكني أصاب سواد عيني عويد قذي له طرف حديد !
فقالوا : ما لدمعهما سواء أكلتا مقلتيك أصاب عود ؟
لقبل دموع عينك خبرتنا بما جمجمت زفرتك الصعود !
فقم وانظر يزدك مطال شوق هنالك منظر لهمو بعيد!

ألا أنه ليستحق العطف ـ والله ـ على هذه السذاجة الصادقة أيها الاخوان !

وكذلك الرجل الاعرابي الذى ابتاع خمرا بصوف جزة ، فغضبت امرأته لذلك الاسراف فقال :

غضبت علي لأن شربت بصوف ولئن غضبت لاشربن بخروف !
ولئن غضبت لأشربن بنعجة دهساء مالئة الاناء سحوف !
ولئن غضبت لأشربن بناقة كوماء ناوية العظام صفوف !
ولئن غضبت لأشربن بسابح نهد أشم المنكبين منيف !
ولئن غضبت لأشربن بواحدي ولاجعلن الصبر منه حليفي

تلك سذاجة واضحة ، في عناد كعناد الاطفال . وانني لمعجب بهذه الصورة على بساطتها المتناهية ! !

ولكن اذا كان اعجابنا بالاطفال واحساسنا بجمال تعبيرهم ، لايجعلنا نحاول أن نكون أطفالا ! ، ولا أن نعبر عن خواطرنا كما يعبرون . كذلك فليكن نظرنا الي الشعر «الصحراوي» ، فليس هو المثل الاعلى الذى نقتدي نحن به وان يكن هو في ذاته مثلا أعلي للعصر الذىّ وجد فيه .

بلاد العرب والشعر

وبمناسبة الحديث عن الشعر «الصحراوي» ، نريد أن نعرض لفكرة رأيناها كثيرا في كتب الادب المدرسية ، وهي تريد أن تفهمنا أن البيئة العربية أصلح البيئات للشعر . فالجبال ، والصحراء ، والسماء

الصافية . . . كلها من المهيئات المساعدة .

هذه الفكرة تأخذ بجانب واحد من جوانب البحث ، وتدع بقية الجوانب والواقع أن البيئة العربية هذه توحي بالشعر . ولكنه الشعر الذي يضم الى تنافر الاخيلة ـ كما قدمنا ـ كثيرا من السطحية التي لا تمتد الى ما وراء الظواهر .

فهناك طبيعة طائلة ، لا تركيب فيها ولا تنوع . وهي لا تحتوى الا لونا واحدا من ألوان الحياة . فهي اذن ستخلق احساسا ذا لون واحد ، لا يحيط الا بجانب من جوانب الشعور .

ثم أن السماء الصافية هذه ، لا تدع للخيال أن يتعمق . فكل شيء واضح لا يدعو الى التعمق والاناة ، وليس هنالك خفي يجد وراءه الخيال وان دعا هذا الوضوح الى الهاب الاحساس وتهييجه ، وسرعة تنقله . ولكن فرق بين العمق والالتهاب . وأين هي البروق والرعود وغضبات الطبيعة التي تفتح جوانب الاحساس ، وتحيط الشاعر بجو من الغموض الرهيب ، يسبح فيه خياله ، ويتعمق احساسه ، ويشعر بالكون من حوله شعور التفاعل والتجاذب ، ويحس كم هو فيه الحياة وكم تتمثل فيه الحياة ؟ !

ومهما يكن للبيئة العربية من فضل ، فهي لا يمكن أن توازن بالبيئات المزدوجة المركبة ، التي تجمع كثيرا من ألوان الحياة المختلفة المتشابكة .

ولا نزيد أن نضرب الامثال بالشعر الأوربي ، أو الشعر المصري الناشيء . ولكن نريد أن نستدل بالشعر العربي نفسه ، أيام الدولة العباسية ، حينما تفتحت جوانب الاحساس ، بتنوع المناظر ، وتركب الطبيعة ، وارتقاء ألوانها .

علي أن أمورا جديدة فى الدولة العباسية ـ غير البيئة الطبيعية ـ قد ساعدت على هذا التفتح . تلك هى ارتقاء الملكات الفكرية بما ذاع من علوم الثقافة المعربة والمؤلفة ، والاختلاط بالامم المجاورة وترابط الشعب العربى ، ونوع الحكومة ، وعلاقات الافراد وتشابك المصالح . وبالجملة كل شئون الحياة التي انقلبت في هذا العهد وارتقت . فكان لها أثرها فى رقة الشعور وتهذيب الذوق ، وتناسق الخيال ، والتعمق فى الاحساس ، واخراج الصور النفسية المركبة المتشابكة . بقدر ما كانت تهييء النفسية العامة اذ ذاك .

والباحث فى تدرج الشعر من الجاهلية الي العصر العباسي يلمح فيه هذا التدرج المحسوس ، من البساطة الي التركب . ومن السطحية الي التعمق . ومن التنافر الى التآلف . وقبل عمر بن أبي ربيعة مثلا ، لم يكن ينتظر من شاعر عربي أن يقول عن امرأة :

دمية عند راهب ذى اجتهاد   صوروها فى جانب المحراب

دمية . وهذه الدمية عند راهب . وهذا الراهب مجتهد فى رهبنته وصوروها فى جانب المحراب ، ليخلعوا عليها ظلا من الرهبة أقوى

هذا خيال مركب ، واحساس عميق . لم يكن ليكون الا فى العصر العباسي . والا من شاعر منتظم التفكر والتصور ، مهذب الخيال كعمر بن أبي ربيعة .

وكذلك نلاحظ ظاهرة أخري فى أوائل الدولة العباسية ، قد تكون لها ببحثنا علاقة : هذه الظاهرة هى التعبير عن الاشياء الجديدة التى وقع نظرهم عليها من المناظر والمآكل والملابس . التعبير عن هذه الاشياء الجديدة ، تعابير حسية ، تشعرك بالدهشة التى خالجت صاحبها . شأن الطفل يرى التفاحة لاول مرة ، فاذا هو يلمسها ويذوقها ويشمها ، مهتديا بحواسه ، حتي يقنع ويتأكد مما يراه . قبل أن تصير شيئا عاديا ، لا يسترعي اهتمامه بعد أن يدرسها ويألفها . لذلك كثر وصفهم للورد ، والنسرين ، والجلنار ، والخوخ ، والتفاح ، والبرقوق والموز . والقصور والحدائق ، وصفا مبنيا على الحواس لا يتعداها . وكانوا في ذلك معذورين فى المبدأ . حتي إذا انقضى عهد الدهشة والاهتمام بهذه الظواهر تدرج وصفهم الحسى ، وأصبح أقرب الى الشعور النفسى ، منه الى النظرة الحسية . وان يكن ذلك كله بمقدار . لان طبيعة بلاد العرب «الصحراء» . ظلت عاملا معاكسا للعوامل الاخري ، يضعف المؤثرات الجديدة ، التي طرأت على النفس العربية . فأبطأ لذلك التدرج في سبيل العمق والتركب والنظرة النفسية . . .

ولنضرب على ذلك مثالا :

فبلاد العرب مع ازدحامها بالجبال والهضاب ، واعتراضها الرجل العربي في رحلاته وتنقلاته . لم تستلفت انتباهه العميق ، ولم تستطع أن تخرج صورة رائعة ، كما أخرجتها فى بلاد الاندلس على لسان ابن خفاجة . حين يصف الجبل :

وأرعن طماح الذؤابة شامخ — يطاول أعنان السماء بغارب
يصد مهب الريح من كل جانب — ويزحم ليلا شهبها بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه — طوال الليالي ناظر فى العواقب
أصخت اليه وهو أخرس صامت — فحدثني ليل السرى بالعجائب
فقال : ألا كم كنت ملجأ فاتك — وموطن أواه وموئل تائب
وكم مربي من مدلج ومؤوب — وقال بظلي من مطي وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفي — وزاحم من خضر البحار جوانبي
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى — فطارت بهم ريح النوى والنوائب
(فما خفق أيكي غير رجفة أضلع — ولا نوح ورقي غير صرخة نادب [1])
(وما غيض السلوان دمعي وإنما — نزفت دموعي من فراق الحبائب)

***

فسلى بما أبكى وسرى بما شجى — وكان على ليل السرى خير صاحب
وأسمعني من وعظه كل عبرة — يترجمها عنه لسان التجارب
فقلت وقد نكبت عنه مطيتي — سلام فأنا من مقيم وذاهب

(١) سنعقب على هذين البيتين

هذه الصورة العميقة الهادئة ، لم تكن لترتقب فى الشعر العربى ببلاد العرب الأصلية ، ولم نكن لنطمع يوما أن نجد نظيرها إلا فى بلاد كبلاد الاندلس وما يماثلها ، حيث الطبيعة عميقة ، ذات ألوان عدة . ثم ان الاطمئنان هكذا إلى الجبل ، ومناجاته ، والاخذ منه والعطاء ، كل ذلك لايكون الا إذا كان جبلا مأمونا يقوم فى وسط العمران كجبال الاندلس ، فلا خوف فيه . أما الجبال فى صحراء العرب ، فهى مخوفة مقطوعة ، لا يطمئن سالكها إليها ، بل هو يعاديها وينفر منها . فليس طبيعيا أن يناجيها ، أو يستمع لها حديثا ، غير حديث الذعر . الذعر الذى قد لا يمهله أن يتحدث ! . ولو كان غير الشاعر العربي السطحي الاحساس لحدثنا أيضا عن هذا الذعر فى نفسه ، والخيالات والاوهام المتشابكة فى خاطره

ومع اعجابنا بابن خفاجة فى وصفه هذا للجبل ، فانا نأخذ عليه فى بيتين من قصيدته ، تمحله وتعليله وهما :

فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ولا نوح ورقى غير صرخة نادب
وما غيض السلوان دمعي وانما نزفت دموعي من فراق الحبائب

فالجبل هذا الرائع الفخم الوقور على ظهر الفلاة . . . الخ ، لا بد أن يجعله ابن خفاجة يقول : ان خفق أيكه هو رجفة أضلع ، ونوح ورقه صرخة نادب ، وهو ناضب من الماء لأن دموعه نزفت على فراق حبائبه ، وليس السلوان هو الذى غيض ماءه ! . وهو تمحل

وتكلف يفسد هذا النسق . وتلك ظاهرة في ابن خفاجة الاندلسى تذهب بكثير من روعة شعره .

وعلي أي حال فقد عرفنا من هذه القطعة أثر الطبيعة فى الشاعر وموقفه منها . ونود أن نذكر مثلا آخر يبين موقف الشاعر من الطبيعة فى بلاد الاندلس فى قول حمدونة

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا علي ظمأ زلالا ألذ من المدامة والنديم

فهنا صداقة بينها وبين الطبيعة . لانها تحنو عليها وتؤنسها ، أما فى صحراء العرب ، فالشاعر عدو للطبيعة لا يألفها ولا يأمنها . وليس بينه وبينها إلا القطيعة والجفاء .

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها «ترة» من جذبها بالعصائب!

فالطبيعة عدوة تطلب ثأرها . وهذا احد العوامل التي جعلت الشعر العربي بعيد الاتصال بالسكون ، متجافيا عن الطبيعة ، يعادى بعضه بعضا كما قدمنا .

عودة الى تناسق الخيال

والآن نرجع الى الذوق فى الشعر ، والتئام الخيال فى القصيد . كنا نقرأ في قصيدة للاستاذ «محمود عماد» رثاء للفقيد العظيم

سعد زغلول. والأستاذ عماد فى نظرنا صورة للشاعر الصادق الاحساس الملهم الفطرة ، الذى ندعو اليه . وإن كنا سنذكره هنا فى سقطة من سقطات الشاعر . وفى هذه القصيدة يقول وصفا للجماهير العائدة بعد دفن الزعيم : …

هالوا على الامل التراب واقبلوا   يتبلغون بعبرة وقتام
متظلمين على الطريق كأنما   كانوا بمجلس نشوة ومدام
يتذاكرون عهود سعد بينهم   مثل الكهول تعيد ذكر غرام

وهى صورة صادقة عميقة لهذه الجماهير ، يذكرها كل من حضر منا ذلك المشهد الرهيب . وفى «متظلمين على الطريق» وصف دقيق لذلك الالم الذى يترنح صاحبه ، ويتظلم على الطريق . ولكن تلك الروعة الضافية ، قد أفسدها علينا التشبيه . «كأنما كانوا بمجلس نشوة ومدام» لانها مهما دلت على الاعياء والذهول . فهى تشير من طرف خفى بالاستهتار والخفة ، التي تكون فى السكارى ، مهما كانوا ذاهلين محطمين وهو ما لا يليق بتصوير ذلك الهم العارم المخيم على الذين

هالوا على الامل التراب وأقبلوا   يتبلغون بعبرة وقتام

هنا صورتان يبعثهما خيال الشاعر : احداهما واضحة وهى صورة الألم ، والأخرى مستخفية تلمح عن بعد وهى صورة النشوة وهما صورتان غير متناسقتين فى الاحساس الدقيق .

نعم : إن الشاعر لم يقصد من الصورتين إلا إحداهما ، ولكن

ما ذنبنا نحن إذا كانت الصورة الأخرى تتراءى لنا عن بعد فتفسد علينا الصورة المقصودة ؟ ونحن لا نعرف التسامح فى هذه الناحية ولا نميل لتصيد المعاذير .

وشوقى إذ يقول عن أبي الهول :

إلام ركوبك متن الرما ... ل لطي الاصيل وجوب السحر ؟

إنما يرتكب الغلطة نفسها بل أكثر ، لأن أبا الهول هذا الصامت الرابض الجليل . لا يوحى إلا بالوقار الدائم ، والجلال الرائع الوقار الذى يتعارض مع صورة الحركة التي تتمثل للذهن من « طي الاصيل وجوب السحر » فهو لا يطوى ولا يجوب ؛ ولكن الأصيل والسحر هما اللذان يمران به ، وهو صامت ساكن رهيب .

ومثل هذا محتمل ، وهو كما رأيتم يحتاج الى دقة فى بيان زيفه لا يلتفت اليها كل إنسان . ولكن هناك صورة من فساد الذوق ، تلمسها الأيدي ، وتراها العيون ! ذلك أن تجد فى بعض الاحيان شاعراً يرثى فقيدا ، يقيم له الدنيا ويقعدها ، ثم تجده ينتقل بك فجأة من هذا الوسط الزاخر بالحزن والفجيعة ، ليمدح نفسه ، ويفيض فى وصف شعره ومتانته ومقدرته ...! فلا تحس إلا أن هذا القائل دجال مهرج مزيف العاطفة ، لا يحسن حتى التزييف . لان الطبيعة الانسانية الصادقة ، لا تفكر ساعة الحزن الفاجع ، فى أشياء شخصية حقيرة ، لا تكون إلا ساعة النشوة والفرح والسرور . وفى مثل هذا فوق

تزييف العاطفة ، سوء ذوق ، وحقارة نفسية ، لاتفرق بين موضع الغناء ، وموضع العويل. وهو شيء لا نستطيع قبوله شعرا ، بل لا نقبله احساسا من مجرد انسان !

ترى لو أنك في مأتم ، وجلس أحد الحاضرين ، ليمدح نفسه بما شاء ، وليذكر فعاله المدهشة ، وجرأته الخارقة ، أو ليتباهي بملبسه وحسن بزته ! ، بينما الجمع يتحدث في الفجيعة ، وفى النكبة التى حلت بالاسرة . ترى كنت تطيق أن تصبر على هذا المشعوذ حتي يتم حديثه هذا الزرى الزائف ؟ فاذا كنت لاتصبر على مثل هذا الخليط من فرد عادي ، فكيف تصبر على شاعر يقف لرثاء زعيم أمة كمصطفى كامل ، فيقول مثلا

وأنا الذي أرثى الشموس إذا هوت   فتعيد سيرتها من الدوران

أو يصف نكبة دمشق وقد هدمها الفرنسيون بمدافعهم ، وبات الاطفال والنساء فى العراء ثم يقول :

رواة قصائدي . فاعجب لشعر   بكل محلة يرويه خلق !

ألأن هذا شعر ، وذاك كلام ، تطيق أن تسمع هذا ، ولا تطيق أن تسمع ذاك ؟ . . شعرك ؟ وماشعرك ياشوقى بك حتى تذكره وتفتخر به ، والناس فى شغل عن مثل هذه السفاسف ، بالفجيعة الداهمة ؟ !

ولا أريد أن أفيض في أمثلة من هذا النوع فأنتم كثيرا ماتقع أنظاركم على مثل هذا النوع من الرثاء الآن ، من أولئك الذي

خصصوا أنفسهم لرثاء كل راحل كالنادبات المأجورات . وتوديع كل مسافر، واستقبال كل قادم كخدم الفنادق. لانهم فقدوا شخصياتهم التى يعتزون بها.فليس كثيرا بعد ذلك أن يفقدوا الشعور الانسانى والذوق الملهم، والاحساس النبيل

— ٥ —

التعبيرات الشعرية

الاساليب البراقة :

بعد هذا ننتقل الى التعبيرات فى الشعر . ولسنا نريد أن نقول: إن ألفاظا بعينها ، أو تراكيب خاصة، تليق بالشعر وأخري لا تليق فنحن آخر من يفكر فى الصياغة ، وآخر من يعتقد أن للتراكيب قيمة فى تقدير الشعراء ، إلا بمقدار ماتؤدي من إحساس ، وتصور من شعور . لا بل إننا لننقم — الي حد محدود — علي هذه الاساليب البراقة ، التي كانت سبيلا لاخفاء ضعف الشعور، ونضوب الاحساس عن أعين الجماهير ، بل أعين كثير من المشتغلين بالادب واستطاعت بفخامتها الزائفة ، أن ترفع الى مصاف الشعراء العظام دجاجلة مهرجين

. ننقم على هذه الاساليب البراقة . لانها كانت مخبأ للصوص

الشعر ، يحتمون به ، ويأتون بالمعني التافه الحقير ، والاحساس الناقل البسيط . فيحوطونه بهذه الزخارف البراقة . فاذا هو أمام العادى من الناس شعر ، يقدس صاحبه ويعظم . ويجيء النشء الجديد فيرى من تقديس الجمهور لذلك الشاعر المزيف . مايحمله على دراسة ماأنتجه ، دراسة المعجب الغافل عن العيوب . فتفسد فطرته لتشبعها بهذا السخف ، ويسير فى طريق التزييف الشنيع .

التعبير الشعرى و التعبير النثرى

لسنا نريد إذن أن نتحدث عن الالفاظ والتراكيب . ولكن نريد أن نتحدث عن التعبير الشعرى من ناحية تصويره للمعاني والاخيلة . وفي هذه الناحية يتميز التعبير الشعرى عن التعبير النثرى فيحسن أن يكون مجملا لامفصلا . بحيث يريك جانبا من المعني أو الصورة . ثم يدع لذهنك أن يستلهم بقيتها . ويترك لخيالك أن ينطلق فيكمل ذلك الجانب من الصورة . حتى لا يأخذ على خاطرك الطريق ولا يقف به أمام التعبير المسهب المبسوط . وهذه ميزة الشعر على النثر . ولعل هذه الميزة مستمدة من طبيعة الشعر الذى يخاطب العاطفة المبهمة أكثر مما يخاطب الفكر المحدود . العاطفة التي لاتعرف القيود ولا التحديد . ولكنها تتيه فى كل واد ، مع ملاحظة التناسق والالتئام . وهذه العاطفة تقف جامدة عند التعابير المفصلة التي

تبسط كل جزئية . لانها تفقد وظيفتها . وهي ادراك الغائب من الحاضر . والتدرج من الجانب الظاهر ، الي الجوانب المحجبة .

وإني لأذكر على سبيل المثال قول عمر بن أبي ربيعة

ان خير النساء عندي طرا من توانى بوصلها ماهوينا
فاذكري العهد والمواثيق منا يوم آليت لاتطيعين فينا

فان « آليت لاتطيعين فينا » بهذا الغموض الذي أنتجه حذف المفعول ، فيها من الروعة ما فيها . ولكنه أفسد علينا هذه الروعة المبهمة ، فقال بعد ذلك :

قول واش أتاك عنا بصرم أو نصيح يريد أن تقطعينا

وقد كنا في غنى عن ذكر المفعول ، الذي لم يأتنا بشيء جديد من عنده ، فقد فهمنا من « يوم آليت لاتطيعين فينا» أنها لن تطيع «قول واش ولا نصيح» وأحسسنا ما هو أكبر من ذلك ، وهو أنها غير مستعدة أن تستمع مجرد استماع لمن يحدثها فيه !

وقريب من هذا قول «عبد العزيز عتيق» عن طفل :

ملك أنت مثقل باهاب كيف يرضى الملاك ذاك الاهابا؟

و بينما نحن في عالم آخر غير العالم الانساني بأجمعه ، نهوم مع هذا الطفل ، أو هذا الملاك ، في عالم الملائكة الجميل ، بينما نحن كذلك اذا هو يهبط بنا الى الارض فيقول عن هذا الطفل :

لك قلب عن الرذائل عف ماألفناه أن يرى الحق عابا

أهذا فقط ؟. أكل ماهنالك أن قلب هذا الطفل، يعف عن الرذائل ولا يرى الحق عيبا؟ وكان منذ لحظة ملكا ، لا يعرف ماالرذائل حتى يعف عنها ، ولا ما الحق والباطل ، حتى لا يستنكر الحق ؟ فقط لا يستنكره !

لا . لا . ياسيدعبد العزيز ، اننا لن نقبل منك هذا ، وما كان أجدرك أن تتركنا في عالم الطفولة البرىء ، أو عالم الملائكة الوديع !

وفى مثل هذا الخطأ الدقيق ، وقع «على عبد العظيم» اذ يقول عن قلبه :

كان بالامس روضة تتجلى   فى رواء أنعم به من رواء

ثم لا يدعنا نفهم ما في هذا التشبيه من حياة وروعة ، وأن نحس الحياة النابضة فى قلبه، كما تنبض فى الروض ، وأن الآمال التى تزدهر فيه، انما تنبت كالزهرة الندية العبقة .. الخ . لا يدع خيالنا فى نشوته فيحدد لنا المجال بقوله عن هذه الروضة التى شبه بها قلبه :

جمعت بين لابتيها فنونا   من ضروب الأثمار والازياء

من ورود تكاد تقطر حسنا   يفعم القلب بالسنا والسناء

ويذهب يعدد لنا مافى روضته : من بطاح . وغصون . وثمار . وغدير . ونسيم ، فاذا نحن أمام منظر عرفنا آخر مابه ، فلا شوق فيه لمجهول ، بل إذا بنا قد نسينا قلبه ومافيه ، لنذكر هذه الروضة التي يصفها ، ناسين أن قلبه فقط يشبهها !

شعر الغزل والتعبير الشعرى :

وثمت ناحية أخرى فى التعابير الشعرية ، نضطر للحديث عنها ولا سيما فى شعر الغزل ، إذ أن جماعة من المتأدبين ، ملكيون أكثر من الملك ! يعني أنهم ينقدون فى الشاعر استخدام تعبير خشن وهو يتغزل ، ذلك أن الغزل فى نظرهم ، لا بد فيه من التأنث والرخاوة والرقة ، التي يكاد صاحبها يتلاشى من اللطافة !

ولا ندرى مم نشأ هذا الاعتقاد ؟ ـ والحب عاطفة انسانية ، تكون هادئة وثائرة ، وراضية وحانقة ، وهى في كل حالة تحتاج إلى تعبير مناسب ؟ وأغلب الظن أن ذلك نشأ فى أواخر أيام الدولة العباسية يوم كثر التطري والمجون ، وفقدت العواطف قوتها الروحانية فصارت مظاهر للمجاملة ، ولمجالس الانس واللهو ، التى لا بد فيها من التظرف والتخنث في كثير من الظروف !

لا ياحضرات ! إن الحب كـكل عاطفة قد يثور ، فيجرف ويحطم ، فى قسوة وعنف ، فلا يكون ذلك عيبا فيه . وإنا لنعجب جد الاعجاب بقول «عبد العزيز عتيق» :

علمتنا مواقف الصد منكم ... كيف نقسو عليكم ثم نقسو!
فلنا عن مجانة الامس شغل ... ولنا فى تتابع الهجر درس!
كم صبرنا لهجركم كم صبرنا ... فإذا القلب جامد لا يحس!

وإذا اليأس أتلف القلب حتي لم يعد فيه للتصبر قوس
وكأى من ليلة قد قضاها كلما خف يأسه عاد يأس

. . .

أيها المرسل الدموع غزارا لاتهجنى فلم يعد فيك انس!
أئذا ماقسوت هجرا بهجر تتلوى كأنما بك مس؟!
لاتحاول أن تعطف القلب يكفى أن قلبي لحبك اليوم رمس!
إن دمعا تريقه اليوم ختلا لهو دمع في شرعة الحب بخس

نعجب بهذه الأبيات ، على رغم مافيها من قساوة فى التعبير لأننا ندرك العاطفة التي انبعثت عنها، وهي عاطفة طبيعية، توجد فى كثير من الأحيان .

وكذلك نعجب بقول «على عبد العظيم» ، وهو أقل من هذا قسوة :

وضح التصنع وانجلت أوهامي فدعي رياءك واذهبي بسلام
وذرى الخداع فقد مضت أيامه وأفقت من نومى ومن أحلامى
وعلمت أنك فى لبابك غيرما خلعت عليك جلالها أوهامى!
فاليك عنى واخدعي غيري كما خادعتني فى سالف الأيام!

. . .

واضيعة الأشعار فيك نظمتها فكأنها نظمت على أصنام!
لاتذكرى الاخلاص أنت قبرته في مهده بالرجس والآثام

أين الوفاء؟ وأين منك عهوده؟ ضيعتها ! وحنثت في الاقسام!
ذهب الوفاء وأهدرت حرماته فعلى الوفاء تحيتي وسلامي

لا بل . إن هناك قسوة أشد من هذه وتلك ، تدخل فيها شعور الشاعر بكرامته ، فثار لهذه الكرامة ، في الوقت الذي كانت عاطفته أيضا في ثورتها :

اذهب وخلني هنا متألما لاتلقني سمحا ولا متجهما
اذهب وخلفني تذوب حشاشتي ويبض قلبي من قرارته دما
اذهب فلن أشكو إليك عواطفي يوما ولن ألقاك إلا أبكما !
أرخصت حبي اذ بثثك بعضه فليبق مكبوحا إذن متكتما !
ان كان بث الحب عندك مأثما فكذاك عندي سوف يغدو مأثما !

في هذا قسوة ولا ريب ، ولكنها قسوة الغاضب لكرامته وحبه ، وهي أدل علي التعلق بالحب والتفاني فيه ، بخلاف مايفهم أسيادنا الحذرون المتاطفون !!!

ان الشاعر انسان ، وانسان حساس ، وهو في عواطفه غير خاضع لهذا النوع من التقييد ، الذي يريدونه عليه ، وذلك التكلف الذي تحتمه مجالس الانس ، وحفلات السمر .

وان للشاعر شخصيته ، التي قد تتبدى في مثل هذا الغضب لعاطفته ، أكثر ماتتبدي

— ٦ —

شخصية الشاعر

وهذا الحديث يجرنا للتحدث عن شخصية الشاعر ، فهو كما عرفناه شخصية ممتازة حساسة، شديدة الحساسية ، عميقة الشعور . والمفروض بعد ذلك أن للشاعر مكانه الممتاز، بين الداعين الي المثل الأعلى في أية صورة من صور الدعوة . وهو اذن سيؤثر في الوسط الانساني المحيط به ، ويقوم بمهمة التعارف بين الجماهير والحياة الخفية الاسرار ، بما يطلعهم عليه من صور فنية لهذه الحياة .

والمعروف في الدراسات النفسية ، أن الانسان لا يستطيع التأثير في غيره ، ما لم يكن ذا شخصية واضحة يعتز بها ، ولا يفرط فيها . شخصية واضحة تستطيع الاقناع الصامت ، والاغراء بالمتابعة . وما لم يكن هو شاعرا بشخصيته هذه ، عن طريق مباشر أو غير مباشر حتى يعرف لها قيمتها ، ويعتمد عليها في مهمته التي يؤديها

والذي نقصده بشخصية الشاعر ، لمحنا إلى جانب منه في أول الحديث ، حينما أردنا أن يصور لنا الشاعر الصور والاحاسيس ، كما يراها هو ويشعر بها ، لا كما تراها سائر العيون ، وأن يتعمق في بواطنها فيكشف لنا المخبوء منها والدفين ، ثم يطفو بهذا الذي عثر عليه ، فاذا هو في متناول الافراد العاديين ، وعندئذ تكون للشاعر

قيمته بين هؤلاء الذين خصته الحياة ليخاطبهم بلسانها ، ويكشف لهم عن أسرارها وخناياها ؛ وحبته من المشاعر والمدارك ما يكفل له أداء واجبه ، على الوجه المطلوب .

نفهم من هذا أن الاحساسات النفسية للشاعر ، هي مجاله فى التعبير ، لأن هذا الاحساس ، هو الذي يتميز فى كل شاعر عنه فى الآخر ، أما الألفاظ والمعاني، فهي هباء مالم تتصل بذلك الاحساس وما لم تكن منبعثة عن شعور . وأنا حين أنظر فى الشعر ، لا أسأل: هل حسنت معانيه ؟ هل راقت أخيلته ؟ هل رقت ألفاظه ؟..لا أسأل شيئا من ذلك ! ، ولكن أسأل : هل كان هـذا الشعر صادرا عن احساس نفسى ، وتأثر وجداني ؟ هل هذه المعانى والاخيلة منتزعة من تلك النفس أصيلة فيها ، أم هى لقط من هنا ومن هناك، لا تتصل بنفس الشاعر ، ولا تمت الى شعوره بسبب؟. ثم هل هذا الاحساس سليم عميق دقيق ، لا يكتفى بظواهر الاشياء بل يدرك خفايا الصلات أم هو احساس سقيم ، أو سطحى خاطف ؟ . وبعد ذلك كله أسأل هل استطاع ذلك الاحساس أن يختار المعانى المناسبة له؟، وهل صورت هذه المعاني فى ثوب لائق بها من الالفاظ...، وذلك فى نظري هو الترتيب الصحيح لما نتطلبه فى الشعر بحسب الأهمية !

أن الشاعر إنسان ممتاز، فهو صورة من صور الحياة السامية، فاذا هو استطاع أن يصور لنا نفسه وعواطفه، يكون قد أخرج لنا صورة من الحياة

النابضة الحساسة، صورة مميزة عن بقية الصور ، تزين بها متحف الحياة الجامع، صورة واحدة وكفى ؛ لأنه لايستطيع أن يخرج لنا جميع الصور ، ولكنه يتعاون مع اخوانه الفنانين جميعا ، فى تزيين هذا المتحف ، لأنه كلا منهم سيصور لنا نفسه، فاذا نحن فى النهاية حاصلون على صور شتى ، متباينة المظاهر ، متحدة الاصول واذا بنا قد كسبنا بهؤلاء الشعراء كسبا جديدا ، لأنهم أرونا من الحياة الداخلية ما لم نكن نراه ، وأمدونا بفلسفات مختلفة فى الحياة

فأما اذا كان كل منهم سيتناسى شخصيته ، ولا يعني بتصوير شعوره ، ازاء المشاهد والحوادث . فالذي سنحصل عليه منهم ، صور متشابهة ، ونسخ مكررة معادة . كما يحدث لو أن عدة مصورين « بالفتوغرافيا» أخذوا صورا لمنظر أومناظر . كان يغنينا عنها نسخة واحدة . وكذلك كان يغنينا فى هذه المهمة شاعر واحد من هذه الكثرة الصاخبة التي تقول لنا كل يوم جديدا من الشعر ؛ لاجديد فيه ! . وفى هذه الحالة تكون الحياة عابثة فى اخراج هؤلاء جميعا ليتغنوا بقيثارة واحدة ، ونغمة لاتنوع فيها على مر الدهور . ويالضيعة الشعر والشعراء . ان كانت كل مهمتهم فى الحياة، أن يخرجوا لنا صورة واحدة، ونسخا مكررة، بعد هذا المجهود الطويل !

وقد يقال : ان هذه دعوة الي الشعر الشخصي ـ الغنائي ـ الذى هو أول مراتب الشعر ، والذي لم يعد يكفى وحده الآن للتعبير عن

الحياة ، دون الشعر القصصى ، والشعر التمثيلي ، وهما المقدمان فى هذا العصر ، وان يكن الشعر العربي لم يأخذ منهما إلا بنصيب قليل

ومثل هذا القول خطأ فى فهم ما نريده من وضوح شخصية الشاعر ، وتميز احساسه فيما يخرجه لنا من صور الحياة . ذلك أنه ما من شعر قصصى أو تمثيلى . إلا وعليه مسحة من نفس قائله الشاعر وكيفية نظره الى الحياة ، وفهمه لطبيعة الحوادث والاشخاص الذين يحللهم أو يقص عنهم . وإلا لأصبحت جميع الروايات التمثيلية والقصصية سواء فى تحليل الحوادث والشخصيات. ولم يقل أحد بذلك ، ولا يمكن أن يقول . وها هو ذا الفن القصصى ، والفن الروائي يختلفان بالنسبة للأمم ، فضلا عن الاشخاص . فالفن الانجليزى غير الفن الفرنسى وكلاهما غير الفن الروسى الذى أخذ يظهر فى جو مصر ، ذا شخصية قوية . فالشخصية واضحة فى فن كل أمة . ثم ان فناني كل أمة يختلفون فيما بينهم باختلاف شخصياتهم .

الشاعر والعصر

ولعل جماعة آخرين يقولون : ان الشاعر يجب أن يكون صورة لعصره ، لا لشخصه . وهو لا يستطيع أن يكون كذلك ، حينما يعمد إلى نفسه يستوحيها ، ويصور ما يخالجه من احساسات فردية ونزوات شخصية ، لا علاقة لها بالآخرين ، ولا تعبر عن الوسط

ولا تترجم عن العصر الذى عاش فيه الشاعر .

و فضلا على أن الشاعر غير مقيد إلا بأن يعبر عن نفسه وخواطره ، دون أن يلاحظ أنه يجب أن يكون صورة لعصره أو لا يكون ! . فضلا على هذا فالذين يقولون ذلك، يقدرون أن الانسان قطعة منفصلة عن الحياة . فهو اما أن يعبر عن نفسه ، أو يعبر عما يحيط به . ولا صلة بين الناحيتين ! وهم يفترضون أن الانسان لا يتأثر بالوسط الذي يحوطه ، إلا حينما يعبر عن هذا الوسط . فأما حين يعبر عما يحس ويشعر، فهو بعيد عن تأثير ذلك الوسط !

وفى هذا الفرض خطأ واضح . اذا طبق على مجرد انسان، لا بل مجرد حي من الأحياء . بله الشاعر الحساس ، السريع التأثر والتأثير فى كل مايحيط به من البيئات . هذه البيئات التى تكيف مشاعر الفرد العادي الى حد كبير ، وتوجهه الي طرائق مختلفة باختلافها سواء شعر بذلك أم لم يشعر . لان غرائزه تتأثر كما يتأثر تفكيره وكل عنصر فيه . فهو فى تعبيره متأثر بالعصر والبيئة ، وبكل مايحيط به، سواء عبر عن هذا ، أو عبر عن احساسه . لان احساسه ذاته وليد هذه العوامل إلي مدى كبير

فالشاعر يستطيع أن يعطي صورة لعصره في الوقت الذى يتحدث فيه عن نفسه وخواطره وخلجاته . وهى صورة غير مباشرة نعم ، ولكن الباحث الفني الدقيق ، يستطيع أن يستخلص هذه

الصورة بعد عملية التحليل .

وقد لاحظتم فى كل النماذج التي اخترناها لشعرائنا الناشئين لجة من البؤس : الصامت أو الصارخ . ومن الشكوي والتخبط والحيرة . وبعضكم يعجب لهذه الظاهرة المتشائمة الشاكية المضطربة ولكن ذلك في نظرنا دليل صدق هؤلاء الشعراء وسلامة فطرتهم . فهم صورة من النفسية المصرية العامة فى هذه الفترة . فترة الانتقال والحيرة والاصطدام، فى جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية الاصطدام الذى تخيب فيه الآمال ، ثم تبدأ في الانتعاش. ثم تصطدم من جديد !

مدوا بأبصاركم فى كل نواحى الحياة المصرية. ألا ترون تصادم بين القوي الناشئة ، والظروف المحيطة بها، التي تناوئها مناوأة قاسية؟ ألا تسمعون الصيحات داوية بالألم والاستنكار من كل جانب ؟ فعلام اذن لا يكون كذلك الشعر؟ وهو أدق معبر عن الاحساس الدفين علام يغرد الشعراء بأناشيد الفرح والمراح ؟ وكيف تدب روح النشاط الطروب فى الفنون ؟

أأنتصرنا فى موقعة حربية على جيوش الاعداء ؟ فيغنى الجيش والشعب أناشيد الظفر والسرور ؟. أفتحنا في العالم فتحا جديدا ؟ لا بل، أحصلنا علي استقلالنا المغصوب ؟ أنتنفس بحرية فى أي جو من الاجواء؟. ألنا عظمة صناعية علي الاقل نتغنى بآثارها ؟. ألنا عظمة علمية

نتمدح بمزاياها ؟ . . . ودع ذلك كله . أفلنا فقط سياسة تعليمية رشيدة ! وهذا أبسط الشئون ؟ !

كل ما فى البلد جدير بالشكوى ، وكل ما فيها يلذع بالألم . وان التألم والشكاة ، لدليل عدم الرضا ، ودليل السعى لتغيير هذه الحال . وتلك عدتنا للمستقبل ، وأملنا الوحيد للاصلاح المنشود .

ولو أن هذه الشكوى الدائبة صمتت اليوم أو انقلبت إلى لهو ومراح ، لكان ذلك دليلا على الموت والاضمحلال . لأن الأمة التي لا تشكو من مثل هذه الحالة ، أمة لا تحس ، فهى أمة فى طريقها الى الفناء الرهيب : وان الذين يهزلون اليوم أو يغنون ويمرحون . هم أحد فريقين : فريق أنانى مجرم لا يعنى بهذه الامة ، ولا يحفل بآلامها لأنه فى ظل نعمة، ولا علاقة له بالآخرين . وفريق ميت الوجدان ، ذليل الكرامة ، لا تنبض به حياة إلا كالدواب والجراثيم!

ولهذا فان شعراءنا الناشئين الشاكين المتألمين ، صدقوا فى احساسهم، وسيتركون وراءهم صورة واضحة ، لهذه الفترة الحائرة تطالعها الاجيال . في حين كانوا يتحدثون عن شعورهم الخالص وعواطفهم الكامنة فى الاعماق

وأقرب ما يحضرني في هذه الناحية ، قطعة للشاعر الناشىء عبد العزيز عتيق ، قد لا تكون جيدة السبك ، ولا رائعة الاسلوب ولا عميقة التفكير، ولكنها قطعة صارخة تمثل انا نظرته للحياة المصرية

الراهنة وتحفزه للعمل علي تبديلها وهي :

لمن أشتكي مصرا ؟ فاني بحرها صليت على كره فاله من مصر !
بلاد يبيت الاهل فيها علي الطوى ويحيا بها «الغربي» ينعم في الخير
بلاد يعيش الاهل فيها كأنما هم غرباء الدار عن ذلك القطر !
ويفرخ فيها الضيم . والضيم آفة فتبصره في كل ناحية يسري
ويعجزك التنقيب عن وجه نابه فلا تلتقي الا بكل فتى غر
وبينا ترى الغربي قد راض فكره جماح الدياجي واعتلى ذروة الفخر
ترانا نياما لانهم بحادث سوي مسجد نسعى له أو الي الدير !
وأقصى اختراع يشغل الفكر أمره أناشيد لاتنفك تقرأ في الذكر !
وياليته فعل بنية خاشع ولكنه فعل يسوق الي الكفر !

* * *

فياقوم هبوا وانفضوا الجهل عنكمو ونادوا بتحرير العقول من الاسر
من العار أن نحيا ونذهب مثلما بدأنا ولم نترك سوى العار والخسر

الشعراء المزيفون وشعراء العاطفة

وبعد فلدينا شعراء تعدهم الجماهير في مقدمة الشعراء ، تبحث في كل ما أخرجوه ، فلا تري فيه شخصية مميزة لواحد منهم ، تلمح فيها طابعه الخاص ، ونظرته للحياة ، واحساسه بما يحيط به من مظاهر وما يخالجه من خواطر . يعبر الواحد منهم عن كل النواحي ، في حين

لم يعبر في الواقع عن أية ناحية ! ، لانه تعبير كـكل تعبير ، يشترك فيه الجميع. والسبب في ذلك ، أنهم لم يصدروا عن تأثر ، حتى يتميز احساس عن احساس. ان المعاني والالفاظ مشتركة بين الجميع ، أما الاحساس فهو الذي يختلف في النفوس

ترى لهؤلاء الشعراء في كل يوم قصيدة رثاء لمن يعرفون ومن لا يعرفون ، ومديحا لمن خبروا ومن لم يخبروا ، وقصائد في كل حفلة تقام للوداع أو للتكريم ، وزلفى حقيرة للرؤساء وغير الرؤساء ، تعد وصمة في جبين الانسانية المنكوبة بتلك الجراثيم .

هؤلاء جماعة فقدوا شخصيتهم ، فقدانا تاما ، وجهلوا مهمة الشاعر في الحياة ، فاندفعوا يرثون ويمدحون ، ويهنئون ويكرمون ويستقبلون ويودعون ، وهم في كل ذلك لا يحسون احساسا دقيقا فيصورونه ، حتي يأخذ هذا الاحساس شكلا متميزا . وانما هو ارضاء لـكل من يريد ، وهو عبث دونه عبث المتسولين وخدمة الفنادق الذين يودعون كل راحل ويستقبلون كل قادم ، بابتسامة واحدة لا تتغير . وهؤلاء صنعوا ذلك بأنفسهم لأنهم لا يحسون بأنفسهم ولأنهم يفترضون لها كرامة ، ولأنهم يريدون أن يشتهروا ، فلا بد لهم في كل مناسبة من قصيدة ، وفي كل حفلة من يتيمة !

واذا كان هؤلاء مجرمين في حق الشعر والشعراء ، بل في حق الانسانية ، فأشد اجراما عنهم أولئك الذين يصفقون لهم ويهتفون

وأوائك الذين يعتبرون الاكثار في كل مناسبة قدرة خالقة، ولا يفهمون من الشاعر إلا ذلك المهرج الألعبان ، الذي يستقبل القادمين ويودع الراحلين، ويصف كل زلزال في بلادواق الواق ، وكل نكبة في المريخ! والذي يريد أن يتغزل فيتخيل محبوبة هاجرة أو راضية، ويروح يحدثها عن الدموع المسفوحة، والفلذات الدامية، ولا دموع هنالك ولا نشيج!

واذا كان لنا أن نتسامح ولو قليلا، مع جماعة النقل في التصوير والسطحية في الشعور ، فانا لا نستطيع بحال أن نتسامح مع هذه الطائفة الاخيرة ، التي تتحدث لا عن شعور ، وتنشد لا عن عاطفة وتعد نفسها في الشعراء ، وهي محرومة من صفات الآدميين !

وان بعض هؤلاء ، ليحاول أن يعتذر عن هذا السقوط، فيقول لك : أليس الشعر موهبة تستخدم كبقية المواهب فيما ينفع صاحبها ؟ «ينفع» بهذا التعبير، فهو سلعة تجارية في نظرهم ، في الوقت الذي يفهم شبان ناشئون، أن الشعر أسمى من ذلك وأعز، وان الشاعر لا يكون حتى يسمو على هذا العرض الزائل الزهيد : يقول «عبد العزيز عتيق» عن شعره

قلت أواه ليس ذلك شعرا ‌ ‌ ‌ انه القلب ذائبا من حنان

ويقول آسفا حزينا على أن الناس لا يقدرون الشعراء ، ولا يسمحون لهم بالتغني والتغريد

ياضيعة الشعراء قد ‌ ‌ ‌ هانوا فليس لهم محب!
أنغامهم خفتت وكا ‌ ‌ ‌ نت ما أرق وما أحب!

ويقول على «عبد العظيم» كشاعر يفهم واجبه :

دعونى أذع فى الناس ماقد بداليا   فلست بتقييد القرائح راضيا
سأطلق نفسى من قيود ثقيلة   تحرم ادراك الحياة كما هيا
وأسمو فاستوحى الحقيقة لبها   وأنظمه شعرا يهز الرواسيا
وأسكب نفسى فى ثنايا سطوره   وأجعل حبات القلوب قوافيا
وأزجيه شعرا يملأ النفس روعة   ويصلح أخلاقا ويمحو مساويا
يرتله الشادون لحنا منسقا   ويدرس فيه الباحثون حياتيا
فما هو ألفاظا عنيت بجمعها   وان هؤلاء إلا شعبة من فؤاديا

نعم فما الشعر ألفاظا ، وان هو الا احساس ملهم ، وفلذات من القلوب أما الالفاظ والمعنى قشور غير احساس رقيق ملهم

ويقول محمد الداخلى الهوارى فى قطعة دامية :

أتعجب بي وتجهل أن شعرى   صدي لمواجع القلب الحزين؟
وأنك حين تسمعه غناء   أحس به جحيما يحتوينى
وتطرب منه لم تعلم بأني   خلال نشيده أنعى شئونى
كمحتضر تودعه الأغانى   ويسكر سمعه نغم الحنين

فالشعر هنا قطعة من النفس يقال لحاجة تنز فيها ، لا للعبث أو الافتخار !

واني لمستبشر بالشعر الناشىء مادام سائر فى هذا الطريق